

التفسير المأثور

عَلَى مَنَهْجِ التَّنْزِيلِ وَالصَّحِيحِ الْمُسْنُونِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى مَنَاجِ الْأَصْلِيَّةِ الْعَظِيمَةِ
- الْوَحْيَيْنِ : الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ -
عَلَى فَرْقِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

تَفْسِيرٌ مَنَهْجِيٌّ فَقْهِيٌّ شَامِلٌ مُعَاَصِرٌ

الجزء الثاني

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المأمون
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16 / 7 / 2006 م
دمشق - سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش

3



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (200).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد في فضل هذه السورة الكثير ، كما ذكرناه في أول سورة البقرة ، فالبقرة وآل عمران هما الزهراوان ، وقد اشتركتا بالفضل الكبير .

قيل : سميتا بالزهراوين لما يزهر لصاحبهما من أنوارهما ، أو لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة . أو لاشتغالهما على اسم الله الأعظم .

ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [اقرأوا القرآن ، فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة . اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما] الحديث⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث النواس بن سمعان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُمْ سورة البقرة وآل عمران]⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (804) ، وأحمد (249/5-254) ، وابن حبان (116) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (805) ، والترمذي (2883) ، ورواه أحمد (183/4) وغيرهم .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أسماء بنت يزيد ، أن النبي ﷺ قال : [اسمُ الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿وَاللَّهُمَّ اكْبِرْ لِلَّهِ وَاجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. وفاتحة آل عمران : ﴿الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ [آل عمران: 2-1]]⁽¹⁾.

موضوع السورة

اصطفاء آل عمران على العالمين
والثناء على المجاهدين الصابرين على منهاج المرسلين .

- منهاج السورة -

- 1 - ذكر اسم الله الأعظم بعد افتتاح السورة .
- 2 - تعظيم القرآن الذي هو الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال .
- 3 - العزيز العليم الخبير المصور في الأرحام هو الإله الحق المستحق للعبادة .
- 4 - القرآن محكم ومتشابه ، ومنهاج المؤمنين ردّ المتشابه إلى المحكم لفهمه ، وليس في القرآن اختلاف ولا تعارض ، وإنما العلم بالوحين يضيء السبيل .
- 5 - قلوب العباد بيد الله ، والمؤمنون يسألون الله الهداية والثبات على الحق .
- 6 - أموال الكفار وقود أهلها في جهنم ، وفي أخذ الله فرعون وجنوده عبرة لكل معتبر .
- 7 - اليهود لم يعتبروا بوقعة بدر ، وستدور الدوائر عليهم حيث لا مناص ولا مفرّ .
- 8 - الشهوات من النساء والأولاد والذهب والفضة والخيول والأنعام والحرث فتنة الحياة الدنيا ، فما ابتغي به وجه الله من ذلك لقي صاحبه حسن المآب .
- 9 - الثناء على المؤمنين الصابرين القانتين المتصدقين والمستغفرين بالأسحار .
- 10 - شهادة الله لنفسه بالوحدانية ، وكذلك الملائكة وأهل العلم شهدوا وأقرّوا له بالألوهية ، فأفردوه بالعبادة والتعظيم .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في جامع الدعوات . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2764) . ورواه ابن ماجة في السنن (3855) ، وإسناده حسن .

- 11 - إن الدين عند الله الإسلام ، والتصديق بمحمد ومتابعته فرض على الأنام ، وإنما أعرض اليهود والنصارى عما في كتابيهما من الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .
- 12 - تحويل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي محمد ﷺ .
- 13 - النهي عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والله يعلم السرائر والعلائن في جميع العالمين .
- 14 - ذكر مشهد المحشر وتوزيع الصحف ، وتحذير الله عباده هول الموقف .
- 15 - تعليق الله محبته من عباده ، على متابعة نبيه محمد ﷺ على شريعته .
- 16 - مريم البتول ، تندرها أمها لخدمة بيت المقدس .
- 17 - حمل زوجة زكريا وولادتها يحيى وهي عجوز عاقر ، وبشارة الملائكة مريم بـعيسى ، الذي سيخلق الطير ويحيي الميت ويشفي الأبرص والأعمى بإذن الله .
- 18 - مسؤولية اليهود عن وشايتهم لصلب عيسى قائمة ، ولو المصلوب شبيهه .
- 19 - أنام الله المسيح ورفع له مكرماً ، وأنقذه من أيدي اليهود القذرة .
- 20 - ذلك هو عيسى قول الحق ، وحاشا لله أن يتخذ ولداً سبحانه ، وإن كان تأليه المسيح لدى الضالين لأنه بلا أب ، فآدم بلا أم ولا أب .
- 21 - امتناع وفد نجران عن المباهلة ، لتأكدهم من نبوة محمد ﷺ .
- 22 - تكذيب دعوى اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينهم ، بل كان حنيفاً على ملة الإسلام ، وفضح الله يهود في كتمانهم صفة محمد ﷺ في التوراة ووجوب الإيمان به .
- 23 - تكذيب الله اليهود في دعواهم حلّ أكل أموال العرب لديهم .
- 24 - الرسل : لم يأمرؤا بعبادة أحد إلا الله تعالى وحده لا شريك له .
- 25 - النهي عن سؤال أهل الكتاب عن شيء ، فليس عندهم هداية إلى الحق وقد ضلوا عنه ، والله لا يقبل من أحد ديناً إلا الإسلام ، ولا يغفر الشرك والكفر إلا من تدارك نفسه بالتوبة منهما قبل الموت .
- 26 - إثبات ميثاق الله على النبيين التبشير بمحمد والتصديق به .

- 27 - الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله وحده ، ومن دخل الحرم كان آمناً ، ووجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً .
- 28 - تعنيف الله أهل الكتاب لصدّهم عن سبيل الله ، ونهيهم عن طاعتهم .
- 29 - حق التقوى : طاعته تعالى وذكره وشكره وتعظيم حرّماته وشعائره دينه .
- 30 - امتنان الله على العرب بتأليف قلوبهم على الإسلام ، بعد أن كانوا أعداء تمزقهم الحروب والفتن عبر الأيام .
- 31 - وصية الله هذه الأمة بعدم الفرقة واجتناب الاختلاف ، وإقامة منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- 32 - من اليهود من آمن برسول الله واستقاموا فاستحقوا من الله الثناء .
- 33 - الكفر بالله والرسول واليوم الآخر يمنع الكفار من الاستفادة مما بذلوه من الأموال في أعمال الخير والبر .
- 34 - نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين أو الكافرين ، والله يحفظ المؤمنين من كيد المنافقين .
- 35 - القلة المؤمنة الصابرة ، تغلب الكثرة الكافرة الفاجرة .
- 36 - بدء الخروج إلى معركة أحد ، واستعداد الملائكة وآمال النصر ، وصلة ذلك اليوم بيوم بدر .
- 37 - تحذير المؤمنين من الربا وأمرهم بالطاعة .
- 38 - ذكر ما أصابهم يوم أحد وتعزيتهم ، وحثهم على طلب الجنة بذكر شجاعة المجاهدين مع أنبيائهم .
- 39 - تحذيرهم من إطاعة الكفار ، وتأنيبهم لفرارهم عن نبيهم .
- 40 - فضح المنافقين والثناء على الشهداء .
- 41 - رعب المشركين وهربهم ، لعلمهم بلحوق المؤمنين بهم .
- 42 - إخلاف المشركين موعدهم ببدر ، وحضور المؤمنين ورجوعهم بنعمة الله .
- 43 - البخل بركة المال شر مستطير ، ويمثل كنزه ثعباناً يأخذ بشدقي صاحبه يوم القيامة .

- 44 - تناول اليهود وافترأؤهم بقولهم: الله فقير وهم أغنياء ، وسيلقون وبال ذلك عليهم .
- 45 - الموت حق على كل نفس ، وإنما السعيد من زحزح عن النار وأدخل الجنة ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .
- 46 - تهديد أهل الكتاب لكتمانهم نبوته ﷺ ، وتحذير علماء هذه الأمة من كتم العلم .
- 47 - المخلوقات في السماء والأرض دالة لأهل العقول على الخلاق العظيم ، والتفكر في خلق السماوات والأرض يورث الإيمان واليقين .
- 48 - الإيذاء في الله ، والهجرة إليه ، جزاؤه الجنة . والمؤمن لا يغتر بما عليه أهل الكفر من الترف فالعاقبة للمتقين ولهم تمام المنة .
- 49 - من آمن من أهل الكتاب بنبيّه ثم أدرك محمداً ﷺ وآمن به فله أجران .
- 50 - دعوة المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والرباط ولزوم منهاج التقوى ليحفظوا بالنصر والفلاح .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

4-1. قوله تعالى: ﴿الَمْ ۚ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنَ قَبْلِ هَذِهِ لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۚ﴾ .

في هذه الآيات: توحيد الله العظيم ، وانتصار لقرآنه الكريم ، المصدق للتوراة والإنجيل ، وفيه كالكتب التي قبله هدى للعالمين ، وهو الفرقان بين الحق والباطل ، والناسخ لكل الشرائع قبله ، والكافرون لهم عذاب أليم .

أما ﴿الَمْ﴾ فهي تفيد الإعجاز ، كما مضى في أول سورة البقرة .

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ - قد بسطنا معناه أثناء تفسير آية الكرسي .

وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ . خطاب للرسول ﷺ ، بأن القرآن منزل من عند الله كالكتب التي قبله . قال ابن جرير: (بالحق: يعني بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم) .

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ . قال مجاهد: (لما قبله من كتاب أو رسول) .

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنَ قَبْلِ هَذِهِ لِّلنَّاسِ﴾ . قال قتادة: (هما كتابان أنزلهما الله، فيهما بيان من الله ، وعصمة لمن أخذ به وصدق به ، وعمل بما فيه) .

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فيه تأويلان:

1 - قال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ ، أي: الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره) واختاره ابن جرير .

2- قال قتادة: (هو القرآن ، أنزله على محمد ، وفرّق به بين الحق والباطل ، فأحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدّد فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبيّن فيه بيانه ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته).

قلت: ولا شك أن الفرقان من أسماء القرآن الكريم ، وبه يفرق الله بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير : (أي: إن الله منتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ، ومعرفته بما جاء منه فيها).

وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق أن صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران ، وكانوا نصارى وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في ستين ركباً ، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً ، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم : العاقب أمير القوم وذو آرائهم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمألهم وصاحب مُجْتَمَعِهِمْ واسمه الأئهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم ، فدخلوا على رسول الله ﷺ إثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الجبرأت جبّ وأزدية. فقال أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة. وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد النبي ﷺ إلى المشرق. فقال النبي ﷺ: دَعُوهُمْ. ثم أقاموا بها أياماً يُنَاطِرُونَ رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه ابن الله ، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ، ورسول الله ﷺ يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصِرُونَ ، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى ثيف وثمانين آية ، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة⁽¹⁾.

5 - 6. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

في هذه الآيات: يخبر تعالى عباده أنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما في السماوات

(1) انظر سيرة ابن هشام (151/2-155) عن ابن إسحاق مطوّلاً ، عن محمد بن جعفر بن الزبير. وذكره الواحدي في أسباب النزول (190) ، وانظر تفسير القرطبي ، (سورة آل عمران آية (2)).

وما في الأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

قال قتادة: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ : قادر والله ربنا أن يصوّر عباده في الأرحام كيف يشاء ، من ذكر أو أنثى ، أو أسود أو أحمر ، تام خلقه وغير تام).

وفي الآية تعريض بل تصريح أن عيسى بن مريم عبد مخلوق كغيره من سائر البشر .

قال الربيع: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، أي: أنه صوّر عيسى في الرحم كيف شاء). والمقصود: كيف يكون إلهاً كما زعمت النصارى وقد تقلّب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلى حال .

وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . تأكيد وتنزيه من الله تعالى ذكره نفسه أن يكون له في ربوبيته ندّ أو مثل ، أو أن تجوز الألوهة لغيره ، وتكذيب منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا. قال الربيع: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، يقول: عزيز في نعمته ، حكيم في أمره).

9 - 7 . قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلَيْمَكَادَ ﴿٩﴾ .

في هذه الآيات: يبين سبحانه لعباده أن في القرآن آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، أي: أصله وثوابته ، فإليها المرجع عند التحاكم ، وآيات أخرى تحتمل التأويل ، فيها اشتباه على كثير من الناس أو بعضهم ، وإنما منهج المؤمنين أهل العلم برد المتشابه إلى المحكم لفهمه استناداً إلى ثوابت الدين ومقاصده وأركانه وقواعده ، وسؤال الله الثبات على الحق والهداية والبعد عن الزيغ والفتن ، والنجاة يوم يجمع الله عباده ويفصل بينهم ، إنه الحق ووعدته الحق وهو أرحم الراحمين .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُليكة ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : [تلا رسول الله ﷺ ، هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾] قالت : قال رسول الله ﷺ : فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سَمَى الله فاحذروهم⁽¹⁾ .

وفي لفظ لأحمد : (إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله ، فاحذروهم)⁽²⁾ . وفي لفظ عند الترمذي : (فإذا رأيْتهم فاعْرِفْهم) .

وقد ورد في تفسير المحكم والمتشابه أقوال متقاربة ، منها :

1 - قال ابن عباس : (المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وأحكامه ، وما يؤمر به ويُعمل به) . وقال : (المحكمات قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ والآيات بعدها . وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ إلى ثلاث آيات بعدها) .

2 - قال سعيد بن جبير : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يقول : أصل الكتاب ، وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب) . وقال مقاتل بن حيان : (لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن) .

3 - وقال يحيى بن يعمر : (الفرائض ، والأمر والنهي ، والحلال والحرام) .

4 - قال قتادة : (المحكمات : الناسخ الذي يعمل به ، ما أحل الله فيه حلاله وحرم فيه حرامه ، وأما المتشابهات : فالمنسوخ الذي لا يعمل به ويؤمن به) .

5 - قال محمد بن جعفر بن الزبير : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ ، فيهن حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصرف ولا تحريف عما وضعت عليه ، ﴿ وَأُخْرٌ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ ، في الصدق ، لهن تصرف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، لا يُصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق) .

6 - قال مجاهد : (المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً) . وهذا كما ذكر في تفسير قوله

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4547) ، ومسلم (2665) ، وأبو داود (4598) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (48/6) . قال الحافظ في الفتح (210/8) : (سمع ابن أبي مُليكة من عائشة كثيراً . وكثيراً أيضاً ما يدخل بينهما واسطة) .

تعالى: ﴿كَتَبْنَا مُتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾ ، فالمتشابه الكلام يكون في سياق واحد ، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين ، كصفة الجنة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ، ونحو ذلك. وأما ها هنا فالمتشابه الذي يقابل المحكم .

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ . قال مجاهد: (شك). وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (أي: ميل عن الهدى). وقال ابن جريج: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ، المنافقون. والمقصود: أهل الضلال والخروج عن الحق ومنهاجه إلى سبل الباطل والأهواء والشبهات.

وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ . يعني ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات ، بهدف التلبيس على ضعاف العلم والمعرفة بالدين .

قال ابن عباس: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ ، فيحملون المحكم على المتشابه ، والمتشابه على المحكم ، ويلبسون ، فلبس الله عليهم). وقال مجاهد: (الباب الذي ضلوا منه وهلكوا فيه ابتغاء تأويله). وقال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ ، أي: ما تحرف منه وتصرف ، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة). وقال السدي: (يتبعون المنسوخ والناسخ فيقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا مكان هذه الآية ، فتركت الأولى وعُمل بهذه الأخرى ؟ هلاً كان العمل بهذه الآية قبل أن تجيء الأولى التي نُسخت ؟ وما باله يعد العذاب مَنْ عمل عملاً يعذبه في النار ، وفي مكان آخر: مَنْ عمله فإنه لم يُوجب النار).

وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ فيه أقوال:

1 - قال السدي: (إرادة الشرك).

2 - قال مجاهد: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: الشبهات ، بها أهلكوا). أو قال: (والشبهات ما أهلكوا به).

3 - قال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ ، أي: اللبس). واختاره ابن جرير مع ما قبله. قال الحافظ ابن كثير: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصراني بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 59] وبقوله: ﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] ، وغير ذلك من

الآيات المحكمة المصرحة بأنه خَلَقَ من مخلوقات الله ، وعبدٌ ، ورسولٌ من رسل الله).

وقوله: ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلَهُ﴾. يعني: ابتغاء تحريفه على ما يريدون. وقال السدي: (يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن). أو قال: (متى يأتي الناسخ منه فينسخ المنسوخ). والمقصود: أنهم يريدون بذلك ما يوافق أهواءهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه معنيان:

الأول: التأويل بمعنى حقيقة الشيء ، وما يؤول أمره إليه من الحقائق الغيبية.

كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِ يَوْمَ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]. وكقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 53]. والمقصود: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد.

فبمثل هذه الحقائق التي لا يعلم حقيقة كنهها وظهورها إلا الله ، فالوقف هنا على لفظ الجلالة ، ثم يستأنف القول: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

يروى ابن جرير بسنده عن هشام بن عروة قال: (كان أبي يقول في هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ، ولكنهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. وكذلك روى عن عمر بن عبد العزيز يقول: (انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾).

أخرج الطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ قال: [إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به] (1).

الثاني: التأويل بمعنى التفسير والبيان والإيضاح.

كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: 36] والمراد بتفسيره. وهذا التعبير عن فهم الآيات مما يعلمه الراسخون في العلم ، فهم يدركون فهم ما خوطبوا به ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه. وهنا يسوغ الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

قال ابن عباس: (التفسير على أربعة أنحاء ، فتفسير لا يُعَدَّرُ أحدٌ في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً ، فلا تُكذِّبُوا بعضه بعضاً ، فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه]⁽¹⁾.

وفي المسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [نزل القرآن على سبعة أحرف ، والمراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه]⁽²⁾.

وروى ابن جرير بسنده عن مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال: (أنا ممن يعلم تأويله). وقال مجاهد: (يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به). وقال الضحاك: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ، قال: المحكم والمتشابه).

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. قال الربيع: (يقولون: المحكم والمتشابه من عند ربنا). أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال. فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعمّلوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرْ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. قال ابن جرير: (وما يتذكر ويتعظ وينزجر عن أن يقول في متشابه أي كتاب الله ما لا علم له به ، إلا أولوا العقول والنهي).

ثم روى عن محمد بن جعفر بن الزبير: (وما يذكر في مثل هذا ، يعني: في ردّ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (185/2) ، وابن ماجه (85) ، ورجاله ثقات ، وله شواهد.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (300/2) ، وأبو يعلى (6016) ، والطبري (11/1) ، وله شواهد.

(3) حديث صحيح. انظر تفسير الطبري (30/1) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1115) لتفصيل البحث.

تأويل المشابه إلى ما قد عرف من تأويل المحكم ، حتى يتسقا على معنى واحد ، ﴿إِلَّا أُولَئِكَ﴾ .

وقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ . أي : لا تصرفها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه إلى الضلال والهوى . ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تقوي بها إيمان قلوبنا ، فلا تهتز أمام الفتن ، ولا تضعف أمام الشهوات .

وقوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾ . يعني : المعطي ، فالثبات والتوفيق والسداد والتصديق بيده سبحانه يهب من ذلك من يشاء .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أم سلمة : [أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه : اللهم مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك . قالت : قلت : يا رسول الله ، وإن القلب ليتقلب ؟ قال : نعم ، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاعه] ⁽¹⁾ .

وله شاهد عند ابن جرير عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، أن النبي ﷺ كان يقول : [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . ثم قرأ : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾] ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ . أي باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم . قال القرطبي : (وفي هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج : هذا هو التأويل الذي علمه الراسخون وأقرّوا به ، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه) .

10 - 11 . قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۖ كَذَابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ﴾

في هذه الآيات : يخبر الله سبحانه عن مصير من جحد الحق بعدما تبين من أمر نبوة محمد ﷺ ، من يهود بني إسرائيل ومنافقيهم ومنافقي العرب وكفارهم ، وأن ما أوتوه

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (302/6) ، والطبري في التفسير (6648) ، وله شواهد .

(2) حسن الإسناد . أخرجه الطبري في التفسير - حديث رقم - (6647) ، ويشهد له أحاديث أخرى .

اللَّهُ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

في هذه الآيات: قل يا محمد للذين كفروا - من اليهود والمشركين - ستغلبون في الدنيا وتحشرون إلى جهنم يوم القيامة. فقد كان لكم عبرة وتفكر في فرقتين التقنا للحرب: فرقة الإيمان يوم بدر ، وفرقة الكفر التي تظهر للعين مثلي قوة المسلمين ، ومع ذلك فقد نصر الله المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أخرج ابن هشام وابن جرير بسند مرسل عن عاصم بن عمر بن قتادة: [أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، وقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يُصيبكم الله بما أصاب قريشاً. فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلاً ؟ فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ - إلى قوله - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ⁽¹⁾.

وروى ابن جرير عن عكرمة في قوله: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾: (قال فُحَاص اليهودي في يوم بدر: لا يغرن محمد أن غلب قريشاً وقتلهم ! إن قريشاً لا تُحَسِّنُ القتال ، فنزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾).

وعن مجاهد: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ، قال: بِئْسَمَا مَهَدُوا لأنفسهم).

وقوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾. قال قتادة: (عبرة وتفكر). ﴿ فِي فِتْنَتَيْنِ ﴾ يعني فرقتين وحزبين ، ﴿ أَلْتَقَتَا ﴾ للحرب. ﴿ فِئْتَةٌ تَقْتَئِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هم رسول الله ﷺ ومن كان معه ممن شهد يوم بدر. ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ وهم مشركو قريش.

قال مجاهد: (ذلك يوم بدر ، التقى المسلمون والكفار).

(1) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (427/2) ، وابن جرير في «التفسير» (6664) ، والبيهقي في الدلائل (174/3) عن قتادة مرسلاً ، ويشهد له ما بعده ، فقد أخرجه ابن هشام (426/2) والطبري (6663) والبيهقي (174-173/3) عن ابن عباس وفي سنده محمد بن أبي محمد . قال الذهبي في الميزان : لا يُعرف .

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ فيه تأويلان بناء على قراءتين:

القراءة الأولى: قراءة أهل المدينة «ترونها». والمعنى: ترون أيها اليهود المشركين مثلي المسلمين رأي العين، ومع ذلك نصر الله المؤمنين لتعتبروا.

القراءة الثانية: قراءة أهل الكوفة والبصرة وبعض المكيين: «يرونهم مثليهم». أي يرى المسلمون الكفار مثليهم في القدر. وهذه القراءة الأشهر.

وفي الواقع كان المشركون أكثر من ذلك، كما في المسند وسنن أبي داود من حديث علي - في يوم بدر -: [قال: ثم إن النبي ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزر؟ قال: عشر كل يوم، فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف كل جزور لمئة ونيفها⁽¹⁾].

ورواه ابن إسحاق بلفظ: [قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسع مئة والألف⁽²⁾].

وأما وجه الجمع بين ذلك وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 44]. فالجواب - كما ذكر الحافظ ابن كثير - أن هذا كان في حالة والآخر كان في حالة أخرى.

فقد أخرج ابن جرير عن السدي عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾، قال: (هذا يوم بدر. قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾).

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: (لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً). فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثليهم، أي: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب

(1) حديث صحيح. رواه أحمد (117/1)، وأبو داود (2665)، في أثناء حديث طويل.

(2) رواه ابن إسحاق في «السيرة». وانظر مسند أحمد (193/2)، وصححه أحمد شاكر برقم (948)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (544/1).

والخوف والجزع والهلع . ثم لما حصل التصافُّ والتقى الفريقان ، قلَّ الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ، لِيُقَدِّمَ كل منهما على الآخر ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي : لِيَفَرِّقَ بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : 123] . وقال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي : إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد⁽¹⁾ .

14 - 15 . قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ ﴿ 12 ﴾ ﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ﴿ 15 ﴾ .

في هذه الآيات : أخبر سبحانه عن أنواع الملاذ التي جعلها في هذه الحياة الدنيا نعمة وفتنة لبني آدم ، من النساء والولد والمال والخيول والأنعام والأرض ، فإن استمتع بها في طاعة الله ووجهها لإعلاء كلمته كان ذلك سعادة له في الدارين ، وما عند الله خير وأبقى .

فبدأ بالنساء ، لأنهن أشد فتنة على الرجال من سائر الملذات الأخرى . وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى ، في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : [مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ ، هِيَ أَضَرُّ ، عَلَى الرِّجَالِ ، مِنَ النِّسَاءِ]⁽²⁾ .

(1) انظر تفسير ابن كثير ، سورة آل عمران ، الآيتان (12، 13) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2740) ، كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء .

وفي لفظ : [ما تَرَكْتُ بعدي في الناس ، فِتْنَةٌ أَضَرَّ عَلَى الرجال من النساء] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن ابن عباس قال: قال محمد ﷺ: [اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء]⁽¹⁾ .
وله شاهد عنده من حديث عمران بن حصين ، أن رسول الله ﷺ قال: [إِنَّ أَقْلَ ساكني الجنة النساء] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخُدْرِي ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ]⁽²⁾ .

وأما إن كان القصد الزواج والإكثار من الذرية الصالحة وحصول الإعفاف بهن فهذا أمر قد ندب إليه الشرع في أحاديث ، منها:

الحديث الرابع: أخرج الإمام البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال لي ابنُ عَبَّاسٍ: هل تزوجت ؟ قلت: لا ، قال: [فَتَزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً]⁽³⁾ .

الحديث الخامس: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ]⁽⁴⁾ .

الحديث السادس: أخرج الإمام أحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير ؟ قال: [خير النساء التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره]⁽⁵⁾ .

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن سلام بلفظ:

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2737) ، كتاب الرقاق . الباب السابق . وانظر كذلك - حديث رقم - (2738) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2742) ، كتاب الرقاق ، الباب السابق .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5069) ، كتاب النكاح ، باب كَثْرَةِ النِّسَاءِ .
- (4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1469) ، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
- (5) حديث حسن . رواه النسائي (72/2) ، والحاكم (161/2) ، وأحمد (251/2) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1838) ، وصحيح الجامع الصغير (3293) .

[خير النساء مَنْ تُسِرُّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ ، وَتُطِيعُكَ إِذَا أَمَرْتَ ، وَتَحْفَظُ غَيْبَتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِك] ⁽¹⁾.

الحديث السابع: أخرج النسائي وأحمد بسند حسن ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النساء والطيب ، وجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ] ⁽²⁾.

الحديث الثامن: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث أنس ، قال رسول الله ﷺ: [تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة] ⁽³⁾.

وله شاهد عند البيهقي من حديث أبي أمامة بلفظ: [تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى].

وقوله: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾. قال الضحاك: (يعني المال الكثير من الذهب والفضة).

وقوله: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ فيه أقوال:

1 - قال سعيد بن جبير: (الراعية ، التي ترعى). وقال الحسن: (المسرحة في الرعي).

2 - قال مجاهد: ﴿الْمُسَوَّمَةُ﴾: المطهمة). أو قال: (المطهمة الحسان). وقال عكرمة: (تسويمها: حُسْنُهَا). وقال السدي: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ﴾ ، (الرائعة). واختاره ابن جرير.

3 - قال ابن عباس: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ ، يعني المعلمة). وقال قتادة: (وسيمها شَيْئُهَا). وقال قتادة: (شَيْءُ الْخَيْلِ فِي وَجُوهِهَا).

4 - قال ابن زيد: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾: المعدة للجهاد).

والظاهر أن الراجح ما ذهب إليه ابن جرير من أن الخيل المسومة هي المعلمة بالشيئات ، الحسان ، الرائعة حسناً من رآها. والمطهمة والمعلمة والرائعة هي معان

(1) حديث صحيح ، رجاله ثقات . انظر صحيح الجامع (3294) ، والسلسلة الصحيحة (1838) .

(2) حديث حسن . أخرجه النسائي (61/7) ، وأحمد (128/3) ، وصحيح الجامع الصغير (3119) .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (158/3) ، والبيهقي (81/7-82) ، وانظر صحيح الجامع الصغير

(2938) ، للشاهد بعده ، و(2937) لرواية أبي داود والنسائي .

مقاربة. ويدل على هذا أن السياق في الآية يقتضي المدح وحسن الوصف لهذه الخيول التي جعلت من الزينة التي يحبها الناس في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾. يعني: الإبل والبقر والغنم ، فهي ثروة في كل زمان ، وللناس ميل إليها لمنافعها الكثيرة في الطعام والشراب واللباس والركوب .

وقوله: ﴿وَالْحَرْثَ﴾. يعني الأرض المتخذة للزرع والغرس وما ينتج عن ذلك من زينة ومصالح واستمتاع .

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن سويد بن هُبيرة ، عن النبي ﷺ قال: [خيرُ مال امرئ له مُهْرَةٌ مأمورة ، أو سِكَّةٌ مأبورة]⁽¹⁾.

والمأمورة: الكثيرة النسل ، والسكَّة: النخل المصطف ، والمأبورة: المُلَقَّحة .

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أبي قتادة ، عن النبي ﷺ قال: [خيرُ الخيل الأدهمُ ، الأقرحُ الأَرثَمُ ، المحجَّلُ ثلاثٌ ، مطلقُ اليمين ، فإن لم يكن أدهمَ فكميتٌ على هذه الشِّية]⁽²⁾.

الأدهم: أي الأسود. والأقرح: ما كان في جبهته قرحة ، وهو بياض يسير دون الغرة ، والمحجل: الذي في قوائمه بياض. الأَرثَمُ: الذي أنفه أبيض وشفته العليا. مطلق اليمين: أي يده اليمنى ليس فيها تحجيل. (فكميت) هو الذي لونه بين السواد والحمرة. والشية: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره.

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [يُمنُ الخيل في الشُّقْرِ]⁽³⁾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَكُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. أي: كل ذلك مما يُستمتع به في هذه الدنيا الفانية ويحرص عليه الناس لقضاء شهواتهم ، وقليلٌ مَنْ يَصْرِفُهُ في طاعة الله والتقوى على إقامة دينه في الأرض .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (468/3) ، والطبراني في الكبير (6470) ، ورجال أحمد ثقات .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (1763) ، باب ما يستحب من الخيل . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3268) .

(3) حسن صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (1386) الباب السابق ، وصحيح المشكاة (3879) .

قال عمر: (تمعددوا⁽¹⁾) واخشوشنوا واقطعوا الركب⁽²⁾ وثبوا على الخيل وثباً لا تغلبنكم عليها رعاة الإبل).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾. أي حسن المنقلب ، وهي الجنة .

وقوله: ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. أي: قل يا محمد للناس: هل أخبركم عن بديل هذه الزينة الزائلة التي سترحلون عنها بين عشية وضحاها ، إنه هذا النعيم الخالد في جنات الله المستقرة التي تتخرق الأنهار بين جوانبها وأرجائها وتحت أشجارها وثمارها ، والتي فيها ما لذ وطاب من كل بهجة وسرور ، وشراب من لبن وعسل وماء وخمور ، ولطيف العيش في جوار النساء الحور ، فهن ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الدنس والخبث والأذى ، والحيض والنفاس وما يعتري نساء الدنيا من الأمور ، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فهو غاية سعادة الدنيا والآخرة ، أن يحظى المؤمن برضوان ربه فلا يسخط عليه بعده أبداً.

وفي التنزيل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72]. أي: أكبر من كل سعادة ولذة.

أخرج الحاكم وابن حبان بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا ؟ قال: فيقول: رضواني أكبر]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال القرطبي: (وعد ووعيد).

16 - 17. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

(1) تمعدد الغلام : إذا شب وغلظ .

(2) هي كل ما يركب من دابة . أو هي الرواحل من الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها .

(3) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (82/1) ، وابن حبان (2647) من حديث جابر بن عبد الله ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1336) .

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ .

في هذه الآيات: نَعَتْ للمتقين أهل السعادة في الدارين. فهم يقولون: ربنا إننا صدقنا بك وبنبيك وما جاء من عندك ، فاستر علينا ذنوبنا ، بعفوك عنها ، وتجاوزك عن عقوبتنا عليها ، وادفع عنا عذاب النار فنجنا منها إلى دار الخلود والنعيم . وهم الصابرون ، والصادقون ، والقانتون ، والمنفقون أموالهم في طاعة الله ، والمستغفرون بالأسحار .

وعن قتادة: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ . « الصادقين » قوم صدقت أفواههم واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، وصدقوا في السر والعلانية ، و﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ قوم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن محارمه ، والقانتون هم المطيعون لله .

وأما ﴿ المنفقون ﴾ فهم الباذلون من أموالهم في ألوان الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، ومواساة ذي الحاجات ، وسدّ الخلات ، من الزكوات والصدقات .

وقوله: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ . قال قتادة: (هم أصل الصلاة . قال: يصلون بالأسحار) . وقال زيد بن أسلم: (هم الذين يشهدون الصبح) .

قال ابن جرير: (هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها) . وقال: (وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرّضهم لمغفرته بالعمل والصلاة . غير أن أظهر معانيه ما ذكرناه من الدعاء) .

قلت: والأسحار: جمع « سَحَر » ، وهو وقت مبارك للدعاء والاستغفار والصلاة ، وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر ذلك ، في أحاديث ، نذكر منها:

الحديث الأول: يروي البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [يُنَزَّلُ ربنا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ لَهُ ، مَنْ يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفرَ له] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1145) ، كتاب التهجد ، وأخرجه مسلم برقم (758) ، ورواه أحمد في المسند (387/2) .

الحديث الثاني: يروي البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل؟ قالت: [كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلّي، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج]⁽¹⁾

قال البخاري: (وقال سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما: نم، فلما كان من آخر الليل قال: قم، قال النبي ﷺ: صدق سلمان).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمرو بن عبسة، عن النبي ﷺ قال: [أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الشيخان وأحمد وأصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت: [من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره، فأنتهى وتره إلى السحر]⁽³⁾.

وروى ابن أبي حاتم عن نافع قال: (وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح). وروى ابن جرير بسنده عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: (سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: ربّ أمرني فأطعتك، وهذا سحرٌ فاغفر لي. فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه).

18 - 20. قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ

قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اُخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَفَيْئًا يَنْهَمُونَ وَمَنْ يَكْفُرْ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1146)، كتاب التهجد، باب من نام أول الليل وأخيا آخره .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3579). انظر صحيح سنن الترمذي (2833). وانظر صحيح الترغيب (276/2)، وصحيح الجامع الصغير (1184).

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (996) ومسلم (745)، وأحمد (46/6)، وأبو داود (1435) والنسائي (230/3)، والترمذي (456)، وابن ماجه (1185)، ورواه ابن حبان والبيهقي .

بِأَيِّتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ .

في هذه الآيات: شهد الله سبحانه أنه المتفرد بالإلهية ، الغني عما سواه ، وأن جميع الخلق عبيد محتاجون لرحمته . وأن الدين عنده هو الإسلام ، ومن ابتغى غيره فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

قال السدي: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ إلى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، قال: الله يشهد هو والملائكة والعلماء من الناس: أن الدين عند الله (الإسلام).

وقوله: ﴿ وَأُوَلِّوْا أَعْلِيَّ ﴾ . خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ، وبيان لفضل أهل العلم ، ومكانة العلم والعلماء .

وقوله: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ في محل نصب على الحال ، قال مجاهد: ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾: بالعدل). والمقصود أنه سبحانه هو الذي يلي العدل بين خلقه .

وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تأكيد لما سبق من تفرد سبحانه بالألوهية وكمال التعظيم ، وهو العزيز في كبريائه وعظمته ، فلا يرام جنابه ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وقوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ . إخبار منه سبحانه أنه لا يقبل من أحد إلا الإسلام ، كما قال جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال قتادة: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، والإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه ، وبعث به رسله ، ودل عليه أوليائه ، لا يقبل غيره ، ولا يجزي إلا به).

وقال أبو العالية: (الإسلام: الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وسائر الفرائض لهذا تبع).

وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا اَلْكِتَابَ اِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَشْيَا بَيْنَهُمْ﴾ .
قال الربيع: قال أبو العالية: (إلا من بعد ما جاءهم الكتاب والعلم ، بغياً على الدنيا ،
وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا ، من بعد ما كانوا علماء
الناس).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَايَأْتِ اَللّٰهُ فَاِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . أي: سريع الإحصاء. قال
مجاهد: (إحصاؤه عليهم).

وقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ . قال محمد بن جعفر بن الزبير:
(﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أي: بما يأتونك به من الباطل ، من قولهم: «خلقنا ، وفعلنا ،
وجعلنا ، وأمرنا» ، فإنما هي شبه باطلة قد عرفوا ما فيها من الحق ، ﴿فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ
لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾). وقال ابن جرير فيها: (فإن حاجك ، يا محمد ، النفر من نصارى أهل
نجران في أمر عيسى صلوات الله عليه ، فخاصموك فيه بالباطل ، فقل: انقدت لله وحده
بلساني وقلبي وجميع جوارحي ، وإنما خصّ جل ذكره بأمره بأن يقول: ﴿أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ
لِلّٰهِ﴾ ، لأن الوجه أكرم جوارح ابن آدم عليه ، وفيه بهاؤه وتعظيمه ، فإذا خضع وجهه
لشيء ، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه).

وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ أي: وأسلم من اتبعني أيضاً وجهه لله معي .

وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا اَلْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا﴾ .
يعني: وقل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والأميين: الذين لا كتاب
لهم من مشركي العرب ، هل أسلمتم وأفردتم التوحيد والتعظيم لله سبحانه وتركتم
الأوثان والأنداد فكفرتم بها ، فإن انقادوا لذلك فقد أصابوا سبيل الحق والمؤمنين ،
﴿وَأَنْتَ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللّٰهُ بِصِيرٍ بِأَلْبَابٍ﴾ . يعني: إن أعرضوا فقد أعذرت من
أذرت والله يتولى الأمر ، فيعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الغواية والضلال .

فائدة: هذه الآية تشير إلى عموم دعوته ﷺ إلى سائر الأمم .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ .

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اَللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ .

وقد حفلت السنة الصحيحة بذلك المعنى في أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :
[والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم
يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به ، إلا كان من أصحاب النار]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله
الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: [أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ
يُتَّبَعُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَيُتَّبَعُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ. وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تُحَلَّ
لِأَحَدٍ قَبْلِي. وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى
حَيْثُ كَانَ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةُ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :
[فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي
الْمَغَانِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي
النَّبِيُّونَ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أنس رضي
الله عنه : [أَن غَلاماً يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءَهُ ، وَيَنَاولُهُ نَعْلَيْهِ ، فَمَرَضَ فَاتَاهُ
النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبَوْهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: يَا فُلَانُ ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَسَكَتَ أَبُوهُ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ أَبُوهُ:
أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ الْغَلامُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ
وهو يقول: الحمد لله الذي أخرجني من النار]⁽⁴⁾.

21 - 22. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (153) ، كتاب الإيمان ، باب وجوب
الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (521) ، وأخرجه البخاري (335) ، (3122) ، وأحمد (304/3) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (523) ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1356) ، وأحمد (280/3) ، وأبو داود (3095) .

حَقَّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ .

في هذه الآيات: إن الكفرة الذين جمعوا إلى كفرهم بآيات الله قتل الأنبياء والعلماء والصالحين لهم عذاب أليم. فهم الذين أحبط الله أعمالهم في الدارين ، وما لهم من أولياء ولا ناصرين .

يروي ابن جرير بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: (ثم جمع أهل الكتابين جميعاً ، وذكر ما أحدثوا وابتدعوا ، من اليهود والنصارى ، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾).

فالآية ذمٌ لأهل الكتاب فيما صدر منهم من اجتراح للمحارم وارتكاب للآثام ، ومن أشد ذلك قتلهم النبيين بغير حق .

أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال: [أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتل نبياً ، أو قتل نبياً ، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين] (1) .

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» بلفظ: [أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتل نبياً ، أو رجل يضل الناس بغير علم ، أو مصور يصور التماثيل] .

وقوله: ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قال قتادة: (هؤلاء أهل الكتاب ، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذگرونهم ، فيقتلونهم) .

وهذا شأن الطغاة على مدار الزمان ، يرون في رجال الحق مصدر قلق عليهم ، وموضع ضرر على شهواتهم وكبرهم في الأرض ، فيقتلونهم لئلا يكشف أمرهم وينفض الناس عنهم ، وهذا هو غاية البغي والكبر والعلو في الأرض بالظلم .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (407/1) ، وانظر معجم الطبراني « الكبير » (2/80/3) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (281) ، وصحيح الجامع الصغير ، حديث رقم (1011) .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر]. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونَعْلُهُ حسنةً. قال: إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۝٢٢ ﴾.

فقابلهم الله بكبرهم وطغيانهم أن هيا لهم عذاباً موجعاً بعد أن أحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة ، ولا سبيل لهم إلى النجاة من عذابه وعقابه .

23 - 25. قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ

كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥ ﴾.

في هذه الآيات: فضح سبيل اليهود في كذبهم ، وتأکید عذاب النار الواقع بهم .

قال قتادة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ، الآية ، قال: هم اليهود ، دُعوا إلى كتاب الله وإلى نبيه ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم ، ثم يتولون وهم معرضون .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ . قال الربيع: (قالوا: لن نعذب في النار إلا أربعين يوماً. قال: يعني اليهود. وقال: هي الأيام التي نصبوا فيها العجل). وقال قتادة: (قالوا: لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التي نصبنا فيها العجل ، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا ، قال الله عز وجل: ﴿ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ، أي قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ ﴾).

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . أي: كيف يكون حالهم وقد سقطوا

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (91) ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانہ .

في قبضة العدل ، لينالوا نصيبهم لقاء كذبهم وظلمهم وقتلهم للأنبياء والمؤمنين ،
﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

26-27. قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الملك كله لله ، وأن العطاء والمنع بيد الله ، فهو المعزُّ المُذِلُّ مولج الليل في النهار والنهار في الليل ، وهو المحيي والمميت والرزاق بغير حساب .

فقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ . يقول تعالى ذكره: قل يا محمد ، مقدساً ربك معظماً له ولقدرته وجبروته . يروي ابن جرير بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير: (قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ ، أي: ربَّ العباد الملك ، لا يقضي فيهم غيرك) .

والمعنى: الملك كله بيد الله ، يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويأتي بملوك بعد ملوك .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [لا تسبوا الدهر ، فإن الله عز وجل قال: أنا الدهر ، الأيام والليالي لي أجدها وأبليها ، وأتي بملوك بعد ملوك]⁽¹⁾ .

وفي لفظ لمسلم: [قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما] .

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، من حديث عبيد الله بن رُفاعة عن أبيه قال: [لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ: استووا حتى أثنى على ربي ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال: اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ،

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1813) ، (1814) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (882/2) لتفصيل هذا البحث .

ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ،] الحديث⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَعَزَّزْ مَنْ تَشَاءُ وَثُذِلْ مَنْ تَشَاءُ﴾. أي: بإعطائه الملك والسلطان ، وبسط القدرة له ، أو بسلبه الملك وتسليط العدو والذل عليه .

وجاء في قنوت الوتر الذي علمه رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه: [وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت]. أخرجه ابن خزيمة بسند صحيح .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن المقداد بن الأسود ، عن النبي ﷺ قال: [ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذللاً يذل به الكفر]⁽²⁾.

وقوله: ﴿يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يعني: إن ذلك بيدك لا إلى غيرك ، إذ لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك ، قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] .

وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾. أي: تزيد في طول هذا وتنقص من طول هذا فيعتدلان ، على مدار السنة في الفصول الأربعة .

قال ابن عباس: (ما نقص من النهار يجعله في الليل ، وما نقص من الليل يجعله في النهار). وقال قتادة: (هو نقصان أحدهما في الآخر). وقال الضحاك: (يعني أنه يأخذها أحدهما من الآخر ، فيكون الليل أحياناً أطول من النهار ، والنهار أحياناً أطول من الليل).

وقال ابن زيد: (هذا طويل وهذا قصير ، أخذ من هذا فأولجه في هذا ، حتى صار هذا طويلاً وهذا قصيراً) .

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. يعني: النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (424/3) ، ورجاله رجال الصحيح . وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة ، البحث (41) (ج2/ص740) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1631-1632) . ورواه أحمد والطبراني من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3/1) ص7 .

قال مجاهد: (الناس الأحياء من النطف والنطف ميتة ، ويخرجها من الناس الأحياء ، والأنعام).

وهناك تفاسير أخرى تصب في المعنى:

1 - قال عكرمة: (النخلة من النواة والنواة من النخلة ، والحبة من السنبل والسنبل من الحبة). وقال: (هي البيضة تخرج من الحي وهي ميتة ، ثم يخرج منها الحي).

2 - قال الحسن: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ، يعني المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حي الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد).

3 - قال ابن زيد: (النطفة ميتة ، فتخرج منها أحياء. قال: تخرج النطفة من هؤلاء الأحياء ، والحب ميت تخرج منه حياً. قال: تخرج من هذا الحي حياً ميتاً).

وخلاصة المعنى: تخرج الحياة من النطفة الميتة ، وتخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الكائنات والأشياء.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. أي: تغدق المال والخير على من تشاء مما لا قدرة على إحصائه ، وتقتر على آخرين كيف شئت ، فلك الحكمة الكاملة في القبض والبسط.

أخرج الإمام أحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى هو الخالق ، القابض ، الباسط ، الرازق ، المُسَعِّرُ ، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحدٌ بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال]⁽¹⁾.

28. قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

(1) حديث صحيح . رواه أحمد بسند صحيح . انظر صحيح الجامع (1842) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (386/1) ، ورواه أهل السنن إلا النسائي . انظر صحيح أبي داود (2945).

ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحِذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ .

في هذه الآية: نهى من الله سبحانه المؤمنين أن يتخذوا أعواناً لهم من الكافرين أو أنصاراً وظهوراً ، ومن يفعل ذلك يبرأ من الله عز وجل .

قال ابن عباس: (نهى الله سبحانه المؤمنين أن يُلَاطِفُوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين ، فيظهرون لهم اللطف ، ويخالفونهم في الدين . وذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ . قال: (التقاة التكلّم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان) . وقال مجاهد: (إلا مصانعة في الدنيا ومخالفة) . وقال أبو العالية: (التقية باللسان وليس بالعمل) . وقال عكرمة: (ما لم يهرق دم مسلم ، وما لم يستحل ماله) .

قال البخاري: (قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة) . وكذلك حكى البخاري عن أبي الدرداء ، أنه قال: (إننا لنكشُرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) .

وقال قتادة: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ ، الرحم من المشركين ، من غير أن يتولّوهم في دينهم ، إلا أن يصل رحماً له في المشركين) . وقال الحسن فيها: (صاحبهم في الدنيا معروفاً ، الرحم وغيره . فأما في الدين فلا) .

قلت: والأول أظهر ، فالرحم يستثنى منه الوالدان بحسن الصحبة مع مخالفة الشرك إذا كانا عليه ، والسياق يدل أكثر على المعنى الأول .

وقوله: ﴿وَيَحِذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ . أي: يخوفكم بطشه وغضبه إن واليتم الكفار .

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ . أي الله مرجعكم ومصيركم إذا خرجتم من قبوركم للحساب .

29-30. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوْهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ

مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ .

في هذه الآيات: إن الله يعلم السر من عباده وأخفى. ويكشف لكل امرئ يوم الحساب ما ترك لنفسه من العمل وأبقى ، والله تعالى يحذر عباده مغبة مخالفة التقوى .

قال السدي: (أخبرهم أنه يعلم ما أسروا من ذلك وما أعلنوا ، فقال: ﴿إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَزُبْتُدُوهُ﴾) .

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ . أي: فكيف يخفى عليه موالاتكم لأعدائه أو ما أخفيتم في صدوركم لهم من الميل والمودة والمحبة ، وهو يعلم السر في السماوات والأرض ولا يخفى عليه من ذلك شيء . ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلو شاء عاجلكم بالعقوبة على ما ظهر من موالاتكم لأعدائه الكافرين ، فانتبهوا وانتهوا .

وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا﴾ . قال قتادة: (موفرًا) .

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ . قال الحسن: (يسر أحدهم أن لا يلقي عمله ذاك أبداً ، يكون ذلك مناه . وأما في الدنيا فقد كانت خطيئة يستلذها) .

وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ . قال الحسن: (من رأفته بهم أن حذرهم نفسه) .

31-32. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ .

في هذه الآيات: إن صدق محبة الله تعالى تعني اتباع نبيه ﷺ واتخاذة أسوة ، فذلك الذي يورث محبة الله عباده ومغفرة ذنوبهم . إن طاعة الله وطاعة رسوله فيهما النجاة كل النجاة ، والكافرون لهم عذاب أليم .

قال الحسن البصري: (زعم قوم أنهم يحبون الله ، فابتلاهم الله بهذه الآية ، فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾).

والمقصود أن من ادعى محبة الله تعالى ، فالحكم هو التزامه منهج السيرة النبوية العطرة ، والسنة المحمدية المطهرة ، وإلا فما أكثر الادعاء والكذب .

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد⁽¹⁾] . وفي لفظ : [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد⁽¹⁾] .

وجاء في الشرح والإبانة (153) عن الفضيل بن عياض يقول : (أدرت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحاب البدع).

وذكر اللالكائي (65/1) : قيل لأبي بكر بن عياش (ت 194هـ) : من السني ؟ قال : (الذي إذا ذكرت الأهواء لم يتعصب إلى شيء منها).

وعند الدارمي عن الحسن البصري قال : (فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقي ، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فذلك إن شاء الله فكونوا).

وجاء في مقدمة صحيح مسلم (15/1) عن ابن سيرين (ت 110هـ) يقول : (لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سئموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم).

وقوله : ﴿ وَيَقَرِّ لَكُمْ دُوبَكُمْ ﴾ . أي ببركة صدق اتباعكم لرسوله ﷺ يتجاوز الله عما مضى من زلاتكم ومعاصيكم ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ . تأكيد للأمر ، وبيان لسبيل النجاة .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ . تهديد ووعد لمن ارتضى غير ذلك . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه وصف بالكفر لمخالفة طريق النبوة ، والله لا يحب الكفر ولا الكافرين .

34-33. قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1718) ، كتاب الأفضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، وردة محدثات الأمور .

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن المصطفين الأخيار: آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران في ذرية الأبرار.

قال قتادة: (ذكر الله أهل بيتين صالحين ، ورجلين صالحين ، ففضلهم على العالمين ، فكان محمدٌ من آل إبراهيم). وقال الحسن: (فضلهم الله على العالمين بالنبوة ، على الناس كلهم ، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم).

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ . يعني في الموالاة في الدين وتعظيم الحق.

قال قتادة: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ ، يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد له). وفي نصب «ذرية» وجهان أو أكثر ، فهي إما منصوبة على الحال ، أي في حال كون بعضهم من بعض ، أي ذرية بعضها من ولد بعض. أو هي بدل ، والتقدير: اصطفى ذرية بعضها من بعض. أو هي منصوبة على القطع ، والتقدير: إن الله اصطفى آل إبراهيم وآل عمران ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ .

والمراد بعمران والد مريم بنت عمران ، أم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . قال ابن جرير: (يعني بذلك: والله ذو سمع لقول امرأة عمران ، وذو علم بما تضمزه في نفسها ، إذ نذرت له ما في بطنها محرراً).

35-36. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ .

في هذه الآيات: لجوء أم مريم عليها السلام إلى الله تعالى بالدعاء ، ليتقبل ما في بطنها خالصاً للعبادة وخدمة بيت المقدس ، وليعيد المولودة مريم وذريتها من الشيطان الرجيم.

وقوله: ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ . هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ جدّة عيسى عليه السلام. زوجها عمران. قال محمد بن إسحاق: (تزوج زكريا وعمران

أختين ، فكانت أم يحيى عند زكريا ، وكانت أم مريم عند عمران ، فهلك عمران وأم مريم حاملٌ بمريم). قال: (وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يوماً طائراً يُرْقُ فرخه ، فاشتته الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً ، فاستجاب الله دعاءها ، فواقعها زوجها ، فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً أي: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس ، فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾). أي: السميع لدعائي ، العليم بنيتي .

وقال مجاهد: ﴿ مُحَرَّرًا ﴾: خادماً للبيعة). أو قال: (خادماً للكنيسة). وقال الشعبي: (جعلته في الكنيسة ، وفرغته للعبادة). وقال الضحاك: (جعلت ولدها لله ، وللذين يدرسون الكتاب ويتعلمونه).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ يعني ولدتها. ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ أي: ولدت النذيرة أُنْثَى.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ فيه قراءتان: الأولى: «وضعت». والثانية: «وضعت» وهي الأشهر عند القراء.

وقوله: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾. أي في القوة والخدمة والجلد في العبادة والقيام بشؤون المسجد الأقصى. قال ابن إسحاق: (لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى). وقال عكرمة: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾: يعني: في المحيض ، ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال ، أمها تقول ذلك).

وقوله: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾. قال ابن كثير: (فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ، لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقررًا).

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يؤيد ذلك ، في أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غَلاَمٌ ، فَسَمَّيْتُهَ بِاسْمِ أَبِي ، إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ] (1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث جابر قال: [ولد لرجل منا غلامٌ ، فسماه محمداً ، فقال له قومه: لا ندعُكَ تُسَمَّى بِاسْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،

فانطلق بابنه حامله على ظهره ، فأتى به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، وُلِدَ لي غلامٌ ، فَسَمَيْتُهُ مُحَمَّدًا ، فقال لي قومي: لا ندْعُكَ تُسَمِّي باسم رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: تَسَمَّوْا باسمي ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي ، فإنما أنا قاسم ، أقسم بينكم⁽¹⁾.

ولفظ البخاري: [يا رسول الله: وُلِدَ لي الليلة وَلَدٌ ، فما أَسْمِيه ؟ قال: أَسْمِ ابنك عبد الرحمن].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان وأحمد وأبو داود عن أنس بن مالك قال: [ذَهَبْتُ بعبد الله بن أبي طلحة الأنصاري إلى رسول الله ﷺ حين وُلِدَ ، ورسولُ الله ﷺ في عِباءة يَهْنَأُ⁽²⁾ بعيراً له ، فقال: ها معك تمرٌ ؟ فقلت: نعم ، فناولته تَمَرَاتٍ ، فألقاهن في فيه ، فَلَاكَهْنَ ثم فَغَرَ فا⁽³⁾ الصبي فمَجَّه في فيه ، فجعل الصبي يتَلَمَّظُهُ ، قال رسول الله ﷺ: حُبُّ الْأَنْصَارِ التَّمَرُ. وسَمَّاه عبد الله⁽⁴⁾].

قلت: وأما حديث سَمْرَةَ بن جُنْدَب: أن رسول الله ﷺ ، قال: [كُلُّ غلام رهين بعقيقته ، يُذْبَح عنه يوم سابعه ، وَيُسَمَّى ، وَيُحْلَقُ رأسه]⁽⁵⁾. فيحمل عندئذ على إشهار الاسم بين الناس إن كان قد سَمَّاه.

وقوله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. يعني: إني أجعل معاذها ومَعَاذ ذريتها من الشيطان الرجيم ، بك. فاستجاب الله دعاءها فأعازها من الشيطان ، وأعاز ذريتها ، وهو ولدها عيسى عليه السلام.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من مولود يولَدُ إلا مَسَّهُ الشيطان حين يولد ، فيستَهْلُ صارخاً من مَسَّه إياه ، إلا مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾]⁽⁶⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2133) ، كتاب الآداب ، وأخرجه البخاري (6186) .

(2) أي : يطليه بالقطران ، ويصح يَهْنَأُ بكسر النون أيضاً .

(3) أي : فتح فم الصبي .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2144) واللفظ له ، والبخاري (5470) ، وأحمد (106/3) .

(5) حديث حسن . رواه أحمد وأهل السنن . وصححه الترمذي . انظر سنن النسائي (4546)

« الكبرى » ، وانظر سنن أبي داود - حديث رقم - (2837) .

(6) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3431) ، (4548) ، ومسلم (2366) ، وأحمد (233/2) .

وفي لفظ: [كُلُّ بني آدم يَطْعُن الشيطان في جنبه حين تَلِدُهُ أُمُّهُ ، إلا عيسى بن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب] (1).

37. قوله تعالى: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

في هذه الآية: تقبل الله تعالى مريم وكفالة زكريا لها ، وبسط الله الرزق لها بغير حساب .

قال ابن جريج: (تقبل من أمها ما أرادت بها للكنيسة ، وأجرها فيها ، ﴿وَأَنْبَتَهَا﴾ ، قال: نبتت في غذاء الله).

قال ابن كثير: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده ، تتعلم منهم العلم والخير والدين).

وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها . وكان زوج خالتها . قال ابن إسحاق: (وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة). فقدّر الله كون زكريا كفلاً لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جَمّاً نافعاً وعملاً صالحاً.

وقد جاء في حديث الإسراء: [إذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة] رواه مسلم . وكذلك ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عُمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب ، وقال: [الخالة بمنزلة الأم] (2).

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ . إخبار من الله عن توليه لها بالكرامة وحسن الضيافة والرعاية ، وعن سيادتها وجلالتها في محلّ عبادتها .

قال مجاهد: (وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف).

وقال قتادة: (وجد عندها ثمرة في غير زمانها).

وقوله: ﴿قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ . أي: من أي وجه لك هذا الرزق ؟!

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (3286) ، والبخاري في التفسير (381) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2699) ، وابن حبان (4873) من حديث البراء مطوّلاً .

فقلت مجيبة له: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ، الذي ساقه لها وأنعم به وتكرم عليها .
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . خبرٌ من الله أنه يسوق الرزق إلى من يشاء
من عباده بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ، فعنده خزائن السماوات والأرض .

38-41. قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ٣٨ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِيِّحْ بِالْعَصَى وَالْإِبْكَرِ ٤١ .

في هذه الآيات: طمع زكريا عليه السلام حين رأى ما رأى من كرم الله على مريم من الرزق والفضل دون تسبب أو تدخل أحد من الآدميين بذلك ، فرجا الله أن يرزقه الولد ، رغم كبر سنه ، وكون امرأته عاقراً . فنادته الملائكة بالبشرى وهو في محرابه .

قال السدي: (فلما رأى زكريا من حالها ذلك ، يعني: فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، قال: إن رباً أعطاهما هذا في غير حينه ، لقادر على أن يرزقني ذرية طيبة ! ورغب في الولد ، فقام فصلى ، ثم دعا ربه سرّاً فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ٤١ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٤٢ يَرْبِّيْ وَيَرْبِّثْ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا [مريم: 4-6] . وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ . وقال: (طيبة: يقول مباركة) .

وقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ﴾ . قال السدي: (وهو جبريل ، أو: قالت الملائكة ، وهو جبريل ، ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾) . فإن العرب تخبر أحياناً عن الواحد بمذهب الجمع .

وقوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾ . أي: حالة قيامه في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته ، فبشرته بولد من صلبه اسمه يحيى .

قال قتادة: (إنما سمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان).

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾. قال قتادة: (مصدقاً بعبسي بن مريم ، وعلى سنته ومنهاجه). وقال الضحاك: (كان يحيى أول من صدق بعبسي وشهد أنه كلمة من الله ، وكان يحيى ابن خالة عيسى ، وكان أكبر من عيسى).

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾. قال سعيد بن جبير: (السيد التقى). وقال قتادة: (أي: والله ، لسيد في العبادة والحلم والعلم والورع). وقال مجاهد: (السيد الكريم على الله). وقال ابن زيد: (السيد الشريف). وقال سعيد بن المسيب: (السيد الفقيه العالم). وقال عكرمة: (السيد الذي لا يغلبه الغضب).

وخلاصة المعنى: إن الله أخبر أنه يبشره بيحيى مصدقاً بهذا ، وسيداً: أي شريفاً في العلم والورع والحلم والعبادة.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾. يروي ابن جرير عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: (الحصور: الذي لا يأتي النساء). وقال الربيع: (هو الذي لا يولد له). وقال الضحاك: (هو الذي لا يولد له ولا ماء له). وقال السدي: (الحصور الذي لا يريد النساء).

قال الحافظ ابن كثير: (وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه كان حصوراً ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيوباً ، أو لا ذكراً له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، وثقاة العلماء ، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام. وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي: لا يأتيها كأنه حُصِرَ عنها. وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ، ثم قمعها: إما بمجاهدة كعبسي ، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه ، درجةً عليا ، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة ، بتحسينهن ، وقيامه عليهن واكتسابه لهن ، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره).

ثم قال ابن كثير: (والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قال هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء

زكريا المتقدم حيث قال: ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعقب ، والله سبحانه وتعالى أعلم).

وقوله: ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾. فيه بشارة بالنبوة ليحيى بعد البشارة بولادته ، وقد وصفه الله بالصالح ثناء منه سبحانه عليه .

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾. تَعَجُّبٌ من زكريا عليه السلام مع إيمانه بالبشارة ، إذ كيف يكون الولد ممن بلغ من السن ما بلغ وامرأته عاقر لا تلد. فأجابه الله تعالى على لسان المَلَك: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ إذ لا يعجزه شيء ، ولا يتعاضمه أمر ، وهو على كل شيء قدير .

قال السدي: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾: وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً).

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴾. أي ليزول الشيطان عني بوسوسته ، وأزداد إيماناً وبصيرة بأن ما بُشِّرْتُ به هو من ملائكتك وهو بأمرك .

فأجابه سبحانه: ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ﴾ أي: إلا إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح تنطق ، وذلك ثلاثة أيام .

قال قتادة: (فأخذ عليه بلسانه ، فجعل لا يقدر على الكلام إلا ما أوماً وأشار).

وقال الضحاك: (الرمز أن يشير بيده أو رأسه ، ولا يتكلم).

وقوله: ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾. هو أمر الله له بتسبيحه وتعظيمه في هذه الحال ، التي أوقف بها عن تكليم الناس بغير خرس ولا عاهة ولا مرض - آية من آيات الله عز وجل .

قال مجاهد: (الإبكار أول الفجر ، والعشيّ مِثْلُ الشمس حتى تغيب).

44-42. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ

الرَّكِيهِمْ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ
أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: تبشير الملائكة مريم باصطفاء الله تعالى لها ، وحُثُّها على الإقبال
على شكره سبحانه والركوع له والسجود .

قال مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾: جعلك طيبة إيماناً . والمقصود أن الله
سبحانه قد اختارها واجتباها لطاعته وخصَّها بكرامته ، فقد عرفت بكثرة عبادتها
وزهادتها وطهارتها من الأكدار والوساوس .

وقوله: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ . قال ابن جريج: (ذلك للعالمين يومئذ) .

قلت: وقد ثبتت كرامتها على نساء العالمين ، هي وآسية امرأة فرعون ، وخديجة
بنت خويلد ، وابنتها فاطمة ، في السنة الصحيحة ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه ، قال: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: [خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت
خويلد] (1) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي موسى قال: قال
رسول الله ﷺ: [كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ،
ومريم بنت عمران - زاد ابن مردويه: (وخديجة بنت خويلد) - وإن فضل عائشة على
النساء كفضل الشريد على سائر الطعام] (2) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أنس ، عن
النبي ﷺ قال: [خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ،
وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون] (3) . ورواه الترمذي بلفظ: [حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ
العالمين مريم] .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3432) ، ومسلم (2430) ، وأحمد (132-84/1) ، وغيرهم .
- (2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (3411) ، (5418) ، وصحيح مسلم (2331) ، ومسند
أحمد (394/4) ، (409/4) ، وصحيح ابن حبان (7114) ، وصحيح الجامع (4454) .
- (3) حديث صحيح . انظر مسند أحمد (135/3) ، ومستدرک الحاكم (157/3) ، وانظر صحيح الجامع
(3323) ، وكتابي: السيرة النبوية (102/1) في فضائل خديجة .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكَ وَلَهَّرَكَ وَأَصْطَفَاكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. قال: وكان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ: [خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تترك مريم بنت عمران بعيراً قط] (1).

وقوله: ﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾. هو اختصاص من الله لها إذ أمر الملائكة أن يأمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لها، لما في ذلك من رفعة لها في الدارين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. أي: حجة لك أمام خصومك من أهل الكتابين، وتحقيقاً لصدقك، إذ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَهْلُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

قال قتادة: (كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم، فتشاخ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها، فقرعهم زكريا، وكان زوج أختها، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، يقول: ضمها إليه).

وقال الضحاك: (اقترعوا بأقلامهم أيهم يكفل مريم، فقرعهم زكريا).

وعن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: ما كنت معهم إذ يختصمون فيها. يخبره بخفي ما كتموا منه من العلم عندهم، لتحقيق نبوته والحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه).

45-47. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾.

في هذه الآيات: بشرت الملائكة مريم عليها السلام بولد عظيم يوجد منها، سيكون

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2527)، من طريق عبد الرزاق (20603)، وأخرجه أحمد في المسند (275/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

له شأن كبير وأمر عظيم ، وسيكون ﴿يَكَلِّمُهُ مِّنْهُ﴾ سبحانه ، يعني بأمره كن فيكون ، واسمه المسيح عيسى بن مريم ، فهذه شهرته بين الناس في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين .

وفي تأويل : ﴿الْمَسِيحُ﴾ أقوال عند المفسرين :

1 - أي مَسَحَهُ الله فطهره من الذنوب . قال ابن جرير : (ولذلك قال إبراهيم : ﴿الْمَسِيحُ﴾ : الصِّدِّيق) .

2 - قيل بل المراد مُسَحَّ بالبركة . قال سعيد : (إنما سمي المسيح لأنه مُسَحَّ بالبركة) .

3 - قيل بل سمي المسيح لكثرة سياحته . ذكره بعض السلف .

4 - وقيل : لأنه كان مسيح القدمين ، لا أَخْمَصَ لهما . ذكره والذي بعده ابن كثير .

5 - وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى .

وقوله : ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ . نسبه إلى أمه ، حيث لا أب له . وإلا فالناس ينسبون إلى آبائهم في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يُرْفَعُ لكل غادر لواءٌ ، فقيل : هذه عُذْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ . أي : له وجاهة ومنزلة ومكانة رفيعة عند الله في الدنيا بما يوحيه إليه من الشريعة وأحكام الكتاب الذي نزل عليه ، وشفيعاً في الآخرة بإذن الله لمن ارتضى سبحانه ، فيقبل منه كإخوته الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله : ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ . قال الربيع : (من المقربين عند الله يوم القيامة) .

وقوله : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ . قال ابن عباس : (مضجع الصبي في رضاعه) .

وقوله : ﴿وَكَهْلًا﴾ . قال الحسن : (كلمهم في المهد صبيًا ، وكلمهم كبيراً) .

وقال قتادة : (يكلمهم صغيراً وكبيراً) . وقال مجاهد : (الكهل الحليم) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1735) ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر .

وقوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. يعني في عدادهم وأوليائهم ، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة: عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر].

ورواه مسلم بلفظ: [لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة: عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، ... وبيننا صبي يرضع من أمه ، فمرَّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه اللهم ! اجعل ابني مثل هذا ، فترك الشدي وأقبل إليه فنظر إليه ، فقال: اللهم ! لا تجعلني مثله] الحديث (1).

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾. أي: كيف لي بولد يوجد مني ولست بذات زوج ، ولا أعزم على الزواج ، ولست بغياً ؟ فأجابها الملك يؤكد لها البشري التي عجبت لها: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يصنع ما أراد ، ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر ، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: مما يشاء وكيف يشاء ، ﴿فَيَكُونُ﴾ ما أراد سبحانه ولا يتأخر شيئاً ، بل هو كلمح البصر ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

51-48. قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّتُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: يُكْمِلُ الله البشري لمريم عليها السلام ، بأن ما عَلِمَتْ فيما نزل من

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (2550) ، كتاب البر والصلة ، وصحيح البخاري (2482) ، ومسند أحمد (433/2) ، عن أبي هريرة مطوّلًا .

الكتب أن الله باعثُ نبياً يوحى إليه بكتابه الإنجيل ، هو الولد الذي وهبه لها وبشّرها به ، وسيجري على يديه من المعجزات ما ينصر به الدين الحق .

وقوله : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ . قال ابن جرير : (وهو الخط الذي يخطه بيده) . يعني الكتابة .

قال ابن جريج : (﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ ، قال : بيده) . وقوله : ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . قال قتادة : (الحكمة : السنة) . والمراد السنة التي يُوحىها إليه في غير كتاب .

وقوله : ﴿ وَالتَّورَةَ ﴾ . المراد التوراة التي أنزلت على موسى ، كانت فيهم من عهد موسى .

وقوله : ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ . يعني إنجيل عيسى ولم يكن قبله ، ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه مُوحى إليه .

وقوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . يعني : ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبي الله وحجته على خلقه ، معه علامة من الله تصدق خبره .

قال محمد بن جعفر بن الزبير : (﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، أي : يُحقق بها نبوتي ، أني رسولٌ منه إليكم) .

وقوله : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . معجزة له من الله : كان يُصوّر من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه ، فيطير عياناً بإذن الله .

وقوله : ﴿ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ ﴾ . وهو الذي يبصر نهاراً ولا يُبصر ليلاً ، وقيل بالعكس . وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش . وقيل : الذي يولد أعمى . وتفصيل ذلك من أقوال المفسرين :

1 - قال مجاهد : (الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، فهو يتكّمه) .

2 - قال قتادة : (كنا نُحدّث أن الأكمه الذي ولد وهو أعمى مغموماً العينين) .

3 - قال السدي : (هو الأعمى) . وقال ابن عباس : (الأكمه : الذي يولد وهو أعمى) .

4 - قال عكرمة : (﴿ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ ﴾ ، قال : الأعمش) .

واختار ابن جرير وابن كثير أنه الأعمى الذي لا يبصر شيئاً لا ليلاً ولا نهاراً .

قال ابن جرير: (لأن علاج مثل ذلك لا يدّعيه أحدٌ من البشر ، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى ، وكذلك علاج الأبرص).

وقوله: ﴿وَأَخِي الْمَوْثِقُ يُدْخِلُنِي اللَّهُ﴾. قال ابن كثير: (قال كثير من العلماء: بعث الله كلَّ نبي من الأنبياء بمعجزة تُناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار. وأما عيسى عليه السلام ، فبعثه في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه. إلا أن يكون مؤيِّداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبْرِه رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد ﷺ ، بعثه الله في زمن الفصحاء والبُلغاء ونحارير الشعراء ، فأثامهم بكتاب من الله عزَّ وجلَّ ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ، لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عزَّ وجلَّ لا يشبه كلام الخلق أبداً).

وقوله: ﴿وَأُتِيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. قال مجاهد: (بما أكلتم البارحة ، وما خبأتم منه. عيسى بن مريم يقوله). وقال عطاء بن أبي رباح: (الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم ، غيباً علمه الله إياه).

والمقصود: يخبرهم عيسى بإذن ربه ما أكل أحدهم وما هو مدّخر للغد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾. يعني ما سبق ذكره من معجزات وآيات ، فيها عبرة لهم ، إن كانوا يصدقون بحجج الله ويقرون بتوحيده.

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. يعني يوافق ما جاءهم في التوراة مما قرّره من أصول الدين ومقاصده. ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: قال قتادة: (كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى ، وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب⁽¹⁾ ، وأشياء من الطير والحيتان).

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (أي أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه ، ثم أحله لكم تخفيفاً عنكم ، فتصيبون يُسرّه ، وتخرجون من تِباعته).

(1) الثروب : جمع ثَرْب ، وهي الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء من الذبائح والأنعام .

وقال الحسن: (كان حرّم عليهم أشياء ، فجاءهم عيسى ليحل لهم الذي حرّم عليهم ، يتغني بذلك شكرهم).

ولا شك أن الآية تدل عند أهل العلم على نسخ بعض أحكام التوراة أيام عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. قال مجاهد: (ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها ، وما أعطاه ربه).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رُبٌّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. يعني: التمسوا تقوى الله سبحانه ، فأنا وأنتم مشتركون في عبادة الله ومأمورون بتوحيده وتعظيمه وحده لا شريك له ، فهذا صراط النجاة في الدنيا والآخرة.

54-52. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۖ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۖ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

في هذه الآيات: لما وجد عيسى عليه السلام من بني إسرائيل محاولات التكذيب والصد والجحود ، نادى: من أعواني على المكذبين بحجة الله ، ومن ينصرتي ويعاونني على الدعوة إلى الله؟ فأجابه الحواريون ، ومكر الملائكة الطغاة الماكرون.

قال مجاهد: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي من يتبعني إلى الله. فأجابه الحواريون - وهم الأنصار لكل نبي - نحن أنصار الله وحملته لواء دينه بايعنا على ذلك. قال الضحاك: (الحواريون: أصفياء الأنبياء).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله ، قال: [كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم . فيقول: ألا رجل يحملني إلى

قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلغَ كلامَ ربي [(1)] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن جابر: أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبير رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ: [إنَّ لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير] (2) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح ، عن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل] (3) .

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ . هو قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم .

وقوله: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . قال محمد بن جعفر بن الزبير: (لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه - يعني وفد نصارى نجران) .

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ . قال عكرمة: (مع أمة محمد ﷺ) . قال ابن جرير: (أي صدقنا بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك ، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ، يعني بذلك: صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به ، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك ، وقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقروا لك بالتوحيد ، وصدقوا رسلك) .

وقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ .

إخبار من الله سبحانه عن الملأ من بني إسرائيل حين همّوا بقتل عيسى عليه السلام وصلبه ، عندما وشوا لملك ذلك الزمان ، وكان كافراً ، أن رجلاً يضل الناس عن

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (201) ، وأخرجه أحمد في المسند (339/3-440) ، وهو على شرط مسلم .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2846) ، وأخرجه مسلم (2415) ، وأحمد (314/3) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (50) ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان من حديث عبد الله بن مسعود .

البيضاء ، شرقيّ دمشق بين مهرودتين⁽¹⁾ ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه مثل جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد من ريح نفسه إلا مات⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح ، عن أوس بن أوس ، عن النبي ﷺ قال: [ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق]⁽³⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . قال: فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا ، فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة]⁽⁴⁾ .

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ .

قال قتادة: (هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته ، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة) .

وقد وقع ذلك ، فإن النصارى كانوا أقرب إلى الحق من اليهود ، فلما رفع الله المسيح عليه السلام تفرقت أصحابه شيعاً بعده ، منهم من آمن به أنه عبد الله ورسوله ، ومنهم من غلا فيه ، واستمروا على ذلك قريباً من ثلاث مئة سنة . قال ابن كثير: (ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل: حيلة ليفسده ، فإنه كان فيلسوفاً ، وقيل: جهلاً منه ، لأنه بدّل لهم دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين ، والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحلّ في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى المشرق ، وصوّروا له الكنائس ، والمعابد والصوامع ، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه - فيما يزعمون - وصار دين المسيح دين قسطنطين ، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنى المدينة

(1) أي يلبس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران . ذكره النووي .

(2) حديث صحيح . وهو جزء من حديث طويل ، انظر مختصر صحيح مسلم (2048) .

(3) حديث صحيح . رواه الطبراني في «المعجم الكبير» . انظر صحيح الجامع الصغير (8025) .

(4) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (95/1) . وانظر مختصر صحيح مسلم (2061) ،

وكتابي : أصل الدين والإيمان (1047/2) لتفصيل الحدث .

المنسوبة إليه ، واتبعه طائفة المَلَكِيَّة منهم . وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفاراً ، عليهم لعائن الله . فلما بعث الله محمداً ﷺ ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض ، إذ قد صدَّقوا الرسول النبي الأمي العربي ، خاتم الرسل ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، مع ما قد حَرَفُوا وبَدَّلُوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخَ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق ، الذي لا يُعَيَّر ولا يُبَدَّل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاريها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر ، وسلبوها كُنُوزَهما ، وأنفقت في سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عزَّ وجلَّ في قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : 55] . الآية ، فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً ، سَلَبُوا النصراني بلاد الشام وأجلَّوهم إلى الروم فلجَّؤوا إلى مدينتهم القُسْطَنْطِينِيَّة ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيئون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً ، لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الْأَنْزَارِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ . وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود ، أو غلا فيه وأطراه من النصراني ، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، وأخذ الأموال ، وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق انتهى .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ . أي : وما لهم من عذاب الله من مانع ولا دافع .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ . أي : في الدنيا بالنصر والظفر والتمكين والتأييد ، وفي الآخرة : بجنات الخلود والنعيم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ . يعني : الذين يبيعون في الأرض بغير الحق ، ولا يقيمون العدل ويأكلون حقوق الناس بالباطل .

وقوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من أمر عيسى وميلاده وكيف أوحينا إليه ، ونبوته ورفعته ، من الآيات التي هي حجج بالغة على من حاجك من نصارى نجران وغيرهم من أهل الكتاب .

قال ابن عباس: ﴿وَالذِّكْرِ﴾ ، يقول: القرآن ، ﴿الْحَكِيمِ﴾ ، الذي قد كمل في حكمته). فهو الكتاب ذو الحكمة الفاصلة بين الحق والباطل ، وبينك - يا محمد - وبين من ينسب الكذب في قصة عيسى وأمه والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

59-63. قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ .

في هذه الآيات: يقرن سبحانه وتعالى بين خلق عيسى وخلق آدم عليهما السلام ، فالله خلق آدم من غير أب ولا أم ، فلا عجب في قدرة الله أن يخلق عيسى من غير أب ، ومن ثم فجواز ادعاء النبوة في آدم هو أولى منه في عيسى ، وهذا باطل باتفاق أهل الأديان ، الأمر الذي يقتضي فساد هذا الادعاء في عيسى عليه السلام .

وإنما الأمر حقيقته إظهار قدرة الله في الخلق ، فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون . فمن حاجك فيه بعد ذلك يا محمد فادعهم إلى المباهلة .

قال الربيع: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: فلا تكن في شك مما قصصنا عليك أن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمة منه وروح ، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).

وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾. أي: جادلَكَ في شأن المسيح عيسى بن مريم ، يا محمد. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا فلندع: ﴿أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ يقول: ثم نلتعن .

والمعنى: نحضرهم في حال المباهلة ثم نلتعن ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ منا أو منكم .

أخرج الحاكم من حديث يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع ، عن أبيه ، عن جده ، قال يونس : (فلم تزل به وبهم - يعني وفد نجران - المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى عليه السلام ؟ فإننا نرجع إلى قومنا ، ونحن نصارى ، فيسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ما عندي فيه شيء يؤمي هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام ، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [٢٩] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [٣٠] فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ ، فأبوا أن يقرؤا بذلك ، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر ، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له ، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره للمباهلة فخافوا وتشاوروا فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك (1)

وله شاهد عند الترمذي عن سعد قال : [لما نزلت هذه الآية : ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ﴾ الآية ، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلي » .]

وأخرج البيهقي بسند صحيح إلى ابن مسعود : [أن السيد والعاقب أتيا رسول الله ﷺ ، فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تُلَاعِنُهُ ، فوالله إن كان نبياً فلاعنته لا نُفْلِحُ نحن ، ولا عَقِبْنَا من بعدنا ، قالوا له : نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً ، فقال رسول الله ﷺ : لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين . فاستشرف لها أصحابه ، فقال : قُمْ يَا أَبَا عبيدة بن الجراح . فلما قام ، قال : هذا أمين هذه الأمة [(2)] .

(1) انظر سيرة ابن هشام (573/1-584) ، والحديث السابق فيه ضعف ، لجهالة سلمة بن يسوع فما فوقه ، لكن ذكره ابن كثير في السيرة (101/4-106) ، وفي التفسير (369/1-370) . وأخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (384/5-392) ، وأكثره له شواهد ، وفي بعضه نكارة قد حذفها ، وانظر تفصيل ذلك في كتابي : السيرة النبوية (1631/2-1633) ، وصحيح الترمذي (2397) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البيهقي ، ويشهد له ما بعده في الصحيحين ، وانظر زاد المعاد (637/3) .

ورواه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: [جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابعث لنا رجلاً أميناً ، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين ، حق أمين ، قال: فاستشرف لها الناس ، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح⁽¹⁾ .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ قال: إن لكل أمة أميناً ، وإنَّ أميننا ، أيُّها الأمة ، أبو عبيدة بن الجراح⁽²⁾ .

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة قال: [بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران ، فقالوا فيما قالوا: أ رأيت ما يقرؤون «يا أخت هارون» ، وقد كان بين عيسى وموسى ما قد علمتم ، قال: فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته ، قال: أفلا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين الذين كانوا قبلهم⁽³⁾ .

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ ﴾ . قال ابن عباس: (إن هذا الذي قلنا في عيسى ، هو الحق ، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، الآية) .

وقوله: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . أي: العزيز في انتقامه ممن عانده وعصاه وخالف أمره ، وادعى معه إلهاً غيره ، أو عبد رباً سواه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره وقدره وشرعه .

وقوله: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ الْمُسْدِينَ ﴾ . أي: إن أعرضوا رغم البيان والحجج الدامغة فإن الله يعلم من عدل عن الحق إلى الباطل واتبع سبيل المفسدين والمبطلين وسيجزيه على عمله يوم يلقاه .

64. قوله تعالى: ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2420) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه . وانظر صحيح البخاري (4380) وكذلك (3745) ، وأحمد (385/5) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (74/7) في فضائل أصحاب النبي ﷺ . باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .
- (3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2135) ، كتاب الآداب : باب النهي عن التكني بأبي القاسم ، من حديث المغيرة بن شعبة .

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ .

في هذه الآية: دعوة أهل الكتاب إلى توحيد الله ونبذ الشرك والتحاكم إلى الدين الحق دين الإسلام.

وقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ . يشمل أهل التوراة وأهل الإنجيل . ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا وهلموا . ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ . قال قتادة: (عدل بيننا وبينكم) . وقال أبو العالية: (كلمة السواء: لا إله إلا الله) .

وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ . يعني نفرد بالتعظيم والدعاء ، فلا ندعو وثناً ، ولا صليباً ، ولا صنماً ، ولا طاغوتاً ، ولا ناراً ، ولا شيئاً .

وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ . قال ابن جريج: (لا يُطع بعضنا بعضاً في معصية الله . ويقال إن تلك الربوبية: أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة ، وإن لم يصلوا لهم) . وقال عكرمة: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، قال: (سجود بعضهم لبعض) .

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . يعني: إن تولي بعد ذلك أهل الكتاب وأصرروا على الشرك بالله فقولوا أيها المؤمنون لهم: اشهدوا علينا بأننا على التوحيد قائلون ، وعلى أفراد الله سبحانه بالتعظيم عاكفون .

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس - في قصة هرقل مع أبي سفيان وسؤاله لهم -: [ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به رُحِيَّةُ إلى عظيم بُصْرَى فدفعه إلى هرقل فقرأ فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، و: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (7) ، كتاب بدء الوحي ، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وهو جزء من حديث طويل .

65 - 68. قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾ .

في هذه الآيات: يا أهل التوراة والإنجيل ، لم تجادلون في إبراهيم وتخاصمون فيه ، ويدعي كل فريق منكم أنه كان منكم ولم ينزل الإنجيل والتوراة إلا بعد حين من موت إبراهيم عليه السلام ووفاته؟! أفلا تفقهون خطأ قيلكم. إنما كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وإن أولى الناس به هذا النبي وأهل الحق المؤمنين .

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبيرة ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال: (اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً! وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . قالت النصارى: كان نصرانياً! وقالت اليهود: كان يهودياً! فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، وبعده كانت اليهودية والنصرانية).

ثم عاب عليهم سبحانه هذا الحكم منهم بغير علم ، فقال جل ذكره: ﴿هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ . قال السدي: (أما الذي لهم به علم: فما حرّم عليهم وما أمروا به ، وأما الذي ليس لهم به علم: فشان إبراهيم).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . أي: يعلم ما غاب عنكم وأنتم لا تعلمون إلا ما عاينتم وشاهدتم أو أدركتم علمه بالأخبار والسماع .

ثم أكذبهم سبحانه فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ ، فأدحض حجبتهم يعني اليهود - في ادعائهم أن إبراهيم مات يهودياً ، أو نصرانياً - يعني في ادعاء النصارى .

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .


أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر: [أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ، فهل تدلني على غيره ، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال زيد: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى ، فذكر مثله ، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال: ما أفرُّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله ، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام ، خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم⁽¹⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

المعنى: إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته الذين سلكوا طريقه ومنهجه ، في التوحيد والعبادة وإفراد الله بالتعظيم ، من سائر الأديان ، والله مؤيد جميع المؤمنين وناصرهم .

أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ قال: إن لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل ، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ . . الآية⁽²⁾ .

74-69 . قوله تعالى: ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ

إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾  يَتَّهَلَّوْنَ بِالْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (3827) ، كتاب المناقب ، وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (117/1) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2995) ، والحاكم (292/2) ، (553/2) وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2394) .

تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّاهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْنُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

في هذه الآيات: اليهود أمكر من دب على وجه الأرض ، فهم أهل بغي وظلم وحسد ، والله تعالى يخبر في هذه الآية: ﴿ وَدَّتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني جماعة من أهل التوراة من اليهود ، وأهل الإنجيل من النصارى ، ﴿ لَوْ يُضِلُّوكُمْ ﴾ أي: يصدونكم عن الإسلام إلى ما كنتم عليه من الكفر لتهلكوا به ، والله تعالى يحذركم طاعتهم ويكشف لكم مكرهم ، ويُبَيِّنُ اختصاصه تعالى برحمته من يشاء من المؤمنين .

وقوله: ﴿ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي: ما يهلكون بمحاولتهم هذه إلا أنفسهم وأهل ملتهم يحلول سخط الله عليهم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: وهم لا يدرون ولا يعلمون .

وقوله تعالى: ﴿ يَتَّاهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ . قال قتادة: (تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به ، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل: ﴿ أَلَيْسَ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ﴾).

وقوله: ﴿ يَتَّاهِلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ . قال قتادة: (يقول: لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره ، الإسلام ، ولا يجزي إلا به).

وقوله: ﴿ وَتَكْنُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الربيع: (يقول: تكتمون شأن محمد ﷺ ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قال ابن عباس : (وذلك أن طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمد ﷺ أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم ، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب ، وهم أعلم منا ! لعلهم ينقلبون عن دينهم . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم).

وقال مجاهد: (يهودٌ تقوله . صلت مع محمد صلاة الصبح ، وكفروا آخر النهار ، مكرراً منهم ، ليروا الناس أن قد بدت لهم منهم الضلالة ، بعد أن كانوا اتبعوه). وقال: (قال: صلوا معهم الصبح ، ولا تصلوا معهم آخر النهار ، لعلكم تسترلونهاهم بذلك).

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال قتادة: (لعلهم يدعون دينهم ، ويرجعون إلى الذي أنتم عليه). وقال ابن عباس: (لعلهم ينقلبون عن دينهم). وقال السدي: (لعلهم يشكون).

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾. قال السدي: (لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية). ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ وسط الكلام ، وهو خبر من الله عن أن البيان بيانه والهدى هُداة.

وقوله: ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾. قال مجاهد: (حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم ، وإرادة أن يتبعوا على دينهم).

وقوله: ﴿أَوْ يَحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾. قال ابن جريج: (قال بعضهم لبعض: لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ، ليحاجوكم - قال: ليخاصموكم - به عند ربكم).

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ بِيَدِ اللَّهِ﴾. يعني التوفيق والهداية للإيمان والدين الحق. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحكمته وعلمه ، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: ذو سعة بفضله يعلم من يستحق الهداية والنور والإيمان ممن لا يستحق ذلك.

وقوله: ﴿يَخْلُصَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. قال مجاهد: (النبوة يخلص بها من يشاء). وقال ابن جريج: (القرآن والإسلام).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. يعني في اختصاص المؤمنين بالإيمان ومتابعة محمد ﷺ ، وهدايتهم إلى أشرف الشرائع والتأسي بسيد الخلق.

75-76. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ

عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَيْدٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن طائفة من يهود هم أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها ، وعن طائفة أخرى: أهل خيانة للأمانة واستحلال للمحرمات .

فمنهم من إن تأمنه بقطار من المال يؤده إليك ، وهذا يشمل ما دونه بطريق الأولى . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ . قال قتادة: (إلا ما طلبته واتبعته) . وقال السدي: (يعترف بأمانته ما دمت قائماً على رأسه ، فإذا قمت ثم جئت تطلبه كافر - الذي يؤدي ، والذي يجحد⁽¹⁾) .

فالمعنى: لا يؤديه إليك إلا بالمطالبة والاقتضاء والملازمة والإلحاح لاستخلاص حقه منه ، فإذا كان هذا صنيعة في الدينار ، فنكوله لما فوّه من باب أولى . قال مالك بن دينار: (إنما سُمِّيَ الدينار لأنه دين و نار)⁽²⁾ . وقيل: (معناه أنه من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار) .

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: [أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل: سأل بعض بني إسرائيل أن يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ: اثْنِي بِالْشُهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . قَالَ: فَأَتَنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا . قَالَ: صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكُبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَلُهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ رَجَعَ مُوَضَّعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلِّفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِي بِكَ ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِي بِذَلِكَ ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا ، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا ، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَ: وَاللَّهِ

(1) بيان عن ذكر الفريقين . أي : هذا الذي يؤدي ، وهذا الذي يجحد .

(2) رواه ابن أبي حاتم من طريق زياد بن الهيثم . ذكره والذي بعده الحافظ ابن كثير في التفسير .

مازلتُ جاهدًا في طلب مَرْكَبٍ لِإِيَّتِكَ بِمَالِكَ فما وجدتُ مَرْكَبًا قبل الذي أُتيتُ فيه .
قال : هل كنتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ شيء ؟ قال : أَخْبِرُكَ أَنِّي لم أجدُ مَرْكَبًا قبل الذي جئتُ فيه ،
قال : فإن الله قد آدَى عنكَ الذي بَعَثْتَ الخَشْبَةَ وَأَنْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِينَارِ راشداً⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ ﴾ . يعني - قال الذين استحلوا
الخيانة من اليهود - : لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم ، لأنهم على غير
الحق ، وأنهم مشركون .

قال قتادة : (قالت اليهود : ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل) .

وقال : (قال : ليس علينا في المشركين سبيل ، يعنون من ليس من أهل الكتاب) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن جريج : (يعني ادّعاءهم
أنهم وجدوا في كتابهم قولهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ ﴾) .

والمعنى : يقولون على الله الكذب ، ويفترون وهم يعلمون أنهم يكذبون .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

المعنى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكذبة من اليهود ، أنه ليس عليهم حرج ولا إثم
في أموال الأميين ، ولكن الأمر أنه من أوفى بعهده وأدى الأمانة ، واتقى الميثاق الذي
عقده الله بالإيمان بمحمد ورسالته ، فصدق بذلك وقام بمقتضى هذا العهد والميثاق
الذي أخذه الله على الأنبياء والأمم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

77. قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَنَ بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا

خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

في هذه الآية : إن الذين ارتضوا أن يستبدلوا الذي هو أدنى : الأثمان الزهيدة
والعروض الفانية ، والزينة البالية ، بالذي هو أعلى : تصديق عهد الله باتباع محمد ﷺ
والإيمان بما جاء به ، لا نصيب لهم في خيرات الآخرة ، ولا يكلمهم الله كلام تشریف
ومدح ، بل كلام إهانة وتوبيخ ، ثم ينتظرهم بعد ذلك عذاب أليم .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2291) تعليقاً ، بصيغة الجزم . كتاب الكفالة . وانظر (1498) .

وفي أسباب النزول لهذه الآية أحاديث صحيحة :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن شقيق ، عن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ ، لِقَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] ، فجاء الأشعث فقال: ما حَدَّثَكُمْ أَبُو عبد الرحمن ؟ فِي أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، كَانَتْ لِي بَثْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي ، فَقَالَ لِي : شَهَوْدَكَ . قُلْتُ : مَا لِي شَهْوَدٌ ، قَالَ : فَيَمِينُهُ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْنُ يَحْلِفَ ، فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْحَدِيثَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ تَصْدِيقًا لَهُ⁽¹⁾ .

ورواه أحمد وفيه : (فقال الأشعث: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي أَرْضِي ، فَقَدِمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ ؟ قُلْتُ : لَا . فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ : احْلِفْ . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْنُ يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ . . . الآية) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنهما: [أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ ، فَحَلَفَ فِيهَا لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا - مَا لَمْ يُعْطَ - لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ]⁽²⁾ .

قلت: ولا مانع من نزول الآية في السببين السابقين معاً. وقد جاءت أحاديث أخرى في بيانها:

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن رجاء بن حيوة والعُرْس بن عميرة ، عن أبيه عدي - هو ابن عميرة الكندي - قال: [خاصم رجل من كندة يقال له - امرؤ القيس بن عابس ، رجلاً من حَضْرَمَوْتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضٍ ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيِّنَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ ، فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2356) ، كتاب المَسَاقَاة ، باب الخصومة في البئر والقضاء فيها . وانظر (2673) ، وصحيح مسلم (138) ، ومسند أحمد (44/1) ، (211/5) ، (212/5) للرواية الأخرى ، ورواه ابن ماجه (2323) ، والبيهقي (44/10) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4551) ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، آية (77) ، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه .

باليمين . فقال الحضرمي : أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت - ورب الكعبة - أرضي . فقال النبي ﷺ : من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أحد لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان . قال رجاء : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : الجنة . قال : فاشهد أنني قد تركتها له كلها⁽¹⁾ .

الحديث الرابع : أخرج البخاري عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : [ثلاثة لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : رجلٌ كان له فضلٌ ماءٍ بالطريق فمَنَعَهُ من ابن السبيل ، ورجلٌ بايع إمامه لا يُبايعُهُ إلا لِدُنْيَا ، فإن أعطاه منها رَضِيَ وإن لم يُعْطِهِ منها سَخِطَ ، ورجلٌ أقام سِلْعَتَهُ بعد العصر فقال : والله الذي لا إله غيره لقد أعطيتُ بها كذا وكذا ، فصَدَّقَهُ رجلٌ ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾]⁽²⁾ .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح ، عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : [ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا . قال : وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال : المُسْبِلُ ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان]⁽³⁾ .

الحديث السادس : أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُلَيْكَةَ : [أَنَّ امرأتين كانتا تَخْرِزَانِ فِي بَيْتٍ فِي الْحُجْرَةِ ، فَخَرَجَتْ إِحْدَاهُمَا وَقَدْ أَتَفَذَ بِإِشْفَى فِي كَفِّهَا ، فَادَّعَتْ عَلَى الْأُخْرَى فَرَفَعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ ، ذَكَّرُوهَا بِاللَّهِ وَاقْرَءُوا عَلَيْهَا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ فَذَكَّرُوهَا فَاعْتَرَفَتْ . فقال ابن عباس : قال النبي ﷺ : اليمين على المدعى عليه]⁽⁴⁾ .

- (1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (192/4) بإسناد صحيح ، وأخرجه النسائي في « الكبرى » (5996) من حديث عدي بن عميرة الكندي .
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2358) كتاب المساقاة ، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء .
- (3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (106) ، وأحمد (148/5) ، ورواه أبو داود (4087) ، وغيرهم .
- (4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4552) ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، آية (77) .

78. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِأَلْكَلَبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلْكَلَبِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكَلَبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

في هذه الآية: وإن من اليهود قوماً يحرفون كلام الله ويبدلون مواضعه ليزيلوه عن المراد به كذباً على الله وهم يعلمون.

قال مجاهد: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِأَلْكَلَبِ﴾ ، قال: يحرفونه. وقال قتادة: (هم أعداء الله اليهود ، حَرَفُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وابتدعوا فيه ، وزعموا أنه من عند الله).

وروى البخاري عن ابن عباس: (أنهم يحرفون ويزيلون).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . يعني: يتعمدون الكذب على الله ، والشهادة عليه بالباطل ، والإلحاق بكتاب الله ما ليس منه ، طلباً للرياسة والخسيس من حطام الدنيا . ذكره ابن جرير .

79-80. قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالى ذكره عن استحالة دعوة نبي - اصطفاه الله واختاره - لنفسه ليتخذه العباد رباً من دون الله ، ولكن يدعو الناس ليكونوا أسوة يقتدى بهم في العلم والدين . وكذلك ما ينبغي له أن يأمر الناس بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ، فإن هذا أمراً بالكفر بعد الإسلام .

فقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

قال قتادة: (يقول: ما كان ينبغي لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، يأمر عباده أن يتخذوه رباً من دون الله).

وقال ابن جريج: (كان ناس من يهود يتعبدون الناس من دون ربهم ، بتحريفهم كتاب الله عن موضعه ، فقال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه).

وفي جامع الترمذي بسند حسن: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - على عدي بن حاتم الطائي ، فقال: يا رسول الله لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم] (1).

وقوله: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾.

قال البخاري في كتاب العلم ، باب: العلم قبل القول والعمل . وقال ابن عباس: ﴿ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾: علماء ، فقهاء ، علماء ، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره). وقال مجاهد: (وهم فوق الأخبار) - أي العلماء. وعليه: فالربانيون هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا ، فالرباني الجامع إلى العلم والفقه ، البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية ، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وقوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

قال الضحاك: (حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً). وقوله: ﴿ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي: من التعليم. وقرأها عاصم: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ قال: القرآن ، ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ، قال: الفقه).

والقراءة الأولى أشهر ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ وهي قراءة عامة قراء الكوفة.

فالمعنى: بل كونوا سادة الناس وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم ، ربانيين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام ، وفرض وندب ، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم ، وبتلاوتكم إياه ودراستكموه. ذكره ابن جرير.

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3095) ، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾. يعني: ولا كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أي: لا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب .

وقد قرأها قراء الحجاز والمدينة على وجه الابتداء: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بالخبر عن النبي ﷺ أنه لا يأمركم . في حين قرأها قراء الكوفة والبصرة ، بنصب الراء: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ ، عطفاً على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ﴾ ، وهي القراءة الأشهر في الأمة .

وقوله: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. يعني إن ذلك غير كائن من النبي ﷺ أبداً. إذ كيف يأمركم بعبادة آلهة غير الله بعد انقيادكم لله بالطاعة وتذللکم له بالعبادة .

81-82. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن أخذه ميثاق الأنبياء أن يُصَدِّقَ اللاحق السابق ، وأن يمضي على منهاج النبوة في الإيمان وحراسة الدين ، حتى يأتي خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ فيصدقوه وينصروه إن أدركوه ، وإلا أوصوا أقوامهم بذلك ، فعاهدوا الله جميعهم على ذلك ، وقد شهد عليهم بذلك جلّت عظمته . فمن نقض هذا العهد أو أعرض عنه بعد توثيقه فأولئك هم العاصون الآثمون .

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ .

قال طاووس: (أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء ، ليصدقن وليؤمنن بما جاء به الآخر منهم). وقال قتادة: (هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يُبَلِّغُوا كتاب الله ورسالاته ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذ عليهم - فيما بلغتهم رُسُلهم - أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه وينصروه). وقال السدي: (لم يبعث الله عز وجل نبياً قط من لدن نوح ، إلا أخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد

ولينصرته إن خرج وهو حي ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرته إن خرج وهم أحياء).

وخلاصة المعنى: أن الله أخذ الميثاق على كل نبي من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام ، مهما أوتي أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ بإذن الله أي مبلغ ، ثم جاءه رسول من بعده ، ليؤمن به ولينصره ، فإن هذا من ميثاق النبوة . ذكره ابن كثير .

قلت: ولا شك أن الرسول محمداً ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء ، وهو الإمام الأعظم في الأمة ، والقائد الأعلى إلى يوم القيامة ، ونبوته قديمة وعريقة . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كُتِبَ نبياً ؟ قال: [كُتِبَ نبياً وآدم بين الروح والجسد]⁽¹⁾ .

وفي لفظ: [كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد]⁽²⁾ .

وله شاهد عند الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، قوله ﷺ: [إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طيئته]⁽³⁾ .

وقوله: ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد: (يعني: عهدي) . وقال محمد بن إسحاق: (إصري أي: ثقل ما حُمِّلْتُم من عهدي) . أي ميثاقي الشديد المؤكد .

وقوله: ﴿ قَالُوا أَفَرَرْنَا ۖ ﴾ . يعني ، قال الأنبياء: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك ، وبنصرتهم .

وقوله: ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ ﴾ .

قال علي رضي الله عنه: (يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ، ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ ﴾ ، عليكم وعليهم) .

والمعنى: إن هذا العهد يتطلب منكم نقله إلى أممكم أيضاً ، فالكل مطالب بتصديق

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (59/5) ، وأبو نعيم في الحلية (53/9) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ص(111) . انظر السلسلة الصحيحة (1856) .

(2) رواه أحمد في السنة . انظر المرجع السابق ، وصحيح الجامع الصغير (4457) .

(3) أخرجه أحمد (127/4) ، والطبري (34054) ، والحاكم (418/2) . وقوله: «للمنجدل»: أي لملقي على الأرض ، وانظر البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (118/1) .

رسل الله والإيمان بالوحي النازل إليهم ، والله يشهد على الجميع بذلك .
 وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي: من أعرض
 ونقض عقد هذا الإيمان الواجب فهو منعت عند الله بالفسق والخروج عن الطاعة .
 قال علي بن أبي طالب: (فمن تولى عنك ، يا محمد ، بعد هذا العهد من جميع
 الأمم ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، هم العاصون في الكفر) ذكره ابن جرير بسنده .

83-85. قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا
 أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
 وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
 الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

في هذه الآيات: ينكر سبحانه وتعالى على من يلتمس منهجاً وديناً غير دين الله
 العظيم ، الذي استسلم لأمره من في السماوات ومن في الأرض ، إما طائعاً وإما
 كارهاً ، والكل إليه يرجعون . ثم يأمر نبيه ﷺ أن يصرح بإيمانه بالله وهذا القرآن الذي
 أنزل عليه ، وما أنزل على الأنبياء والرسل قبله من الصحف والوحي ، وأن أمة ﷺ
 مؤمنون بهذا النهج النبوي العظيم . إنه من يطلب منهجاً غير دين الإسلام ليكون من
 الخاسرين .

فقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا ﴾ .

قال مجاهد: (الطائع المؤمن ، و﴿ وَكَرْهًا ﴾ ، ظل الكافر). وقال: (سجود
 المؤمن طائعاً ، وسجود ظل الكافر وهو كاره).

وقال الربيع عن أبي العالية: (كل آدمي قد أقرّ على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده . فمن
 أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً ، ومن أخلص له العبودية ، فهو الذي أسلم
 طوعاً).

وفي التنزيل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿٨٥﴾

[الرعد: 15]. وفيه أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ^(١) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 48 - 49].

قلت: والآية تشمل استسلام بعض الكفار لسلطان الإسلام وقهر رجاله الفاتحين ، وقودهم في الأسر ثم يُعْجَبُونَ بدين الله ويؤمنون . فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُرْجَمُونَ﴾ . يعني يوم المعاد ، فيقفون بين يديه للحساب والجزاء .
وقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ . يعني: القرآن . ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي .

وقوله: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ . هم ولد يعقوب الاثنا عشر ، يعني بطون بني إسرائيل .
وقوله: ﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ . يعني: ما أنزل عليهما من التوراة والإنجيل .
وقوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ . يشمل جميع الأنبياء . ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾
يعني بالإيمان ، بل تؤمن بهم جميعهم ونوقرهم ، ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب من الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم .

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ . خبرٌ عن المؤمنين من هذه الأمة أنهم يؤمنون بالله وما أنزل من الوحي على جميع رسله وأنبيائه ، وأنهم منقادون له سبحانه بالطاعة كما يحب ويرضى .

وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . يعني: من يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فهو مرفوض في منهاجه الذي ارتضى عند الله ، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الباكسين أنفسهم حظوظها ، ومن الهالكين النادمين .

89-86. قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3010) ، كتاب الجهاد والسير . باب الأسارى في السلاسل .

أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

في هذه الآيات: المرتد عن دين الله بعد الإيمان به يستحق عند الله اللعنة - منه ومن ملائكته ومن الناس أجمعين -. إلا من تدارك نفسه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى منهاج الإيمان فإن الله غفور رحيم.

أخرج ابن جرير - ورجاله رجال الصحيح - وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: [كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ . فأرسل إليه قومه فأسلم] (1).

فقد استثنى الله تعالى الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم ، فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله ، وصدقوا وأصلحوا ما فاتهم فعملوا من الصالحات ما ينجيهم عند الله الغفور الرحيم.

90-91. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالى عن مصير المرتدين عن الإيمان وقد ارتضوا الكفر منهجاً بدلاً عنه حتى وافتهم المنية ، فإنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً - لو

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (85) ، وأحمد (247/1) ، والحاكم (142/2) ، والطبري (7358) ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

استطاع ذلك - على سبيل الفدية ، بل مأواهم النار خالدين فيها مع شر البرية .

أخرج البزار بسند جيد عن عكرمة ، عن ابن عباس : [أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ ⁽¹⁾ .

قال ابن جريج : (﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ ، يقول : إيمانهم أول مرة لن ينفعهم) .

وقال السدي : (فعند موته ، إذا تاب لم تقبل توبته) .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفَرَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ . أي : الذين أخطؤوا منهج النجاة وطريق الحق حيرة منهم وعمى في قلوبهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾ . قال الحسن : (هو كل كافر) .

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ، أن نبي الله ﷺ كان يقول : [يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرايت لو كان لك مِلءُ الأرض ذهباً أَكُنْتَ تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : قد كُنْتَ سئلت ما هو أيسرُ من ذلك] ⁽²⁾ . وفي لفظ : [فقد سألتك ما هو أهونُ من هذا وأنت في صلبِ آدم ، أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك] .

وأخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب ، خير منزل . فيقول : سل وتمن . فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا ، فأقتل في سبيلك عشر مرات . لما يرى من فضل الشهادة . ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب ، شر منزل . فيقول له : تفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أي رب ، نعم . فيقول : كذبت ،

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو بكر البزار ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، وقال : وإسناده جيد . وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة آل عمران ، آية (90) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6538) ، كتاب الرقاق ، وكذلك (3334) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (2805) ، وأحمد (218/3) ، وغيرهم .

قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فِيرَد إلى النار⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن مسروق ، عن عائشة قالت : [قلت : يا رسول الله ! ابنُ جُذَعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرحم ، وَيُطْعَم المسكين ، فهل ذاك نافعُهُ ؟ قال : لا يَنْفَعُهُ ، إنه لم يقل يوماً : رَبِّ اغْفِرْ لي خطيئتي يوم الدين]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ . إخبار عن سوء المصير الذي ينتظر المرتدين عن دين الله العظيم ، لقاء استهتارهم بما عرّفهم الله به من هديه الكريم ، ومن ثمّ فلا نجاة لهم يومئذ وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق يُنتظر منه النصر أو الاستنقاذ من المكروه والألم المحدث .

92. قوله تعالى : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ

اللَّهُ بِهِ عَالِمٌ﴾ .

في هذه الآية : إخبار من الله تعالى أن بلوغ الجنة منوط بالإنفاق في سبيل الله من المال الطيب المحبّب ، وما ينفق المؤمنون من شيء إلا وهو محفوظ لهم عن العليم الكريم .

يروى ابن جرير بسنده عن السدي قال : (أما البر فالجنة) . وكذلك رواه عن عمرو بن ميمون . قال قتادة : (يقول : لن تنالوا برّ ربكم حتى تنفقوا مما يعجبكم ، ومما تهوون من أموالكم) .

وقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَالِمٌ﴾ . قال سعيد عن قتادة : (يقول : محفوظ لكم ذلك ، الله به عليم ، شاكر له) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر آفاق هذا المعنى العطر ، في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال : [كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيّرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّب . قال أنس رضي الله

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (239/3) ، والنسائي (36/6) ، والحاكم (75/2) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (214) ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل ، ورواه أحمد (93/6) ، وابن حبان (330) .

عنه: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بئرحاء، وإنها صدقة الله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: بَخْ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ ما قُلْتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أَفَعَلَ يا رسول الله! فَقَسَمَها أبو طلحة في أقاربه وبني عَمِّه⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما: [أن عمرَ تَصَدَّقَ بمال له على عهد رسول الله ﷺ وكان يُقال له: ثَمَغٌ، وكان نَخْلًا، فقال عمر: يا رسول الله، إني استَفَدْتُ مالاً وهو عندي نفيسٌ فأردتُ أن أتصدق به. فقال النبي ﷺ: تَصَدَّقْ بِأَصْلِهِ، لا يُبَاعُ ولا يُوهَبُ ولا يُورَثُ، ولكن يُنْفَقَ ثَمَرُهُ. فتصدق به عمرُ فَصَدَقْتُهُ تلك في سبيل الله وفي الرقاب والمساكين والضيِّف وابن السبيل ولذي القربى، ولا جناح على من وليه أن يأكلَ منه بالمعروف، أو يُؤْكَلَ صديقه غير مُتَمَوِّلٍ به]⁽²⁾.

وفي لفظ: [قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفُسُ عندي من سهمي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: حَبَسَ الأصل وسَبَّلَ الثمرة].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [أفضلُ الصدقات ظلٌ فسطاط في سبيل الله عزَّ وجلَّ، أو منحةٌ خادم في سبيل الله، أو طروقةٌ فحل في سبيل الله]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البخاري عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [أفضل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1461)، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، وأخرجه مسلم (998)، ومالك (595/2)، وأخرجه أحمد (141/3).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2764)، كتاب الوصايا، باب: وما للوصي أن يَعْمَلَ في مال اليتيم وما يأكل منه بِقَدْرِ عَمَلِهِ. وأخرجه مسلم (1633)، وأحمد (114/2).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1627). وانظر صحيح سنن الترمذي (1328). ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع الصغير (1120)، ورواه الحاكم وغيره. انظر تخريج الترغيب (158/2)، ورواه الترمذي من حديث عدي بن حاتم أيضاً.

الصدقة ما ترك غِنًى ، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول⁽¹⁾ .

الحديث الخامس : أخرج البزار عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله : [حَضَرْتَنِي هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية ، فقلت : هي حُرَّةٌ لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته الله لنكحتها ، يعني تزوجتها]⁽²⁾ .

93-95 . قوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ .

في هذه الآيات : إخبار من الله سبحانه عن يعقوب عليه السلام حين مرض مرضاً شديداً فنذر إن شفاه الله أن يحرم على نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك قبل تنزل التوراة ، وقد جاءت التوراة بعد ذلك تصدق ذلك . فمن ادّعى بعد ذلك أن الله شرع - ليهود - السبت أو كذب بما نزل من الوحي بعد التوراة فقد أعظم على الله الفرية . فقل يا محمد : صدق الله فيما أنزل وأرسل وشرع ، وقد أمر باتباع ملة إبراهيم ، ملة التوحيد وإفراد الله بالتعظيم ، عليه وعلى نبينا وعلى الرسل أفضل الصلاة والتسليم .

فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال : [حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي . قال : سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه : لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام . قالوا : فذلك لك . قال : فسلوني عما شئتم . قالوا : أخبرنا على أربع خلال : أخبرنا أيُّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليه من

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5355) ، كتاب النفقات ، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال .

(2) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار من طريق عمرو بن حماس ، وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير ، سورة آل عمران ، آية (92) .

الملائكة ؟ . فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنّه فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه ، فندّر الله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحزمن أحبّ الشراب إليه وأحبّ الطعام إليه ، وكان أحبّ الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحبّ الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد عليهم . وقال : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله . قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد عليهم . وقال : وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد . قالوا : وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك . قال : إن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه . قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ [الآية (1)] .

وقد جاء بسند أقوى عند الإمام أحمد والطبراني والترمذي - مختصراً - عن ابن عباس قال : [أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ . قال : هاتوا . قالوا : أخبرنا عن علامة النبي ؟ قال : تنام عيناه ولا ينام قلبه . قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة ، وكيف تُذكر ؟ قال : يلتقي الماءان ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة ، أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة أنثت . قالوا : أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : كان يشتكي عرق النساء ، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا - قال أحمد : قال بعضهم : يعني الإبل - فحرم لحومها . قالوا : صدقت . قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : ملك من ملائكة الله عز وجل موكّل بالسحاب بيده - أو في يده - مخراق من نار يزجر به السحاب ، يسوقه حيث أمر الله عز وجل . قالوا : فما هذا الصوت الذي يُسمع ؟ قال : صوته . قالوا : صدقت ، إنما بقيت واحدة ، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها ، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل عليه السلام . قالوا : جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، عدونا . لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات

وَالْقَطْرُ لَكَانَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والآية التي بعدها⁽¹⁾.

يروي ابن جرير في التفسير عن ابن جريج والعوفي ، عن ابن عباس قال : (كان إسرائيل - وهو يعقوب - عليه السلام يعتريه عِزْقُ النِّسَاءِ بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ، وَيُقْلِعُ الوجع عنه بالنهار ، فنذر الله لئن عافاه الله لا يأكل عِزْقًا ولا يأكل ولدًا له عِزْقًا). قال : (فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استئناساً به واقتداءً بطريقه).

وقوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ ﴾ . قال ابن عباس : (أي إن هذا قبل التوراة). يعني : حَرَّمَ ذلك يعقوب على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .

قال الحافظ ابن كثير : (ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان : إحداهما : أن إسرائيل عليه السلام حَرَّمَ أحب الأشياء إليه وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شرعهم ، فله مناسبة بعد قوله : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي ، كما قال تعالى : ﴿ وَءَاتَى الْكَمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة : 177] . وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : 8] الآية .

المناسبة الثانية : لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه ، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيتته ، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حَرَّمَ إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك . وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه . وقد حُرِّمَ ذلك بعد ذلك . وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حُرِّمَ مثل هذا في التوراة عليهم . وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حُرِّمَ

(1) حديث حسن أخرجه الترمذي (3117) ، والنسائي في « الكبرى » (9072) ، وأحمد (2483) ، والطبراني (12429) ، وله شاهد وهو ما قبله . وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول آية البقرة (97) ، وقد مضى هناك بتمامه .

عليهم ذلك في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكَذَلِكَ فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام ، في إحلاله بعض ما حُرِّمَ في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه ؟ بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟).

وقوله: ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإنها تنطق بما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . يعني: من ادعى بعد ذلك أن الله شرع لهم السبت أو تكذيب ما أنزل بعد التوراة فقد أعظم على الله الفرية .

وقوله: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ . أي: قل يا محمد صدق الله فيما أنزل وأرسل وشرع. ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فإن ملته هي ملة محمد ﷺ وجميع الرسل: التوحيد وإفراد الله بالتشريع والتعظيم .

96-97. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عباده أن الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل ﷺ هي أول بيت وضع للناس ، أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده. وفيه علامات واضحات أنه من بناء إبراهيم ، ومن عاد بالبيت كان حراماً آمناً له وملاذاً وملجأ ، وقد فرض الله الحج على المستطيع من عباده ، ومن جحد وجوبه كان من الكافرين .

فقوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ . قال مجاهد وقتادة: (لم يوضع قبله بيت). وقال علي رضي الله عنه: (كان قبل البيت بيوت كثيرة ، والمعنى أنه أول بيت وضع للعبادة).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: [سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض. قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى]. قلت: كم

بينهما ؟ قال : أربعون عاماً ، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل⁽¹⁾ .

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (49/1) : (أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان هو الذي بنى المسجد الأقصى ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام ، وهذا جهل من هذا القائل ، فإن سليمان إنما جدد المسجد الأقصى ، والذي أسسه أولاً يعقوب بن إسحاق).

أخرج النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ : [أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خِلالاً ثلاثة : سأل الله عزَّ وجلَّ حُكْماً يصادف حكمه فأوتِيَهُ ، وسأل الله عزَّ وجلَّ مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله عزَّ وجلَّ حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه⁽²⁾ إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه⁽³⁾ .

قال القرطبي في التفسير بعد إيراده الحديثين : (فجاء إشكال بين الحديثين ، لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة . ف قيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جددًا ما كان أسسه غيرهما . وقد روي أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدّم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ، وكل محتمل ، والله أعلم).

قلت : والتمسك بالنص أولى من التأويل ، فهو صريح أن أول بيت وضع للناس بيت الله الحرام ، والله أعلم بمن وضع أساسه الأول هل هو آدم أو بعض ولده أو الملائكة ، ثم وُضع المسجد الأقصى بعده بأربعين عاماً ، والله أعلم بمن وضعه ، أهو يعقوب أم إبراهيم عليهما السلام ، أم غيرهما ، ثم جُدد بناء الكعبة والمسجد الأقصى ، فأقام الأول إبراهيم ، وجدد بناء الثاني سليمان عليهما السلام ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ بَيِّنَةٌ ﴾ خبر إن ، واللام للتوكيد ، وبَيِّنَةٌ من أسماء مكة . قال

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3366) و(3425) ، وأخرجه مسلم برقم (520) ، ورواه أحمد في المسند (160/5) .

(2) النهز : الدفع . لا ينهزه : أي لا يدفعه ولا يزعجه .

(3) حديث صحيح . أخرجه النسائي في « الكبرى » (772) ، وابن حجر في الفتح (408/6) بإثر حديث (3371) ، وذكره القرطبي في التفسير ، وقال : إسناده صحيح .

مجاهد: (بكة هي مكة). وقيل: سميت بكّة لأنها تَبُكُّ أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنى أنهم يذَلُّون بها ويخضعون عندها. قال عبد الله بن الزبير: (لم يقصدها جبار قطّ بسوء إلا وقصّه الله عزّ وجلّ).

وقيل: بكّة مشتقة من البكّ وهو الازدحام. وسميت بذلك لازدحام الناس في موضع طوافهم. قال قتادة: (إن الله بكّ به الناس جميعاً ، فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يُفعل ذلك ببلد غيرها). وأما مكة فسميت بذلك لأنها تمكّ من ظلم فيها أي تهلكه ، وقيل: لقلّة مائها سميت بذلك ، وقيل لأنها تمكّ المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة.

قلت: وكل هذه المعاني محتملة ، فإن «بكة» موضع البيت ، ومكة سائر البلد. ومن أسمائها: مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رُحْم ، وأم القرى ، والبلدة ، والكعبة وغير ذلك.

وقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾. أي: جعله الله مباركاً لتضاعف العمل فيه ، وقد نُصب على الحال.

وقوله: ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. عطف عليه ، يعني: ومآباً لنسك الناسكين وطواف الطائفين ، تعظيماً لله رب العالمين.

وقوله: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾. أي فيه علامات واضحة أنه من بناء إبراهيم ، وهناك قراءة: «فيه آية بينة». قال مجاهد: (قدّمه في المقام آية بينة). والقراءة الأولى أشهر. قال قتادة: (﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ، قال: مقام إبراهيم ، من الآيات البينات). وقال ابن عباس: (مقام إبراهيم والمشعر). قال ابن كثير: (﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان مُلصقاً بجدار البيت ، حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطّواف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَأَخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَوْجِئًا﴾).

وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾. قال ابن عباس: (من عاذ بالبيت أعاده البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يُطعم ولا يُسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه). وقال الحسن وعطاء: (في الرجل يصيب الحد ويلجأ إلى الحرم - يخرج من الحرم ، فيقام عليه الحد).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يحل لأحدكم أن يحمل السلاح بمكة] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ لام الإيجاب. ثم أكد الوجوب بقوله: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب. وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور. والحج أحد أركان الإسلام، ويجب على المستطيع في العمر مرة.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحَجُّوا. فَقَالَ رَجُلٌ: كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجِبْتُ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ. ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ] ⁽²⁾.

وروى الحاكم بسند حسن عن أنس: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فَقِيلَ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ] ⁽³⁾.

قلت: والاستطاعة تشمل عند الفقهاء:

1 - صحة البدن. 2 - أمن الطريق. 3 - ملك الزاد والراحلة. 4 - المَحْرَمُ للمرأة.

ودليل الصحة: ما في الصحيحين عن ابن عباس: [أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمٍ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَبِي أَدْرَكَتْهُ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ، فَأَحْجِ عَنْهُ؟ قَالَ: حَجِّي عَنْهُ] ⁽⁴⁾.

ودليل الأمن: فلأن إيجاب الحج مع عدم ذلك ضرر، والنبى ﷺ يقول: [لا ضرر ولا ضرار، من ضارَّ ضارَّه الله، ومن شاقَّ شاقَّه الله] ⁽⁵⁾.

- (1) حديث صحيح. رواه مسلم، وقد تقدم في سورة البقرة (آية: 126).
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1337)، وأحمد (508/2)، وابن حبان (3704)، وغيرهم.
- (3) حديث حسن. أخرجه الحاكم (442/1)، ورواه الدارقطني (216/2)، وله شواهد.
- (4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1513) و(1855)، وأخرجه مسلم برقم (1334)، ورواه أحمد في المسند (346/1).
- (5) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (58-57/2) بسند صحيح عن أبي سعيد، والبيهقي (70-96/6).

ودليل ملك ما يكفيه: فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته ، قول النبي ﷺ: [كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت] (1).

ودليل وجوب المحرم للمرأة: ما في الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. فقال: انطلق فحج مع امرأتك] (2).

وإلى جعل المحرم للمرأة من الاستطاعة ذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد.

فإذا تحققت الشروط السابقة وجب الحج على الفور كما ذهب لذلك الإمام مالك وأحمد وأبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي وأبو يوسف ، محتجين بما روى الإمام أحمد وابن ماجة بسند حسن عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: [من أراد الحج فليتعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الضالة ، وتعرض الحاجة].

وله طريق آخر عند أحمد بلفظ: [تعجلوا إلى الحج ، فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له] (3).

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن عباس: (من زعم أنه ليس بفرض عليه). وقال الضحاك: (من جحد الحج وكفر به). وقال الحسن: (من أنكره ، ولا يرى أن ذلك عليه حقاً ، فذلك كفر).

وروى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي ، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، حدثني عبد الرحمن بن غنم ، أنه سمع عمر بن

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (1692) ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وانظر صحيح مسلم - حديث رقم - (996) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3006) ، كتاب الجهاد والسير ، وكذلك (1862) ، ورواه مسلم (1341) ، كتاب الحج ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (214/1-314) ، وانظر صحيح الجامع (2954) ، وكذلك (5880) ، (5879) للفظ الأول ، وانظر تخريج إرواء الغليل (990) .

الخطاب رضي الله عنه يقول: (من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً)⁽¹⁾.

98-99. قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٩﴾ .

في هذه الآيات: تقرير بكفرة أهل الكتاب ممن كفر بمحمد ﷺ وجحد نبوته ، وقد علموا الحجج على نبوته من كتبهم ، والله يشهد ما يصدون به عن سبيله ، يبغون بذلك العوج والميل عن الهوى ، وهم يعلمون أنهم يحرفون الطريق الحق والصراط المستقيم ، والله سبحانه ليس بغافل عن أعمالهم وتحريفهم ومكرهم .

100-101. قوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿١٠١﴾ .

في هذه الآيات: تحذير من الله سبحانه للمؤمنين أن يسقطوا في الطريق فيطيعوا طائفة من حسادهم أهل الكتاب ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُتِّينَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109]. ثم استنكار أن يقع الكفر من أحدهم بعدما سمع الوحي وعاصر النبوة. ثم تقرير أن الاعتصام بالله هو العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم .

فقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ . قال قتادة: (علمان بيّنان: وجدانُ نبي الله ﷺ ، وكتابُ الله . فأما نبي الله فمضى ﷺ . وأما كتاب الله ، فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة ، فيه حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته).

(1) صحيح موقوف . قال ابن كثير : (وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه) . ولا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، فقد أخرجه الترمذي (812) من حديث علي ، وهو ضعيف جداً في إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحاثر الأعور يضعف في الحديث .

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يمتنع ويتمسك بدينه وطاعته. قال ابن جريج: ﴿يَعْصِمْ بِاللَّهِ﴾: يؤمن به. وقيل: المعنى يتمسك بحبل الله، وهو القرآن.

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح على شرط مسلم، عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فإن هذا القرآن سبب طرْفه بيد الله، وطرْفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. قال ابن كثير: (أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد).

102-103. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ^(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^(١٠٣).

في هذه الآيات: أمر الله المؤمنين التزام التقوى بصدق والموت على الإسلام، والاعتصام بالجماعة والقرآن، ونبد التفرقة والطغيان، وتذكر نعمة الله في صقل القلوب على المحبة وترك العدوان، فإن النجاة من عذاب الله بالهداية والإيمان.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه]⁽²⁾.

وأخرج الحاكم والطبري بسند صحيح موقوف عن مرة، عن عبد الله بن مسعود:

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (165/12)، والطبراني في «الكبير» (1/77/1)، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74)، وانظر السلسلة الصحيحة (713).

(2) حديث صحيح. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683)، وصحيح الجامع (5126).

﴿ اَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ ، قال : (أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر)⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . قال طاووس : (على الإسلام ، وعلى حُرمة الإسلام) . وقال ابن كثير : (أي : حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بُعث عليه ، فعياداً بالله من خلاف ذلك) .

وفي مسند أحمد وسنن النسائي بسند صحيح عن حكيم بن حزام قال : [بايعت رسول الله ﷺ أن لا أجزأ إلا قائماً]⁽²⁾ .

قيل : معناه أن لا أموت إلا مسلماً . وقيل : معناه أن لا أقتل إلا مُقبلاً غير مُدبر .

قلت : وقد جاءت السنة الصحيحة بالحث على حسن الظن بالله حتى آخر لحظة عند الاحتضار ، وعلى المبادرة بفعل الخيرات من أجل حسن الختام . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل]⁽³⁾ .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله : أنا عند ظن عبدي بي]⁽⁴⁾ .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : [قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي إن ظنّ خيراً فله ، وإن ظنّ شراً فله]⁽⁵⁾ .

وله شاهد عند الطبراني في «الأوسط» من حديث واثلة بلفظ : [إن الله تعالى يقول : أنا عند ظنّ عبدي بي ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ]⁽⁶⁾ .

(1) حديث موقوف . أخرجه الحاكم (294/2) ، والطبري (7534) ، وسنده صحيح .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (402/3) ، والنسائي (205/2) وإسناده صحيح على شرطهما .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2877) ، وأبو داود (3113) ، وأحمد (315/3) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7505) ، كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم (2675) .

(5) حديث صحيح . أخرجه أحمد (391/2) ، وابن حبان (2394) ، وانظر صحيح الجامع (4191) .

(6) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (8115 - ترقيم الألباني) من حديث واثلة ، ورواه أبو نعيم في الحلية (306/9) .

وفي لفظ: [قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء] (1).

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن أنس مرفوعاً: [قال الله عز وجل: عبدي ! أنا عند ظنك بي ، وأنا معك إذا ذكرتني] (2).

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت ، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف] (3).

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ - فيه أكثر من تأويل لمعنى «حبل الله»:

التأويل الأول: عن الشعبي ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال: (الجماعة). وفي رواية: (قال: حبل الله ، الجماعة).

التأويل الثاني: عن قتادة قال: (حبل الله المتين الذي أمر أن يُعْتَصَمَ به: هذا القرآن). وقال السدي: (أما «حبل الله» ، فكتاب الله).

التأويل الثالث: عن عطاء: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ ، قال: العهد. وقال مجاهد: (بعهد الله). وقال قتادة: (بعهد الله وأمره).

التأويل الرابع: قال أبو العالية: (يقول: اعتصموا بالإخلاص لله وحده).

التأويل الخامس: قال ابن زيد: (الحبل: الإسلام).

قلت: وهذه التفاسير متقاربة يعضد بعضها بعضاً ، فإن حبل الله هو القرآن والمنهج الذي ارتضاه لنبيه ﷺ في فهمه ، ولا يستقيم الاعتصام بذلك إلا بالجماعة ، وهو مفهوم سيرته ﷺ ورحلة البناء التي مضى عليها طيلة حياته ، حتى أفرز للأمة جماعة الحق ودولة الإسلام.

(1) أخرجه الحاكم (240/4) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1663) ، وصحيح الجامع (4192) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (497/1) بإسناد صحيح لغيره . انظر السلسلة الصحيحة (2012) .

(3) حديث حسن . أخرجه الترمذي في الجامع (983) ، وابن ماجة في السنن (4261) ، وعبد الله بن أحمد في « زوائد الزهد » (ص 25/24) ، وابن أبي الدنيا كما في « الترغيب » (141/4) ، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (2) .

وقد جاء في السنة الصحيحة ربط الحبل بالاعتصام ، والقرآن بالجماعة . في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند صحيح ، عن جبير بن مطعم قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بالجحفة فخرج علينا فقال: أبشروا ، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وأحمد بسند حسن ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كتاب الله ، هو حبلُ الله الممدود من السماء إلى الأرض]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: [ألا وإني تارك فيكم ثقلين ، أحدهما كتاب الله عز وجل ، وهو حبل الله ، ومن اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ . قال قتادة: (إن الله عز وجل قد كره لكم الفرقة ، وقدم إليكم فيها ، وحذركموها ، ونهاكم عنها ، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة ، فارضضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم ، ولا قوة إلا بالله).

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ، لا تعادوا عليه ، يقول: على الإخلاص لله ، وكونوا عليه إخواناً).

قال الحافظ ابن كثير: (أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . قال: وقد تضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ).

قلت: وقد أشارت السنة الصحيحة إلى هذا الضمان ، فيما أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويؤيد الله على الجماعة]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني (1/77/1) ، وابن أبي شيبة (12/165) نحوه .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن (3790) من حديث أبي سعيد الخدري ، ورواه أحمد في المسند (14/3 ، 17) ، وانظر صحيح الجامع (4349) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (123/7) ، وابن حبان (123 - شاكر) .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع ، والطبراني في «المعجم الكبير» (3/209/1) ، والحاكم (1/115 - 116) . وانظر تخريج المشكاة (173) ، وصحيح الجامع (1844) .

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَالِمَكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. قال ابن جرير: (واذكروا ما أنعم الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام). والمقصود أن الجاهلية ونعراتها كانت قد أجهزت عليهم وفرقتهم وهي كذلك اليوم تفرق الناس وراء سبل الشياطين ، ولا يجمعهم والله إلا هذا الدين .

قال قتادة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَالِمَكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ، كنتم تذابحون فيها ، يأكل شديدكم ضعيفكم ، حتى جاء الله بالإسلام فأخى به بينكم ، وألف به بينكم . أما والله الذي لا إله إلا هو ، إن الألفة لرحمة ، وإن الفرقة لعذاب .

وقال ابن إسحاق: (كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومئة سنة ، حتى قام الإسلام وهم على ذلك ، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم ، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم . ثم إن الله عز وجل أطفأ ذلك بالإسلام ، وألف بينهم برسوله محمد ﷺ).

يروى عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب] (1). وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

قال السدي: (يقول: كنتم على طرف النار ، من مات منكم أوبق في النار ، فبعث الله محمداً ﷺ فاستنقذكم به من تلك الحفرة). وقال حسن بن حي: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ ، قال: عصبية).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. يعني: لتهتدوا إلى سبيل النجاة والرشاد ، فتسلموا في الدنيا ، وتنجوا في الآخرة.

109-104. قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٩) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (4/278) ، ورواه عبد الله بن أحمد في «الزوائد» (375/4) ، وإسناده حسن . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (667).

الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٤﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ
يَا حَقِّقْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿١٠٧﴾ .

في هذه الآيات: يأمر سبحانه أن تنفّر أمة من الأمة لحراسة الدين والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وإلا هلكت الأمة جميعاً. ثم يحذر سبحانه من الفرقة والاختلاف ،
ومغبة ذلك في الدنيا والآخرة ، فإن أهل السعادة تبيض وجوههم يوم الحساب ، وأهل
الشفاعة تسود وجوههم ، وإلى الله المليك ترجع الأمور .

فقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قال الضحاك: (هم خاصة أصحاب رسول الله ، وهم خاصة الرواة) . قال ابن كثير:
(يعني المجاهدين والعلماء) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بهذا الأمر الإلهي المبارك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال
رسول الله ﷺ: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم
يستطع فبقلمه ، وذلك أضعف الإيمان]⁽¹⁾ . وفي لفظ: «وليس وراء ذلك من الإيمان
حبة خردل» .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن ، عن حذيفة بن اليمان ،
أن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو
ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بإسناد حسن عن عبيد الله بن جرير عن أبيه قال:

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (49) وأحمد (20/3) ، وأبو داود (1140) والترمذي (2172) ،
والنسائي (112/8) ، وابن ماجه (1275) ، وابن حبان (306) .

(2) حسن صحيح بشواهد : أخرجه الترمذي (2169) ، وأحمد (391/5) ، وحسنه الترمذي والألباني .

قال رسول الله ﷺ: [ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب]⁽¹⁾.

وكذلك روى الإمام مالك في الموطأ عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: [كان يُقال: إن الله تبارك وتعالى لا يُعَذِّبُ العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم].

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. نهى عن سلوك سبيل الأمم الماضية التي فشا فيها التفرق في الدين وتشيت الكلمة وتضييع العلم.

وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽²⁾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وفي المسند وسنن أبي داود بسند حسن عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيّ قال: [حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ، قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تُجَارَى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله. والله - يا معشر العرب - لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لَغَيْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أُحْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. يعني في الآخرة لقاء تفرقهم وتضييع دينهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. قال ابن عباس: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة). والمقصود: يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. قال الحسن: (هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بالإيمان بالستهم ، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم).

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجه (4009). انظر صحيح ابن ماجه (3238). وانظر تخريج المشكاة (5142) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (687/1) له وللأثر الذي بعده عن عمر بن عبد العزيز .
(2) حديث حسن . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4597) ، وأخرجه أحمد في المسند (102/4) وإسناده حسن . وله شواهد كثيرة .

وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: مقابل النفاق والجحود والاستهزاء بالدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. قال ابن جرير: (يعني: في جنته ونعيمها وما أعد الله لأهلها فيها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: باقون فيها أبداً بغير نهاية ولا غاية).

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. يعني: مواظب الله وعبره وحججه، نقرؤها عليك ونقصها بالصدق واليقين يا محمد. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: لا يظلم أيّاً من الفريقين، فهؤلاء بيض وجوههم وكرمهم برحمته وفضله لقاء ما أخلصوا له الدين، وهؤلاء سود وجوههم وانتقم منهم لقاء ما أجرموا ومكروا، فهو الحكم العدل الذي لا يجور.

وفي صحيح أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحَكَمُ، وإليه الحكم] (1).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...] (2).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

تقرير للحقيقة الكبيرة الخالدة، فمرد الجميع إلى خالقهم وبارئهم ومليكمهم الحق، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

110-112. قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَا ذَبَارُكُمْ لَا يَنْصُرُونَ (١١١) ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4955). انظر صحيح سنن أبي داود (4145). وأخرجه النسائي.

انظر صحيح الجامع (1841)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (389/1) لتفصيل أدلة الصفات.

(2) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1828).

مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٧﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن كرامة هذه الأمة ، وأنها أفضل الأمم إلى يوم القيامة ، إذا قامت بمقتضى التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن أهل الكتاب لو آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ مصداقاً لما معهم لكان خيراً لهم ، وقليل منهم المؤمنون . إنهم لن يضرروكم إلا أذى تسمعون منه ، وهم أجبن الناس عند القتال ، فقد كتب الله عليهم الذلة والهزيمة ، وأنزل عليهم غضبه لقاء كفرهم وتجبرهم على أنبيائه بالقتل ، ونشرهم الفساد والبغي في الأرض .

فقوله: ﴿ كُتِّمَ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . قال مجاهد: (كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله) .

قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف ، عن سفيان ، عن ميسرة ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿ كُتِّمَ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: (خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام) .

ومفهوم كلام أبي هريرة أن إدخال الناس في الإسلام إنما هو رحمة لهم ونجاة من عذاب الله ، فإنهم يقعون في الأسر أولاً بانتصار المسلمين ، ثم يرون عظمة الإسلام ورحمته فيدخلون فيه ، وكانهم بهذه الصورة سيقوا إلى الجنة بالسلاسل .

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن معاوية بن حيدة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [أنتم تُؤَفَّقُونَ سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل] (1) .

وقد جاء في كثرة الداخلين الجنة من هذه الأمة أحاديث ، يبدو منها أنهم يشكلون ثلثي أهل الجنة ، وقسم كبير يدخلها بغير حساب ولا عذاب .

الحديث الأول: في الصحيحين والمسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: [عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ ، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْطُ ، والنبي ومعه الرُّهَيْطُ ، والنبي ومعه

(1) صحيح بشواهد : أخرجه أحمد (447/4) ، وأخرجه الترمذي (3001) ، وقال : حديث حسن .

الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي: هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق. فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ولا عذاب. ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً. وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال: ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه. فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت منهم. ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة⁽¹⁾.

الحديث الثاني: في المسند وجامع الترمذي بسند جيد ، عن أبي أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [وعدني ربي أن يُدْخَلَ الجنة من أمتي سبعين ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي عزَّ وجلَّ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [قال لنا رسول الله ﷺ: أما ترضون أن تكونوا رُئِعَ أهل الجنة ؟ فكبّرنا. ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة ؟ فكبّرنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطرَ أهل الجنة]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرجه الإمام أحمد والترمذي بسند حسن ، عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: [أهل الجنة عشرون ومئة صف ، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6541) ، ومسلم (220) ، وأحمد (271/1) ، ولفظ « لا يرقون » تفرد به مسلم دون البخاري وهو غريب ، فإن صحَّ فالمعنى لا يرقون برقية الجاهلية ، والحديث رواه ابن حبان في صحيحه (6430) .

(2) حديث إسناده جيد . أخرجه الترمذي (2437) ، وأحمد (268/5) ، وابن أبي عاصم (589) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6528) ، ومسلم (221) ، وأحمد (386/1) ، وغيرهم .

(4) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (355/5) من حديث بريدة ، والترمذي في الجامع (2546) ، وابن ماجه في السنن (4289) ، وغيرهم .

والخلاصة: هذه الأمة هي أمة الخيرية ، وأمة الشهادة على الناس ، وأمة الوسطية ، فمن التزم الشرط الذي ذكره الله تعالى: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ دخل في هذا الثناء العطر لهذه الأمة . قال عمر بن الخطاب: (من فعل فعلهم كان مثلهم). وقال قتادة: (بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حَجَّهَا ، رأى من الناس دعة ، فقرأ هذه الآية: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة ، فليؤد شرط الله فيها) ذكره ابن جرير .

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَمَرْتُ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ . يعني: بما أنزل الله على محمد ﷺ مصداقاً لما معهم . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أي: في الدنيا والآخرة .
وقوله: ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال قتادة: (ذم الله أكثر الناس). والمراد: أن قلة منهم ستؤمن بما أنزل إليكم ، وأكثرهم يتابعون على الفسق والضياع والانحراف .

وقوله: ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ . قال قتادة: (لن يضرركم ، إلا أذى تسمعونهم). وقال الحسن: (تسمعون منهم كذباً على الله ، يدعونكم إلى الضلالة). وقال ابن جريج: (إشراكهم في عزيز وعيسى والصليب).

وقوله: ﴿ وَإِنْ يَفْتَلَوْكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴾ . كناية عن انهزامهم وجُبْنهم أثناء القتال ، وتولية ظهورهم يركبون الفرار ، وقد كتب الله عليهم الذل وأيد المؤمنين بنصره عليهم .

قال ابن كثير: (وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسّرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم مُلْك الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم ، وهم كذلك ، وَيَحْكُمُ بِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَشَرَعَ مُحَمَّدٌ ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام).

وقوله: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

قال الحسن: (أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين).

وقال السدي: ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يقول: إلا بعهد من الله وعهد من الناس). قال عطاء: (العهد حبلُ الله).

والمعنى: ألزهمهم الله الذلة والصغار فلا يأمنون إلا بذمة من الله - وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم - وذمة من الناس - أي أمان لبعضهم إذا أئمنه واحد من المسلمين ، أو ما يكون حال المهادنة والأسر .

وقوله: ﴿وَبَاءُ وَيَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ . أي: تحمّلوا غضب الله فانصرفوا به مستحقّيه .

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ . أي: ألزموها . قال ابن جرير: (ومعنى المسكنة: ذل الفاقة والفقر وخشوعهما) .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ . أي: إنما قضى عليهم ما قضى من الذل والهزيمة لقاء كفرهم وتجربتهم على الأنبياء بالقتل حسداً منهم وبغياً في الأرض وحباً للكبر .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ . قال قتادة: (اجتنبوا المعصية والعدوان ، فإن بهما أهلك من أهلك قبلكم من الناس) .

113-117 . قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ

آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالى أن من أهل الكتاب أمة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه ، آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم برسولهم وما أنزل من قبل ، يقومون الليل ويتلون القرآن وهم من الصالحين . وما يفعلوا من خير فهو محسوب لهم والله عليم بالمتقين . إن أموال الكفار وأولادهم لن تدفع عنهم عذاب النار يوم القيامة . وإنما مثل ما ينفقون في هذه الدنيا من أموال وما يعملون من أعمال ظاهرها البر والصلاح كمثل زرع أهلكته الريح ، فإن الله لا يقبل مع الشرك شيئاً .

وقد جاء في أسباب النزول لما تقدم من الآيات في أهل الكتاب حديثان صحيحان :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند حسن عن ابن مسعود قال :
[أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم . قال فنزلت هذه الآيات : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ - إلى قوله - : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾]⁽¹⁾.

فوصف الله تعالى أمة محمد ﷺ بأنهم يصلُّونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني ورجاله ثقات ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال :
[لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ، قالت أحبار يهود أهل الكفر : ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله : ﴿ ليسوا سواء ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ من الصالحين ﴾]⁽²⁾.
قال السدي : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية ، يقول : ليس هؤلاء اليهود ، كمثل هذه الأمة التي هي قائمة).

قلت : ولا شك أن من آمن من أهل الكتاب وصدق بمحمد ﷺ فقد صار من أمته ، وهم بذلك داخلون في الثناء العطر على أهل التلاوة والقيام والإيمان .

ولذلك قال : ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ . أي : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم ، وهم مع ذلك يسجدون فيها سجود هذه الأمة المعروف في صلاتها .

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (396/1) ، وصححه ابن حبان (1530) ، وأخرجه النسائي في « التفسير » (93) ، وأخرجه أبو يعلى (5306) . وانظر : « الصحيح المسند من أسباب النزول » - الوادعي - سورة آل عمران ، آية (113) .

(2) حديث حسن . أخرجه الطبراني ورجاله ثقات . انظر المرجع السابق ، سورة آل عمران (113) .

أي: يقرون بالله ويصدقون بالبعث ويأمرون بالمعروف الذي جاء في الشرع ، وأعلاه التصديق بمحمد ﷺ ، وينهون عن المنكر ومنه التكذيب بمحمد ﷺ ، وهم مسارعون في العمل الصالح لنيل مرضاة الله سبحانه واللاحق بالصالحين وهم أصحاب محمد ﷺ في الجنة .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ .

أي: وما تفعل هذه الأمة من خير وبر وعمل صالح ، فلن يبطل الله ثوابه ، فهو أعلم بمن اتقاه وحرص على رضاه .

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ .

أي: لن تدفع الأموال والأولاد شيئاً من عذاب الله مقابل الكفر ، ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ : فإن مات على الكفر ألزم صحبة النار الدائمة ، ولا يقبل الله مالاً ولا رشوة ولا أحداً يفتدي به من العذاب .

وقوله: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . قال مجاهد: (نفقة الكافر في الدنيا) .

وقوله: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ ﴾ .

قال السدي: (يقول: كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون ، فأصابه ريح فيها صر ، أصابته فأهلكته ، فكذلك أنفقوا ، فأهلكهم شرهم) .

والصر: شدة البرودة . قال ابن عباس: (برد شديد وزمهير) . وقال الضحاك: (ريح

فيها برد) . والمقصود: إبطال الله أجر ما ينفق هؤلاء الكفار في هذه الحياة الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ماداموا لم يقروا لله بالتوحيد ، وللنبي ﷺ بالأسوة والرسالة والمتابعة .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2808) ح (56) ، ح (57) . ورواه أحمد في المسند بلفظ مقارب . انظر صحيح الجامع الصغير (1849) .

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ردُّ لما نزل بهم إلى صنيعهم ، فإن الله سبحانه لا يظلم مثقال ذرة ، بل الكافر هو الظالم لنفسه ، الموردها هلاكها .

118-120. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَن تُمْ أَوْلَآءُ مُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُتُوبُ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ ءَلَا نَمْلِكُ مِنَ الْعَٰقِبَةِ قُلْ مُؤْتُوا بِغِيظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ سَّوْهُمُ وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَتْهُ يُفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: يُحذّر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسهم من دون أهل دينهم وملتهم ، يطلعونهم على سرائرهم ليجهد هؤلاء المنافقون في المكر والخديعة وإلحاق الأذى بالمؤمنين . ها أنتم تحبون التقرب من هؤلاء الكفار ، وهم يبادلونكم العداوة والغش والبغضاء ، ويتآمرون مع المنافقين عليكم ، فيحسدونكم على كل خير ينزل بكم ، ويشمتون عند كل نازلة ومصيبة تلحق بكم ، وإن تصبروا وتحسبوا عند الله لا يضرركم كيدهم ، والله بما تعملون محيط .

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ . - إنما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل ، فهو لشدة قربه منه يشبه ما ولي بطنه من ثيابه ، في اطلاعه على أسرارهِ .

قال قتادة: (نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين ، أو يؤاخوهم ، أو يتولواهم من دون المؤمنين) .

وقوله: ﴿لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ﴾ . أي: لا يدعون جهدهم لإيقاع الفساد فيكم .

وقوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ . قال ابن جريج: (يقول: في دينكم ، يعني: أنهم يودون أن تعنتوا في دينكم) . قال القرطبي: (﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي ودوا عنتكم ، أي: ما يشق عليكم . والعنت المشقة) .

وقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. قال قتادة: (قد بدت البغضاء من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار ، من غشهم للإسلام وأهله ، وبغضهم إياهم).

وقوله: ﴿وَمَا تَخْفى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾. قال الربيع: (يقول: ما تكن صدورهم أكبر مما قد أبدوا بالستهم).

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أيها المؤمنون ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله مواظمه وأمره ونهيه ومواقع النفع لكم.

وقد حفلت السنة الصحيحة بالتحذير من بطانة السوء وتوضيح بعض معالم مفاهيم السياسة الشرعية والعلاقات الدولية. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [ما استُخِلَفَ خليفةٌ إلا له بطانتان: بطانةٌ تأمرُهُ بالخير وتحضُّهُ عليه ، وبطانةٌ تأمرُهُ بالشر وتحضُّهُ عليه ، والمعصوم من عصم الله]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث جرير بن عبد الله ، قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يا رسول الله ، لم ؟ قال: لا تراءى ناراهما]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن سمرة بن جندب: [أما بعد ، قال رسول الله ﷺ: من جامعَ المُشْرِكَ ، وسَكَنَ مَعَهُ ، فإنه مثله]⁽³⁾.

وقوله: «من جامع المشرك» أي: بحيث يصير أكيله وقيعده وشريبه ، وقوله: «وسكن معه» أي في ديار الكفار ، فإن كان للكفار وجود في ديار الإسلام ، فالحكم يبقى كذلك ، لا بد من الولاء والبراء.

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6611) ، كتاب القدر ، وأخرجه أحمد في المسند (39/3) ، والنسائي (158/7) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2645) ، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود . انظر صحيح أبي داود (2304) ، كتاب الجهاد ، الباب السابق .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2787) ، كتاب الجهاد ، باب في الإقامة بأرض الشرك .

إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : (قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين) .

وقوله : ﴿ هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : تحبون هؤلاء الكفار الذين نهيتكم عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، فتودونهم وتواصلونهم وهم لا يحبونكم ، بل يبطنون لكم العداوة والغش) .

وقوله : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ . قال ابن عباس : (أي : بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، منهم لكم) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ . قال قتادة : (إذا لقوا المؤمنين قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ ، ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم ، فصانعوهم بذلك ، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ، يقول : مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكره لما هم عليه . لو يجدون ريحاً لكانوا على المؤمنين ، فهم كما نعت الله عز وجل) .

والأنامل : جمع « أنملة » . قال السدي : (الأصابع) . وقال قتادة : (أطراف الأصابع) . والمقصود : عضوا على أصابعهم تغيضاً من قوة المسلمين وتمنياً لإفساد شوكتهم .

وقوله : ﴿ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ . أي : قل يا محمد لهؤلاء الحساد - من اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب والمشركين - موتوا غيضاً لما رأيتموه من شوكة المؤمنين واجتماع كلمتهم واتلاف جماعتهم ، فإن الله مع المؤمنين يؤيدهم بنصره وعونه ، وهو ذو علم بما تخفيه صدور العالمين ، من المنافقين والمؤمنين .

وقوله : ﴿ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ . قال الربيع : (هم المنافقون ، إذا رأوا من أهل الإسلام جماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك غيضاً شديداً وساءهم . وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً ، أو أصيب طرفٌ من أطراف المسلمين ، سرهم ذلك وأعجبوا به . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾) .

121-123. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن يوم أحد حين غدا النبي ﷺ يجهز منازل المؤمنين لخوض القتال ، وهو سبحانه سميع للحوار الذي جرى بين نبيه وبين أصحابه ، عليم بسداد رأي النبوة في البقاء بالمدينة والتحصن بها . ثم تذكيره - تعالى - بتخاذل المنافقين حتى كادت فئتان من المؤمنين أن تجبنا لولا تثبيت الله لهم . ثم تذكيره - تعالى - المؤمنين بيوم بدر إذ نصرهم وهم قلة ليتقوا الله ولعلهم يشكرون .

فقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ .

يخبر تعالى في هذه الآية عن يوم أحد ، وكانت يوم السبت من شوال سنة ثلاث للهجرة . قال قتادة: (لأحدى عشرة ليلة خلت من شوال). وقال عكرمة: (يوم السبت للنصف من شوال) ، والله أعلم .

قال قتادة: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ ، ذلك يوم أحد ، غدا نبى الله ﷺ من أهله إلى أحد يبيو المؤمنين مقاعد للقتال).

وقال مجاهد: (مضى النبي ﷺ يومئذ على رجليه يبيو المؤمنين).

وقال ابن هشام: (تبوئ المؤمنين: تتخذ لهم مقاعد ومنازل).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . أي: سميع للحوار الذي جرى بينك وبين أصحابك يا محمد ، عليم أن رأيك بالبقاء والتحصن في المدينة أصوب وأدق .

وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا تشير إلى هزيمة وقتل يقع في أصحابه ، ورأى أنه في درع حصينة فأولها المدينة .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [رأيت في رؤياي أنني هزرت سيفاً فانقطع صدّره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هزرته بأخرى فعاد أحسن ما كان ، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين ، ورأيت فيها بقرأً والله خيرٌ ، فإذا هم المؤمنون يوم أحد ، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير

وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد يوم بدر⁽¹⁾.

وفي رواية أحمد: [ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة]⁽²⁾.

ويروي الطبري بسند حسن مرسل عن قتادة: [فقال ناس من أصحابه من الأنصار: يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه فابرز إلى القوم، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته - وهي الدرع الحصينة وأداة الحرب -، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: أمرنا لأمرك تبع. فأتى حمزة فقال له: يا نبي الله إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع. فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز]⁽³⁾.

ثم ذكّر سبحانه بتخاذل بعض الجيش من المنافقين حتى كادت فئتان من المؤمنين أن تجبنا وتفكرا في الرجوع، فعصمهم الله وثبتهم، فقال جل ذكره: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾. قال قتادة: (وذلك يوم أحد، والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار).

أخرج البخاري ومسلم عن جابر قال: [نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾] بني سلمة وبنو حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: والله وليهما⁽⁴⁾.

فهؤلاء هموا بالرجوع لما أحدث المنافق عبد الله بن أبي الخلل في الصفوف، فرجع بأهل النفاق إلى المدينة، فعصم الله بني سلمة وبنو حارثة من الوقوع والزلل، وثبتهم حين جُبْنَا عن لقاء العدو، وأعطى الله الأمة بذلك درساً كبيراً، أن من أصابه ضعف فليتوكل على الله، وليتذكر عظمته وجبروته، فإن ذلك يعينه على تجاوز الضعف والكسل، ويقوي نيّته وعزمته.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4081)، كتاب المغازي. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (658/2) لتفصيل البحث.
- (2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (271/1)، وانظر المرجع السابق.
- (3) حسن لشواهد انظر تفسير الطبري (372/7)، وله طرق عند البيهقي وأحمد تقويه، فقد رواه أحمد ووصله من حديث جابر. انظر كتابي: السيرة النبوية (659-658/1).
- (4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4051) في المغازي، وأخرجه مسلم (2505) في فضائل الصحابة، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ثم ذَكَرَ الله سبحانه المؤمنين بيوم بدر ، إذ كانوا قلة فأضعف أعداءهم ، وأمدَّهم بالملائكة المسوِّمين ، أي المُعلَّمين ، وعوض النقص بالعدد والعدة بهم . فقال جلَّ ذكره: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: فاتقوني ، فإنه شكر نعمتي) .

129-124. قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴾ [١٢٩] بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [١٣٥] وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [١٣٦] لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ [١٣٧] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١٣٨] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٣٩] .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن يوم بدر وما كان من مشاركة الملائكة المؤمنين النصر ، ونزول البشرى والطمأنينة والظفر . ثم وعدهم سبحانه وعداً مماثلاً يوم أحد ، إن يصبروا ويصدقوا الاتباع والتقوى ، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من المشركين فينتقم منهم أو يخزيهم بالخيبة والرجوع أذلاء صاغرين . إنه ليس لك - يا محمد - من الأمر شيء ، فلو شاء الله لهداهم أو أخزاهم ، فلا تستبعد إنابتهم ، فقلوبهم بيد مالك السماوات والأرض العزيز الغفور الرحيم .

قال الحسن: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ ، قال: هذا يوم بدر). وقال ابن إسحاق: (كانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضا). ولا تعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ - إلى قوله -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فإن قوله ﴿ مُرَدِّفِينَ ﴾ أي: يزدفهم غيرهم ويتبعهم ألوف آخر مثلهم ، فالتنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها ، ذكره ابن كثير . وبعض المفسرين ذهب أن الآية في يوم أحد ، والتفسير الأول الذي ذكرناه أقرب ، وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير .

ثم وعدهم سبحانه وعداً مماثلاً يوم أحد ، أنهم إن يصبروا ويتقوا الله ويصدقوه الإيمان والقتال ، ويأتيهم كفار قريش وتبائعهم ﴿ من فورهم هذا ﴾ ، وهو ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتلاهم ببدر ، يمددهم الله بخمسة آلاف من الملائكة الكرام ، يقاتلون معهم في سبيل الله ، ويقذفون الرعب في صفوف المشركين ويفرقوهم ويمزقوهم .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ له تأويلان عند المفسرين :

التأويل الأول: ما ذكره مجاهد ، قال: (من غضبهم هذا). يعني الكفار يوم أحد ، غضبوا ليوم بدر مما لقوا .

والتأويل الثاني: ما ذكره قتادة ، قال: (من وجههم هذا) والمراد يوم بدر ، إذ هم كرز بن جابر وأصحابه بنصرة المشركين .

قال أبو جعفر: (وأصل الفؤر: ابتداء الأمر يؤخذ فيه ثم يوصل بآخر).

وفي لغة العرب: فارت القدر فوراً وفوراناً إذا ابتدأ ما فيها بالغليان ثم اتصل . ويُقال: مضيت إلى فلان من فوري هذا: أي من وجهي الذي ابتدأت فيه .

ولم يحصل المدد يوم أحد لعدم الصبر ومخالفة الأمر ، على العكس من يوم بدر ، وكنتم أيها المؤمنون يومئذ أحوج ما تحتاجون إلى مدد الملائكة وتأييدهم ، لتطمئن بذلك قلوبكم ، وتسكن بذلك نفوسكم ، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا (أي طائفة) قتلهم يوم بدر ، وكانوا صناديدهم وقادتهم .

قال قتادة: (فقطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار ، وقتل صناديدهم ورؤساءهم وقادتهم في الشر).

وقال الحسن: (هذا يوم بدر ، قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة).

وقال ابن إسحاق: (أي ليقطع طرفاً من المشركين بقتل ينتقم به منهم).

وقطع طرفاً آخر منهم يوم أحد ، إذ قُتل منهم بضع وعشرون من قادتهم وفرسانهم . قال السدي: (ذكر الله قتلى المشركين - يعني بأحد - وكانوا ثمانية عشر رجلاً فقال: ﴿ لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ثم ذكر الشهداء فقال: ﴿ وَلَا تَحْزَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ الآية). في حين فصل ابن إسحاق وابن هشام في السيرة أسماء القتلى من مختلف بطون المشركين .

قال ابن إسحاق: (فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً).

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْيَكِبْتُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ﴾. أي: يخزيهم بالخيبة مما رجوا من الظفر بكم أيها المؤمنون سواء يوم بدر إذ رجعوا فلاّ منهم من ، أو يوم أحد إذ لم يصيبوا شيئاً مما رجوا وكانوا يأملون.

فعن قتادة: (قوله: ﴿أَوْيَكِبْتُمْ﴾ يقول: يخزيهم).

وقد تجلّى هذا الكبت والخزي لجيش مكة وقادته في الأمور التالية:

أولاً: إن جيش المدينة بقي صامداً ، إذ لم يلتجئ المقدار الكبير منهم إلى الفرار رغم الارتباك الذي حصل ، والفوضى التي عمت وسرت ، بل قاوم ببسالة وشجاعة واستماتة حتى تجمع حول مقر قيادته والتف حولها ، ولم تسقط كفته إلى حد يطارده جيش المشركين.

ثانياً: إن جيش المدينة لم يقع أحد منهم في الأسر ، رغم الطوق الحديدي الذي فرضه عليهم فرسان مكة وجنودها الغاضبون.

ثالثاً: لم يحصل كفار مكة على شيء من غنائم المسلمين رغم تطور الأحداث لصالحهم في بعض مراحل القتال.

رابعاً: لم ينهض كفار مكة إلى الصفحة الثالثة من القتال ، مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره أمام أعينهم وعلى مدّ أبصارهم.

خامساً: مغادرة المشركين أرض المعركة فوراً ، إذ لم يقيموا بها يوماً أو يومين أو ثلاثة كعادة المنتصر في ذاك الزمان ، مما يشير إلى خوف ورعب قد ملأ قلوبهم ، وخشية من تطور مفاجئ للأحداث لا يمضي لصالحهم.

سادساً: عدم اجترائهم على دخول المدينة لنهب أموالها وسبي ذرائعها ونساءها ، رغم أنها كانت على خطوات قريبة منهم ، وكانت مفتوحة أمام تقدمهم لو أرادوا.

فكل هذه المعاني والآفاق داخلية في مفهوم قوله تعالى: ﴿أَوْيَكِبْتُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ﴾. فقد انسحب أبو سفيان من ساحة المعركة بسرعة كبيرة ، خشية صفحة ثالثة من القتال ، تكون فيها المعركة والهزيمة ، وتستأنف فيها الفئة المؤمنة شجاعتها وتألقها المعهود.

ومع ذلك يا محمد ، ليس لك من الأمر شيء ، فلو شاء الله لهداهم أو أخزاهم ،

فهو سبحانه أعلم بقلوبهم ومستقبلهم ، وقد كان النبي ﷺ يستبعد إنابتهم لما أدموه .

روى مسلم في صحيحه عن أنس : [أن رسول الله ﷺ كُسرَت رِباعيته يوم أحد ، وشجَّ في رأسه ، فجعل يسلك الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رِباعيته وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾]⁽¹⁾ .

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أحاديث أخرى صحيحة ، مما قد يدل على تعدد الحادثة التي تنزل فيها بعض آيات القرآن .

الحديث الأول: أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة : [أن الرسول ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب ، حتى أنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾]⁽²⁾ .

وفي لفظ عند مسلم : (اللهم العن رجلاً وذكوان وعصية) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في التفسير عن حنظلة بن أبي سفيان قال : سمعت سالم بن عبد الله يقول : [كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾]⁽³⁾ .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن الزُّهري ، حدثني سالم بن عبد الله ، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً » . بعدما يقول : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » . فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾]⁽⁴⁾ .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . أي : جميع ما بين أقطار السماوات

- (1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (1791) ، وعلقه البخاري بإثر (4068) ووصله مسلم كما سبق ، ورواه أحمد (99/3) ، (253/3) ، والترمذي (3002) ، وغيرهم .
- (2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4560) ، وصحيح مسلم (675) ، ومسنَد أحمد (255/2) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4070) - كتاب المغازي ، وكذلك (4559) - كتاب التفسير . ورواه أحمد (93/2) ، (104/2) ، والترمذي (3005) ، وله شواهد كثيرة .
- (4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4069) ، وانظر : « الصحيح المسند من أسباب النزول » - الوادعي - سورة آل عمران ، آية (128) .

والأرض داخل في ملكه سبحانه وتحت تصرفه ، وأهلها عبيد بين يديه . ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فمرد الأمر له وحده لا شريك له ، إن شاء غفر وستر ، وإن شاء فضح ونشر ، فلا يسأل عما يفعل . ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي يغفر الذنوب ، ويرحم العباد ، على ما فيهم) .

130-136. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾ .

في هذه الآيات: في هذه الآيات: يخاطب الله تعالى المؤمنين يخبرهم أن الربا من أمر الجاهلية ليحذروه ، وأن طاعة الله ورسوله سبيل النجاة والنصر والسعادة في الدارين . ثم يحثهم سبحانه على المسارعة بالاستغفار والإنفاق وكظم الغيظ والإحسان ، واجتناب الفواحش والظلم والآثام ، ليكونوا من أهل الخلود في الجنان . فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَفَةً﴾ .

قال ابن إسحاق: (أي لا تأكلوا في الإسلام إذ هداكم الله له ، ما كنتم تأكلون إذ أنتم على غيره ، مما لا يحل لكم في دينكم) .

وقال مجاهد: (قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْغَفَةً﴾ ، قال: ربا الجاهلية) .

وقال عطاء: (كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية ، فإذا حلّ الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون؟) .

وقال ابن زيد: (كان أبي يقول: إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن .

يكون للرجل فضل دين ، فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له : تقضييني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى ، وإلا حوِّله إلى السن التي فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حِقَّة ، ثم جَدَّة ، ثم رباعياً ، ثم هكذا إلى فوق ، وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً ، فتكون مئة فيجعلها إلى قابل مئتين . فإن لم يكن عنده جعلها أربع مئة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه . قال : فهذا قوله : ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ .

وقد يسأل سائل : ما علاقة آية الربا بمعركة أحد ، إذ تخللت هذه الآية فجأة بين آيات وصف المعركة ؟!

والجواب والله المستعان : كأن الله سبحانه يقول للمؤمنين الذين قاتلوا يوم أحد : كما أن الربا من أمر الجاهلية فيه تجاوز للحق ، فكذلك ما حصل يوم أحد حينما عصى بعضكم أمر الرسول وغادروا المواقع فيه تجاوز للحد ، فالربا فيه تجاوز للحد وكذلك معصية الرسول ، وكلاهما محرم ممنوع .

وهذا التفسير من ربط الربا بالحديث عن المعركة وآلام بعض مواقفها والحث على الطاعة مما لم أقف عليه في التفاسير ، وأظنه من فتح الله وإلهامه وتوفيقه ، وهو سبحانه وتعالى أعلم .

وقد ذكر الإمام القرطبي في التفسير عند هذه الآية نكتة بديعة أخرى حيث قال : (وإنما خصّ الربا من بين سائر المعاصي ، لأنه الذي أذن فيه بالحرب في قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمْتُمْ وقتلتم . فأمرهم بترك الربا ، لأنه كان معمولاً به عندهم والله أعلم) .

ثم أمرهم سبحانه باستئناف حياة الطاعة لله والرسول والمساورة إلى طلب المغفرة والأعمال الموصلة إلى الجنان ونعيم الآخرة ، فإنما ينفعكم أيها المؤمنون أن تسارعوا إلى مغفرة من الله ورضوان وجنات فيها نعيم مقيم ، وأن تخبثوا له سبحانه ولا تصروا على الزلل ومعاودة السقوط ، وترفقوا بالناس إذا زلوا كما زلتم أو ضعفوا كما ضعفتم .

فقوله سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه أكثر من تأويل متقارب في المفهوم :

الأول : التسارعة إلى الصلوات المفروضة والنوافل . فعن أنس بن مالك ومكحول قالا : (معناه إلى تكبيرة الإحرام) .

الثاني: المسارعة إلى المساجد لأداء الفرائض. فعن علي بن أبي طالب قال: (إلى أداء الفرائض).

الثالث: المسارعة إلى الإخلاص والتقوى. روي ذلك عن عثمان بن عفان.

الرابع: المسارعة إلى التوبة من الربا. ذكره القرطبي.

الخامس: المسارعة إلى الصدق والثبات في القتال. ذكره القرطبي.

ثم ذكر سبحانه بعض أبواب الخير الموصلة للنعيم والحدود في جنات عدن ، فذكر البذل والإنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

فعن ابن عباس قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يقول: (في العسر واليسر). قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه. يقال منه: كظم فلان غيظه ، إذا تجرّعه ، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه ، باستمكانها ممن غاظها ، وانتصارها ممن ظلمها).

وقد حفلت السنة الصحيحة بمدح الكاظمين الغيظ والخازنين ألسنتهم وغضبهم ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ليس الشديد بالصُّرْعَةِ ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أحمد وأصحاب السنن بسند حسن ، عن معاذ بن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن يُنفِذَهُ ، دعاه الله على رؤوس الخلائق ، حتى يُخَيِّرَهُ من الحور العين ، يزوجه منها ما شاء]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام مسلم في الصحيح ، من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [ما تُعَدُّون الصرعة فيكم ؟ قال: قلنا: الذي لا تُصرِّعُه الرجال. قال: لا ، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6114) ، ومسلم (2609) ، وأحمد (236/2) وغيرهم .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد ، وأبو داود (4777) ، كتاب الأدب ، ورواه ابن ماجه (4186) ، وبقية أهل السنن . انظر تخريج المشكاة (5088) ، وصحيح الجامع الصغير (6398) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (30/8) ، وأحمد (382/1) ، وإسناده على شرط الشيخين .

قال رسول الله ﷺ: [الصُّرْعَةُ كُلُّ الصُّرْعَةِ الَّذِي يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضْبُهُ وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ فَيَصْرَعُ غَضْبُهُ] (1).

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن جارية بن قدامة السعدي: [أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ، لعلّي أعيه. فقال رسول الله ﷺ: لا تغضب. فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: لا تَغْضَبُ] (2).

الحديث السادس: أخرج الطبراني بسند حسن من حديث ابن عمر: [ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة] (3).

وله شاهد عند أبي يعلى من حديث أنس، قال رسول الله ﷺ: [من كف غضبه كَفَّ الله عنه عذابه، ومن خَزَنَ لسانه ستر الله عورته، ومن اعتذر إلى الله، قبل الله عُدْرَهُ] (4).

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. قال السدي: (أما الفاحشة فالزنا). وقال إبراهيم: (الظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم). وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: (فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قُدُماً، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرّمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتى أتاهم الموت وهم على ذلك).

وقال الحسن: (إتيان العبد ذنباً إصراراً، حتى يتوب).

وقال السدي: (أما ﴿يُصِرُّوا﴾ فيسكتوا ولا يستغفروا).

- (1) حديث حسن. انظر تخريج الترغيب (278/3)، وصحيح الجامع الصغير (3753).
- (2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (34/5)، والحاكم (615/3)، وابن حبان (5689) من حديث جارية بن قدامة السعدي، وسنده صحيح.
- (3) حديث حسن. وهو جزء من حديث طويل، رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (2/209/3)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (ص 80) رقم (36). وانظر صحيح الجامع (174).
- (4) حديث حسن. انظر مسند أبي يعلى (4338)، والمجمع برقم (13708) من حديث أنس.

أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال :
[ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين ، الذين
يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون]⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق : (يعلمون ما حرمت عليهم من عبادة
غيري) . وقال مجاهد : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه من تاب تاب الله عليه).

فكانه يخاطب سبحانه أهل أحد بقوله : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا معصية الرسول
والوقوع في مخالفته ، وسارعوا إلى المغفرة والصدقة والعمل الصالح لتتجاوزوا
ما حصل ، وإياكم والإصرار على الذنب ، فإن ذلك من الكبائر ، وليكن ما حصل لكم
يوم أحد مصدر رحمة يحملكم على رحمة الناس إذا ما وقعوا أو زلوا ، فتتجاوزون عن
هفواتهم ، وتكظمون الغيظ عنهم ، لتنالوا بذلك عفو الله ورضوانه .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ .
أي : جزاؤهم على هذه الصفات التي اتصفوا بها المغفرة والجنات ، تجري تحتها
الأنهار من ألوان المشروبات ، ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها .

وقوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ : أي : نعم المستقر للعاملين المجدين ، وهي أرض
الجنة وما زينها الله به ، وما هيأها لأحبابه وأوليائه ، ففيها ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر .

137-143 . قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ^(١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ^(١٣٨) وَلَا
تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ^(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (2/ 165) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (380) . وانظر
صحيح الجامع الصغير (910) ، من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً .

الْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ
نَنْظُرُونَ ﴿١٤٦﴾ .

في هذه الآيات: يقول تعالى ذكره: يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به ، قد مضت وسلفت سنن من الله في أقوام نوح وصالح وهود ولوط ، وغيرهم من سُلَاف الأمم قبلكم ، من آمن منهم مثلكم ومن كفر ، ثم كان الدمار والهلاك على من كذبوا رسلي ، وسخروا بوحبي ، فذاقوا غِبَّ خلافهم أمري . فلا تضعفوا ولا تهنوا ولا تأسوا على ما فاتكم ، فلکم العاقبة والظهور إن صدقتم وآمنتم بنبيي ، وإن كان نزل بكم جراح وألم فقد أصاب عدوكم مثل ذلك ، وهي السنن يصرفها الله بين عباده ، والجنة تحتاج إلى جهاد وصدق لتبلغوها . لقد كنتم تتمنون الموت قبل لقائه فاصدقوا الله إذ رأيتموه ولا تجبنوا فتقلبوا خاسرين .

وعن الربيع: (قوله: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ قال: إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم مثله ، يعزي أصحاب محمد ﷺ ، ويحثهم على القتال).

وقال مجاهد: (القرح: جراح وقتل).

وفي لغة العرب: أدال الله فلاناً من فلان إذا ظفر به . قال ابن إسحاق: (قوله: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نصرها للناس للبلاء والتمحيص).

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ . قال ابن عباس: (في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء).

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: ليميز بين المؤمنين والمنافقين ، وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة). أي: ممن يبذلون مَهْجَهُمْ في سبيل الله ومرضاته .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ . أي: الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم . قال ابن إسحاق: (أي: المنافقين الذين يظهرون بألستهم الطاعة ، وقلوبهم مصرة على المعصية).

وقوله: ﴿وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال مجاهد: (ليبتلي). وقال ابن إسحاق:

(أي: يختبر الذين آمنوا ، حتى يخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم ، وكيف صبرهم و يقينهم).

وقوله: ﴿وَيَمَحَقُ الْكَافِرِينَ﴾. قال ابن عباس: (ينقصهم). وقال الحسن: (يمحق الكافر حتى يكذبه). والمقصود ينقصهم ويفنيهم.

وقال سلمة عن ابن إسحاق: (أي: يطل من المنافقين قولهم بألستهم ما ليس في قلوبهم ، حتى يظهر منهم كفرهم الذي يستترون به منكم).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾. يعني: هل حسبتم أن ترثوا الجنة دون ابتلاء في قتال وجهاد أو شدائد ومصائب ، كما قال تعالى في آية البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا﴾. وكقوله في سورة العنكبوت: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. فلا بد من الفتنة ولا بد من الصبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾. تذكير من الله لهم بأيام الرخاء ، والتسابق في الحديث عن الجهاد وتمني الموت في سبيل الله ، وإنما يظهر الصدق عند اللقاء والتحام الصفوف.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾. قال مجاهد: (غاب رجال عن بدر ، فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقيه ، فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر. فلما كان يوم أحد ، ولّى من ولّى منهم ، فعاتبهم الله).

وقال ابن إسحاق: (﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾. أي: الموت بالسيوف في أيدي الرجال ، قد خلى بينكم وبينهم ، وأنتم تنظرون إليهم ، فصددتم عنهم).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2966) ، ومسلم (1742) ، وأبو داود (2631) ، وغيرهم .

148-144. قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٤٥ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُوجِلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ١٤٦ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ١٤٧ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٤٨ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٤٩ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: إنكم إنما تقاتلون من أجل دين الله سواء بقي محمد فيكم أو مات ، ومن ثم فإن الشجاعة أثناء القتال لا تقصر الأعمار ، وكذلك العجب والفرار لا يزيد فيها ، وأكثر الأنبياء من قبل قاتل معهم أتباعهم وحواريهم وجنودهم ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وماضعفوا وما استكانوا بل كانوا من الصابرين ، فتأسوا بهم واستغفروا الله واسألوه الثبات والنصر ، فإنه ينصركم كما نصرهم على القوم الكافرين ، ويؤتيكم ثواب الدنيا والآخرة وهو سبحانه يحب المحسنين .

أخرج البخاري عن عائشة: [أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مَسْكَنِهِ بالسُّنْحِ حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيَمَّم رسول الله ﷺ وهو مُغَشَّى بثوب حَبْرَةٍ ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقبله وبكى ، ثم قال: بأبي أنت وأمي . والله لا يجمع الله عليك مَوْتَيْنِ ، أما المَوتَةُ التي كُتِبَتْ عليك فقد مَتَّهَا . قال الزهري: وحدثنى أبو سلمة ، عن ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يُكَلِّمُ الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر فقال أبو بكر: أما بعد ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ - إلى قوله - ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ . قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا

أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلقأها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ . أي : لا يفارق أحد هذه الدنيا إلا في يومه الذي كتبه الله له ، وفي الأجل الذي أراد الله له استيعابه .

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : [إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته]⁽²⁾ .

وفي التنزيل : ﴿ وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] .

قال ابن كثير : (وهذه الآية - يعني آية آل عمران - فيها تشجيع للجناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه ، كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن يزيد العبدي قال : سمعت أبا معاوية ، عن الأعمش ، عن حبيب بن صهبان قال : قال رجل من المسلمين - وهو حُجر بن عدي - : ما يمنعكم أن تغيروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة - يعني دجلة - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة . فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو قالوا : ديوان . فهربوا) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : فمن كان منكم يريد الدنيا ، ليست له رغبة في الآخرة ، نُؤْتِهِ ما قسم له منها من رزق ، ولا حظ له في الآخرة ، ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ ما وعده ، مع ما يُجرى عليه من رزقه في دنياه) .

وقوله : ﴿ وَسَتَجْزَى الشَّاكِرِينَ ﴾ . أي : سنعطيه من رزقنا ورحمتنا وذلك حسب أعمالهم ، وذلك في الدنيا وفي الآخرة .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4453) ، (4454) ، في كتاب المغازي من صحيحه .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . انظر تخريج المشكاة (15) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2081) .

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

المعنى: أكثر الأنبياء من قبل قاتل معهم أتباعهم وحواريوهم وجنودهم ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا بل كانوا من الصابرين ، فتأسوا بهم وبمنهاجهم .

والرييون: هم من يعبدون الرب واحدهم ربِّي ، ذكره نحويو البصرة ، وأما نحويو الكوفة فقالوا: هم العلماء والألوف ، وأما أهل التفسير فقد ذكروا أكثر من معنى:

الأول: الرييون هم الجموع . قال ابن عباس: (رييون كثير: جموع كثيرة) .

الثاني: الرييون هم العلماء . قال ابن عباس أيضاً: (رييون كثير: علماء كثير) .

الثالث: الرييون هم الفقهاء . قال الحسن: (فقهاء علماء) .

الرابع: الرييون هم الأتقياء الصابرون . قال ابن المبارك: (أتقياء صُبر) .

الخامس: الرييون هم الأتباع . ذكره ابن جرير .

وجملة القول: إن كثيراً من الرسل قاتلوا في سبيل الله ، وقاتل معهم أتباعهم ، من الأتقياء والصابرين والفقهاء والعلماء والجموع الكثيرة المؤمنة ، فما عجزوا ولا نكلوا عن جهاد أعدائهم ، وما انهزموا حين أصابهم الألم والقتل ، بل ثبتوا أثناء القتال وما فروا من عدوهم ، فهؤلاء هم الأسوة لكم يا أصحاب محمد من بين الأمم .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ . قال ابن عباس: (خطايانا) . وقال مجاهد: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ ، خطايانا وظلمنا أنفسنا) .

وقوله: ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ . أي: عند لقاء عدونا . ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ : أي وانصرنا على القوم الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك ، وارتضوا بتحكيم مناهج الأهواء والشهوات بدلاً من مناهج الحق .

وقوله: ﴿فَنَالَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ . قال ابن جريج: (النصر والغنيمة) . أي الظهور على عدوهم .

وقوله: ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ . أي رضوان الله ورحمته . قال ابن إسحاق: (الجنة وما أعد فيها) .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. أي: بأقوالهم وأفعالهم ، فيثبتون على منهاج العلم والجهاد إلى حين يلقون ربهم .

149-153. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرِيدُوا كُفْرَكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ .

في هذه الآيات: يخبر الله سبحانه المؤمنين المصدقين لرسوله في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه ، بأنهم إن يطيعوا الجاحدين لنبوته عليه السلام ، المكذبين بهديه وبالقرآن ، فإنهم سيعملونهم بذلك على الردة بعد الإيمان ، والضلال والهلاك والخسران ، ولكن سيلقي الله أيها المؤمنون الرعب والهلع في قلوب من حاربكم بأحد ، بشركهم وطاعتهم للشيطان ، وبامثالكم لأوامر نبيكم عليه الصلاة والسلام ، فها أنتم تحسونهم في بداية المعركة حساً. قال مجاهد: (تقتلونهم). وقال الربيع: (الحسُّ القتل). حتى إذا جبتم (1) وضعفتم واختلقتم في أمر الله وعصيتهم نبيكم ، أنزل بكم شيئاً من الهزيمة ، وقذف عليكم عدوكم ، بعدما أراكم من عدوكم ما تحبون ، فلما آثرتم الدنيا ردّ وجوهكم عنهم لمعصيتكم ، بعدما طاردتموهم ، ليكروا عليكم من جديد مستفيدين من مخالفتكم ، ثم عفا الله عنكم رحمة بكم وتقديراً لإيمانكم .

(1) قال ابن جريج: قال ابن عباس: (الفضل: الجبن). وقال ابن إسحاق: (فشلتهم: أي تخاذلتهم).

وقد ثبت في السنة الصحيحة إلقاء الله الرعب في قلوب أعداء هذا النبي ﷺ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال: [أعطيت خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: روى مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [نصرت بالرعب على العدو]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [فُضِّلْتُ بأربع: جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأَيُّما رجل من أمتي أتى الصلاة فلم يجد ما يصلي عليه وَجَدَ الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُرسلت إلى الناس كافة ، ونُصِرْتُ بالرعب من مسيرة شهرين يَسِيرُ بَيْنَ يَدَيَّ ، وأُحِلَّت لي الغنائم]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد عن النبي ﷺ قال: [فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة ، وادخرت شفاعتي لأمتي ، ونصرت بالرعب شهراً أمامي ، وشهراً خلفي ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾. بيان لما كان من النصر أول المعركة.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبيد الله ، عن ابن عباس أنه قال: [ما نصر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موطن كما نصره يوم أحد. قال: فأُنكرنا ذلك. فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ يقول ابن عباس: والحسن: القتل. ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تَحِبُّونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (335) ومسلم (521) ، وأحمد (304/3) والنسائي (209/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (523) ح 7 بأنم منه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البيهقي (212/1) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (4096).

(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ويشهد له ما قبله ، وانظر صحيح الجامع الصغير (4097).

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٤٩﴾. الآية ، وإنما عنى بهذا الرماة . وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ، ثم قال : «احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا» . فلما غنم النبي ﷺ ، وأباحوا عسكر المشركين ، أكب الرماة جميعاً ودخلوا في العسكر ينهبون ، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ منهم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا ، فلما أخل الرماة تلك الحلة التي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار . . . [(1)] .

وفي صحيح البخاري عن البراء قال : [لقينا المشركين يومئذ ، وأجلَسَ النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله - يعني ابن جبير - وقال : «لا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا» . فلما لقيناهم هَرَبُوا ، حتى رأيت النساء يَسْتَدِدْنَ فِي الْجَبَل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خِلَافَهُنَّ ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبد الله بن جبير : عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تَبْرَحُوا . فأبوا ، فلما أبوا صرف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلاً ، فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال : إن هؤلاء قُتِلُوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا . فلم يملك عمر نفسه فقال له : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أبقى الله لك ما يُخْزِنُكَ . فقال أبو سفيان : اغْلُ هُبْل . فقال النبي ﷺ : أجيئوه . قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي ﷺ : أجيئوه . قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، وستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني [(2)] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . قال قتادة : (أي : اختلفتم في الأمر ، ﴿ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، وذاكم يوم أحد ، عهد إليهم نبي الله ﷺ وأمرهم بأمر فنسوا العهد ، وحاوزوا ، وخالفوا ما أمرهم نبي ﷺ ، فقذف

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عباس . وأخرجه الحاكم (2/ 296 - 297) ، والبيهقي في «الدلائل» (3/ 269 - 270) ، وله شواهد في الصحيح .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3039) ، (4043) ، وأبو داود (2662) ، وأحمد (4/ 293) .

عليهم عدوهم ، بعدما أراهم من عدوهم ما يحبون). وقال الربيع : ﴿ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ ﴾ ، يقول : جببتم عن عدوكم).

وقوله : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ . قال السدي : (فالذين انطلقوا يريدون الغنيمة هم أصحاب الدنيا ، والذين بقوا وقالوا : لا نخالف قول رسول الله ﷺ ، أرادوا الآخرة).

وقوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِبَتْلِيَكُمْ ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : صرفكم عنهم ليختبركم ، وذلك ببعض ذنوبكم).

والمقصود حين صُرفوا إلى الغنائم والدنيا ، فمال عليهم خالد بن الوليد .

قال الحسن : (صرف القوم عنهم ، فقتل من المسلمين بعدة من أسروا يوم بدر ، وقتل عم رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وشجّ في وجهه ، وكان يمسح الدم عن وجهه ويقول : «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»؟ فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : 128] ، الآية . فقالوا : أليس كان رسول الله ﷺ وعدنا النصر؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِبَتْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾).

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : [لما كان يوم أحد هُزِمَ المشركون ، فصرخ إبليس لعنة الله عليه ، أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فَبَصَرَ حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي ، أبي ، قال : فوالله ما احتجزوا - أي ما انفكوا عن بعضهم - حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل] (1) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن جريج : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ ، قال : لم يستأصلكم). وقال ابن إسحاق : (ولقد عفا الله عن عظيم ذلك ، لم يهلككم بما أتيتم من معصية نبيكم ، ولكن عُدْتُ بفضلِي عليكم) . وقال الحسن : (هؤلاء مع رسول الله ﷺ ، في سبيل الله ، غضابُ الله ، يقاتلون أعداء الله ، نهوا عن شيء فصنعوه ، فوالله ما تركوا حتى عُثُوا بهذا الغم ، فأفسق

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4065) ، كتاب المغازي ، وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة ، الأبحاث : (37 - 42) لتفاصيل المعركة والدروس والنتائج والأحكام .

الفاسقين اليوم يَتَجَرَّئُونَ⁽¹⁾ كُلَّ كَبِيرَةٍ ، ويركب كل داهية ، ويسحبُ عليها ثيابه ، ويزعم أن لا بأس عليه!! فسوف يعلم).

وقوله: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (صعدوا في أحد فراراً). وقال: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ إلى عباد الله ارجعوا ، إلى عباد الله ارجعوا).

إلا أنَّ المشركين حين سمعوا صوته عرفوه ، فمالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من أصحابه ، محاولين الإجهاز عليه بكل ما يمكنهم ، وكان رسول الله ﷺ بين تسعة من رجاله ، خاضوا عراكاً عنيفاً ، وأظهروا نواذر من الحب والتفاني والاستبسال.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ أفرَدَ يومَ أحدٍ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه - أي غشوه وقربوا منه - قال: من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فقال: من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا]⁽²⁾.

أي: ما أنصفت قريش الأنصار ، لكون القرشيين لم يخرجوا للقتال ، بل خرج الأنصار واحداً بعد واحد فقتلوا عن آخرهم ، ثم شقت فئة من المسلمين طريقها عبر الأهوال حتى وصلت إلى مكان القيادة النبوية المحاصر.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي عثمان قال: [لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غير طلحة وسعد]⁽³⁾.

وقوله: ﴿فَأَثْبَكُمْ عَمَّا يَفْعُرُ﴾. قال قتادة: (كانوا تحدّثوا يومئذ أن نبي الله ﷺ أصيب ، وكان الغم الآخر قتل أصحابهم والجراحات التي أصابتهم).

(1) تجرئ الشيء: أخذ معظمه. وجرئومة كل شيء: أصله ومجتمعه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1789)، كتاب الجهاد والسير ، وانظر تفصيل الحدث في كتابي: السيرة النبوية (2/687) البحث (38): معركة أحد - مرحلة الهزيمة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3723)، كتاب المغازي ، وانظر المرجع السابق (2/688).

وقال الربيع: (الغم الأول: الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قتل . فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجون من الغنيمة ، وذلك حين يقول الله: ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ [آل عمران: 153] .

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . أي: من الهرب أو الإقدام ، وهو محص عليكم جميع أعمالكم .

154-155. قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

في هذه الآيات: إنزال الله النعاس أماناً على أهل الصدق واليقين ، وفضح سلوك المنافقين ، واختبار الصدق في قلوب المؤمنين .

فقوله: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴾ . أي: الأمان ، أنزله تعالى على أهل الصدق واليقين ، دون أهل الشك والمنافقين . ثم بين أن الأمانة كانت نعاساً ، بنصب النعاس على البدل من أمانة .

أخرج النسائي والترمذي بسند صحيح عن أنس ، عن أبي طلحة قال: [رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يمشي تحت حَجَفَتِهِ من النعاس ، فذلك قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾]⁽¹⁾ .

قال ابن عباس: (أَمَنُهُم يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن) .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3007) ، والنسائي في «الكبرى» (11198) ، والحاكم (2/ 297) .

فلقد كان المسلمون مغتمين مهمومين آنذاك لما أصابهم ونبههم من الإجهاد والأذى والتعب ، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا وقد أذهب الله عنهم القلق والخوف وأبدلهم مكانه راحة وسكناً ، وملأ نفوسهم وقلوبهم أمناً وطمأنينة .

يروى البخاري عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال : [كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

قال ابن إسحاق : (أهل النفاق قد أهتمهم أنفسهم تخوُّف القتل ، وذلك أنهم لا يرجون عاقبة) . وعن قتادة : ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ، قال : ظن أهل الشرك) . يشير سبحانه بذلك إلى طائفة المنافقين الذين أهتمهم أنفسهم دون أن يفكروا بمصائب المسلمين وبمصير الإسلام ، فذمهم الله في هذه الآية ، بعد أن ذكر نعمته على طائفة الحق الذين أهتمهم مصير الإسلام وربطوا سعادة قلوبهم بانتصار هذا الدين وزهوه وعلوه في الأرض ، فأنزل عليهم أمانة نعاساً يجلو به الغم عن نفوسهم وينعش قلوبهم . في حين لا يغشى النعاس من أهتمهم أنفسهم بسبب القلق والجزع والخوف على مصالح دنياهم .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . قال القرطبي : (لفظه استفهام ومعناه الجحد ، أي : ما لنا شيء من الأمر ، أي من أمر الخروج ، وإنما خرجنا كرها) .

فأجابهم الله بقوله : ﴿ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ يعني القدر خيره وشره من الله .

وقوله : ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ . مُفسَّرُ بقوله تعالى بعده يوضح ما أخفوه عن رسول الله ﷺ ، وهي هذه المقالة : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَقَاتِلْنَا هَهُنَا ﴾ .

قال ابن إسحاق : (فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال الزبير : لقد رأيته مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره . قال : فوالله إني لأسمع

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4068) ، كتاب المغازي ، تعليقاً ، لكن وصله برقم (4562) ، ورواه أحمد في المسند (49/4) ، من حديث أبي طلحة الأنصاري .

قول مُعْتَب بن قُشَيْر (1) ، ما أسمعُه إلا كالحلم يقول : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ . فحفظتها منه (2) .

وقرأ عامة قراء الحجاز والعراق : ﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ اللَّهُ﴾ بنصب الكل على النعت للأمر . وقرأه بعض قراء البصرة ﴿كُلُّهُ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره ﴿لِللَّهِ﴾ والجملة خبر ﴿إِنْ﴾ ، والقراءة الأولى أشهر عند القراء . وهي اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

قل - لهؤلاء المنافقين - يا محمد : لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا الموقف والحرب كما تحب نفوسكم ، لظهر للموضع من قد كتب عليه القتل فيه ، ولخرج لينال مصرعه في المكان الذي كتب عليه أن يصرع فيه .

وقوله : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : ليكشف الله بالاختبار المؤمن من المنافق فيظهر أمره ، فيميز الخبيث من الطيب .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ . أي : لا يخفى عليه ما في صدورهم ، مما استخفوا به منكم - أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ . عتاب لمن فرّ من المؤمنين بأحد ، وإنما دعاهم إلى هذه الزلة الشيطان .
وقوله : ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ . قال ابن جريج : (إذ لم يعاقبهم) . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عاصم ، عن شقيق ، قال : (لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة ، فقال له الوليد : ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن : أبلغه أني لم أفر يوم عَيْنَيْن - قال عاصم : يقول : يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر ، ولم أترك سنة عمر . قال : فانطلق فحَبَرَ ذلك عثمان ، قال : فقال عثمان : أما قوله إنني لم أفر يوم عَيْنَيْن ، فكيف يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ

(1) معتب بن قشير : هو أحد المنافقين من أتباع ابن سلول . قيل تاب بعد ذلك ، والله أعلم .

(2) حديث حسن . أخرجه الطبري (8093) ، (8094) ، والبيهقي (3/ 273) ، وإسناد الطبري حسن ، رجاله ثقات ، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث .

عَنْهُمْ. وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر ، فإني كنت أمرض رُقِيَّةَ بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت ، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم ، ومن ضرب له رسول الله ﷺ فقد شهد ، وأما قوله: إني تركت سُنَّةَ عمر ، فإني لا أطيقها ولا هو ، فإني فائتبه فحدثه بذلك⁽¹⁾.

قال القرطبي: (ونظير هذه الآية توبة الله على آدم عليه السلام. وقوله عليه السلام: «فحج آدم موسى» أي: غلبه بالحجة).

156 - 158. قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذير من الله سبحانه المؤمنين أن يشابهوا الكفار في سوء يقينهم بالله العظيم ، وترغيب لهم في الشهادة في سبيل الله لنيل المغفرة ورحمة الله الكريم.

قال ابن إسحاق: (أي: لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله ، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا).

وأصل الضرب في الأرض الإبعاد فيها سيراً. قال السدي: (﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ، وهي التجارة). وقال ابن إسحاق: (الضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله).

قال ابن جرير: (يخبر بذلك عن قول هؤلاء الكفار أنهم يقولون لمن غزا منهم فقتل ، أو مات في سفر خرج فيه في طاعة الله ، أو تجارة: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قتلوا ، ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ،

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (68/1) ح (492). قال الهيثمي في «المجمع» (226/7): (فيه عاصم ، وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات).

يعني: أنهم يقولون ذلك ، كي يجعل الله قولهم ذلك حزناً في قلوبهم وغماً ، ويجهلون أن ذلك إلى الله جل ثناؤه وبيده). وقيل: المعنى لا تصدقوهم ولا تلتفتوا لهم ، فكان ذلك حسرة في قلوبهم. وقيل: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة لما هم فيه من الحزي والندامة ، ولما فيه المسلمون من النعيم والكرامة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. أي: يقدر على أن يحيي من يخرج إلى القتال ، ويميت من أقام في أهله. ومنه قول خالد بن الوليد عند موته: (ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا ذا أموت كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء).

وجاء في سير أعلام النبلاء عن عاصم بن بهدلة: عن أبي وائل قال: (لما حضرت خالداً الوفاة ، قال: لقد طلبت القتل مظاناً فلم يُقَدَّر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بُثِّها وأنا متترس ، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى تُغيّر على الكفار. ثم قال: إذا متُّ ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عدة في سبيل الله. فلما توفي ، خرج عمر على جنازته ، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يَسْفَحْنَ على خالد من دموعهن ما لم يكن نَفْعاً أو لَقْلَقَةً⁽¹⁾).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قال القاسمي: (تهديد للمؤمنين في مماثلة من ذكر).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. إخبار من الله سبحانه أن القتل في سبيله والموت في مرضاته وحيث الدفاع عن دينه خير من جميع هذه الدنيا وزينتها ، وهو السبيل الأمثل إلى نيل مغفرته ورحمته ورضوانه.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من خير معاش الناس لهم ، رجلٌ مُمَسِّكٌ عِنَانََ فَرَسِهِ في سبيل الله ، يطير على مَتْنِهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً طار عليه ، يبتغي القتل والموت مظاناً. .] الحديث⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قال القرطبي: (وَعَظُ. وعظهم الله بهذا القول ، أي لا تفرّوا من القتال ومما أمركم

(1) اللقطة: الصوت الشديد المضطرب ، والنقع رفع الصوت وشق الجيب .

(2) انظر: «سير أعلام النبلاء» (1/ 381) - الذهبي .

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1889) ، كتاب الإمارة ، باب فضل الجهاد والرباط .

به ، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه ، فَإِنْ مَرَدَّكُمْ إِلَيْهِ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ أَحَدٌ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا غيره).

والمعنى: من مات أو قُتل فالمال إلى الله ، وهناك الجزاء والثواب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] (1).

159 - 164 . قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعِزُّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَتْهُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: تليينُ الله تعالى جانب وطباع هذا النبي الكريم ، وحثه على العفو والاستغفار والمشاورة للمؤمنين ، وحسن التوكل على الله الذي بيده النصر المبين ، وامتنان من الله تعالى على المؤمنين بهذا النبي وهذا الوحي العظيم .

فلقد امتن الله على هذه الأمة أن ألان لهم قلب نبيه الكريم ، وأطاب لهم لفظه ، وجعله بهم رؤوفاً رحيماً . قال قتادة: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ ، يقول: فبرحمة من الله لنت لهم). و «ما» صلة ، والعرب تجعل «ما» صلة في المعرفة والنكرة ، كقوله

(1) حديث صحيح . وهو جزء من حديث قدسي طويل رواه مسلم (8/17) ، وأحمد (5/160) .

تعالى: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مَّيِّتَهُمْ﴾. والمعنى: فبنقضهم ميثاقهم. هذا في المعرفة. وقال تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾. والمعنى: عن قليل. وهذا في النكرة.

والمقصود: برحمة الله، يا محمد، بك وبمن آمن بك، سهلت أخلاقك ولان جانبك وحسنت طبائعك. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وفي المسند للإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة قال: [أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين له قلبي]⁽¹⁾. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

المعنى: لو كنت قاسي القلب شديد الطباع سيئ الكلام لتركوك ولم يتبعوك، ولكن الله جمع لك من صفات الرفق واللين حتى كنت مضرب المثل بين قومك في حسن الخلق وجمال الطباع ومحاسن العادات. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو - يحكي عن صفة النبي ﷺ في التوراة -: [والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن، ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأمين، أنت عبي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر]⁽²⁾.

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوب في الإنجيل: لا فظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، بل يعفو ويصفح]⁽³⁾.

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

قال ابن إسحاق: (﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، أي: فتجاوز عنهم، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ذنوب من قارف من أهل الإيمان منهم).

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (217/5)، وأخرجه الطبراني (7499).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2125) - كتاب البيوع - باب كراهية السخب في السوق. وانظر تخريج المشكاة (5752) باب فضائل سيد المرسلين.

(3) حديث صحيح. رواه الحاكم (614/2)، وابن عساكر (2/264/1) من حديث عائشة رضي الله عنها، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2458).

وقوله: ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. قال قتادة: (أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحى السماء ، لأنه أطيب لأنفس القوم ، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله ، عزم لهم على أرشده).
وقال الضحاك بن مزاحم: (ما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشورة ، إلا لما علم فيها من الفضل).

وقال الحسن: (ما شاور قوم قط إلا هُتدوا لأرشد أمورهم).

وفي سنن ابن ماجة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [المستشار مؤتمن]⁽¹⁾. وقد امتلأت السنة الصحيحة بصور من الشورى في حياة النبي ﷺ وأصحابه ، منها:

1 - مشورته لأصحابه يوم بدر في الذهاب إلى قتال المشركين .

يروى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مَشْهَدًا لَأَن أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمَشْرِكِينَ ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا﴾ [المائدة: 24] وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ. فرأيت النبي ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهَ ، يعني قوله⁽²⁾.

2 - مشورته عليه الصلاة والسلام لأصحابه في قصة الإفك .

يروى البخاري عن عائشة قالت: [لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيَّ خُطْبِيًّا فَتَشْهَدَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْاسِ أَبْنَاءِ أَهْلِي ، وَإِيمِ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سَوْءٍ ، وَأَبْنَائِهِمْ بِمَنْ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سَوْءٍ قَطُّ ، ...] الحديث⁽³⁾.

3 - مشورته عليه السلام لأصحابه في أسارى بدر .

روى مسلم عن ابن عباس قال: [فَلَمَّا أَسْرَوْا الْأَسَارَى ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟ قَالَ: لَا ، وَاللَّهِ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5128) ، والترمذي (2823) ، وابن ماجة (3745).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3952) ، كتاب المغازي ، وانظر كذلك الحديث (4609) منه .

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4757) ، كتاب التفسير ، في أثناء حديث طويل . وَأَبْنَوْا: اتهموا .

يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنني أرى أن تُمَكِّنَا فنضرب أعناقهم... [الحديث⁽¹⁾].

4 - مشورته عليه السلام قبل معركة أحد أبقى في المدينة أم يخرج إلى العدو⁽²⁾.

5 - مشورته السعدين يوم الخندق - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - لمصالحة العدو على بعض ثمار المدينة مقابل انصرافهم ، فأخذ برأيهما⁽³⁾.

6 - مشورته أصحابه في حصار الطائف ومشورته عام الحديبية⁽⁴⁾.

وأما في حياة أصحابه :

فقد روى البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال : (كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم ، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة ، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم)⁽⁵⁾.

وذكر البخاري في كتاب الاعتصام : (كان القراء أصحاب مشورة عمر كهُولاً كانوا أو شباباً ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل)⁽⁶⁾.

ثم قال البخاري : (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ).

وقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ . يعني : إن صحَّ عزمك - بتثبيت الله لك وتسديده

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1763) ، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم ، وهو جزء من حديث طويل .

(2) قد مضى ذكر ذلك ، وانظر سيرة ابن هشام (63/3) .

(3) انظر مصنف عبد الرزاق (368/5) ، والبداية والنهاية (104/4) .

(4) انظر باب غزوة الطائف في كتاب الجهاد والسير - صحيح مسلم (1778) ، والمسند (4588) تحقيق أحمد شاكر . وانظر في شأن الحديبية سنن البيهقي (109/10) .

(5) أخرجه البيهقي بسند صحيح قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (342/13) . وانظر : كتاب الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة - الدميحي - (ص 429) .

(6) ذكره البخاري في كتاب الاعتصام باب (28) ، قول الله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح : 339/13) .

لك فيما نابك - وقد استشرت أصحابك فامض متوكلاً على الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ .

يعني : إن أراد سبحانه نصركم وقد اجتمعت أهل الأرض على خذلانكم فلا سبيل لهم عليكم ، وإن أراد خذلانكم وقد أجمع أهل الدنيا على نصركم فلا سبيل لنصركم ، فعليه سبحانه فتوكلوا ، وانصروا دينه وأخلصوا ، حتى تنالوا نصره وتأيدته . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ .

أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [بعث النبي ﷺ جيشاً فرُدت رايته ، ثم بعث فردت بغلول رأس غزال من ذهب ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾] (1) .

وأخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال : [نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ في قطيفة حمراء : فُقِدَت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ﷺ أخذها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ إلى آخر الآية] (2) .

وله شاهد عند البزار بإسناد صحيح عن عكرمة عن ابن عباس : [﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾] قال : ما كان لنبي أن يتهمه أصحابه] (3) .

قال مجاهد : (﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ : ما ينبغي لنبي أن يخون) . وقال ابن عباس : (أي : بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقد جاءت السنة الصحيحة بالتحذير الشديد من الغلول ، وفي ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج الشيخان عن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : [من

(1) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات . انظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - آل عمران (161) . وانظر تفسير الطبري (8135) - (8137) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3971) ، والترمذي (3012) ، وانظر صحيح أبي داود (3360) .

(3) إسناده صحيح . أخرجه البزار في مسنده (2197 - كشف الأستار) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2788) .

ظلم قيد شبر من الأرض طَوْقه يوم القيامة من سبع أرضين⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: [كان على ثقل النبي ﷺ رجل يُقال له: كَزَكْرَةٌ ، فمات فقال النبي ﷺ: هو في النار. فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غَلَّها]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قام فينا النبي ﷺ فذكر الغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ، قال: لا أُلْفَيْنَ أَحَدُكُمْ يوم القيامة على رقبته شاةً لها ثَغَاءٌ ، على رَقَبَتِهِ فرسٌ له حَمَحَمَةٌ يقول: يا رسول الله أَغْنِي ، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً ، قد أبلغْتُكَ ، وعلى رَقَبَتِهِ بعيرٌ له رُغَاءٌ يقول: يا رسول الله أَغْنِي ، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغْتُكَ ، وعلى رَقَبَتِهِ صامِتٌ فيقول: يا رسول الله أَغْنِي ، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغْتُكَ ، على رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فيقول: يا رسول الله أَغْنِي ، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغْتُكَ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي حميد الساعدي قال: [استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللُتَيْبَةِ على الصدقة ، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها شيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رُغَاءٌ ، أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تَغِيرُ. ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَةَ إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت» ثلاثاً]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. قال ابن إسحاق: (ثم يُجْزَى بكسبه غير مظلوم ولا مُتَعَدَّى عليه).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيسُ الْمَصِيرُ ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2452) ، (3198) ، ومسلم (1610) ، وأحمد (188/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3074) ، كتاب الجهاد والسير ، باب القليل من الغلول.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3073) ، كتاب الجهاد والسير ، باب الغلول.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (423/5 - 424) واللفظ له ، وانظره في صحيح البخاري (6979)

وفي صحيح مسلم (1832) ، وكذلك رواه ابن حبان في صحيحه (4515).

المعنى: أفمن ترك الغلول وكل ما نهى الله عنه ومضى يعمل بطاعة الله وامتنال أمره واجتناب ما يسخطه ، كمن انصرف متحملاً سخط الله وغضبه ، واستحق وعيده بسكنى جهنم وبئس السكن والمأوى؟ يقول: ليسا سواء.

وقوله: ﴿ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: بأعمالهم).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق: (يقول: إن الله لا يخفى عليه أهل طاعته من أهل معصيته).

وقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . يعني: نبياً من أهل لسانهم يفقهوا قوله ، ولم يجعله بغير لسانهم .

وقوله: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ . أي يقرأ عليهم أي كتابه وتنزيله ويطهرهم من ذنوبهم باتباع ما جاء فيه ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي: القرآن والسنة .

وقوله: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . أي: في عمياء من الجاهلية ، لا يعرفون حسنة ولا يستغفرون من سيئة ، قد أخطؤوا طريق الهدى والنجاة ، فهم في غي وجهل ظاهر جلبي لكل من له بصر .

165 - 168 . قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأْهُ عَنِ أَنفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ .

في هذه الآيات: تأنيب لطيف من الله تعالى للمؤمنين لما صدر منهم ، وفضح سلوك أهل النفاق وكشف مكرهم .

قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا أبو نوح قراد أنبأنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم بدر ، قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف ، ونظر إلى

المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مَدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : اللهم أين ما وعدتني ، اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إني إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً ، قال : فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مَنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَتَى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ . فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر رضي الله عنهم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، فإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريباً لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً رضي الله عنه من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ، ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه : غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر رضي الله عنه وإذا هما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ! قال : فقال النبي ﷺ : الذي عرض علي أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة - وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِجَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الفداء ، ثم أحل الله لهم الغنائم ، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، وكُسرت ربابيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ بأخذكم الفداء ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ . قال الحسن : (فإنما أصابنا هذا لأننا قبلنا الفداء يوم بدر من الأسارى ، وعصينا النبي ﷺ يوم أحد) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/30) ورجاله رجال الصحيح ، ورواه ابن أبي حاتم مختصراً .

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو، قدير).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّفَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: ما أصابكم يوم أحد من قتل وجراح فهو بقضائه سبحانه وقدره فيكم، وليميز أهل الإيمان والصدق من أهل الكذب والنفاق.

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَقُتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾.

المراد: عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه الذين تخاذلوا ورجعوا، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا.

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

يروى ابن إسحاق بإسناد مرسل أن عبد الله بن عمرو بن حرام اتبعهم وهو يقول: (يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبئكم عندما حضر من عدوهم). فقالوا: (لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكننا لا نرى أنه يكون قتال).

فاحتجوا بما حكته الآية الكريمة عنهم، وقد أظهر الله ما أبطنوه من الجبن والهلع والخوف من خوض القتال في سبيل الله، فعند ذلك قال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام، لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف: (أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيي⁽¹⁾).

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

المقصود: عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه يقولون: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرننا ما قتلوا هنالك. قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: (نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه). فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي: قل لهم يا محمد، إن استطعتم أن تردوا الموت الذي لا محالة سينالكم فردوه إن كنتم صادقين. قال ابن إسحاق: (أي: إنه لا بد من الموت، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا. وذلك أنهم إنما نافقوا وتركوا الجهاد في سبيل الله، حرصاً على البقاء في الدنيا، وفراراً من الموت).

(1) انظر سيرة ابن هشام (9/3)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/662) لتفصيل أكبر.

وفي التنزيل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته] (1).

169 - 175. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

في هذه الآيات: بيان منزلة الشهادة والشهداء الكرام ، وثناء من الله على استجابتهم وخوضهم المعركة ضد الكفار اللئام ، وفضح لسلوك ومكر الشيطان عدو أهل الإيمان .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا يتكلموا عن الحرب ، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

(1) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . انظر تخريج المشكاة (15) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2081) .

سَبِيلَ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١﴾ . . . وما بعدها [١].

وأخرج الترمذي بسند حسن عن جابر رضي الله عنه قال: [لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر ما لي أراك منكسراً؟ فقلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيلاً وديناً. فقال: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ما يكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً فقال: تمنّ عليّ أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني القول: أنهم إليها لا يرجعون. قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ الآية (٢).

وأخرج ابن جرير بسند صحيح أن سبب نزول الآية قتلى بئر معونة. قال العلامة الشوكاني في تفسيره: (وعلى كل حال فالآية باعتبار عمومها تعم كل شهيد).

وقد جمع الله للشهداء من الكرامة في حياة البرزخ ما يفوق من الكرامة لبقية المؤمنين فضلاً عما أعد الله لهم في الآخرة من رفيع المنازل والمقامات.

ففي مسند الإمام أحمد بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فيه قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً] (٣).

فأرواح الشهداء تسرح في الجنة، ولها خصوصية ورود هذا النهر. وأما أرواح بقية المؤمنين: فقد روى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ] (٤). يَغْلُقُ: أي يأكل.

فالفرق بين الشهداء وبقية المؤمنين أن أرواح الشهداء تطير في حواصل طير خضر

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/266)، وأبو داود في السنن - حديث رقم - (2520)، وصححه الحاكم (2/88)، ووافقه الذهبي.

(٢) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3010)، وابن ماجه (2800)، وابن حبان (7022)، وغيرهم.

(٣) إسناده جيد. أخرجه أحمد (1/266)، والطبري (8212)، وابن حبان (4658).

(٤) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/240)، وأحمد (3/455)، والنسائي (4/108)، وابن ماجه (4271)، وابن حبان (4657). وقال الحافظ ابن كثير: (هو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه

تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، وترد حيث تشاء من أنهار وأشجار الجنة ، ولها شرف العبور إلى ذلك النهر في منتهى سيرها ، فهي كالكوكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَحِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

فرحين : في محل نصب حال من المضممر في ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ .

فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله ، مستبشرون بمن لم يلحق بهم .

قال ابن إسحاق : (أي : ويسرون بلحوق من لحق بهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم ، وأذهب الله عنهم الخوف والحزن) .

وقال ابن جريج : (يقولون : إخواننا يقتلون كما قتلنا ، يلحقوننا فيصيبون من كرامة الله تعالى ما أصبنا) . وخلاصة المعنى كما أفاد شيخ المفسرين رحمه الله : قال ابن جرير : (يفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على مناهجهم من جهاد أعداء الله مع رسوله ، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه . . . لا خوف عليهم ، لأنهم قد آمنوا عقاب الله ، وأيقنوا برضاه عنهم ، . . . ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها ، للخفض الذي صاروا إليه والدعة والرُفَّة) .

قلت : وقد ثبت لقاء أرواح المؤمنين وتزاورها في حياة البرزخ وفرح بعضها بقدم بعض - في السنة الصحيحة - :

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ ، فيقولون : اخْرِجِي رَاضِيَةً مُرَضِيًّا عَنْكَ ، إِلَى رَوْحِ اللَّهِ وَرِيحَانٍ ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به أبواب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتك من الأرض ! فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلانٌ ، ماذا فعل فلان؟

فيقولون: دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا... [الحديث⁽¹⁾].

وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾. قال ابن إسحاق: (لما عاينوا من وفاء الموعود وعظيم الثواب).

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: لا يبطل جزاء أعمال من صدق رسوله واتبعه ، وعمل بما جاء من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ - إلى قوله -: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

أخرج الطبراني ورجاله رجال الصحيح عن عكرمة عن ابن عباس قال: [لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أحد وبلغوا الروحاء قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتهم ، شر ما صنعتم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر بني عينة - الشك من سفيان - فأنزل الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ وذلك أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ موعذك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا ، فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة ، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا ، فأنزل الله عز وجل ذكره: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾⁽²⁾.

وأخرج البخاري في كتاب المغازي عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾. قالت لعروة: (يا ابن أخي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر ، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، قال: من يذهب في إثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير).

فسارع سبعون رجلاً من الصحابة لامثال رغبة القيادة النبوية ، ثم تتابع بقية الجيش خلفهم حتى صار عددهم ست مئة وثلاثين مقاتلاً ، كلهم مستعد لخوض معركة دامية

(1) حديث صحيح. ورواه الحاكم وابن حبان. انظر صحيح الجامع الصغير (504) ، وكتابي: تحصيل السعادتین علی منهج الوحیین (321) ، لتفصیل أكبر حول تزاور الأرواح في البرزخ.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - وقال السيوطي في لباب النقول: إن سنده صحيح. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - آل عمران (171 - 173).

جديدة ، ولدخول ساحة الموت مرة أخرى ، فأثنى الله سبحانه في كتابه على صدقهم ، وجمال مبادرتهم ، وعظيم استجابتهم رغم القرع وشدة التعب والجراح .

قال ابن هشام : (حدثنا أبو عبيدة : أن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أحد ، أراد الرجوع إلى المدينة ، ليستأصل أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال لهم صفوان بن أمية بن خلف : لا تفعلوا فإن القوم قد حاربوا - أي غضبوا - وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان ، فارجعوا ، فرجعوا - وفي رواية : فارجعوا والدولة لكم فإني لا آمن إن رجعتكم أن تكون الدولة عليكم) .

فقال النبي ﷺ وهو بحمراء الأسد ، حين بلغه أنهم هموا بالرجعة : «والذي نفسي بيده ، لقد سوّمت⁽¹⁾ لهم حجارة ، لو صبّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب» .

فأثنى الله بذلك على المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول رغم القرع والألم ، ومدّحهم في قرآن يتلى على ألسنة الأجيال إلى يوم القيامة ، فيه ذكر عطر لاستئنافهم مبادرة صفحة جديدة من القتال رغم تخويف الناس لهم ، وقولهم : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس : [﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾] قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾] ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فِي سَلَامٍ﴾ .

قال مجاهد : (والفضل ما أصابوا من التجارة والأجر) . وقال ابن جريج : ﴿لَمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ قال : (قتل) .

وقوله : ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ . قال ابن جريج : (طاعة النبي ﷺ) .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ . قال ابن إسحاق : (لما صرف عنهم من لقاء عدوهم) .

وقوله : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ . قال مجاهد : (يخوف المؤمنين بالكفار) . وقال ابن عباس : (الشیطان يخوف المؤمنين بأوليائه) .

وقال السدي : (يعظم أوليائه في صدوركم فتخافونهم) .

(1) أي جعلت لها علامة يعرف بها أنها من عند الله .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4564) ، والنسائي في «التفسير» (101) ، والحاكم (298/2) .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد عن سبرة ، عن النبي ﷺ قال : [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام ، فقال : تُسَلِّمُ وتُذَرُّ دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك . . . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد . . .] (1).

وقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجهؤوا إليّ ، فأنا كافيكم وناصرکم عليهم) .

وفي التنزيل : ﴿ فَقِيلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : 76] .
﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة : 19] .

176 - 180 . قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يُضْرُوا اللَّهُ شَيْئًا يَرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنِ يُضْرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْعِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٨٠) .

في هذه الآيات : تبيّثُ الله تعالى نبيّه ﷺ والمؤمنين ، بإظهار ما أعدّ من الذل والخزي للمنافقين ، وبيان سنته تعالى في التمييز الصادقين من الكاذبين .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (3/ 483) ، والنسائي (6/ 21 - 22) ، وابن حبان (4593) ، وإسناده لا بأس به . وانظر صحيح الجامع (1648) .

قال مجاهد: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: أنهم المنافقون).

وقال ابن إسحاق: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾: أن يحبط أعمالهم). ثم أخبر سبحانه أنهم مع حرمانهم ثواب الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نار جهنم.

ثم أكد ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يعني المنافقين ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بل إنما يضررون أنفسهم بإيجابهم عليها عقوبة الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]]⁽¹⁾.

فلا يظنن الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله أن تأخيرهم يكفرون في الأرض خير لهم ، بل هو من باب المكر بهم حتى إذا نزل بهم الموت دخلوا في جحيم العذاب المتتابع من البرزخ إلى يوم القيامة إلى الخلود في الشقاء والجحيم والعياذ بالله .

وقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ .

قال مجاهد: (ميز بينهم يوم أحد ، المنافق من المؤمن). وقال ابن جريج: (ليبين الصادق بإيمانه من الكاذب).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: فيما يريد أن يتليكم به ، لتحذروا ما يدخل عليكم فيه).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ . قال مجاهد: (يخلصهم لنفسه).

وقوله: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: ترجعوا وتوبوا ، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3109) ، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان ، يطوّفه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك ، أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية] (1).

والشجاع: هو الذكر من الحيات ، والأقرع: هو الذي ذهب شعره من كثرة السم.

- وهناك شواهد كثيرة في المسند وبعض السنن للحديث السابق:

الشاهد الأول: في مسند أحمد بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يُمَثَّلُ الله له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ، ثم يلزمه يطوّفه ، يقول: أنا مالك أنا كنزك أنا كنزك] (2).

الشاهد الثاني: أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال: [ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعِلَ له شجاع أقرع يتبعه ، يفرّ منه وهو يتبعه ، فيقول: أنا كنزك. ثم قرأ عبد الله مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾] (3).

الشاهد الثالث: أخرج الحاكم والطبراني بسند جيد عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال: [من ترك بعده كنزاً مثّل له شجاعاً أقرع يوم القيامة له زبيبتان ، يتبعه ويقول: من أنت؟ ويلك. فيقول: أنا كنزك الذي خَلَفْتَ بعدك. فلا يزال يتبعه حتى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِيهَا ، ثم يتبعه سائر جسده] (4).

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فإن الناس تزول عنهم أملاكهم ويصير لله ميراث كل هذه المعمورة: ما في السماوات وما في الأرض.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4565) ، وأحمد (2/279) ، والنسائي (39/5) وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/98) ، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (2260).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3012) ، والنسائي في «الكبرى» (2221) ، وابن ماجه (1784) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/98) ، وإسناده متصل.

(4) إسناده جيد ، رواه الحاكم (1/388 - 389) ، والطبراني (1408) ، وابن حبان (3257).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أي: فهو سبحانه يعلم أعمالكم ونياتكم.

181 - 184. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

في هذه الآيات: توبيخٌ وتقريعٌ من الله تعالى لليهود الماكرين ، وفضح لسلوكهم عبر الزمان مع المرسلين ، وتوعد لهم بصلي العذاب المهين ، وتسليّة من الله تعالى لرسوله لِيَسْتَبْتِ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ .

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَكُمُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد ، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية).

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ فيه أقوال متشابهة:

1- سنجازيهم عليه. ذكره ابن كثير.

2- سنكتبه في صحائف أعمالهم. قال القرطبي: (أي نأمر الحفظة بإثبات قولهم حتى يقرؤوه يوم القيامة في كتبهم التي يؤتونها ، حتى يكون أوكداً للحجة عليهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِئَالِكُمْ كُتِبَ﴾ [الأنبياء: 94]).

3- وقيل: مقصود الكتابة الحفظ ، أي: سنحفظ ما قالوا لنجازيهم.

وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. أي: ونكتب قتلهم الأنبياء ، أي: رضاهم بالقتل. فلما رضي الحفدة بفعل أسلافهم وأجدادهم الذين قتلوا الأنبياء بأيديهم اشتركوا في الحكم والإثم.

أخرج أبو داود بسند حسن عن العُزْس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: [إذا عَمِلَت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فريضها كان كمن شهدها]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ . يعني بذلك: عذاب نار السعير الملتهبة المحرقة.

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ ﴾ . أي: ذلك العذاب بما سلف من الذنوب وحصل الرضى بها ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

وقوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ . قال ابن عباس: (كان الرجل يتصدق ، فإذا تُقْبِلَ منه ، أنزلت عليه نارٌ من السماء فأكلته).

فزعم اليهود أن الله تقدم إليهم في كتبه وعلى ألسن أنبيائه ، أن لا يصدقوا رسولا فيما يقول إنه جاء به من عند الله حتى يجيء بقربان - مما يتقرب به العبد إلى الله من صدقة - تأكله النار يبعثها الله من السماء دلالة على القبول.

فأكذبهم الله وقال لنبيه: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَالْبَيْنَتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

يعني: قد جاءكم الرسل فيما مضى بالحجج القاطعة أنهم من عند الله ثم مع ذلك قتلتموهم؟! فأين عهدكم المزعوم إن كنتم صادقين؟!

قال ابن جرير: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أن الله عهد إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رسله بقربان تأكله النار حجة له على نبوته).

وقوله: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ . قال الضحاك: (يعزي نبيه ﷺ).

وقوله: ﴿ جَاءُوا يَالْبَيْنَتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ . البينات: الدلالات. والزبر: الكتب المزبورة ، يعني المكتوبة. والزُّبُر: جمع زبور وهو الكتاب. والكتاب المنير: أي الواضح المضيء. والمقصود بالكتاب: التوراة والإنجيل. فإن اليهود كذبت عيسى وما جاء به ، وحرّفت ما جاء به موسى عليه السلام من صفة محمد ﷺ ، وبدلت عهده

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (4345) ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (702).

إليهم فيه ، وأن النصارى جحدت ما في الإنجيل من نعته ، وغيرت ما أمرهم به في أمره. أفاده شيخ المفسرين .

185 - 186. قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله سبحانه عن الفناء المحتوم لكل نفس ثم البعث يوم القيامة لنيل الحساب ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ونجا من العقاب . وبيان أن الابتلاء حق والصبر على أذى المشركين أيام الغربة يُقابل بجميل الثواب .

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾] (1) .

وقوله: ﴿زُحْزِحَ﴾. أي: أبعد. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: ظفر بما يرجو ، ونجا مما يخاف .

وفي صحيح مسلم ومسنند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه] (2) .

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾. أي تغر المؤمن وتخدعه فيظن طول

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3013) ، وأحمد (438/2) ، والحاكم (299/2) .

(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1199) ، ومسنند أحمد (2/192) .

البقاء وهي فانية ، فلا تركنوا إليها وتسكنوا لها ، فإنما أنتم عن قريب عنها راحلون مسافرون ، والمستقر الدار الآخرة .

قال قتادة : (هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها ، فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع) .

وفي التنزيل : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ ﴾ [الأعلى : 16 - 17] .
وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ ﴾ [القصص : 60] .

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد ، عن النبي ﷺ قال : [والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه] ⁽¹⁾ .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : [اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، فقلت : يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ : ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها] ⁽²⁾ .

وله شاهد في المسند من حديث ابن عباس بلفظ : [ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها] ⁽³⁾ .

وقوله : ﴿ لَتَجْلِبُوكَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ . خطاب من الله لهذه الأمة - أمة محمد ﷺ - المعنى : لَتَجْتَبِرَنَّ في أموالكم بالمصائب وبالإنفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع بذلك ، ولتمتحنن في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب .

قال القرطبي : (وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها) .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 155] .

قال ابن كثير : (أي : لا بد أن يُبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2858) ، والترمذي (2323) ، وأحمد (4/228) .

(2) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي (60/2) ، والحاكم (4/310) . وانظر : «الصحيحة» (439) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/301) ، وابن حبان (2526) . وانظر المرجع السابق (440) .

أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء).

قلت : وهذا المعنى قد جاء في السنة الصحيحة ، وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الترمذي ، وابن ماجة بسند جيد ، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أي الناس أشد بلاء؟ قال : أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب (وفي رواية : قدر) دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ، ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة⁽¹⁾.

الحديث الثاني : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال : [دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول الله ! ما أشدها عليك ! قال : إنا كذلك ، يضعف لنا البلاء ، ويضعف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ! أي الناس أشد بلاء؟ قال : الأنبياء ، قلت : يا رسول الله ! ثم من؟ قال : ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العبادة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء⁽²⁾.

الحديث الثالث : روى أحمد في مسنده عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت : [أتينا رسول الله ﷺ ، نعوذه في نسائه ، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى ، قلنا : يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك . فقال رسول الله ﷺ : إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم⁽³⁾.

وقوله : ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ

- (1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4023) ، وأحمد (1/ 172).
- (2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (4024) ، والحاكم (4/ 307). انظر السلسلة الصحيحة (144). ورواه ابن سعد (2/ 208). وسنده صحيح.
- (3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (6/ 369)، وسنده صحيح . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).

ويحرض عليه كفار قريش ، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون ، والمشركون يعبدون الأوثان ، واليهود وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه ، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو ، ففيهم أنزل الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ الآية .

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً يقتلونه ، فبعث محمد بن مسلمة - وذكر قصة قتله - فلما قتلوه فرعت يهود والمشركون ، فغدوا على النبي ﷺ فقالوا : طرق صاحبنا فقتل ، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول ، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه ، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة⁽¹⁾ .

قال الحافظ في الفتح : (وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن أنها نزلت فيما بين : «أبي بكر وبين فنحاص اليهودي» في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ تعالى الله عن قوله - فغضب أبو بكر فتزلت ، وذكره السيوطي في اللباب ، وقال : إن سنده حسن . ولا تنافي بينهما ، فيحتمل أنها نزلت في هذا وهذا) .

وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح على شرط الشيخين عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير : أن أسامة بن زيد أخبره قال : [كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ . قال : وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم]⁽²⁾ .

وفي صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ قال : حدثنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري : أخبرني عروة بن الزبير : [أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخبره : أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكبة ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مرَّ بمجلس فيه

(1) حديث صحيح : انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (2593) - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة . وكتابي : السيرة النبوية (644/2 - 645) . وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة آل عمران آية (186) . ويبدو أنه أراد بقوله عن أبيه في السند - جده كعب بن مالك - فيكون الحديث بهذا مسنداً .

(2) إسناده صحيح على شرطهما . انظر تفسير ابن كثير - تحقيق المهيدي - سورة آل عمران - آية (186) .

عبدُ الله بن أبي بن سلول ، وذلك قبل أن يُسَلِّمَ عبد الله بن أبي ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشرّكين: عبدة الأوثان ، واليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجَةُ الدابة خَمَرَ عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تُعَبِّرُوا علينا ، فَسَلَّمَ رسولُ الله ﷺ عليهم ، ثم وَقَفَ فَتَزَلَّ ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رَحْلِكَ ، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاعششنا به في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سَكَنُوا ، ثم رَكِبَ النبي ﷺ دَابَّتَهُ فَسَارَ حتى دخل على سعد بن عُبادة ، فقال له النبي ﷺ: أيا سَعْدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُباب؟ - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا ، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطَلَحَ أهل هذه البُحيرة على أن يُتَوَجَّهَ فَيُعَصَّبُوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرَقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشرّكين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأدنى ، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَمِعْنَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ الآية ، وقال الله: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 109] إلى آخر الآية ، وكان النبي ﷺ يتأوّل العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشرّكين وعبدة الأوثان: هذا أمرٌ قد توجّه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا[⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. يعني: إن الصبر والتقوى من أمثل ما التزم المؤمن به ، وعزم الله عليه وأمر به .

وفي الأثر عن عمر: (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت). وقال أيضاً: (أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً).

وقال بعض السلف: (لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس).

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (4566) ، كتاب التفسير ، وكذلك (2987).

187 - 189. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ١٨٧ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩ .

في هذه الآيات: تفرغ بصنيع أهل الكتاب وتهديد ووعد لمن سلك مسلكهم في كتمان الحق والعلم ، فإن الله سبحانه أخذ عليهم العهد على السنة أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن يرشدوا أقوامهم إلى الإيمان به ومتابعته ، إلا أنهم كانوا عند أسوأ الظن ، فكتموا أمره وَحَرَّفُوا ما ورد في ذكره وصفاته وشمائله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . وفيها فَضَحُ لسلوك المنافقين وَتَوَعَّدُ لهم من الله الملك القدير بالعذاب الأليم .

قال الشعبي: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: إنهم قد كانوا يقرؤونه ، إنما نبذوا العمل به). وقال ابن جريج: (نبذوا الميثاق).

وقوله: ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. قال ابن جرير: (وابتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموا من أمر نبوتك ، عوضاً منه خسيساً قليلاً من عرض الدنيا).

وقوله: ﴿فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾. قال مجاهد: (تبديل اليهود التوراة).

والمعنى: بُئِست الصفقة صفقتهم ، وبُئِست البيعة بيعتهم ، إذ ارتضوا بالدون الفاني الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، لقاء الكبر في الأرض والغرور ، وترك الأهوال تنزل بهم يوم النشور.

والآية فيها تهديد ووعد لمن سلك سبيل اليهود من هذه الأمة في كتمان العلم أو تحريفه أو استبداله بالقصص المكذوبة والخرافات والأحاديث الموضوعة . وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: [من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه ، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار] (1).

وفي رواية لابن ماجة: [ما من رجل يحفظ علماً فَيَكْتُمُهُ إلا أتى يومَ القيامة ملجوماً بلجامٍ من نار].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [من كتم علماً ألجمه الله يومَ القيامة بلجامٍ من نار] (2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني والدارمي بسند حسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [مثلُ الذي يتعلم العلم ثم لا يحدثُ به ، كمثل الذي يكثرُ الكثر ثم لا ينفقُ منه] (3).

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ، على هذا المنبر: [إياكم وكثرة الحديث عني . فمن قال عليّ فليقل حقاً أو صدقاً . ومن تقوّل عليّ ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار] (4).

وأصل معناه في الصحيحين من حديث أنس بلفظ: [من كَذَبَ علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار].

وقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن رجلاً من المنافقين على عهد الرسول ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، وإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وأحبوا أن

- (1) حديث صحيح . رواه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3658) ، والترمذي في الجامع - حديث رقم - (2649) ، وابن ماجة وابن حبان والحاكم . انظر صحيح الجامع الصغير (6160) ، وصحيح الترغيب (116/1) كتاب العلم ، التهذيب من كتم العلم .
- (2) حديث صحيح . رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال: «صحيح لا غبار عليه» . انظر صحيح الترغيب (117/1) الباب السابق ، ورواه ابن عدي عن ابن مسعود . انظر صحيح الجامع (6393) .
- (3) حديث حسن . أخرجه الدارمي في السنن (134/1) ، وأحمد في المسند (499/2) من طريق الطبراني ، وأخرجه ابن عبد البر (122/1) ، وله شواهد .
- (4) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن (35) ، باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ، وهو في صحيح ابن ماجة برقم (33) ، وفي الباب أحاديث أخرى نحوه .

يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾⁽¹⁾.

وقال البخاري : حدثني إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره : [أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعون . فقال ابن عباس : مالك ولهذه الآية : إنما دعا النبي ﷺ يهوداً وسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ كذلك حتى قوله : ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾⁽²⁾.

وأخرج الحاكم والطبراني بسند حسن عن محمد بن ثابت الأنصاري : [أن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله ، والله لقد خشيت أن أكون هلك . قال : ولم ؟ قال : نهى الله المراء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل . وأجذني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجذني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : فعاش حميداً ، وقُتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب⁽³⁾.

وقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ . قال ابن زيد : (بمنجاة من العذاب).

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . أي : موجع مهين ، مع ما لهم من الخزي في الحياة الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

رد على الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ وتكذيب لهم ، فكل هذا الكون ملك له سبحانه ، والسموات والأرض وما فيهن تحت أمره ، وهو القادر على إهلاك من عاند وطغى وتجبر متى شاء ، فهو الجبار المتكبر وحده لا شريك له .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4567) ، ومسلم (2777) ، ورواه ابن جرير .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري بإثر (4568) ، ومسلم (2778) ، وأحمد (1/298) .

(3) حديث حسن . أخرجه الحاكم (3/234) ، والطبراني (13110) ، من حديث محمد بن ثابت

الأنصاري ، عن ثابت بن قيس الأنصاري ، وسنده حسن .

190 - 194. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنِ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآءِزْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ .

في هذه الآيات: احتجاج من الله سبحانه على سائر خلقه ، أنه الخالق البارئ المدبر لهذا الكون المصرف ليله ونهاره ، وسماءه وأرضه ، وجباله وبحاره ، ومياهه وأنهاره ، فكل ما في هذا الكون من آيات تدعو لتوحيده وتعظيمه لا شريك له وهو العلي العظيم. وثناء منه تعالى على المؤمنين في حسن توسلهم ودعائهم وإخباتهم لربهم الكريم.

قال ابن جرير: (قال جل ثناؤه: تدبروا أيها الناس واعتبروا ، ففيما أنشأته فخلقته من السماوات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم ، وفيما عَقَّبَ بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم ، تتصرفون في هذا لمعاشكم ، وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم ، معتبرٌ ومذكر وآيات وعظات).

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. هو من نعت أولي الألباب ووصف حالهم ، فهم يتقلبون في أحوالهم المختلفة ويذكرون ربهم لا يغفلون عنه .

قال ابن جريج: (هو ذكر الله في الصلاة وفي غير الصلاة ، وقراءة القرآن). وقال قتادة: (وهذه حالاتك كلها يا ابن آدم ، فاذكره وأنت على جنبك ، يُسْرًا من الله وتخفياً). وخلاصة المعنى لهؤلاء الذاكرين أولي الألباب كما قال ابن جرير - شيخ المفسرين -: (يعني بذلك قياماً في صلاتهم ، وقعوداً في تشهدهم وفي غير صلاتهم ، وعلى جنوبهم نياماً).

وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود وابن ماجه والترمذي عن عمران بن حصين:

أن رسول الله ﷺ قال: [صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. أي يعتبرون بما فيهما من آيات كبيرة تدل على عظمة الخالق وكمال صفاته ، ووجوب تعظيمه .

قال بشر الحافي: (لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه).

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بهذه الآيات البديعة ، ويمر عليها دون تفكر ، فقال جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾. أي: لم تخلقه عبثاً ولهواً ، بل إنما يكمن وراءه أمر عظيم ، من ثواب وعقاب ، ومحاسبة ومجازاة ، ونعيم وجحيم ، وخلود في أحد المستقرين .

وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. هو نتيجة وثمره هذا التفكر ، فتحرك ألسنتهم يلهجون بذكره وتسبيحه وتنزيهه ، ورجوه أن يرضى عنهم وينجيهم من عذابه .

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾. فهذه حقيقة لا شك فيها ، فكل من كتب الله عليه دخول النار ولو إلى فترة فقد ناله من الخزي والعنت والألم .

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. أي: لا نصرة لمن اختار معصية الله وسخطه ، ولا سبيل له لدفع العذاب عنه ، فهو خزي لا منقذ له .

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَسْعَفْنَا مُنَادِيَائُنَا دِىَ الْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

هذه الآية دليل على مشروعية التوسل إلى الله سبحانه بعمل صالح . فإن التوسل إلى الله تعالى مشروع بأحد الأنواع الثلاثة:

1 - التوسل باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته .

2 - التوسل إلى الله بعمل صالح .

3 - التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (1117) ، وأبو داود في السنن (952) ، والترمذي في الجامع (372) ، وابن ماجه في السنن (1223) .

وقد بسطت القول في ذلك في كتابي: «أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان» والله الحمد والمنة.

وأما المنادي في الآية الذي ينادي للإيمان فهو الرسول ﷺ ، أو القرآن. قال محمد بن كعب: (هو الكتاب ، ليس كلهم لقي النبي ﷺ).

وقال ابن زيد: (ذلك رسول الله ﷺ). وقال ابن جريج: (هو محمد ﷺ).

والمعنى: لقد توسل هؤلاء المؤمنون إلى الله بتصديقهم كتابه أو رسوله ﷺ إذ سمعوا نداه إلى الإيمان ، فسألوه سبحانه المغفرة وتكفير الذنوب والموت على الإسلام.

وقوله: ﴿ وَتَوَقَّنا مَعَ الْآبِرارِ ﴾. قال القرطبي: (أي أبراراً مع الأنبياء ، أي في جملتهم. واحدهم برٌّ وبارٌّ وأصله من الاتساع ، فكأن البر متسع في طاعة الله ومتسعة له رحمة الله).

والخلاصة: أنهم سألوا الله اللحاق بالصالحين ، الذين برّوا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إياه وخدمتهم لدينه حتى رضي عنهم وأبرهم.

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سميان الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم؟ فقال: [البرُّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءانِئنا ما وَعَدْتنا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنائِمْ أَلْقِيْمَةُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴾.

قال القاسمي رحمه الله في التفسير: ﴿ رَبَّنَا وَءانِئنا ما وَعَدْتنا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ أي: على تصديق رسلك والإيمان بهم. أو على ألسنة رسلك. وهو الثواب. وهذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله. وتكرير النداء لما مرَّ ﴿ وَلَا تُخْزِنائِمْ أَلْقِيْمَةُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴾ قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ [التحریم: 8]. بإظهار أنهم ممن آمن معه).

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴾ يتلاءم مع سؤالهم ربهم أن يؤتيهم ما وعدهم من أربعة أوجه:

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (2553) ، كتاب البر والصلة ، باب تفسير البر والإثم.

1 - أن الله وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعد بذلك دون الخزي والعقاب .

2 - أنهم سألوا ذلك ودعوا على جهة العبادة والخضوع . قال القرطبي : (وهذا كقوله : ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء : 112] وإن كان هو لا يقضي إلا بالحق) .

3 - سألوا ما وعدوا من النصر على عدوهم معجلاً ، والمقصود أصحاب النبي ﷺ الذين هاجروا وهم يتمنون خزي المشركين عاجلاً . قال ابن جرير : (فقالوا : ربنا آتنا ما وعدتنا من نصرتك عليهم عاجلاً ، فإنك لا تخلف الميعاد ، ولكن لا صبر لنا على أمانتك وحلمك عنهم ، فعجل لهم خزيهم ، ولنا الظفر عليهم) .

4 - أنهم سألوا الله النجاة يوم القيامة دون الخزي فإنهم يؤمنون بالمعاد والوقوف بين يديه سبحانه . قال الحافظ ابن كثير : (﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ، أي : لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رُسُلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك) .

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يخص هذه الآيات العشر من آخر آل عمران بالقراءة إذا قام من الليل لتعجده . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [بُثُّ عند خالتي ميمونة ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخرُ قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَايَتَ لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴾ . ثم قام فتوضأ واستنَّ ، فصلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلالٌ فصلّى ركعتين ، ثم خرج فصلّى الصبح⁽¹⁾ . ذكره البخاري في التفسير - باب قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَايَتَ لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

الحديث الثاني : أخرج البخاري في صحيحه - في كتاب التفسير - باب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . عن كُريب ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : [بُثُّ عند خالتي ميمونة فقلت لأنظرن إلى صلاة رسول الله ﷺ ، فطُرِحَتْ لرسول الله ﷺ وسادةٌ ، فنام رسول الله ﷺ في طولها ، فجعل يَمَسُحُ التَّوَمَ عن وجهه ، فقرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران ، حتى ختم ، ثم أتى سِقَاءَ مُعَلَّقًا ، فأخذه فتوضأ ثم قام يُصَلِّي ، فقمتُ فصنعتُ مثل ما صنع ، ثم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4569) ، كتاب التفسير ، ورواه مسلم (763) ح (190) .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه] (1).

وأخرج الطبراني بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه] (2).

وفي رواية: [إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه].

قال ابن القيم رحمه الله: (لكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه ، بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً ، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الإجابة ، من أكل الحرام والظلم ، ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أم سلمة: [قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِّي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾] (3).

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتُ جَعْدَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

المعنى: إن المهاجرين الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة ، فأودوا في طاعة الله وفي سبيله ، وقاتلوا في سبيل الله وقتلوا فيها ، وعدهم الله سبحانه أن يمحو عنهم ذنوبهم ويجزئهم بهجرتهم وجهادهم الجنة نعم الثواب ونعم المستقر. ومن ثم فإن الآية عامة في كل من مضى على منهاج هجرتهم وجهادهم. وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاثة كلهم ضامنٌ على الله: رجلٌ خرج غازياً في سبيل الله فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة ، أو يردّه بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجلٌ راح إلى المسجد فهو

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (261/2) ، والحاكم (493/1). وانظر: «الصحيحة» (594).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (450) ، وكذلك رقم (605) للرواية الثانية.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2420) - كتاب التفسير - وانظر كذلك (2419) منه.

ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر ، ورجلٌ دخلَ بيته بسلام ، فهو ضامن على الله⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد ، بإسناد صحيح ، عن المقدام ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال: [لشَهِيدٍ عند الله سبع خصال: يُعْفَرُ له في أول دفعةٍ من دمه ، وَيَرَى مقعده من الجنة ، وَيُحَلَّى حِلَّةَ الإيمان ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم عن جابر قال: [قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قال: في الجنة. فَأَلْقَى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتِلَ]⁽⁴⁾.

وفي رواية أخرى: [يا رسول الله: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبِر ، أَيْكَفَّرُ اللَّهُ عَنِي خطاياي؟ قال: نعم. ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال: فقال: نعم ، إِلَّا الدِّينَ ، قاله لي جبريل أنفأً].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾ يعني حسن الجزاء والتكريم.

196 - 198. قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ مَتَّعْ

- (1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2494) ، كتاب الجهاد ، باب فضل الغزو في البحر . انظر صحيح سنن أبي داود (2178) ، وانظر تخريج المشكاة (727) ، وصحيح الجامع الصغير ، رقم (3048).
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2817) ، كتاب الجهاد والسير ، ورواه مسلم .
- (3) حديث صحيح . أخرجه أحمد بسند صحيح عن المقدام . انظر صحيح الجامع الصغير (5058).
- (4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4046) ، كتاب المغازي ، وأخرجه مسلم برقم (1899) ، ورواه أحمد في المسند (308/3).

قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ .

في هذه الآيات: استخفاف الله تعالى بالكافرين الماكرين ، ووعد جميل الجنان للأبرار المتقين .

قال السدي : ﴿ لَا يَعْرَنُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ ﴾ ، يقول : ضربهم في البلاد) . وقال قتادة : (والله ما غرؤوا نبيَّ الله ، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك) .

والمعنى: لا تعجبوا إلى ما أترِف به الكفار في الدنيا من ألوان النعمة والغبطة والسرور ، فعَمَّا قليل يتغير عليهم الحال ويزول ، ويدور الزمان فَيَذُلُّ الله من فتنه بالأمس بالحكم والسلطان ليمسوا محمولين إلى القبور ، مرتهنين بسَيِّئ أعمالهم مستقبليين يوم النشور .

وقوله: ﴿ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ﴾ هو مدة الغرور بالحكم والسلطان وتحكيم الأهواء والشهوات ، ﴿ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ بعد مماتهم ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي : بئس الفراش والمضجع والمأوى والمستقر .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُسَاقُونَ إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقُونَ من عَصَاة أهل النار ، طينة الخبال] (1) .

وفي مستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [إن أهل النار لَيَبْكُونَ حتى لو أُجْرِيت السفن في دموعهم جَرَتْ ، وإنهم لَيَبْكُونَ الدم] (2) .

ورواه في شرح السنة عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [يا أيها الناس ! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتابكوا ، فإن أهل النار يَبْكُونَ في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم ،

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) . ورواه أحمد . انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير (7896) .

(2) حديث حسن . أخرجه الحاكم (605/4) . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (767/2) للرواية بعده .

كَأَنَّهُا جَدَاوِلٌ ، حَتَّى تَنْقَطَعَ الدَّمُوعُ ، فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ ، فَتَقَرَّحَ الْعَيُونُ ، فَلَوْ أَنَّ سُفْنًا أُزْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ . وقوله : «أُزْجِيَتْ» : أرسلت .

وقوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبَرَارِ ﴾ .

وعد من الله سبحانه للذين اتقوه بتعظيم أوامره واجتناب نواهيه بساتين الخلود والنعيم ، إنزالاً من الله إياهم فيها ، تكريماً لهم وتشريفاً . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبَرَارِ ﴾ قال ابن زيد : (لمن يطيع الله) .

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عمر قال : (إنما سماهم الله أبراراً لأنهم برّوا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق) .

قلت : ولا شك أن البر كلمة جامعة لكل أبواب الخير ، سواء في معاملة الوالدين والأبناء ، أو في معاملة الناس جميعاً ، وأعلى من ذلك كله صدق طاعة الله عز وجل .

وقد مضى في حديث الإمام مسلم عن النّوّاس ، عن النبي ﷺ قال : [الْبِرُّ حُسْنُ الْخَلْقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ] (1) .

وفي المسند للإمام أحمد ، بسند صحيح ، من حديث أبي ثعلبة ، عن النبي ﷺ قال : [الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَلَمْ يَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمَفْتُونُ] (2) .

199 - 200 . قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَآيِمَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ .

في هذه الآيات : ثناء الله تعالى على من صدق من أهل الكتاب وكان بمحمد ﷺ من

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2553) ، والترمذي . انظر صحيح الجامع (2877) ، وقد مضى .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح من حديث أبي ثعلبة . انظر تخريج المشكاة (2774) ، وتخريج الترغيب (3/16) ، وصحيح الجامع (2878) .

المؤمنين ، وترغب لأهل الإيمان بالصبر والمصابرة والمرابطة حتى ينزل نصر الله المبين .

أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن أنس رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ صلى على النجاشي حين نُعي . فقل يا رسول الله : تصلي على عبد حبشي ! فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ الآية ⁽¹⁾ .

فالآية إخبار عن بعض أهل الكتاب أنهم على منهج الإيمان بالله ، وما أنزل على محمد ﷺ ، قد جمعوا ذلك إلى إيمانهم برسولهم وكتبهم مع خشية الله ، ولا يكتفون ما علموا من كتبهم من نبوة محمد ﷺ ووجوب اتباعه ، فهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، ولهم الجزاء الأوفى يوم القيامة . قال مجاهد : (﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب) .

وفي التنزيل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥٦) وَإِذَا بُدِئَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ أَمَانًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٥٧) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص : 52 - 54] .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . - فذكر منهم : ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي] ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ خَشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ . قال ابن زيد : (الخاشع ، المتذل لله الخائف) . وقد نصب قوله ﴿ خَشِعِينَ ﴾ على الحال من ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . أي : لا يحرفون ما أنزل الله من الحق في نعت محمد ﷺ ووجوب اتباعه ، من أجل حظ الرياسة وعرض الدنيا البخس .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

قال مجاهد : (يعني : سريع الإحصاء) .

(1) حديث إسناده جيد . رواه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني ثقات . انظر : الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة آل عمران ، آية (199) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3011) ، ومسلم (154) ، وأحمد (4/402) ، وغيرهم .

وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾. قال ابن جريج: (اصبروا على الطاعة ، وصابروا أعداء الله ، ورابطوا في سبيل الله). وقال ابن عباس: (المرابطة : انتظار الصلاة بعد الصلاة).

وأصل الرباط ارتباط الخيل للعدو ، ثم استعمل في كل مقيم في ثغر. يدفع عمن وراءه بأس عدوهم ، ولا شك أن انتظار الصلاة بعد الصلاة في الجماعة رباط.

وقد جاء الثناء العطر في السنة الصحيحة على الرباط وأهله ، ومن ذلك :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن سَهْل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن سَلْمَانَ ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه قال: [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأُجرِي عليه رزقه ، وأَمِنَ الْفَتَنَ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: [من مات مُرَابِطاً وَقِيَ فِتْنَةُ الْقَبْرِ ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَعُدِّيَ عَلَيْهِ وَرِيحَ بَرْزَقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُرَابِطِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي ریحانة عن النبي ﷺ قال: [حَرُمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمِعَتْ - أَوْ بَكَتْ - مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَحَرُمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]⁽⁴⁾.

وله شاهد عند الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ: [عينان لا تصيبهما النار: عينٌ بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2794) ، ومسلم (1881) ، وأحمد (433/3) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1913) ، والنسائي (39/6) ، والترمذي (1665) ، وأحمد (440/5) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(3) حديث حسن بشواهد. أخرجه أحمد في المسند (404/2). وإسناده حسن ، وله شواهد.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (134/4) ، والطبراني في «الأوسط» (8736). ورجال أحمد ثقات. وصححه الحاكم (83/2) ووافقه الذهبي. وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3991) من أجل الشاهد بعده ، وكذلك الأحاديث: (3990) ، (3992).

الحديث الخامس: أخرج الإمام مالك والنسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط] ⁽¹⁾.

وأورد ابن جرير بسنده عن زيد بن أسلم قال: (كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب ، يذكر له جُموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر: أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يُسرين ، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾) ⁽²⁾.

وذكر الحافظ ابن كثير في التفسير قال: (وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك ، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال: أملئ عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، ووَدّعته للخروج ، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومئة ، وفي رواية سنة سبع وسبعين ومئة .

يا عابدَ الحرمين لَوْ أَبْصَرْتَنَا	لعلمت أنك في العبادة تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّه بدمُوعه	فَنُحُورُنَا بدمائنا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَه فِي باطل	فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا	رَهْجُ السَّنَائِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِينَا	قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِي عُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطَلِقُ بَيْنَنَا	لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ، ونصحني ، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال:

(1) حديث صحيح . أخرجه مالك في الموطأ (1/ 261) ، ومن طريقه أخرجه مسلم (251) ، والنسائي (89/ 1) ، ورواه أحمد في المسند (2/ 277) ، وابن حبان (1038) .

(2) حديث موقوف . أخرجه الطبري في «التفسير» - حديث رقم - (8393) بإسناد حسن . رجاله ثقات .

قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كِرَاءَ حَمَلِكِ كتاب أبي عبد الرحمن إلينا. وأملئ عِلِّيَّ الْفُضَيْلِ بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، عَلَّمَنِي عملاً أَنَال به ثواب المجاهدين في سبيل الله. فقال: هل تستطيع أن تُصَلِّيَ فلا تَفُتِّرَ، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك. ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، لو طُوقَتْ ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أو ما عَلِمْتُ أن فرس المجاهد لَيَسْتَنَّ⁽¹⁾ في طَوْلِهِ، فيكتب له بذلك الحسنات»⁽²⁾ (3).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. هو أمر من الله لعباده المؤمنين، فلا فلاح لهم بدون منهج التقوى في كل أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي ذر، قال رسول الله ﷺ: [اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن]⁽⁴⁾.

وفي مسند الطيالسي وصحيح ابن حبان من حديث جابر بن سليم، عن النبي ﷺ قال: [اتق الله، ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تُفْرِغَ من دلوك في إناء المستسقي، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منسبطاً، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر ليس هو فيك، فلا تعيره بأمر هو فيه، ودعوه يكون وبأله عليه، وأجره لك، ولا تسبَّ أحدًا]⁽⁵⁾.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾. أي: لتفلحوا فتخلدوا في نعيم الآخرة، وتتجاوز عقبة الهلاك والشقاء. فإن الفلاح كل الفلاح في التمسك بالإسلام في الدنيا، والفوز برضى الله في الآخرة.

(1) يستنّ في طَوْلِهِ: يمرح في الطول. وقال أبو عبيدة: الاستنان أن يُحضر وليس عليه فارس.

(2) إسناده لا بأس به، محمد بن إبراهيم، وثقه ابن حبان، ومن فوقه رجال الصحيح، وأصله في الصحيحين. انظر: مختصر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير - حديث رقم - (1146).

(3) انظر تفسير ابن كثير - آخر سورة آل عمران، تحقيق - عبد الرزاق المهدي.

(4) حديث حسن. رواه أحمد في المسند، ورواه الترمذي في الجامع (1987) من حديث أبي ذر. وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (96).

(5) حديث صحيح. رواه الطيالسي (1208) من حديث جابر بن سليم، وروى أحمد نحوه (5/ 63). وانظر: السلسلة الصحيحة (770).

أخرج الطبراني والحاكم عن فضالة بن عبيد ، عن النبي ﷺ قال : [أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وَقِنَع به⁽¹⁾ .
وهذا آخر تفسير سورة آل عمران ، والله الحمد والمنة ، ونسأله الموت على الكتاب والسنة . . . اللهم آمين .

تم تفسير سورة آل عمران
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه



(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 122) ، والترمذي (2/ 56) . وانظر المرجع السابق (1506) .

دروس ونتائج وأحكام

- 1 - الحروف المقطعة أوائل السور تفيد الإعجاز لهذا القرآن العظيم .
- 2 - اسم الله الأعظم في آية الكرسي وأول آل عمران وفي سورة طه .
- 3 - منهاج المؤمنين في فهم القرآن برد المتشابه إلى المحكم في الكتاب والسنة .
- 4 - حبُّ النساء للإعفاف والأولاد ، والخيل أجر ووزر وستر .
- 5 - التوسل بالأعمال الصالحة مشروع ، أما بذوات المخلوقين فممنوع .
- 6 - نزول الله تعالى آخر الليل إلى السماء الدنيا حقيقة بلا كيف .
- 7 - لا يقبل الله ديناً غير الإسلام ، والسماع بالرسول الأعظم يوجب المتابعة والإيمان ، ومن كفر فموعه صلي النيران .
- 8 - التقية باللسان لا بالعمل ، وهي باقية إلى يوم القيامة .
- 9 - محبة الله تعالى يصدقها محبة نبيه ﷺ ومتابعة هديه .
- 10 - كرامة الأولياء حق ، وهي ما وافق نصوص الشريعة الإسلامية .
- 11 - مريم بنت عمران من أكمل نساء العالمين ، طهراً وكرامة وتقوى .
- 12 - نصارى نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ .
- 13 - اليهود يكتمون صفة محمد ﷺ في التوراة ووجوب الإيمان به ، ويزعمون كذباً حل أموال العرب ، ويكذبون على الله وهم يعلمون .
- 14 - الكافر لا ينتفع بما عمل من الخير في الآخرة ، وإنما يقتصر انتفاعه بذلك على الدنيا . وأما المؤمن فينتفع بالعمل الصالح بالرزق في الدنيا والثواب في الآخرة .

- 15 - الحج ركن من أركان الإسلام ، وعلى المسلم المستطيع التعجل إلى الحج ، والاستطاعة : صحة البدن وملك الزاد والراحلة وأمن الطريق والمحرم للمرأة .
- 16 - هذه الأمة خير الأمم ، ما أقامت منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- 17 - أمة محمد ﷺ ثلثا أهل الجنة ، وهم أكثر أتباع الأنبياء .
- 18 - الولاء والبراء أصل من أصول الإيمان عند المؤمنين ، يمنعهم من اتخاذ بطانة من المنافقين أو الكافرين .
- 19 - تأخير النصر عن المسلمين ، هو نتيجة المعاصي ومخالفة أمر الرسول الكريم .
- 20 - سنة الله في الرسل أن تُبتلى ولهم العاقبة .
- 21 - الشهادة في سبيل الله من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم .
- 22 - النعاس في الجهاد من الله تعالى ، وفي الصلاة من الشيطان .
- 23 - أرواح الشهداء في أجواف طير خضر في الجنة ، ونسمة المؤمن طائر فيها .
- 24 - استدرج الله الكفار بالخيرات إنما هو شر لهم .
- 25 - إفشاء العلم واجب على العلماء ، وإنما كتمانهم كان صفة للأخبار والرهبان الأشقياء .
- 26 - التفكير في خلق السماوات والأرض يثبت الإيمان ، ويقوي لدى المؤمن الحجة والبرهان .
- 27 - الابتلاء حق ، وجزاء الأذى في الله والهجرة إليه الجنة .
- 28 - أهل الكفر في الأرض في فتنة ومكر وغرور ، وأهل الإيمان في صبر وشكر وأمل بنصر من الله وسرور .
- 29 - المؤمن من أهل الكتاب بنبيّه ثم بمحمد ﷺ له أجران .
- 30 - الصلاة رباط المسلم في السلم ، والجهاد رباط على الثغور في الحرب ، وجزاء تقوى الله في الرخاء والشدة الجنة .

4

سُورَةُ النِّسَاءِ

آياتها
١٧٦ترتيبها
٤

وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (176) .

فضلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: [صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقُلْتُ⁽¹⁾ : يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِئَةِ ، ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْتُ : يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ ، فَمَضَى فَقُلْتُ : يَرْكَعُ بِهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا ، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً ، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ : «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ : «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ» ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا ، قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ : «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» فَكَانَ سَجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [قال لي رسول الله ﷺ : «اقْرَأْ عَلَيَّ» ، قُلْتُ : اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ : «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمِعَهُ مِنْ غَيْرِي» ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

(1) فقلت: أي في نفسي ، يعني ظننت أن يركع عند مئة آية .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (772) - كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل . ح (203) ، وانظر كذلك ح (204) .

وَجَنَّا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١﴾ قال: «أَمْسِكْ» ، فإذا عيناه تَذَرِفَانِ [١].

ورواه الترمذي وفي آخره: [فَرَأَيْتُ عَيْنِي النَّبِيَّ ﷺ تَهْمِلَانِ].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله قال: [أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ عليه ، وهو على المنبر ، فقرأت عليه من سورة النساء ، حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَنَّا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] غمزني رسول الله ﷺ بيده ، فنظرت إليه وعيناه تدمعان] [٢].

موضوع السورة

العلاقات الأسرية وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والأحكام الشرعية المتعلقة بالنساء ، وتشريعات خاصة في الصلاة والجهد ومنهاج الولاء والبراء.

- منهاج السورة -

- 1 - أمر الله تعالى عباده بالتقوى وصلة الأرحام ، فهو سبحانه الرقيب عليهم ، ويحصى أعمالهم.
- 2 - تنبيه الولي إن أراد نكاح يتيمته أن يعطيها مهر مثلها ولا يبخس حقها.
- 3 - وجوب العدل بين الزوجات ، ولا زواج فوق أربع ، وتحريم أكل المهور.
- 4 - النهي عن جعل الأموال بيد السفهاء يفسدون فيها. والسفهاء هم المجانين والصغار وقليلو الدين والجهلة بمواضع المصالح والمضار.
- 5 - ولي اليتيم الغني يستعفف ، والفقر يأكل بالمعروف.
- 6 - إبطال عادات الجاهلية بعدم توريث النساء والأطفال والأمر بتوريثهم.
- 7 - أقصى الوصية الثلث ، وآكل مال اليتيم ظلماً إنما يأكل ناراً.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4582) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (41). وانظر صحيح

سنن الترمذي عقب الحديث (2421) - سورة النساء ، آية (41).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2421) ، سورة النساء ، آية (41).

- 8 - القسمة الشرعية للميراث: للذكر مثل حظ الأنثيين ، والنساء فوق اثنتين لهن الثلثان ، وإن واحدة فلها النصف ، وللرجال نصف ما ترك أزواجهم إن لم يكن لهن ولد وإلا فالربع . وللنساء الربع مما ترك الأزواج إن لم يكن لهم ولد وإلا فالثلث ، والذَّين مقدم على الوصية .
- 9 - مفهوم الكلالة ، ولا وصية لوارث ، والإضرار بالوصية من الكبائر .
- 10 - حد الزنا كان الحبس في البيوت ، فنسخ إلى الجلد أو الرجم .
- 11 - حد عمل قوم لوط : قتل الفاعل والمفعول به .
- 12 - لا توبة عند الغرغرة ، ومن مات على كفره لا ينفعه ندم ولا توبة .
- 13 - النهي عن استرداد المهر بعد المفارقة ، والنهي عن نكاح ما نكح الآباء ، وعن الجمع بين الأختين ، والتحذير من الاقتراب من مدارج الزنى .
- 14 - الرضاعة المحرّمة : خمس رضعات ، وهي تحرم ما يحرم النسب والولادة .
- 15 - الربيبة حرام ، وزوجات الأبناء من الأصلاب حرام ، وذوات الأزواج محرمات ، إلا السبايا فحلّال بعد الاستبراء .
- 16 - الحلال من النساء ، ما وراء ما ذكر من المحرمات .
- 17 - تخفيف الله عنا بإباحة نكاح الإماء لضعفنا ، ونكاح الأمة بإذن سيدها ، وحدّ المملوك نصف حد الحر ولا رجم عليه .
- 18 - النهي عن أكل الأموال بالحيلة والمكر ، والنهي عن ضرب النفس بحديدة أو تحسي السّم انتحاراً أو تدجياً ، واجتناب الكبائر يكفر الصغائر .
- 19 - النهي عن تمني ما بيد الآخرين من النعم ، والترغيب بسؤال الله من فضله وعطائه .
- 20 - نسخ توارث المهاجري الأنصاري والحليف حليفه ، إلى التوارث بالقرابة .
- 21 - التدرج في معالجة نشوز الزوجة : الوعظ ، والهجر ، والضرب غير المبرح .
- 22 - تنفيذ الحكمين ما يريانه من المصلحة توفيقاً أو تفريقاً .
- 23 - الترغيب ببر الوالدين ، والإحسان إلى الجار ، والتحذير من البخل وقطيعة الرحم ، والله يضاعف الحسنات ، ويهلك الكفار يوم القيامة بالحسرات والسيئات .
- 24 - النهي عن اقتراب السكران الصلاة ، تمهيداً لتحريم الخمر .

- 25- جواز مرور الجنب والحائض في المسجد عبور سبيل .
- 26- إباحة التيمم لفقدان الماء في الحضر والسفر ، ولخوف ازدياد المرض .
- 27- المقصود من ﴿لَا مَسْتَمَ النَّسَاءُ﴾ الجماع ، ولمس الأجنبية لا ينقض الوضوء .
- 28 - اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتلاعبون بالألفاظ ويقصدون غير ما يتلفظون .
- 29- الشرك أعظم الظلم ، والله لا يغفر الشرك وقد يغفر ما دون ذلك .
- 30 - الطاغوت ما عبد من دون الله برضاه ، واليهود يحسدون العرب على النعمة العظمى - نبوة محمد ﷺ الرسول العربي - ، والكفار تبدل وجوههم في النار كلما نضجت .
- 31- الأمر بأداء الأمانات إلى أصحابها والحكم في الناس بالعدل ، والرسول يرد مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة .
- 32 - الطاعة في المعروف ، وأما المعصية فلا سمع ولا طاعة ، ووجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة ، وجزاء من يطع الله ورسوله مرافقة الأنبياء والصديقين والصالحين والشهداء في الجنة .
- 33 - القتال شرع بالمدينة وقد كانوا يتمنونوه أيام الضعف في مكة ، فلما كتب عليهم وجد بعض المؤمنين جزعاً فثبتهم الله وأعانهم .
- 34 - طاعة رسول الله طاعة الله ، ومعصيته معصية الله .
- 35 - أمر الله رسوله بتحريض المؤمنين على الجهاد ليكف بأس الكافرين .
- 36 - رد السلام على المؤمنين فريضة ، وإفشاء السلام دليل المحبة .
- 37 - النهي عن اتخاذ المنافقين أولياء ، والاستنصار بهم على الأعداء .
- 38 - قتل الخطأ فيه تحرير رقبة مؤمنة ودية إلى أهله .
- 39 - تفصيل أحكام الديات : المسلم ، الكافر ، قتل العمد ، الكفارة . وأولياء الدم مخيرون بين القتل والعفو والدية .
- 40 - إظهار الإيمان يمنع من المسارعة بالقتل ، أو الاتهام بالكذب .

- 41- معذرة أولي الضرر عن الجهاد ، وفضيلة المجاهدين على القاعدين .
- 42 - النهي عن مساكنة المشركين ، والأمر بالهجرة إلى دار الإسلام ، واستثناء المستضعفين ، وأجرهم إن ماتوا حسب نياتهم .
- 43 - تشريع قصر الصلاة في السفر ، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .
- 44- تشريع صلاة الخوف : للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .
- 45- وقت الصلاة كوقت الحج ، لا تجوز بعد فواته ، فويل لمؤخرها .
- 46 - الرسول لا يعلم ما في القلوب ، بل يحكم بالظاهر ، والله يطلع على القلوب ، ويغفر الذنوب ، فمن تاب تاب الله عليه ، ومن يقترب خطيئة ثم يرم بها بريئاً فله عذاب أليم .
- 47- ترك سنة الرسول ومنهاج المؤمنين ، مآل أهله إلى الجحيم .
- 48 - المشركون جعلوا لله البنات وعبدوها لتقربهم إليه زلفى ، واستحسنوا ما زينه لهم الشيطان .
- 49- الدعوى لا تحقق حقاً ولا تبطل باطلاً إلا ببرهان من الله .
- 50- كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها .
- 51- إبراهيم - عليه السلام - بلغ مرتبة الخلعة ، وكذلك نبينا محمد ﷺ وصلها ، وقد وفى .
- 52 - النهي عن عضل اليتامى اللاتي في حجور المؤمنين ، فإما الزواج بهن أو تزويجهن .
- 53- خوف المرأة نشوز زوجها فلا جناح عليها أن تسقط عن حقها .
- 54- الأمر بالعدل بين النساء في المعاملة ، وأما ميل القلب فيعفى عنه .
- 55 - وصية الله بالتوحيد للأولين والآخرين ، والأمر بشهادة الحق ولو على النفس والوالدين والأقربين ، والموت على الكفر بعد التردد بين الإيمان والكفر مآل صاحبه إلى الجحيم .

56 - النهي عن الجلوس في مجلس يُستهزأ فيه بآيات الله ، ومن فعل ذلك فهو مثل المستهزئين ، والله سيجمع في العذاب بين المنافقين والكافرين ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وما يفعل الله بعذاب عباده إن صدقوه الإيمان والإصلاح والعمل .

57 - لا يجوز الجهر بالسوء من القول ، أو دعاء أحد على أحد ، إلا من ظلم ، والعفو خير .

58 - الكفر بنبيٍّ واحد كفر بجميع الأنبياء .

59 - اليهود سألوا رسول الله نزول كتاب من السماء كما نزلت التوراة ، واحتالوا دوماً على ارتكاب ما حرم الله ، وقذفوا العذراء ، وكفروا بالمسيح ، وسعوا ليقتلوه ، وارتكبوا كل منكر في الأرض .

60 - الحواريون شاهدوا رفع المسيح - عليه السلام - إلى السماء حياً منزهاً مكرماً ، وفداه أحدهم بنفسه ممن شبهه فُصلب مكانه ، وسينزل عيسى من السماء إلى الأرض في دمشق وسيحكم بالإسلام ، ويقتل المسيح الكاذب الأعور الدجال ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

61 - الله يشهد وملائكته بما أنزل على محمد ﷺ ، والزبور نزل على داود ﷺ .

62 - النصارى غلوا في عيسى حتى عبّدوه ، واعتقدوا في أتباعه العصمة .

63 - عيسى ﷺ خُلِقَ بكلمة «كن» ، وهو عبد الله ورسوله ، والله تعالى واحد لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد .

64 - المسيح نفسه لن يستكف أن يكون عبداً لله فما بال هؤلاء يؤلهونه؟! والقرآن هو الدليل القاطع للعذر ، والحجة الخالدة المزيلة للشبه المبين الذي يضيء كل ما ظلم .

65 - الكلاله من ليس له ولد ولا والد ، وقد فصل الله حكم ذلك آخر السورة .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

1. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

في هذه الآية: يأمر الله سبحانه عباده بالتقوى ويفتح بذلك كلامه في هذه السورة ، كما اختتمه في سورة آل عمران قبلها ، حيث ختم كلامه بالأمر بالتقوى فإن فلاح العبد في الدنيا والآخرة منوط بها. ثم ينبه سبحانه على قدرته العجيبة في الخلق إذ خلق العباد كلهم من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ، وخلق حواء من ضلع منه ، ثم بث منهما الذرية رجالاً ونساءً ، ثم يؤكد سبحانه مرة أخرى على التقوى التي فيها سرّ نجاة الخلق ، وعلى صلة الأرحام التي تحمل الرزق والسعادة للعباد ، والله على كل شيء رقيب.

فعن قتادة: (﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ ، يعني آدم صلى الله عليه).

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. قال مجاهد: (حواء ، من قصيرى⁽¹⁾ آدم وهو نائم ، فاستيقظ فقال: «أنا» - بالنبطية ، امرأة).

وقال قتادة: (يعني حواء ، خلقت من آدم ، من ضلع من أضلاعه).

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة عن ابن عباس قال: (خلقت المرأة من الرجل ، فجعلت نَهْمَتُهَا في الرجل وخُلِقَ الرجل من الأرض ، فجعل نهمته في الأرض ، فاحبسوا نساءكم).

(1) القصيرى والقصرى: أسفل الأضلاع ، أو هي الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها]⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَبَيْنَ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ يعني: ونشر منهما - من آدم وزوجته حواء - ذرية رجالاً كثيراً ونساءً على اختلاف أقطارهم وألوانهم وأجناسهم وألسنتهم.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، وأبو داود في السنن، بسند صحيح، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى خلق آدم من قُبْضَةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ، والخبيث والطيب، وبين ذلك]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾. قال الضحاك: (يقول: اتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به). وقال ابن عباس: (تعاطفون به).

وقوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾. قال مجاهد: (يقول: أسألك بالله وبالرحم). يعني قول الرجل يسأل بالله وبالرحم. ومنه قول أبي سفيان لرسول الله ﷺ: [أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم]، ليدعو لهم ويستسقي لهم حين أصابهم ما أصابهم بعد حصار الشعب فأكلوا الجلود والميتة والجيف.

وقال السدي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، يقول: اتقوا الله، واتقوا الأرحام لا تقطعوها).

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3643) طبعة دار السلام - الرياض، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء. من حديث أبي هريرة.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3331)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، وأخرجه مسلم (1466) من حديث أبي هريرة.
- (3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2955). انظر صحيح سنن الترمذي (2355). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (100)، وصحيح الجامع الصغير (1755).

والمعنى الراجح لهذه الآية: اتقوا الله الذي تساءلون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أخرج ابن عساكر بسند حسن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم] (1).

ورواه الطبراني عن جابر وزاد: [فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم].

ورواه ابن جرير عن قتادة وزاد: [فإنه أبقى لكم في الدنيا ، وخير لكم في الآخرة].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من ذنب أجد أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من قطيعة الرحم والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا] (2).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. قال مجاهد: (حفيظاً). وقال ابن زيد: (رقيباً: على أعمالكم ، يعلمها ويعرفها). وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وفي حديث الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسؤال جبريل للنبي ﷺ: أخبرني عن الإحسان؟ قال: [أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] (3).

قال ابن القيم رحمه الله: (المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور. يعني أنه لا بد أن يشيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول) (4).

(1) حديث حسن. أخرجه ابن عساكر (2/74/16) ، وانظر السلسلة الصحيحة (869) وله شواهد ، وهو يصلح تفسيراً مباشراً لهذه الآية - آية النساء (1).

(2) حديث صحيح. وأخرجه ابن حبان (2038) ، وبنحوه عند أبي داود (301/2) ، وأحمد (36/5) ، وابن ماجه (552/2) ، وانظر السلسلة الصحيحة (917).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (30/1) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (2) من حديث أبي هريرة بلفظ مشابه ، ورواه ابن ماجه بلفظ مقارب ، وهو جزء من حديث طويل.

(4) انظر كتابي: أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/280).

وقيل: (علامة المراقبة إثارة ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغر الله).

وقيل: (من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه).

وقيل: (المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل).

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن عباس ، قال: [كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، . . .] الحديث⁽¹⁾.

والخلاصة: فالمراقبة حالة في القلب المؤمن بأسماء الله وصفاته ، تحمله على تعظيم أوامره وحرماته واجتناب معاصيه ومسخطاته ، وإثارة رضاه على هوى نفسه وشهواته ، وخوف سببه يقينه باطلاعه سبحانه على تصرفاته ، يدفعه إلى سياسة عمله بالعلم الذي يوصل إلى مرضاته.

ومن هنا قول بعض الصالحين: (إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب).

وقول أبي حفص لأبي عثمان النيسابوري: (إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك).

قلت: وهذه الآية قد كان النبي ﷺ يقرأها في خطبة الحاجة أو خطبة النكاح. ففي صحيح مسلم من حديث المنذر بن جرير ، عن أبيه قال: [كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ، فجاءه قوم حفاة عراة مجتاهبي النمار⁽²⁾ أو العباء ، متقلدي السيوف. عامتهم من مضمر ، بل كلهم من مضمر ، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلّى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ إلى آخر الآية ، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، . . .] الحديث⁽³⁾. ثم حصّهم على الصدقة.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2516). انظر صحيح سنن الترمذي (2043). وانظر تخريج المشكاة (5302) ، والمرجع السابق (1/ 281) لتفصيل مفهومه.

(2) أي خارقى أوساطها.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1017) ، كتاب الزكاة ، في الحث على الصدقة.

2 - 4. قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا آلَ الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَتِلْكَ وَرِثَةٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾ .

في هذه الآيات: أمر من الله بدفع الأموال المستحقة للأيام إذا بلغوا الرشد ، وتحذير من الاستهتار بها أو ضمها أو التلاعب بها ، وترهيب من الوقوع في ظلم اليتامى من النساء بنكاحهن دون القسط في مهورهن ، فإن الله أباح غيرهن متى وثلاث ورباع ، ورعّب في الاكتفاء بواحدة خشية الظلم ، وأمر بدفع المهور للزوجات فما سامحن به فكلوه هنيئاً مريئاً .

فقوله: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾ . قال مجاهد: (الحلال بالحرام). وقال إبراهيم: (لا تعط زيفاً وتأخذ جيداً). وقال الضحاك: (لا تعط فاسداً ، وتأخذ جيداً) .

وقد جاء تفسير آخر عن مجاهد: (لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدّر لك). والأول أرجح واختاره ابن جرير . فالمعنى: لا تستبدلوا أموالهم الحرام عليكم بأموالكم الحلال لكم . فقد كان أوصياء اليتامى يأخذون الجيد من ماله ويجعلون مكانه لليتيم الرديء والخسيس .

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ . قال مجاهد: (لا تأكلوا أموالكم وأموالهم ، تخلطوها فتأكلوها جميعاً) . يعني لا تخلطوا أموالهم بأموالكم فتأكلوها مع أموالكم .

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ . قال ابن عباس: (إثماً عظيماً) . وقال قتادة: (ظلماً كبيراً) . يعني خلط أموال اليتامى مع أموال الأوصياء إثم كبير .

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَتِلْكَ وَرِثَةٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق ، وكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء ، فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ

خَفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَنِ ﴿١﴾ - أحسبه - شك من هشام بن يوسف - قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري عن عروة بن الزبير ، أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَنِ﴾ ، قالت: [يا ابن أخي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشركه في ماله ويعجبه ماله وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيه مثل ما يعطيها غيره ، فنهو أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى ستهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن]. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127]. قال عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَرَعَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهو أن ينكحوا من رغبوها في ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن إذا كنَّ قليلات المال والجمال⁽²⁾.

وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبُعٍ﴾. أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن ولا تقعوا في الظلم ، ولكم أن ينكح أحدكم إن شاء ثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً.

أخرج البيهقي بسند حسن عن ابن عمر: [أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلمن معه ، فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً]⁽³⁾.

قال الشافعي: (وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبيّنة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة).

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: فإن خشيتن من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: 129] ، فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4573). والعذق: النخلة. ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4574) ، وأخرجه مسلم (3018) ، والنسائي في «التفسير» (110). من حديث عروة بن الزبير عن خالته عائشة رضي الله عنها.

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي (183/7) ، ورجال إسناده ثقات. وأخرجه الدارقطني (271/3) ، وله شواهد عند النسائي وأحمد وابن حبان.

على الجواري السراري ، فإنه لا يجب قَسْمُ بينهم ، ولكن يُسْتَحَب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حَرَجَ .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَذَقَ ۖ أَلَّا تَعُولُوا ۖ ﴾ . قال مجاهد : (يقول : لا تميلوا) . وقال الحسن : (العُول الميل في النساء) . والمعنى : ألا تجوروا وتظلموا .

وقوله : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني بـ «النحلة» ، المهر) .

وقال ابن جريج : (﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ ﴾ : فريضة مسماة) .

والمعنى كما قال ابن جرير : (وأعطوا النساء مهرهن عطية واجبة ، وفريضة لازمة) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ۖ ﴾ . قال ابن زيد : (بعد أن توجبه لهنّ وتُحلوه) . يعني المهر . والمقصود : إن وهب لكم - أيها الرجال - نساؤكم شيئاً من مهرهن بعد أن عُيِّنَ ذلك لهن ، طيبة بذلك نفوسهن ، ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۚ ﴾ . قال قتادة : (ما طابت به نفساً في غير كزّه أو هوان ، فقد أحلّ الله لك ذلك أن تأكله هنيئاً مريئاً) .

ومعنى ﴿ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۚ ﴾ أي : دواء شافياً . من : «هنأت البعير بالقطران» إذا جرب فعولج به . والعرب تقول : أمرأني الطعام أي : انهضم . وقوله : ﴿ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۚ ﴾ منصوب على الحال من الهاء في ﴿ فَكُلُوهُ ۚ ﴾ .

5 - 6 . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوْنُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ

فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوبًا ۖ ﴾ وَأَبْلُوا إِلَيْنِمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ۖ ﴾ .

في هذه الآيات : نَهْيٌ من الله سبحانه عن تعريض الأموال للتلف والتصرف السيئ الهزيل بوضعها تحت تصرف السفهاء ، وأمرٌ باختبار اليتامى قبل دفع أموالهم إليهم عند سن الرشد ، وأنّ على ولي اليتيم الغني أن يستعفف ، وللفقير أن يأكل بالمعروف ، وأنه لا بد من الإشهاد عند دفع الأموال إليهم لئلا يقع التجاحد يوماً ويدخل الشيطان .

فقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ ، المعني بالسفهاء عند المفسرين على أقوال:

- 1- قال سعيد بن جبير: (اليتامى والنساء). وقال الحسن: (لا تعطوا الصغار والنساء).
- 2- قال مجاهد: (النساء والولدان). وقال قتادة: (أمر الله بهذا المال أن يخزن فتُحسن خِزانتَه ، ولا يملكه المرأة السفهية والغلامُ السفهية).
- 3- وقال مجاهد: (نهى الرجال أن يعطوا النساء أموالهم ، وهنّ سفهاء من كُنَّ أزواجاً أو أمهات أو بنات).
- 4- قال أبو هريرة: (هم الخدم ، وهم شياطين الإنس) رواه ابن أبي حاتم عن معاوية بن قرّة عنه .

قلت: والسفيه هنا الضعيف التصرف ، المستحق الحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ، ويشمل كل من كانت هذه صفته .

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه ، ورجل أتى سفهياً ماله ، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ . قال ابن عباس: (بمعنى: قوامكم في معاشكم). وقال الحسن: (قيام عيشك). وقال السدي: (فإن المال هو قيام الناس ، قوام معاشهم. يقول: كن أنت قيم أهلِكَ ، فلا تعط امرأتك وولدك مالك ، فيكونوا هم الذين يقومون عليك).

وقوله: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ . قال مجاهد: (أمرُوا أن يرزقوا سفهاءهم - من أزواجهم وأمهاتهم وبناتهم - من أموالهم). وقال ابن عباس: (أنفقوا عليهم). وقال السدي: (يقول: أطعمهم من مالك واكسهم).

وقوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ . قال مجاهد: (أمرُوا أن يقولوا لهم قولاً معروفاً في البر والصلة). وقال ابن جريج: (عِدَّةٌ تعدهم) يعني نحو قولك لهم: إن صلحتم ورشدتم سلمنا لكم أموالكم لتديروها بأنفسكم.

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (302/2) ، وابن جرير في «التفسير» (8546). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1805) ، وصحيح الجامع الصغير (3070) ، وله طرق.

وقوله: ﴿وَابْلَوْا آلَيْسَنِي حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال ابن زيد: (اختبروه في رأيه وفي عقله كيف هو. إذا عُرِفَ أنه قد أُنِسَ منه رُشْدٌ ، دفع إليه ماله. قال: وذلك بعد الاحتلام).

وقال ابن عباس: ﴿حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ ، قال: عند الحلم).

وقال الحسن: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ قال: رُشْدًا في الدين ، وصلاًحاً ، وحفظاً للمال). وقال مجاهد: (العقل). وقال ابن جريج: (صلاًحاً وعلماً بما يصلحه).

والخلاصة: سن البلوغ يكون عند الحلم - كما ذهب الجمهور من العلماء - وبه ينتهي اليتيم وسن الطفولة.

أخرج أبو داود بسند حسن عن علي قال: [حفظت من رسول الله ﷺ: لا يُتَمَّ بعد احتلام ، ولا صُمَاتَ يوم إلى الليل]⁽¹⁾.

ويعرف الحُلُم بالاحتلام - وهو أن يرى في منامه الماء الدافق الذي يكون منه الولد - ، كما يعرف بالشعر الخشن ينبت حول الفرج ، كما يعرف بسن الخامسة عشرة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: [عُرِضَتْ على النبي ﷺ يوم أُحُد وأنا ابن أربع عشرة فلم يُجْزني ، وعُرِضَتْ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني]⁽²⁾.

قال عمر بن عبد العزيز - لما بلغه هذا الحديث -: (إن هذا الفرق بين الصغير والكبير).

وفي لفظ ابن ماجة: (هذا فصل ما بين الصغير والكبير).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند حسن عن عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ قال: [عُرِضْنَا على النبي ﷺ يوم قُرَيْظَةَ ، فأمر من ينظر من أنبت ، فكان من أنبت قُتِلَ ، ومن

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2873) في السنن. انظر صحيح أبي داود (2497).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2664) ، ومسلم (1868) ، وأبو داود (4406) ، وغيرهم.

لم يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلَهُ ، فَكَنتَ فِيمَنْ لَمْ يَنْبِتْ فَخُلِّي سَبِيلِي⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأبو داود والنسائي بسند جيد عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [رَفَعَ القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم - أو يستكمل خمس عشرة سنة - وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يُفْقَ] ⁽²⁾ .

وفي الأثر عند أبي عبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا ابن عُليّة ، عن إسماعيل بن أميّة ، عن محمد بن يحيى بن حبان ، عن عمر: (أن غلاماً ابتهر جارية في شِعْرِهِ ، فقال عمر رضي الله عنه: انظروا إليه . فلم يُوجَد أنْبَت ، فَدَرَأَ عنه الحدّ . قال أبو عبيد: ابتهرها أي: قذفها ، والابتهار أن يقول: فعلت بها ، وهو كاذب ، فإن كان صادقاً فهو الابتيار) ⁽³⁾ .

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ . قال ابن عباس: (يعني: أكل مال اليتيم مبادراً أن يبلغ ، فيحول بينه وبين ماله) . والتقدير: لا تأكلوها بمبادرة كبرهم ، فإن في محل نصب . والآية تنهى عن المبادرة بأكل أموال اليتامى قبل بلوغهم للاستفادة منها ومنعهم من ذلك .

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: [في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنها نزلت في مال اليتيم إذا كان فقيراً فإنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف] ⁽⁴⁾ .

وفي لفظ مسلم: [أنزلت في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه ، إذا كان محتاجاً أن يأكل منه] .

وله شاهد عند الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: [أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: كُلْ من مال يتيمك غير

(1) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4404) ، والترمذي (1584) ، والنسائي (155/6) وابن ماجه (2541) . وعطية صحابي صغير . وكان ذلك لما حكم فيهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلهم وسي ذراريهم ، فقال له النبي ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات .

(2) حديث إسناده جيد . أخرجه أبو داود (4398) ، والنسائي (156/6) ، وأحمد (144/6) .

(3) انظر تفسير ابن كثير - سورة النساء ، آية (6) . وعزاه لأبي عبيد في كتاب الغريب .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4575) - كتاب التفسير - وأخرجه مسلم (3019) فيه .

مُسْرِفٌ وَلَا مُبْدِرٌ وَلَا مُتَأَثِّلٌ مَالاً ، ومن غير أن تَقِيَّ مالَكَ - أو قال: تَفْدِي مالَكَ - بماله⁽¹⁾.

وشاهد آخر عند أبي داود والنسائي عنه بلفظ: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً له مال وليس لي مال ، أكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير مُسْرِف]⁽²⁾.

وقوله: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾: أي: فأشهدوا على الأيتام دفعكم إليهم أموالهم واستيفاءهم ذلك منكم. وهو أمر من الله سبحانه لئلا يقع التجاحد يوماً ويدخل الشيطان.

قال ابن عباس: (إذا دفع إلى اليتيم ماله ، فليدفعه إليه بالشهود ، كما أمره الله تعالى).

وقوله: ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾. قال السدي: (شهيذاً).

قال ابن كثير: (أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقياً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم للأموال ، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة مدخلة مُرَوَّج حسابها مُدَلَّس أمورها؟ الله عالم بذلك كله.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمّرَن على اثنين ، ولا تليَن مال يتيم»⁽³⁾.

7 - 10. قوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ

مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا

(1) إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (2/ 186) ، وله شواهد ، وانظر ما بعده.

(2) إسناده قوي. أخرجه أبو داود في السنن (2872) ، والنسائي (6/ 256) ، ورواه أحمد (2/ 215).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1826) ، وأبو داود (2868) ، والنسائي (6/ 255).

قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أن للذكور من أولاد الرجل إذا مات حصة من ميراثه ، وكذلك للإناث حصة منه ، من قليل ما خلف بعده وتيره ، وهي حصة مفروضة واجبة معلومة . وإذا حضر هذه القسمة الفقراء ممن لا يرث من القرابة ، واليتامى والمساكين ، فإن إكرامهم أمر يحبه الله ويجزي به . ثم ليتق الله كل من يوصي أن يضر بأحد من الورثة أو بأموال اليتامى فإنه كما يحب لذريته من بعده ، كذلك عليه أن يحسن في معاملة من وَلِيَّ أَمْرِهِ . إن الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من أموال اليتامى إنما يأكلون في بطونهم النار مقابل استهتارهم والعياذ بالله .

فعن قتادة ، قال : (كانوا لا يُورَثون النساء ، فنزلت : ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾) . وقال سعيد بن جبیر : (كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ . . . الآية) .

وقوله : ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ . قال الفراء : (هو كقولك : قسماً واجباً ، وحقاً لازماً ، فهو اسم في معنى المصدر فلهذا انتصب) . وقال الزجاج : (انتصب على الحال) .
وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ﴾ .

المعنى - كما قال الحافظ ابن كثير - : (أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تنوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يُعطونه ، فأمر الله تعالى ، وهو الرؤوف الرحيم : أن يُرْضَخَ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقة عليهم ، وإحساناً إليهم ، وجبراً لكسرهم) .

قلت : وقد خاض الناس فيما سبق في هذه الآية : من قائل إنها منسوخة بآية الموارث ، ومن قائل : إنها محكمة . والصواب ما ذكر البخاري عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ . قال : هي محكمة ، وليست بمنسوخة . وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : (هي قائمة بعمل بها) . وقال مجاهد : (هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم) .

قلت : والآية تشبه قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْفِقِينَ ﴿180﴾ [البقرة: 180]. فهذه أيضاً ليست بمنسوخة ، إنما الواجب على الموصي أن يترك شيئاً من الثلث لفقراء أرحامه وأقاربه الذين لا يرثون .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن سلمان بن عامر ، عن النبي ﷺ قال : [الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم اثنتان : صدقة وصلة] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

فيه تفسيران : الأول - أن يخاف من يحضر الميت أن يأمره بتفريق ماله فيمن لا يرثه وحرمان مستحقه .

قال ابن عباس : (هذا في الرجل يَخْضُرُهُ الموت ، فَيَسْمَعُهُ رجل يوصي بوصية تضرُّ بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يَسْمَعُهُ أن يتقي الله ، ويوفقه ويسدده للصواب ، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة). وهو قول مجاهد واختيار شيخ المفسرين .

أخرج البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : [كنت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فمرضت مرضاً أشفيت منه على الموت ، فعادني رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً ، وليس يرثني إلا ابنة لي ، أفأوصي بثلاثي مالي؟ قال : لا . قلت : بشرط مالي؟ قال : لا . قلت : فثلث مالي؟ قال : الثلث ، والثلث كثير . إنك يا سعد! أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس] ⁽²⁾ .

وأخرج الإمام أحمد والشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال : [وددت أن الناس غضبوا من الثلث إلى الربع في الوصية ، لأن النبي ﷺ قال : الثلث كثير] ⁽³⁾ .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (658) ، والنسائي (92/5) ، وابن ماجه (1844) ، وابن خزيمة (2385) ، ورواه أحمد (17/4) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه ، وصححه ابن حبان (3344) والحاكم . انظر صحيح الجامع (3752) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (132/3) ، ومسلم (1628) ، وأحمد (1524) ، وأصحاب السنن . من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2029) ، (2076) ، والشيخان ، والبيهقي (269/6) وغيرهم .

الثاني - قيل المراد بالآية: فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا. حكاه ابن جرير عن العوفي عن ابن عباس .

والمقصود هنا أنه كما تحب لذريتك من بعدك ، كذلك فعامل الناس في ذريتهم إذا وليتهم . وهذا تفسير حسن أيضاً ، وخاصة أنه مؤيد بالآية التي بعده: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

قال الجمهور: (إن المراد الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبيع لهم من مال اليتيم) ذكره القرطبي . وقال ابن زيد: (نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات . قيل: يا رسول الله ، وما هن؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات] (1) .

11. قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

في هذه الآية: ذكر الله تعالى تفصيل القسمة الشرعية في الموارث ، وذلك بعد أداء الديون عن الميت ، فريضة من الله على عباده لا تجوز مخالفتها ، والله هو العليم الحكيم .

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: [عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2766) ، و(5764) ، وأخرجه مسلم برقم (89) ، ورواه بعض أهل السنن .

عليّ ، فأفقت فقلت ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ، فنزلت : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلنِّسَاءِ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ وَلِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ وَلِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ﴾ (1).

وأخرج الترمذي وأبو داود وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال : [جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت : يا رسول الله ! هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . فقال : يقضي الله في ذلك . فنزلت آية الموارث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين وأُمَّهُمَا الثمن وما بقي فهو لك] (2).

والآية أمر من الله بالعدل في القسمة للموارث ، فقد كان أهل الجاهلية يجعلون الميراث للذكور ويحرمون منه الإناث ، فعاب الله عليهم هذا الظلم ، ويّين سبحانه القسمة الشرعية العادلة ، فقال سبحانه :

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلنِّسَاءِ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ وَلِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ وَلِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ لِلرِّبْعِ﴾ . قال البخاري : عن ابن عباس قال : (كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع).

فجعل للذكر ضعف ما للأنثى لاحتياج الرجل إلى المال أكثر من الأنثى ، أثناء معاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، وتكلف المؤونة وما يقوم به أمر الأسرة . وقوله : ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ﴾ .

المقصود : إن ترك الميت من البنات أكثر من اثنتين فلبناته الثلثان من التركة ، دون سائر ورثته ، إذا لم يكن الميت خلف ولداً ذكراً معها .

وقوله : ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ .

المعنى : إن كانت المتروكة ابنة واحدة ليس معها غيرها من ولد الميت ذكر ولا أنثى ، فإنها تستحق نصف الميراث .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4577) ، ومسلم (1616) ، وأخرجه ابن جرير (8733) .

(2) حديث صحيح لغيره . أخرجه أبو داود (2891) ، والترمذي (2092) ، وابن ماجه (2720) ، وأحمد (352/3) . وأخرجه الحاكم (334/4) وصححه ووافقه الذهبي .

وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

المقصود: إن ترك الميت أولاداً ، ذكوراً أو إناثاً ، واحداً أو جماعة ، فإنه يعطى كل من والدي الميت السدس من تركته وما خلف من ماله ، سواءً فيه الوالدة والوالد ، لا يزداد أحد منهما على السدس .

وقد فصل هنا الفقهاء في أحوال الأبوين في الميراث :

1 - أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلا بنتٌ واحدة ، فرض لها النصف ، ولكل واحد من الأبوين السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب .

أولاد + أبوان			بنت واحدة + أبوان		
أم $\frac{1}{6}$	أب $\frac{1}{6}$	الباقى للأولاد	أم $\frac{1}{6}$	أب $\frac{1}{6} + \frac{1}{6}$	وللبنت $\frac{1}{2}$

2 - أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للأم الثلث ، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض .

أبوان فقط	
أم $\frac{1}{3}$	أب $\frac{2}{3}$

فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع . وتأخذ الأم ثلث الباقي والأب يأخذ ثلثي الباقي . كما يوضح الجدول الآتي أ - ب .

زوج + أبوان		
الزوجة $\frac{1}{2}$	الأم $\frac{1}{6} = \frac{1}{3} \times \frac{1}{2}$	الأب $\frac{1}{3} = \frac{2}{3} \times \frac{1}{2}$

أ -

زوجة + أبوان		
الزوجة $\frac{1}{4}$	الأم $\frac{1}{4} = \frac{1}{3} \times \frac{3}{4}$	الأب $\frac{1}{2} = \frac{2}{3} \times \frac{3}{4}$

ب -

وهذا قول عمر وعثمان وأصح الروائين عن علي . وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، وجمهور العلماء رحمهم الله : أن الأم تأخذ ثلث الباقي في الحالتين (أ ، ب) . ويأخذ الأب ثلثيه .

3 - اجتماع الأبوين مع الإخوة ، وسواء كانوا من الأبوين ، أو من الأب ، أو من الأم . فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس . فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب . أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين كحكم الإخوة عند الجمهور .

إخوة + أبوان	
الأم $\frac{1}{6}$	الأب: الباقي

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ . قال قتادة : (أضروا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك . وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم من الثلث لأن أباهم يلي نكاحهم والنفقة عليهم دون أمهم) . قال ابن جرير : (لا خلاف بين الجميع : أن لا ميراث لأخي ميت مع والده) .

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾. قال مجاهد: (يبدأ بالدين قبل الوصية).
أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سعد بن الأطول: [أن أخاه مات وترك ثلاث مئة درهم. وترك عيالا. فأردت أن أنفقها على عياله. فقال النبي ﷺ: إن أخاك مُحْتَبَسٌ بِدَيْنِهِ. فاقض عنه. فقال: يا رسول الله! قد أديت عنه إلا دينارين ، ادعتهما امرأة وليس لها بينة. قال: فأعطها فإنها مُحِقَّةٌ⁽¹⁾].

وأخرج الترمذي وابن ماجة وأحمد بسند حسن عن علي قال: [قضى رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية. وأنتم تقرأونها: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾. وإن أعيان بني الأم ليتوارثون دون بني العلات⁽²⁾].

وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. قال مجاهد: (في الدنيا).
وقال ابن زيد: (أيهم خير لكم في الدين والدنيا ، الوالد أو الولد الذين يرثونكم ، لم يدخل عليكم غيرهم ، فرض لهم الموارث ، لم يأت بأخرين يشركونهم في أموالكم).

قال القاسمي في التفسير: (أي: لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم. والمعنى: فرض الله الفرائض ، على ما هو ، على حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم. فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع. وأنتم لا تدرون تفاوتها. فتولى الله ذلك فضلا منه. ولم يكلها إلى اجتهدكم لعجزكم عن معرفة المقادير).

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾. يعني ما ذكر من تفصيل الموارث هو فرض الله الذي حكم به وقضى بينكم. ونصب ﴿فريضة﴾ على المصدر المؤكد. إذ معنى ﴿يوصيكم﴾ يفرض عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أي: بكل شيء ، من قسمة الموارث وغيرها ، ﴿حكيما﴾ في قسمته وتقديره وشرعه. والخبر منه سبحانه بالماضي كالخبر

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (2433). باب أداء الدين عن الميت. انظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (1973).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2122) ، وابن ماجة (2715). باب الدين قبل الوصية. وأحمد (131/1) ، والحاكم (4/336) ، والبيهقي (6/267). وانظر صحيح ابن ماجة (2195). وقوله: «بالدين» أي: بأدائه قبل إخراج الوصية ، و«أعيان بني الأم» - الأعيان: الإخوة لأب واحد وأم واحدة. مأخوذ من عين الشيء وهو النفيس منه. و«بني العلات» الإخوة لأب ، من أمهات شتى.

منه بالاستقبال . قال سيبويه : (إن الله عز وجل كان كذلك لم يزل على ما رأيتم) - أي : من الحكمة والعلم .

12 . قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلَثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصَّى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

في هذه الآية : الخطاب للرجال أن لهم نصف ما ترك أزواجهن بعد وفاتهن عن غير ولد ، فإن كان لهنَّ ولد ذكر أو أنثى يوم يحدث بهن الموت فللرجال الربع مما تركن من مال وميراث ، وذلك بعد قضاء الديون ، وبعد إنفاذ وصاياهن الجائزة إن كن أوصين بها . وكذلك فإن للنساء الربع مما ترك الرجال إن لم يكن لهم ولد وإلا فالثمن ، وذلك بعد قضاء الديون وإنفاذ الوصايا . وإن كان المتوفى لا ولد له ولا والد وله أخ أو أخت فللكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك اشتركوا في الثلث ، وذلك بعد قضاء الديون وإنفاذ الوصايا ، وصية الله لكم معشر المؤمنين والله عليم حكيم .

فائدة : سواء في الربع أو الثمن فإن الزوجة والزوجتين والثلث والأربع يشتركن فيه .

فقوله : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ . قال مجاهد : (يبدأ بالدين قبل الوصية) .

أخرج الترمذي بسند حسن عن علي أنه قال : [إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وأن

أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه ، دون أخيه لأبيه⁽¹⁾.

وكذلك روى الترمذي في الباب عن علي قال : [قضى رسول الله ﷺ أن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات]⁽²⁾.

قال أبو عيسى : (والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم).

و«أعيان بني الأم» - مأخوذ من عين الشيء وهو النفيس منه . والأعيان : الإخوة لأب واحد وأم واحدة ، بخلاف «بني العلات» الإخوة لأب ، من أمهات شتى .

وقوله : ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ . - الكلالة : من لا ولد له ولا والد .

والكلالة : مشتقة من الإكليل ، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، قال ابن كثير : (والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروع ، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق ، أنه سئل عن الكلالة ، فقال : أقول فيها برأبي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلما ولي عمر قال : إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه . كذا رواه ابن جرير وغيره).

ثم ذكر رواية ابن أبي حاتم في تفسيره عن طاووس قال : سمعت ابن عباس يقول : (كنت آخر الناس عهداً بعمر ، فسمعت يقول : القول ما قلت ، وما قلت ، وما قلت . قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد). وبه يقول علي ، وابن مسعود وقتادة وأهل المدينة والكوفة والبصرة والفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ أَحْ وَأُخْتُ﴾ . قال قتادة : (فهؤلاء الإخوة من الأم : إن كان واحداً فله السدس ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، ذكرهم وأنثاهم فيه سواء).

وقال أيضاً : (والكلالة الذي لا ولد له ولا والد ، لا أب ولا جد ، ولا ابن ولا ابنة ، فهؤلاء الإخوة من الأم). وكان سعد بن أبي وقاص يقرؤها : ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ مِنْ أُمِّهِ﴾ ذكره ابن جرير .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في أبواب الفرائض . انظر صحيح سنن الترمذي (1073) - باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأب والأم - ، ورواه بنحوه ابن ماجه (2715).

(2) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1704) - الباب السابق ، وإسناده حسن .

وقوله: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

يروى ابن أبي حاتم بسنده عن الزهري قال: (قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم ، للذكر مثل الأنثى). قال: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، ولهذه الآية التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾).

فائدة (1): إخوة الأم لهم اختلاف عن بقية الورثة من وجوه:

- 1 - أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم.
 - 2 - ذكورهم وإناتهم في القسمة سواء.
 - 3 - لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلاله ، فلا يرثون مع أب ولا جد ، ولا ولد ولا ولد ابن.
 - 4 - لا يأخذون أكثر من الثلث مهما كثر عدد ذكورهم وإناتهم.
- فائدة (2): (المسألة المشتركة: زوج ، وأم أو جدّة ، واثنان من ولد الأم ، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين).

<p>ولد الأم: $\frac{1}{3}$</p> <p>ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم. وهو مذهب عمر وعثمان ومالك والشافعي.</p>	<p>الأم أو الجدة: $\frac{1}{6}$</p>	<p>مذهب الجمهور: الزوج: $\frac{1}{2}$</p>
--	--	--

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

قال ابن عباس: (الإضرار في الوصية من الكبائر)⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. يعني: عهداً من الله إليكم ، وهو العليم بمصالح خلقه ، الحليم في ترك معاجلته عقوبتهم إذا ظلموا في القسمة لموارثتهم.

(1) أخرجه الدارقطني (4/ 151). وهو موقف على ابن عباس ، ولا يصح رفعه.

13 - 14. قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ ﴾ .

في هذه الآيات: بيان من الله أن تلك الأحكام هي حدود الله الواجب تعظيمها ، فطاعته تعالى تورث الجنان ، ومعصيته وتجاوز حدوده يورث العذاب في النيران .
فعن ابن عباس: (﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ يعني: طاعة الله ، يعني المواريث التي سمى الله).

وقال قتادة: (﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ، التي حدّ لخلقه ، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة ، فانتهاوا إليها ولا تعدّوها إلى غيرها).

فإن من أقامها كما أمر الله تعالى وقسم ، أدخله بساتين النعيم يوم القيامة تجري تحتها الأنهار فيكون بذلك قد حظي بالفوز العظيم الذي ليس يشبهه فوز ونعيم ، وإن عصى أمر الله ورسوله وخالف القسمة الشرعية عرض نفسه لنار الجحيم والعذاب المهيّن .

15 - 16. قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى تَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

في هذه الآيات: كانت عقوبة الزنا - الثابت بالبينّة التامة - أول الإسلام حبس المرأة في بيت فلا تمكن من الخروج إلى أن تموت ، حتى نسخ الله ذلك بالجلد أو الرجم . وكذلك كانت عقوبة اللواط الإيذاء باللسان والضرب حتى نسخ ذلك بالقتل .

فعن ابن عباس: (﴿ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً

مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ ﴿١٥﴾ قال: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد أو الرجم).

وقال الضحاك بن مزاحم: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ، قال: الحدّ ، نسخ الحدّ: هذه الآية).

أخرج الإمام مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: [خذوا عني ، خذوا عني ، فقد جعل الله لهن سبيلاً ، البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة ، والثيب بالثيب ، جلد مئة والرجم] (1).

وفي لفظ عند الإمام أحمد - قال عبادة بن الصامت: [كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أنر عليه وكرب لذلك وتربّد وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم ، فلما سري عنه قال: خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، والثيب جلد مئة ، ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مئة ، ثم نفي سنة] (2). وقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾.

قال مجاهد: (نزلت في الرجلين إذا فعلا ، لا يكتفي ، وكأنه يريد اللواط).

وقال عكرمة وعطاء: (نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا).

وقال السدي: (نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا).

ووجه الجمع بين لفظي ﴿واللاتي﴾ ، ﴿واللذان﴾ كما قال مجاهد: (الآية الأولى في النساء عامة محصنات وغير محصنات ، والآية الثانية في الرجال خاصة). فعقوبة النساء الحبس ، وعقوبة الرجال الأذى. قال قتادة: (كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعي والاكتساب).

والإيذاء كما قال ابن عباس: (النيل باللسان والضرب بالنعال). وقال السدي: (معناه التوبيخ والتعير). قال ابن كثير: (وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم).

قلت: ولا شك أن الآية تشمل الزنا واللواط. ويؤيد ذلك اللفظ ، قوله في الأولى:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1690) كتاب الحدود ، باب حد الزنى. وأخرجه أبو داود (4415) ، والترمذي (1434) ، والنسائي في «الكبرى» (7142) ، وأحمد (313/5) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (318/5) من طريق محمد بن جعفر به. وله شواهد.

﴿ مِنْ فُسَايِكُمْ ﴾ ، وفي الثانية ﴿ مِنْكُمْ ﴾ . قال السدي وقتادة وغيرهما : (الأولى في النساء المحصنات . يريد : ودخل معهنّ من أحصن من الرجال بالمعنى . والثاني في الرجل والمرأة البكرين) . وقال مجاهد : (الرجلان الفاعلان ، لا يَكْنِي) .

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : [من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به] ⁽¹⁾ .

وفي لفظ : (من وجدتموه) بدل : (من رأيتموه) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ . أي : إن تابا من الفاحشة التي سقطا في حبائلها وشباكها وراجعا طاعة الله سبحانه وأصلحا دينهما فاصفحوا عنهما وكفوا عنهما الأذى الذي أمرتم به قبل ، فلا تعنفوهما بكلام قبيح بعد التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ يحب التوبة لعباده إذا رجعوا إليه فيغفر لهم ما مضى وهو ذو رحمة ورأفة بهم .

قلت : ولا شك أن هذا إنما كان قبل نزول الحدود ، فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية . ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : [إذا زنت الأمة فبين زناها فليجلدها ولا يُثْرَب . . .] الحديث ⁽²⁾ .

17 - 18 . قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(١٧) وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(١٨) .

في هذه الآيات : لا يزال الله يغفر للعبد المنيب ما دامت روحه في جسده ، فإذا بلغت الحلقوم ولم يتب فقد فات الأوان . وكذلك الذين يموتون وهم كفار ، فإن وراءهم العذاب والخذلان .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4462) ، والترمذي (1456) ، وابن ماجه (2561) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2152) ، كتاب البيوع ، باب بيع العبد الزاني ، وانظر (2555) .

أخرج الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرِغْ]⁽¹⁾.

وفي المسند وصحيح الحاكم عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : [إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني]⁽²⁾.

وقد سمى الله تعالى الوقوع بالذنب جهالة . قال مجاهد : (كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب) . وقال ابن عباس : (من جهالته عمل السوء) .
وقوله : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ . قال ابن عباس : (ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت).

وقال الضحاك : (ما كان دون الموت فهو قريب) . وقال قتادة : (ما دام في صحته) .

وقال الحسن : (ما لم يغرغ) . وقال عكرمة : (الدنيا كلها قريب) .

وقوله : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَهًا﴾ .

فإنه إذا حشر العبد بنفسه وعاین ملائكة ربه أقبلوا لقبض روحه ، وبلغت الروح الحلقوم وضاق بها الصدر ، فلا تقبل التوبة عندها فقد فات أوانها .

وفي التنزيل : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِلَانَا مُنْظِرُونَ﴾ - وذلك لأهل الأرض إذا عاينوا طلوع الشمس من مغربها .

وقوله : ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءُ﴾ . قال ابن عباس : (أولئك أبعد من التوبة) .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . أي : أعددنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3537) ، وابن ماجه (4253) ، وأحمد (132/2) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (261/4) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (134) ، وأحمد (29/3) نحوه . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (104) .

19 - 22. قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ وَإِنْ أَردْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۚ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۚ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ﴾

في هذه الآيات: نهى الله المؤمنين عن توارث النساء عند موت أزواجهن ، أو الإضرار بهن إلا إن أتين بفاحشة فهناك السبل الشرعية ، والأمر بحسن المعاشرة وعدم مكارهة الزوجة لتفتدي بما آتاها إن أراد طلاقها ، وتحريم نكاح ما نكح الآباء ، فإن ذلك كان فاحشة وساء سبيلاً .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾] قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوجوها ، وإن شاؤوا لم يزوجوها وهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية في ذلك⁽¹⁾ .

وعن ابن عباس قال: (كانت المرأة في الجاهلية إذا توفى عنها زوجها فجاء رجل فألقى عليها ثوباً كان أحق بها ، فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾⁽²⁾ .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4579) ، (6948) ، وأبو داود (2089) ، والنسائي في «التفسير» (114) . وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي . النساء (19) .

(2) رواه وكيع عن سفيان عن علي بن بديمة عن مِقْسَم عن ابن عباس . أورده ابن كثير في التفسير ، ورجاله رجال الصحيح . وانظر المرجع السابق . سورة النساء - آية (19) .

وأخرج الطبري بسند حسن عن أبي أمامة قال: [لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته ، وكان ذلك لهم في الجاهلية ، فنزلت] (1).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْصُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (ولا تقهروهن ﴿لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ، يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبته ، ولها عليه مهر فيُضَرَّها لتفتدي). فهو نهى عن الإضرار في عشرة المرأة ومكارتها حتى تتنازل عن حقوقها وصدقها.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾. فيه تأويلان:

1 - قال ابن مسعود: (يعني بذلك الزنا). والمقصود: يحق للزوج إن زنت الزوجة أن يسترجع منها الصداق الذي أعطاها ، وأن يضاجرها ويكارتها حتى تترك ذلك له وتخالعه. قال أبو قلابة: (إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة ، فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تختلع منه). وقال السدي: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ ، وهو الزنا ، فإذا فعلن ذلك فخذوا مهورها.

2 - قال ابن عباس والضحاك: (الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان).

وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ ، وهو البغض والنشوز ، فإذا فعلت ذلك فقد حلَّ له منها الفدية). وقال الضحاك: (فإذا نشزت حلَّ له أن يأخذ خلْعها منها). وقال: (عدل ربنا تبارك وتعالى في القضاء ، فرجع إلى النساء فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ ، و﴿الفاحشة﴾: العصيان والنشوز. فإذا كان ذلك من قبلها ، فإن الله أمره أن يضربها ، وأمره بالهجر. فإن لم تدع العصيان والنشوز ، فلا جناح عليه بعد ذلك أن يأخذ منها الفدية).

واختار شيخ المفسرين - الإمام ابن جرير - أنه يعم ذلك كله: الزنا ، والعصيان والنشوز ، وبذاء اللسان ، وغير ذلك. وقال ابن كثير: (يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تُبْرِئَهُ من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد ، والله أعلم).

قلت: وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير وابن كثير قوي طيب ، وفيه معالجة لكثير من مشاكل التمرد من بعض نساء هذا الزمان لمكارتة الزوج على الطلاق بالإخلال بالطاعة ، وهو مذهب الإمام مالك. قال مالك: (للزوج أن يأخذ من الناشز جميع

(1) إسناده حسن. كما قال الحافظ في الفتح ، والسيوطي في الباب. وانظر المرجع السابق.

ما تملك). وقيده بعض أهل العلم بأن لا يتجاوز ما أعطاهما ركوناً لقوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. ذكره القرطبي.

قلت: ولفظ الفاحشة وإن كان الأشهر أنه الزنا ، إلا أنه يتناول أموراً مؤذية أخرى. قال ابن عبد البر: (الفاحشة قد تكون البذاء والأذى ، ومنه قيل للبذي: فاحش ومتفحش).

وقد ثبت ذلك فيما أخرجه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذي]⁽¹⁾.

وأخرج العقيلي بإسناد حسن عن عائشة مرفوعاً: [يا عائشة إياك والفحش إياك والفحش ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. أمرٌ بحسن الصحبة والعشرة. قال السدي: (يقول: وخالطوهن). وقال محمد بن الحسين: (وهي المصاحبة).

وتشمل المعاشرة التلطف لهن بالقول والهيئة والفعل كما يحب ذلك له منها. قال بعضهم: (هو أن يتصنع لها كما تتصنع له). وقال ابن عباس رضي الله عنه: (إني أحبُّ أن أترينَ لامرأتي كما أحبُّ أن تترين لي). وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: (أتيت محمد بن الحنفية فخرج إلي في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية⁽³⁾ ، فقلت: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب ، وإنهن يشتهين منا ما نشتهيهن).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بحسن العشرة والمصاحبة للزوجة ، فإن في ذلك خيراً كثيراً. ومن الأحاديث في ذلك:

الحديث الأول: أخرجه الترمذي والدارمي بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1978) ، وأحمد في المسند (3839) ، والحاكم (12/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (259) ، وحسنه الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (537) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (282/1) لتفصيل البحث.

(3) هو نوع من الطيب مركب من عود ومسك وعنبر ودهن.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3895) ، والدارمي (159/2) ، وابن حبان (4177).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال - في خطبة حجة الوداع -: [ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عوانٍ عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة⁽¹⁾ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأما حقكم على نسائكم ، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخيارهم خيارهم لنسائهم]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر ، وفي سهوتها ستر ، فهبّت ريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب ، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع ، فقال: ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت: فرس ، قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان ، قال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه]⁽⁴⁾.

الحديث الخامس: وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي بسند صحيح عنها: [أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر ، وهي جارية . قال: لم أحمل اللحم ولم أبْدُنْ. فقال لأصحابه: تقدموا ، فتقدموا. ثم قال: تعالي أسابقك ، فسابقته ، فسبقته على رجلي ، فلما كان بعد ، خرجت معه في سفر ، فقال لأصحابه: تقدموا ، ثم قال:

(1) قال السندي في حاشيته: (والمراد النشوز وشكاسة الخلق ، وإيذاء الزوج وأهله باللسان واليد ، لا الزنا ، إذ لا يناسب قوله: «ضرباً غير مبرح» ، وهذا هو الملائم لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ سُوءَ بَعْضِهِمْ﴾ الآية ، فالحديث على هذا كالتفسير لها ، فإن المراد بالضرب فيها هو الضرب المتوسط لا الشديد). انظر آداب الزفاف - ص (151) - الألباني.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (204/2) وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه ابن ماجة (1/568 - 569). وله شاهد في المسند (72/5). انظر آداب الزفاف ص (156).

(3) حديث حسن الإسناد. أخرجه الترمذي (204/2) ، وأحمد (250/2) ، (472/2).

(4) إسناده صحيح. أخرجه أبو داود (305/2) ، وأخرجه النسائي في «عشرة النساء» (1/75).

تعالى أسابقك ، ونسيت الذي كان ، وقد حملت اللحم ، وبدنت ، فقلت : كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال ؟ فقال : لتفعلن ، فسابقته ، فسبقني ، فجعل يضحك ، وقال : هذه بتلك السابقة⁽¹⁾ .

فهذه بعض الروائع من جمال عشرته عليه الصلاة والسلام مع زوجاته ، وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء أحياناً ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان دائم التلطف معهن ، دائم البشر ، وهو الأسوة لكل مؤمن إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ ﴾ . قال ابن عباس : (والخير الكثير : أن يعطف عليها ، فيرزق الرجل ولدها ، ويجعل الله في ولدها خيراً كثيراً) .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : [لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ ﴾ . القنطار : المال الكثير . والآية نهى عن الإضرار بالزوجة لتفتدي بما آتاها من أجل إرادته استبدالها بزوجة أخرى ، حتى ولو كان آتاها قنطاراً من مال .

قال مجاهد : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ ﴾ : طلاق امرأة مكان أخرى ، فلا يحل له من مال المطلقة شيء وإن كثر .

وقوله : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۚ ﴾ . أي : تأخذونه ظلماً بغير حق ، وإثماً واضح الإثم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۚ ﴾ . قال ابن عباس : (الإفضاء المباشرة ، ولكن الله كريم يكتفي عما يشاء) . وقال : (الإفضاء هو الجماع) . وقال مجاهد : (مجامعة النساء) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (264/6) ، والنسائي في «عشرة النساء» (2/74) والسياق له ، وأخرجه أبو داود (403/1) ، وابن ماجه (610/1) مختصراً .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (4/178 - 179) ، وقوله : «لا يفرك» أي : لا يبغيض .

وقوله: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ - فيه أقوال:

1 - الميثاق الغليظ: أن يقال للناكح: الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان. قال قتادة: (والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد كان في عقد المسلمين عند إنكاحهم: «الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان»).

2 - الميثاق الغليظ: هو كلمة النكاح التي استحل بها الفرج.

قال مجاهد: (كلمة النكاح التي استحل بها فروجهن).

3 - الميثاق الغليظ: هو قول النبي ﷺ: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

قال الربيع: (والميثاق الغليظ: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله).

قلت: والتأويل الثالث أقرب، لما روى مسلم في صحيحه عن جابر - في خطبة حجة الوداع - أن النبي ﷺ قال فيها: [واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

أخرج ابن جرير ورجاله رجال الصحيح - إلا محمد بن عبد الله المخرمي وهو ثقة - عن عكرمة عن ابن عباس قال: [كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين. قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾]⁽²⁾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ - فيه أقوال:

1 - قيل معناه: لكن ما قد سلف فدعوه. قال القاسمي في التفسير: (أي سوى ما قد مضى في الجاهلية فإنه معفو لكم ولا تؤاخذون به).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1218)، وأبو داود (1905)، وابن ماجه (3074)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» - حديث رقم - (8939). وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول». سورة النساء، آية (22).

2 - قيل بل المعنى: ولا تنكحوا نكاح آبائكم - يعني في الجاهلية - إلا ما قد سلف منكم في جاهليتكم من نكاح ، لا يجوز ابتداء مثله في الإسلام ، فإنه معفو لكم عنه . ذكره ابن جرير في التفسير . ويدل عليه ذكر «ما» في قوله: ﴿ مَا نَكَحَ ﴾ فَإِنْ «مَنْ» لبني آدم ، و«ما» لغيرهم . والتقدير: لا تنكحوا مناكح آبائكم في الجاهلية .

3 - قيل بل المعنى: ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء بالنكاح الجائز كان عقده بينهم إلا ما قد سلف منهم من وجوه بالزنا عندهم ، فإن نكاحهن لكم حلال ، لأنهن لم يكن لهم حلائل . وإنما كان ما كان من آبائكم ومنهن من ذلك فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً . قال ابن زيد: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية ، قال: (الزنا) .

قلت: وجميعها أقوال يحتملها السياق .

وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا فَجُشِعَتْ وَمَقْتًا ﴾ . المقت: البغض ، وهذا يشير إلى ما يحصل من مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فغالب من يتزوج بامرأة يمقت من سبقه بزواج إليها . ومنه كان تحريم أمهات المؤمنين على الأمة إضافة إلى مقام النبي ﷺ وحقه ومكانته . قال عطاء: ﴿ وَمَقْتًا ﴾ : أي: يمقت الله عليه) .

وقوله: ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . قال ابن كثير: (أي: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال . كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق ، عن البراء بن عازب ، عن خاله أبي بردة - وفي رواية: الحارث بن عمرو ، وفي رواية: عن عمه - [أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله] (1) .

23 - 24 . قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا

(1) حديث قوي بطرقه . أخرجه أحمد في المسند (4/ 297) ، وأبو داود في السنن (4457) . وأورده ابن كثير في التفسير . سورة النساء ، آية (22) . ورواه النسائي (6/ 109 - 110) .

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا
 بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾
 ﴿٢٤﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ
 ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ
 أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ .

في هذه الآيات: ذكّر الله تعالى المحرمات من النساء ، والتأكيد على وجوب دفع
 المهور عند النكاح ، والله عليم حكيم . فإلى تفصيل ذلك :

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات ما حَرَّمَ من النساء ، وإن المتأمل فيها يجد أن
 التحريم قسمان :

- 1 - تحريم مؤبد: وهو الذي يمنع المرأة أن تكون زوجة للرجل في جميع الأوقات .
- 2 - تحريم مؤقت: وهو الذي يمنع المرأة من التزوج بها ما دامت على حالة خاصة
 قائمة بها ، فإن تغير الحال زال التحريم وصارت حلالاً .

وأما أسباب التحريم المؤبد فهي :

1 - النسب .

2 - المصاهرة .

3 - الرضاع .

أولاً: المحرمات بسبب النسب :

- 1 - الأمهات . 2 - البنات . 3 - الأخوات . 4 - العمات . 5 - الخالات . 6 - بنات
 الأخ . 7 - بنات الأخت .

قال ابن عباس : (حرمت عليكم سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً ، وقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
 أُمَّهُنَّ وَأَبْنَاهُنَّ وَأَخَوَاتُهُمْ وَأَخَوَاتُهُمْ ﴾ . . . الآية)⁽¹⁾ .

(1) رواه ابن أبي حاتم بسنده عن سفيان بن حبيب ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس .

وتفصيل ذلك :

- 1 - الأم: اسم لكل أنثى لها عليك ولادة ، فيدخل بذلك الأم ، وأمهاتها ، وجداتها ، وأم الأب ، وجداته ، وإن علون .
 - 2 - البنت: اسم لكل أنثى لك عليها ولادة ، أو كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة ، بدرجة أو درجات ، فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها .
 - 3 - الأخت: اسم لكل أنثى جاورتك في أصلحك أو في أحدهما .
 - 4 - العمة: اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصله أو في أحدهما . وقد تكون العمة من جهة الأم: وهي أخت أبي أمك .
 - 5 - الخالة: اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصلها أو في أحدهما ، وقد تكون من جهة الأب: وهي أخت أم أبيك .
 - 6 - بنت الأخ: اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة ، بواسطة أو مباشرة .
 - 7 - بنت الأخت: اسم لكل أنثى لأختك عليها ولادة ، كالسابق .
- ثانياً: المحرمات بسبب المصاهرة .
- 1 - أم زوجته ، وأم أمها ، وأم أبيها ، وإن علت . لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ . ومجرد العقد لا الدخول هو الذي يحرمها .
 - 2 - ابنة زوجته التي دخل بها: ويدخل في ذلك بنات بناتها وبنات أبنائها وإن نزلن ، لأنهن من بناتها . لقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ .
والربائب: جمع ربيبة ، وربيب الرجل ولد امرأته من غيره .
ولا يشترط أن يكون في بيته أو لا يكون فالحرمة مطلقة .
 - ولا تحرم الربيبة بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها ، فإن طلق أمها قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بالربيبة .
 - 3 - زوجة الابن ، وابن ابنه ، وابن ابنته ، وإن نزل . لقوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ .
- حلائل: جمع حليلة ، وهي الزوجة . والزوج حليل .

يروى ابن أبي حاتم عن أشعث ، عن الحسن ومحمد : (أن هؤلاء الآيات مبهمات : ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمُ﴾). أورده ابن كثير وقال : (معنى مُبْهِمَات : أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها وهذا متفق عليه).

4 - زوجة الأب : يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه مجرد العقد من الأب عليها ، ولو لم يدخل لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

ثالثاً : المحرمات بسبب الرضاع.

يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب. أي : (الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، بنات الأخت) المبينة بالآية السابقة.

وبناء على ذلك فتنزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع ، هي وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب ، فتحرم :

1 - المرأة المرضعة ، فبارضاعها تعد أمّاً للرضيع .

2 - أم المرضعة ، لأنها جدة له .

3 - أم زوج المرضعة ، لأنها جدة كذلك .

4 - أخت الأم لأنها خالة الرضيع .

5 - أخت زوجها لأنها عمة الرضيع .

6 - بنات بنيتها وبناتها : لأنهن بنات إخوته وأخواته .

7 - الأخت : سواء أكانت أختاً لأب وأم ، أو أختاً لأم ، أو أختاً لأب .

قلت : وأصل إلحاق ما يحرم من الرضاع بما يحرم من النسب ، ما في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، أن رسول الله ﷺ قال : [إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة]. وفي لفظ لمسلم : [يَحْرُمُ مِنَ الرضاعة ما يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ]⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مالك (2/ 601) ، ومن طريقه أخرجه البخاري (2646) ومسلم (1444) ، والنسائي (6/ 99) ، وأخرجه أحمد (6/ 178) ، والبيهقي (7/ 159).

والرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين ، لقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ .

قال الإمام مالك : (ما كان من الرضاعة بعد الحولين كان قليلاً وكثيره لا يحرم شيئاً ، إنما هو بمنزلة الماء) .

والرضعة : هي أن يأخذ الصبي الثدي ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعاً من غير عارض .

أخرج الترمذي عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : [لا يُحَرِّمُ من الرضاع إلا ما فتق⁽¹⁾ الأمعاء وكان قبل الفطام]⁽²⁾ .

وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات المحرمة :

1 - ذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلى مطلق الرضاع .

لما روى البخاري ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : [تزوجت أم يحيى بنت أبي إهاب ، فجاءت أمة سوداء فقالت : قد أرضعتكما . فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك . فقال : كيف وقد قيل ؟ ... دعهما عنك]⁽³⁾ .

2 - وذهب أبو ثور والإمام أحمد - في رواية عنه - إلى ثلاث رضعات . لما روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : [لا تُحَرِّمُ المصّة ولا المصتان]⁽⁴⁾ . وفي لفظ آخر : [لا تُحَرِّمُ الإملاجة ولا الإملاجتان] .

ولما روى مسلم عن أم الفضل ، أن رسول الله ﷺ قال : [لا تحرم الرضعة أو الرضعتان ، أو المصّة أو المصتان] .

ومن ثم فإن أقله عند هؤلاء ثلاث رضعات .

3 - وذهب الشافعي وأحمد إلى القول بخمس رضعات مشبعات .

وقد احتجوا بما روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : [كان فيما أنزل من القرآن

(1) فتق الأمعاء : أي وصلها وغذاها واكتفت به دون غيره .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (1152) . انظر صحيح سنن الترمذي (921) . وانظر تخريج المشكاة (3173) ، والإرواء (2209) ، وصحيح الجامع (7509) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2660) ، كتاب الشهادات ، باب شهادة المرضعة .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1451) ، والنسائي (100/6) ، وأحمد (340/6) ، وغيرهم .

عشرُ رضعات معلومات يحرم من ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن⁽¹⁾.

أي نسخت الآية وبقي العمل بها على خمس رضعات ، ويبدو في التحقيق أن هذا هو الذي استقر عليه الإسلام ، بوفاء المصطفى عليه الصلاة والسلام. وهو أن ما يحرم من الرضاع يكون بخمس رضعات مشبعات.

فائدة: الجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره. قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وجمهور السلف والخلف.

ولكن هناك أثرٌ عند ابن أبي حاتم بسند قوي عن مالك بن أوس قال: (كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لي فوجدت عليها ، فلقيني علي بن أبي طالب ، فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم ، وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا ، هي بالطائف. قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله: ﴿وَرَبَّائِبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجرك ، إنما ذلك إذا كانت في حجرك⁽²⁾.

واختاره ابن حزم ، وهي من المسائل التي حيرت ابن تيمية. فقد ذكر الحافظ الذهبي للحافظ ابن كثير أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين بن تيمية فاستشكله وتوقف في ذلك.

قلت: والراجح ما ذهب إليه الجمهور من إطلاق الخطاب على الربيبة - ابنة الزوجة - سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن في حجره ، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

المعنى: تحريم الجمع بين الأختين في الزواج ، وكذا في ملك اليمين ، إلا ما كان

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1452) ، وأبو داود (2062) ، ومالك (2/ 608) ، والترمذي بإثر (1150) ، وابن حبان (4221) ، وغيرهم.

(2) انظر تفسير ابن كثير. سورة النساء ، آية (23). وقال: هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم.

من ذلك منكم في جاهليتكم فيعفى عنه . ومن ثم فمن أسلم وتحتة أختان خَيْرٌ ، فيمسك منهما من شاء ويطلق الأخرى لا محالة .

أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن الضحاك بن فيروز ، عن أبيه قال : [أسلمت وعندني امرأتان أختان ، فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما] ⁽¹⁾ . وفي لفظ : فقال النبي ﷺ : (اختر أيهما شئت) .

يروى ابن عبد البر في «الاستذكار» بسنده إلى إياس بن عامر قال : (سألت علي بن أبي طالب فقلت : إن لي أختين مما ملكت يميني ، اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً ، ثم رغبت في الأخرى ، فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه : تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى . قلت : فإن ناساً يقولون : بل تزوجها ثم تطأ الأخرى . فقال علي : أرأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها ، أليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك . ثم أخذ علي بيدي فقال لي : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد ، أو قال : إلا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب . ثم قال أبو عمر : هذا الحديث رحلة ، لو لم يصب الرجل من أقصى المغرب أو المشرق إلى مكة غيره لما خابث رحلته) .

وقال الإمام مالك ، عن ابن شهاب ، عن قبيصة بن ذؤيب : (أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين ، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان : أحلتهم آية وحرمتهم آية ، وما كنت لأصنع ذلك) .

وقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ .

أخرج الإمام مسلم وأكثر أهل السنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : [أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس ، فلحقوا عدواً فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناساً من أصحاب الرسول ﷺ تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أي : فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن] ⁽²⁾ .

(1) حديث إسناده جيد . أخرجه أبو داود (2243) ، والترمذي (1129) ، وابن ماجه (1950) ، (1951) ، وأحمد (232/4) ، والبيهقي (184/7) .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (1456) ح (35) ، والترمذي (1132) و (3017) ، والنسائي في «التفسير» (117) ، وأحمد (72/3) ، وغيرهم .

ومعنى الآية: تحريم نكاح الأجنبية المحصنات ، وهنّ المتزوجات ، إلا ما مَلَكَتُمُوهُنَّ بالسبي ، فإنه يحلّ لكم وطؤهن إذا اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ .

وقوله: ﴿ كَذَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . أي كل ما سبق تحريمه عليكم قد كتبه الله عليكم ، فالزموا كتابه ، وشرعه وأمره ، ولا تتجاوزوا حدوده .

وقوله: ﴿ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ . قال عطاء: (أي: ما عدا مَنْ ذُكِرَ مِنْ المحارم ، هُنَّ لكم حلال) .

وقوله: ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ . يعني الزواج حتى أربع ، أو السراري ما شئتم ، بالطريق الشرعي من حضور الولي والشاهدين وبذل المهر وإشادة النكاح .

قال مجاهد: (السفاح: الزنا) . وقال السدي: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ : يقول: محصنين غير زناة) .

وقوله: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ .

قال ابن زيد: (هذا النكاح ، وما في القرآن إلا نكاح . إذا أخذتها واستمتعت بها ، فأعطها أجرها ، الصداق) .

وقد ذهب بعضهم إلى أن الآية في نكاح المتعة ، وهذا على خلاف فهم الجمهور ، فإن المتعة حرام إلى يوم القيامة .

روى مسلم والطبراني عن الربيع بن سبرة الجُهني عن أبيه مرفوعاً: [نهى عن المتعة زمان الفتح متعة النساء ، وقال: ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة] (1) .

وقوله: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ .

قال ابن عباس: (والتراضي: أن يوفيهما صداقها ثم يخيّرهما) .

وقال ابن زيد: (إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ) . فالمعنى: لا حرج عليك ولا عليها إن كنت فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو من بعضه .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . أي: ﴿ عَلِيمًا ﴾ بما يصلح شؤونكم في مناححكم أيها الناس وفي سائر أمور حياتكم ، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يدبره لكم ويشعره من أمر ونهي يخصكم .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (4/134) ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (1/174/2) .

25. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْلِفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

في هذه الآية: تخفيف الله عن المسلمين بإباحة نكاح الإماء حالة الضيق ، ونكاح الأمة بإذن سيدها ، وحد المملوك نصف حد الحر ولا رجم عليه ، والصبر على العزة خير من نكاح الأمة لأنه يفضي إلى إرقاق الولد .

قال ابن عباس: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ يقول: من لم يكن له سعة). وقال مجاهد فيها: (الغنى). وقال سعيد بن جبير: (الطول الغنى ، الطول السعة). وقال ربيعة: (الطول الهوى). قال: ينكح الأمة إذا كان هواه فيها). والقول الأول أرجح وهو اختيار شيخ المفسرين .

وقوله: ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. قال سعيد بن جبير: (أما من لم يجد ما ينكح الحرة ، تزوج الأمة). وقال ابن عباس: ﴿مِنْ فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: فلينكح من إماء المؤمنين).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ جملة اعتراضية ، مفادها أن لكم أيها الناس الظاهر من الأمور والله أعلم بحقائقها ودفائنها. فلا تستنكفوا من التزوج بالإماء عند الضرورة. قال القرطبي: (ففي اللفظ تنبيه على أنه ربما كان إيمان أمة أفضل من إيمان بعض الحرائر).

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ مبتدأ وخبر ، وفي الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فلينكح بعضكم من بعض: هذا فتاة هذا ، وهذا فتاة هذا. قال القرطبي: (والمقصود بهذا الكلام تَوْطِئَةُ نفوس

العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة وتُعيّره وتسميه الهجين⁽¹⁾ ، فلما جاء الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنى له ، وإنما انحطت الأمة فلم يجز للحرّ التزوّج بها إلا عند الضرورة ، لأنها تسبب إلى إرقاق الولد ، وأن الأمة لا تفرّغ للزّوج على الدوام ، لأنها مشغولة بخدمة المولى).

وقوله : ﴿ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ .

ذهب الشافعي والأوزاعي إلى أنه إذا نكح العبد بغير إذن سيده فسخ نكاحه . قال ابن كثير : (فدلّ على أن السيد هو وليّ أمته لا تزوّج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس لعبده أن يتزوّج إلا بإذنه).

أخرج أبو داود وابن ماجّة بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [أيما عبد تزوّج بغير إذن مواليه فهو زان]⁽²⁾ . وفي رواية : (فهو عاهر).

فإن كان من يملك الأمة امرأة لم يجز لها أن تعقد زواجها ، بل يزوجه من يزوج المرأة بإذنها . لما أخرج ابن ماجّة بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [لا تزوّج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها]⁽³⁾ .

وقوله : ﴿ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . يعني الصداق . لا يجوز أن يبخس منه شيئاً لكونهن إمءاء غير حرائر ، فلا بد من دفع مهورهن عن طيب نفس ، بالمعروف : أي على ما تراضيتن به .

وقوله : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني : تنكحوهن عفائف غير زواني في سرّ ولا علانية ، ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ ، يعني : أخلاء). وقال : (المسافحات : هن الزواني المعلنات). يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ قال : الخليفة يتخذها الرجل ، والمرأة تتخذ الخليل).

وقوله : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ فَلَعْنَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ . قال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ ﴾ : يعني إذا تزوجن). وقال قتادة :

(1) الهجين : أبوه عربي وأمه أمة . أي : غير عربية .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو داود (2078) ، والترمذي (1111) ، وابن ماجّة ، وأخرجه أحمد (301/3) ، وأبو يعلى (2000) عن جابر ، وله شواهد .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجّة وله شواهد . انظر صحيح الجامع الصغير (7175) .

(أحصتهن البعولة). وقال: ﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال: خمسون جلدة ، ولا نفي ولا رجم). وقال ابن عباس: (ليس على أمة حد حتى تحصن ، فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات) - رواه الطبراني وهو موقوف صحيح ولا يصح رفعه .

وقال ابن مسعود: (إسلامها إحصانها). وقال السدي: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾: إذا أسلمن⁽¹⁾. والأول أرجح ويدل عليه السياق .

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: [يا أيها الناس ، أقيموا على أرفأكم الحد من أحصن منهم ومن لم يُحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن أجلدوها ، فإذا هي حديث عهد بنفاس ، فخشيت إن جلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: أحسنت اتركها حتى تماثل]⁽²⁾.

والخلاصة: إن الأمة إذا زنت وقد أحصنت مجلودة بكتاب الله ، وإذا زنت ولم تحصن مجلودة بحديث رسول الله ﷺ ولا رجم عليها ، لأن الرجم لا ينتصف .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تُحصن؟ قال: إذا زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو بضعفير]⁽³⁾.

قال الزهري: (فالمتزوجة محدودة بالقرآن ، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث). وقال ابن عبد البر: (ظاهر قول الله عز وجل يقتضي ألا حد على أمة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج ، ثم جاءت السنة بجلدوها وإن لم تحصن ، فكان ذلك زيادة بيان).

وقال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: (ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على

(1) هناك قراءة: ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾ بمعنى: إذا أسلمن ، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالإسلام . وهي قراءة مشهورة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1705) ، والترمذي في الجامع (1441) ، وأحمد في المسند (89/1) . وعند عبد الله بن أحمد ، عن غير أبيه: «فإذا تعافت من نفاسها فاجلدوها خمسين» . انظر زوائد المسند لعبد الله بن أحمد (136/1) ح (1146) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6837) ، (6838) ، ومسلم برقم (1704) ح (33) ، وزواه أحمد في المسند (117/4) .

مملوك في الزنا ، وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب).

وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ . قال مجاهد: (الزنا). وقال ابن عباس: (العنت الزنا).

وقوله: ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ . قال السدي: (يقول: وأن تصبر ولا تنكح الأمة فيكون ولدك مملوكين ، فهو خير لك). والمقصود: أن الصبر على العُزْبَةِ خير من نكاح الأمة ، لأنه يُفْضِي إلى إرقاق الولد.

وفي الأثر عن عمر: (أَيُّمَا حُرٌّ تَزَوَّجَ بِأَمَةٍ فَقَدْ أَرَقَّ نَفْسَهُ).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أي: غفور لكم نكاح الإماء وما سلف منكم إن أصلحتن ، رحيم بكم إذ أذن لكم بنكاحهن عند الافتقار والحاجة.

26 - 28. قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ٢٦ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٢٨ ﴾ .

في هذه الآيات: يريد الله سبحانه تبيان حلاله وحرامه ، ففي معرفة ذلك والتزام حدوده رضاه جل ذكره ، كما يريد إرشاد عباده المؤمنين إلى سبل أهل الإيمان والصلاح في الأمم قبلهم ، وإلى مناهج الأنبياء والمرسلين في تحريم نكاح الأمهات والبنات والأخوات ، فإن الله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يصلح أحوال عباده في أديانهم ودنياهم ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قدره وشرعه وأمره ونهيه لهم جميعاً. والله يريد كذلك أن يتجاوز عما سلف منكم أيام الجاهلية ويريد أهل الباطل أن تستمروا على الفواحش. والله يريد اليسر بكم في أمر النكاح وفي كل أمر ، فإن الإنسان ضعيف أمام النساء.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ - أي: يتجاوز عما كان في جاهليتكم من الاستهتار بنكاح حلائل الآباء والأبناء وغير ذلك مما يستبيحه أهل الجاهلية.

وقوله: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ . قال مجاهد: (أن

تكونوا مثلهم ، تزنون كما يزنون). قال: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ ، قال: الزنا ، ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ ، قال: أن تزنوا).

وقال ابن زيد: (يريد أهل الباطل وأهل الشهوات في دينهم ، أن تميلوا في دينكم ميلاً عظيماً ، تتبعون أمر دينهم ، وتتركون أمر الله وأمر دينكم).

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾. قال مجاهد: (في نكاح الأمة ، وفي كل شيء فيه يسر).

وقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. قال طاووس: (في أمور النساء. ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء).

29 - 31. قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدَّوَثًا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾.

في هذه الآيات: يعقب الله سبحانه بتذكير عباده بأمور أخرى من أمور الجاهلية يحبهم أن يتنزها عنها ويرتفعوا عن السقوط في أحوالها ، كالربا والقمار ، وفاسد العلاقات في الأموال ، كما ينهاهم عن قتل النفس المفضي إلى عذاب النار ، ثم يقرر أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر من الأعمال.

يروى ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: (في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: «إن رضىته أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً» ، قال: هو الذي قال الله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾).

وقال السدي: (أما أكلهم أموالهم بينهم بالباطل ، فبالربا والقمار والبخس والظلم).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ﴾. قال قتادة: (التجارة رزق من رزق الله ، وحلال من حلال الله ، لمن طلبها بصدقها وبرّها. وقد كنا نحدث: أن التاجر

الأمين الصدوق مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة). وقال السدي فيها: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَكُّرَةً﴾ ، ليربح في الدرهم ألفا إن استطاع).

وقراها أكثر أهل الحجاز والبصرة ﴿تجارة﴾ ، والتقدير: إلا أن توجد تجارة ، وعندها ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ تامة لا حاجة بها إلى خبر.

وأما قراء الكوفة فقرؤوها ﴿تَحَكُّرَةً﴾ بالنصب على الخبر. والتقدير: إلا أن تكون الأموال تجارة عن تراض منكم. وكلاهما قراءتان مشهورتان عند قراء الأمصار.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [إن المُتَبَايِعِينَ بالخيار في بيعهما ما لم يتفرقا ، أو يكون البيع خياراً]⁽¹⁾.

قال نافع: (وكان ابن عمر إذا اشترى شيئاً يُعجبه فارق صاحبه).

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أو قال: حتى يتفرقا - فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا مُحِقَّتْ بركةُ بيعهما]⁽²⁾.

وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: [رحم الله رجلاً سَمَحاً إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال السدي: (يقول: أهل ملتكم).

وقال عطاء: (قتل بعضكم بعضاً). قال ابن جرير: (يعني: ولا يقتل بعضكم بعضاً ، وأنتم أهل ملة واحدة ، ودعوة واحدة ، ودين واحد. فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض. وجعل القاتل منهم قتيلاً ، في قتله إياه منهم ، بمنزلة قتله نفسه ، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملتهما).

قلت: والآية في سياقها أعم من ذلك ، فإن أكل أموال المسلمين بغير حق بمثابة قتل يُعمل فيهم ، وإن ارتكاب المنكرات والمحرمات والآثام وتركها تفسو في حياة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2107) ، كتاب البيوع ، وأخرجه مسلم برقم (1531) ، ورواه أحمد في المسند (73/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2079) ، كتاب البيوع ، وانظر صحيح مسلم (1531) ، وسنن النسائي (249/7) ، وسنن البيهقي (269/5) ، وصحيح ابن حبان (4912).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2076) ، كتاب البيوع ، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف.

المسلمين هو بمثابة إجهاز عليهم وقتل لوجودهم ومصدر إعدام لقوة شوكتهم وكيانهم في الأرض ، فإن انتشار الفواحش موت للأمة .

أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [خمس بخمس : ما نقض قومُ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا مُنعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُسِرَ عنهم القطر]⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ . أي : في ما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فإنه ما شرع أمراً إلا رحمة بكم ، ولم يقض قضاء إلا كان خيراً لكم .

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند صحيح ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : [عجبت للمؤمن ، إن الله تعالى لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له]⁽²⁾ . وفي لفظ : [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له] .

وقد ورد ذكر هذه الآية على لسان عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل حين تيمم وصلى بأصحابه - من شدة البرد - فأقرّ النبي ﷺ فهمه لها .

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ ، عام ذات السلاسل قال : [احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيّمت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح . قال : فلما قَدِمنا على رسول الله ﷺ ، ذكروا ذلك له ، فقال : يا عمرو ، صليت بأصحابك وأنت جُنُبٌ . قال : قلت : نعم يا رسول الله ، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ، فتيّمتُ ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً]⁽³⁾ .

ولا شك أن الآية تتناول أيضاً من قتل نفسه بحديدة أو سمٍّ أو أية وسيلة أخرى أراد بها إزهاق روحه ومعالجة نفسه .

(1) حديث حسن . انظر تخريج الترغيب (1/ 271) ، وصحيح الجامع الصغير (3235) .

(2) حديث صحيح . رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (5/ 24) . وانظر مسند أبي يعلى (2/ 200) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (148) .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (4/ 203) ، وأبو داود (334) ، والحاكم (1/ 177) . وسنده حسن .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من قتل نفسه بحديدة ، فحديده في يده ، يَجَأُ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مُخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بِسُمْ فَسُمُّه في يده ، يتحسّاه في نار جهنم خالداً مُخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو مُترد في نار جهنم خالداً مُخلداً فيها أبداً⁽¹⁾].

وفي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: [كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جُرح ، فأخذ سكيناً نَحَرَ بها يده ، فما رقا الدم حتى مات ، قال الله عز وجل: عبدي بادرنى بنفسه ، حَرَمْتُ عليه الجنة]⁽²⁾.

وفيهما عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ قَتَلَ نفسه بشيء عُدَّ به يوم القيامة]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. يخبر الله تعالى عن مصير من عاند أمره أو خالفه عامداً متكبراً ظالماً متجاوزاً غير تائب ولا أواب ، بأن له النار وبئس المصير.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [ارحموا تُرحموا ، واغفروا يُغفر لكم ، ويلٌ لأقماع القول ، ويلٌ للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون]⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾. يروي ابن جرير بسنده عن مسروق ، عن عبد الله قال: (الكبائر ، من أول «سورة النساء» إلى ثلاثين منها).

وقد وردت أحاديث صحيحة تُعرّف بالسبع الكبائر أو التسع:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله ، وما هن؟ قال: الشرك بالله ، وقتل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5778) ، وأخرجه مسلم (109) ، وأحمد (2/254).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1364) ، ومسلم (113) ، وأخرجه البيهقي (24/8).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1363) ، ومسلم (110) ، وأبو داود (3257) ، وغيرهم.

(4) إسناده صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/165) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (380).

النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقَذَفُ المحصنات الغافلات المؤمنات⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج النسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: [من عبد الله لا يشرك به شيئاً ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، واجتنب الكبائر ، فله الجنة - أو دخل الجنة. فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: الشرك بالله ، وقتل نفس مسلمة ، والفرار يوم الزحف]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر ، أو سئل عن الكبائر ، فقال: [الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين. وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى. قال: قول الزور - أو شهادة الزور -]⁽³⁾. وفي لفظ: [ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت].

الحديث الرابع: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح ، عن طَيْسَلَةَ بن مَيَّاس قال: [كنت مع النَّجْدَات⁽⁴⁾ ، فأصبت ذنباً لا أراها إلا من الكبائر ، فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر. هن تسع: الإشراف بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسخر⁽⁵⁾ ، وبكاء الوالدين من العقوق. قال لي ابن عمر: أتفرق من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: أي ، والله! قال: أحبي والدك؟ قلت: عندي أُمِّي. قال: فوالله! لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنب الكبائر]⁽⁶⁾.

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [قلت: يا رسول الله ، أي: الذنب أعظم؟ - وفي رواية: أكبر - قال: أن تجعل لله نداً وهو

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2766) ، ومسلم (89) ، وأبو داود (2874) ، وغيرهم.
- (2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» - حديث رقم - (3472) ، وأحمد في المسند (413/5) ، ورجال النسائي ثقات.
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5977) ومسلم (88) وأحمد (131/3) ، وانظر الرواية الأخرى ، وفيها: وكان متكئاً فجلس. أخرجه البخاري (5976) ، ومسلم (87).
- (4) النَّجْدَات: أصحاب نَجْدَة بن عامر الخارجي ، وهم قوم من الحرورية.
- (5) يستسخر: الاستسخر من السخيرة.
- (6) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» - حديث رقم - (8). باب لين الكلام لوالديه.

خلقتك . قلت : ثم أي؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي؟ قال : أن تزاني حليلة جارك⁽¹⁾ .

الحديث السادس : أخرجه الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال :
[الخمير أم الفواحش ، وأكبر الكبائر ، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته]⁽²⁾ .

الحديث السابع : أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : [أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس]⁽³⁾ .

وفيه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه . قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه]⁽⁴⁾ .

الحديث الثامن : أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : [ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجلٌ كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سَخَطَ ، ورجل أقام سلطته بعد العصر فقال : والله الذي لا إله غيره لقد أعطيْتُ بها كذا وكذا ، فصَدَّقَه رجل ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : 77]⁽⁵⁾ .

وقد استعرضت بقية الكبائر في كتابي : «منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن» . وفيه ذكر للأمور التي نهى الله عنها وحذر منها ، بشيء من التفصيل ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ . قال قتادة : (إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4477) ، ومسلم (86) ، وأحمد (431/1) .
- (2) حديث حسن . رواه الطبراني (11372) ، (11498) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1853) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6675) ، وأحمد (201/2) ، والترمذي (3021) ، وغيرهم .
- (4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5973) ، ومسلم (90) ، وأحمد (214/2) ، وغيرهم .
- (5) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2358) ، كتاب المساقاة ، وأخرجه مسلم برقم (108) ، ورواه النسائي (246/7) .

وقوله: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾. قال السدي: («الكريم» ، هو الحسن في الجنة).

32. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

في هذه الآية: النهي عن تمني ما بيد الآخرين من النعم ، وما قسم الله لكل من الذكر والأنثى في الأموال والإرث ، والترغيب بسؤال الله من فضله.

قال ابن عباس: (لا يتمنى الرجل يقول: «ليت أن لي مال فلان وأهله»! فنهى الله سبحانه عن ذلك ، ولكن ليسأل الله من فضله).

وقال الحسن: (تتمنى مال فلان ومال فلان! وما يدريك؟ لعل هلاكه في ذلك المال).

وقال غيره: (نهيتم عن الأمانى ، ودللتم على ما هو خير منه: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾).

وقال عطاء: (نزلت في النهي عن تمني ما لفلان ، وفي تمني النساء أن يكنَّ رجالاً فيغزون) رواه ابن جرير.

قلت: والصحيح المسند في ذلك ما رواه الترمذي عن أم سلمة أنها قالت: [يغزوا الرجال ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾] (1).

وقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: ما ترك الوالدان والأقربون. يقول: للذكر مثل حظ الأنثيين).

وقال عكرمة فيها: (في الميراث ، كانوا لا يورثون النساء).

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2419) ، كتاب التفسير ، سورة النساء ، آية (32).

وقال ابن جرير: (للرجال نصيب من ثواب الله وعقابه مما اكتسبوا فعملوه من خير أو شر ، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال).

وقوله: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فعنده خزائن السماوات والأرض ، فلا يشغلکم التمني بل ليشغلکم سؤاله جل ذكره.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [إذا تمنى أحدكم فليكثر ، فإنما يسأل ربه]⁽¹⁾. وفي رواية: [إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه].

وقال ليث - كما يروي ابن جرير -: ﴿فَضْلُهُ﴾: (العبادة ، ليس من أمر الدنيا). وقال مجاهد: (ليس بعرض الدنيا). وقال السدي: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يرزقكم الأعمال ، وهو خير لكم).

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يقول: [اللهم إني أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف ، والغنى]⁽²⁾.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: [كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار]⁽³⁾.

وروى الطبراني بسند صحيح عن العرياض بن سارية ، عن النبي ﷺ قال: [إذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه سر الجنة]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ذا علم. فلا تتمنوا غير الذي قضى لكم ، ولكن عليكم بطاعته ، والتسليم لأمره ، والرضى بقضائه ، ومسأله من فضله).

قلت: وقد استثنى الحديث نوعاً من التمني ، يجوز للعبد في مثله ، لا في تمني عين النعمة التي عليها صاحبه.

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها. انظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم (450) ، وكذلك رقم (605) للرواية الثانية.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم وغيره من حديث ابن مسعود. انظر صحيح الجامع (1286).

(3) حديث صحيح. وفي لفظ مسلم: (كان أكثر دعوة يدعو بها يقول...). انظر مختصر صحيح مسلم (1873). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد صحيح من حديث العرياض. انظر صحيح الجامع (606).

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها].

وأخرجه من حديث ابن عمر بلفظ: [لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار]⁽¹⁾.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء...]. الحديث⁽²⁾.

33. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

في هذه الآية: لقد جعل الله سبحانه للناس عصبه - لكل منهم - يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقد كان لمن تحالفت معه - أيها المؤمنون - بالأيمان المؤكدة جزء من الميراث ثم نسخ هذا الحكم فصار الميراث في ذوي الرحم.

فقوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ورثة من بني عمه وإخوته وسائر عصبته غيرهم). والعرب تسمي ابن العم «مولى».

قال ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾، قال: ورثة). وقال مجاهد: (الموالي، العصبه). وقال: (هم الأولياء). وقال قتادة: (الموالي، أولياء الأب،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/491)، ومسلم (2/201)، وأحمد (2/9). وانظر للرواية الأولى مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2108).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2325). انظر صحيح سنن الترمذي (1894). ورواه أحمد. انظر تخريج الترغيب (1/26)، وصحيح الجامع الصغير (3021)، وهو جزء من حديث أطول.

أوالأخ ، أو ابن الأخ ، أو غيرهما من العصبة). وقال السدي: (أما «موالي» ، فهم أهل الميراث).

قال البخاري: (وقال معمر: ﴿مَوَالِي﴾ أولياء ورثة).

وقوله: ﴿وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾. أي: من تركه والديه وأقربيه من الميراث.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أي: تحالفتم معهم بالإيمان المؤكدة فأعطوهم من الميراث. وهذا حكم منسوخ فصار الميراث في ذوي الرحم.

أخرج البخاري عن ابن عباس: (﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: ورثة ، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نُسِخَتْ ، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ من النصر والرِّفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصي له⁽¹⁾.

وقال البخاري: (﴿عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ هو مولى اليمين: وهو الحليف. والمولى أيضاً: ابن العم ، والمولى: المُنْعِمُ الْمُعْتَق ، والمولى: الْمُعْتَق ، والمولى: المليك ، والمولى: مَوْلَى في الدين).

وقرأها قراء الكوفة: ﴿عَقَدْتَ﴾ ، وقرأها آخرون ﴿عَاقَدْتَ﴾ وكلاهما مشهور.

أخرج الإسماعيل مسلم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حِلْفَ في الإسلام ، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يَزِدْه الإسلام إلا شِدَّةً]⁽²⁾.

قال الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال: (﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾: فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ، ويقول: ترثني وأرثك. وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ: «كل حلف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا عَقْدٌ ولا حلف في الإسلام». فنُسِخَتْ هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4580) ، كتاب التفسير ، سورة النساء ، آية (33).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2530) ، وأحمد (83/4) ، والبيهقي (262/6) وغيرهم.

(3) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير - سورة النساء - آية (33) ، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: فاتوا الذين عقدت أيمانكم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرأي والله خير الشاهدين.

34. قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ سُوءَ ظُهُرِكُمْ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾.

في هذه الآية: إثبات القيادة للرجل في أهله وولده ، فهو الأجدد بضم الأسرة ومعرفة مصالحتها ، وما ينبغي من الإنفاق فيها ، فالرجل قيم على المرأة وهو رئيسها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت .

قال ابن عباس: (قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ، يعني: أمراء ، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله ، حافظةً لماله ، وفضله عليها بنفقته وسعيه).

وقال السدي: (﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ قال: يأخذون على أيديهن ويؤدّبونهن).

وقال ابن المبارك: سمعت سفيان يقول: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ، قال: (بتفضيل الله الرجال على النساء). قلت: وهذا التفضيل يشمل الإمارة والقضاء ؛

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ قال: [لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

قال ابن عباس: (فضله عليها بنفقته وسعيه). وقال سفيان: (بما ساقوا من المهر). وقال الشعبي: (الصدّاق الذي أعطاهما ، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ، ولو قذّفته جُلِدَتْ).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4425) ، (7099) ، والنسائي (8/227) ، وأحمد (43/5).

وقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

قال سفيان: (﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ ، يعملن بالخير). وقال ابن جرير: (﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ ، المستقيمات الدين ، العاملات بالخير).

وقوله: ﴿قَنِينَتٌ﴾. قال ابن عباس: (مطيعات). وقال قتادة: (مطيعات لله ولأزواجهن).

وقوله: ﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ﴾. قال السدي: (تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع ، كما أمرها الله). وقال قتادة: (حافظات لما استودعهن الله من حقه ، وحافظات لغيب أزواجهن). وقال عطاء: (حافظات للأزواج).

وقد جاءت السنة الصحيحة بالثناء العطر على الزوجات الصالحات القانتات ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [خير النساء التي تُسْرُهُ إذا نَظَرَ ، وَتُطِيعُهُ إذا أَمَرَ ، ولا تُخَالِفُهُ في نفسها ولا مالها بما يكره]⁽²⁾.

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن سلام ، بلفظ: [خير النساء من تُسْرِكَ إذا أَبْصَرْتَ ، وتطيعك إذا أَمَرْتَ ، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك].

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص ، عن النبي ﷺ قال: [أربع من السعادة: المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: المرأة السوء ، والجار السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1469) كتاب الرضاع. باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (251/2 ، 432 ، 438) ، والنسائي (72/2). والشاهد رواه الطبراني كما قال الهيثمي (273/4). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1838).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1232) ، وأحمد (168/1) نحوه ، والحاكم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ﴾.

النشوز: استعلاء المرأة على زوجها ، بترك فراشه أو مخالفته فيما يلزم طاعته .

وأصل النشوز: الارتفاع . ويقال للمرتفع من الأرض «نشز» و«نشاز» .

وأقوال الصحابة والتابعين في ذلك متقاربة :

1 - قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ ، تلك المرأة تنشز ، وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره).

2 - قال السدي: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ قال: بغضهن).

3 - وقال ابن زيد: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ ، قال: التي تخاف معصيتها . قال: «النشوز» ، معصيته وخلافه). وقال عطاء: («النشوز»: أن تحب فراقه ، والرجل كذلك).

وقوله: ﴿فَعِظُوهُمْ﴾ . قال ابن عباس: (يعني: عظوهن بكتاب الله . قال: أمره الله إذا نشزت أن يعظها ويذكرها الله ، ويعظم حقّه عليها). وقال سعيد بن جبير: (عظوهن باللسان).

وقد جاءت السنة الصحيحة بالتحذير الشديد للمرأة من النشوز ومعصية الزوج ، والترغيب الكبير في خدمته وطاعته ، فإن رضا الله في رضاه . وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح]⁽¹⁾.

ورواه البخاري بلفظ: [إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: [لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، من عظم حقّه عليها]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ، برقم (1436) ح (120).

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5193) ، ومسلم (1436) ، وأحمد (439/2) ، وغيرهم .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2322) ، وابن ماجه (1853) ، وابن حبان (4171) ، وغيرهم .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح ، عن حصين بن محصن قال: [حدثني عمتي قالت: أتيت رسول الله ﷺ في بعض الحاجة فقال: أي هذه! أذات بعل؟ قلت: نعم ، قال: كيف أنت له؟ قالت: ما آله إلا ما عجزت عنه ، قال: فانظري أين أنت منه ، فإنما هو جنتك ونارك]⁽¹⁾.

فإن لم ينفع الوعظ مع المرأة ، شرع الله له المرحلة الثانية في التأديب: وهي الهجر.

قال ابن عباس: (عظوهن ، فإن أطعنكم ، وإلا فاهجروهن).
وهو قوله: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾. وفيه أقوال متقاربة:

1 - قال ابن عباس: (يعني بالهجران: أن يكون الرجل وامرأته على فراش واحد لا يجامعها). وقال سعيد بن جبیر: (الهجر هجر الجماع).

2 - وقال السدي: (أما ﴿تَخَافُونَ سُوءَ بَعْثِكُمْ﴾ ، فإن على زوجها أن يعظها ، فإن لم تقبل فليهجرها في المضجع. يقول: يرقد عندها ويوليها ظهره ويطؤها ولا يكلمها). وقال الضحاك: (يضاجعها ، ويهجر كلامها ، ويوليها ظهره).

3 - وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ، يقول: حتى يأتين مضاجعكم). وفي رواية لابن عباس قال: (يعظها ، فإن هي قبلت ، وإلا هجرها في المضجع ، ولا يكلمها ، من غير أن يذر نكاحها ، وذلك عليها شديد).

4 - وقال عكرمة: (إنما الهجران بالمنطق: أن يغلظ لها ، وليس الجماع). وقال ابن عباس: (يهجرها بلسانه ، ويغلظ لها بالقول ، ولا يدع جماعها).

قلت: وكلها معان محتملة يحتملها البيان الإلهي ، وكذلك ما جاء في صحيح السنة. فقد أخرج أبو داود وأحمد وغيره عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: [أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت]⁽²⁾.
وقوله: ﴿وَأَصْرِيوهُنَّ﴾.

هي المرحلة الثالثة من مراحل التأديب ، أي: إذا لم يتردعن بالموعظة والهجران

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 341) ، وابن أبي شيبة (7/ 47/ 1) ، والنسائي في العشرة.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2143) ، وأحمد (5/ 5) ، وابن ماجه (1850). وسنده حسن.

فيمكن أن تضربوهنَّ ضرباً غير مُبرِّح . قال الحسن البصري : (يعني غير مؤثر).

وقال ابن عباس : (تهجرها في المضجع ، فإن أقبلت ، وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح ، ولا تكسر لها عظماً . فإن أقبلت وإلا فقد حلّ لك منها الفدية).

وعن عطاء قال : (قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح؟ قال : بالسواك ونحوه).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : [واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبرِّح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف] (1).

وفي سنن أبي داود عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال : [قال النبي ﷺ : لا تضربوا إماء الله . فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذُئِرَت النساء على أزواجهنَّ ، فَرَخَّصَ رسول الله ﷺ في ضربهنَّ ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهنَّ ، ليس أولئك بخياركم] (2).

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَطَعَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ . قال ابن عباس : (إذا أطاعتك فلا تتجنَّ عليها العلل). وقال سفيان : (إذا فعلت ذلك لا يكلفها أن تحبه ، لأن قلبها ليس في يديها). وقال الثوري : (إذا أتت الفراش وهي تبغضه).

والخلاصة : إن رجعت إلى الطاعة وامثلت ما يحب مما أباحه الله له منها فلا يحق له بعد ذلك ضربها أو هجرانها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَارٍ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ : تهديد للرجال إذا تناولوا بالضرب بعد الطاعة ، فإن الله العلي الكبير وليهن ينتقم ممن بغى عليهن أو ظلمهن فاحذروا البغي معاشر الرجال .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1218) ، وأبو داود (1905) ، وابن ماجه (3074) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2146) ، والنسائي في «الكبرى» (9167) ، وابن ماجه (1985) .

35. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا فَفِي اللَّهِ بَيْنُهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

في هذه الآية: الترغيب في إعادة الوفاق بين الزوجين عند الخلاف ، وسدّ السبل على الشيطان ، والله يعين على الرفق والإصلاح .

قال السدي : (إن ضربها . فإن رجعت ، فإنه ليس له عليها سبيل . فإن أبت أن ترجع وشاقته ، فليبعث حكماً من أهلها ، وتبعث حكماً من أهلها).

وذكر ابن جرير بسنده عن عكرمة بن خالد ، عن ابن عباس قال : (بعثت أنا ومعاوية حكيمين ، قال معمر : بلغني أن عثمان رضي الله عنهما بعثهما ، وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعما جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقتما).

وقال قتادة : (إنما يبعث الحكماء ليصلحا . فإن أعياهما أن يصلحا ، شهدا على الظالم بظلمه ، وليس بأيديهما فرقة ، ولا يملكان ذلك).

قلت : ووجه الجمع بين القولين في هذه المسألة أن الخطاب يشمل المسلمين والسلطان في ذلك ، فأمر الله المسلمين ببعثة الحكمين عند خوف الشقاق بين الزوجين للنظر في أمرهما ، فإن تعذر الإصلاح فالأمر للقاضي أو السلطان فهو الذي يفرق إن شاء .

وقوله : ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ . قال سعيد بن جبير : (إن يرد الحكماء إصلاحاً أصلحاً). وقال مجاهد : (يوفق الله بين الحكمين).

يعني : إن أخلص الحكماء وأرادا بعملهما وجه الله تعالى يسد خطاهما للإصلاح .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ . أي : ﴿عَلِيمًا﴾ بما أراد الحكماء من صدق الإصلاح ﴿خَبِيرًا﴾ بذلك وبغيره من أمورهما وأمور العباد جميعاً ، لا يخفى عليه شيء ، ثم يجازي كلا بنيته وعمله .

36. قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

في هذه الآية: يخاطب سبحانه عباده أمراً لهم أن يفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ثم يوصي بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين خيراً ، ثم يوجه الوصية للعناية بالجار والإحسان إليه ، ثم ابن السبيل وما ملكت الأيمان ، فإن من لا يشكر الله ولا يقوم بحق أرحامه: الوالدين والأقربين ، وجيرانه وما أوصى الله ، كان مختالاً متكبراً يبغضه الله .

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: [كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي: يا معاذُ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. قلت: يا رسول الله ، أفلا أبشّر الناس؟ قال: لا تبشّرهم فيتكلموا]⁽¹⁾.

قال ابن القيم: ((الإله) هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً ، وخوفاً ورجاءً وتوكلًا).

وقال ابن رجب: ((الإله) هو الذي يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ورجاءً ، وتوكلًا عليه ، وسؤالاً منه ودعاءً له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل . فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية ، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله «لا إله إلا الله» وكان فيه من عبودية المخلوق ، بحسب ما فيه من ذلك)⁽²⁾.

وقد قرن سبحانه في كتابه كثيراً بين إفراده بالعبادة والإحسان إلى الوالدين ، فقال جل ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (300 / 13) ، كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم (30) في الإيمان .

(2) انظر فتح المجيد (47) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ، (100 / 1) ، وكذلك لقول ابن القيم .

أخرج البخاري في الأدب المفرد ، وابن ماجه في السنن ، والحاكم في المستدرک ، بسند حسن عن أبي الدرداء قال : [أوصاني رسول الله ﷺ بتسع : لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعَتْ أو حُرِّقَتْ ، ولا تترك الصلاة المكتوبة متعمداً ، ومن تركها متعمداً برئت منه الذمة⁽¹⁾ ، ولا تشربن الخمر ، فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج من دنيك ، فاخرج لهما ، ولا تُنازعنَّ ولاية الأمر ، وإن رأيت أنك أنت⁽²⁾ ، ولا تفرَّ من الزحف ، وإن هلك وفِرَّ أصحابك ، وأنفق من طولك على أهلک ، ولا ترفع عصاك عن أهلک ، وأخفهم في الله عز وجل]⁽³⁾.

وأخرج هو والحاكم عن أبي أيوب الأنصاري : [أن أعرابياً عرض للنبي ﷺ في مسيره ، فقال : أخبرني ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، قال : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم]⁽⁴⁾.

وقوله : ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . أي أمرٌ بالإحسان إليهم ، وهم ذوو قرابة الرجل من قبل أبيه أو أمه ، فأمر بصلتهم سبحانه ، فإن الرحم تحتج على صاحبها يوم القيامة .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله عز وجل لما خلق الخلق قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن ، فقال : مَهْ ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ! قال : فذاك لك . قال أبو هريرة : ثم قال رسول الله ﷺ : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(٢٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ^(٢٦) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ^(٢٦)]⁽⁵⁾.

وقد أخبر النبي ﷺ عن أثر صلة الأقارب بثناء المال وطول العمر والمحبة في الأهل . فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح عن عمرو بن سهل ، عن

- (1) أي : أن لكل أحد من الله عهداً بالحفظ والكلاءة ، فإذا ألقى بيده إلى التهلكة ، أو فعل ما حرم عليه ، أو خالف ما أمر به خذله ذمة الله . «النهاية» . صحيح الأدب المفرد ص 38 .
- (2) أي : أنك أنت وحدك على الحق .
- (3) حديث حسن . انظر : «صحيح الأدب المفرد» للإمام البخاري - حديث رقم - (14) ، باب يبرؤ والديه ما لم يكن معصية .
- (4) حديث صحيح . انظر : «صحيح الأدب المفرد» للإمام البخاري - (35) ، باب صلة الرحم .
- (5) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/330) ، وانظر : «صحيح الأدب المفرد» للبخاري - (36) .

النبي ﷺ قال: [صلة القرابة مثراً في المال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم. وهو الطفل قد مات والده وهلك.

وقوله: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين ، وهو من ركه ذل الفاقة والحاجة ، فتمسكن لذلك. فأمر سبحانه بالإحسان إليهم ، ووعد على ذلك خيراً.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾. قال ابن عباس: (يعني الذي بينك وبينه قرابة). وقال مجاهد: (جارك ، هو ذو قرابتك). وقال قتادة: (إذا كان له جار له رحم ، فله حقان اثنان: حق القرابة ، وحق الجار).

وقوله: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. قال ابن عباس: (الذي ليس بينك وبينه قرابة). وقال نوف الشامي: (اليهودي والنصراني) ذكره ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني الرفيق في السفر).

قلت: والتفريق في الآية بين الجار ذي القربى والجار الجنب يقتضي قرابة الأول وبعد الآخر حتى لو كان يهودياً أو نصرانياً ، وفي ذلك اشتمال بالوصية لكل أنواع الجيران. وقد امتلأت السنة الصحيحة بالوصايا بالجار ، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه]⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال: [خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره]⁽⁴⁾.

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الرحمن بن أبي قراد ، عن

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (2/ 374) ، والحاكم (4/ 161) ، وصحيح الجامع (3662).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 263) ، والطبراني في «مختصر مكارم الأخلاق» (1/ 120).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6015) ، ومسلم (2625) ، وأخرجه أحمد (2/ 85).

(4) حديث إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (2/ 167) ، والترمذي (1944) ، ورجاله ثقات.

النبي ﷺ قال: [إن أحببتهم أن يحبكم الله تعالى ورسوله فأدّوا إذا أؤتمتتم ، واصدّقوا إذا حدّثتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم] (1).

وقوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾. قال سعيد بن جبير: (الرفيق في السفر).

وقال مجاهد: (رفيقك في السفر ، الذي يأتيك ويده في يدك).

وقال ابن مسعود: (هي المرأة). قال ابن عباس: (يعني: الذي معك في منزلك).

وقال زيد بن أسلم: (هو جليستك في الحضر ورفيقك في السفر). وقال سعيد بن جبير: (هو الرفيق الصالح).

وكلها أقوال يحتملها البيان الإلهي ، وقد أوصى سبحانه بالإحسان إلى هذا الصاحب: سواء كان المرأة في البيت أو الرفيق في السفر.

وقوله: ﴿وَأَبْنِ السَّكِيلِ﴾. قال مجاهد: (هو الذي يمر عليك وهو مسافر).

وقال ابن عباس: (هو الضيف). وقال الربيع: (هو المارّ عليك ، وإن كان في الأصل غنياً).

قلت: ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن الضيف القادم عليك من سفر وإن كان غنياً فقد أوصى الله سبحانه بالإحسان إليه وإكرامه.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال مجاهد: (مما حوّلك الله ، كل هذا أوصى الله به). فهي وصية بالأرقاء بالإحسان إليهم ، فإن الرقيق ضعيف الحيلة أسير عند الناس ، وقد كان من آخر كلامه عليه الصلاة والسلام في مرض موته: [الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم] (2).

وقد امتلأت السنة الصحيحة بالتحذير من إيذاء الرقيق واستغلال ضعفه:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حُلّةٌ وعلى غلامه حُلّةٌ ، فسألناه عن ذلك فقال: إني ساءتُ رجلاً فشكاني إلى النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ ثم قال: [إن إخوانكم حوّلكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ولْيُلْبِسْهُ

(1) حديث حسن. رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ، (1422).

(2) حديث صحيح لشواهده. انظر مسند أحمد (3/ 117) ، وصحيح ابن حبان (6605). وله شواهد.

مما يَلْبَسُ ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ ، فإن كَلَّفْتُمُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [للمملوك طعامه وكسوته ، ولا يَكْلَفُ من العمل إلا ما يُطِيق]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به ، وقد وَلِيَ حَرَّه ودُخَانَه فليقعده معه فليأكل ، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده منه أَكْلَةً أو أَكْلَتَيْنِ]⁽³⁾. قال داود وهو ابن قيس: يعني لقمة أو لقمتين.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أَطْعَمْتَ نفسك فهو لك صدقة ، وما أَطْعَمْتَ ولدك فهو لك صدقة ، وما أَطْعَمْتَ زوجتك فهو لك صدقة ، وما أَطْعَمْتَ خادمك فهو لك صدقة]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. قال مجاهد: (يعني متكبراً ، فَخُورًا) قال: يعدّ ما أُعْطِيَ ، وهو لا يشكر الله).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث تحذر الكبر والفخر الجاهلي - أي على طريقة الجاهلية -:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عَتُلٍ جَوَّازٍ مستكبر]⁽⁵⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2545)، كتاب العتق، وأخرجه مسلم برقم (1661)، ورواه أحمد في المسند (158/5).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1662)، وأحمد (247/2)، والبيهقي (6/8)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1663)، كتاب العتق. وانظر مختصر صحيح مسلم (909).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (131/4)، والنسائي في «الكبرى» (9185).

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (507/8)، (408/10)، وأخرجه مسلم (2853).

يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال ، الكبير بطرُ الحق وغمطُ الناس^[1].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلة تُعجبُه نفسه ، مُرْجِلُ رأسه ، يختال في مشيِّه ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن مُطَرِّف قال: [كان يبلّغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه ، فلقيته فقلت: يا أبا ذر ، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويُبغض ثلاثة»؟ فقال: أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي ، ثلاثاً؟ قلت: من الثلاثة الذين يُبغضُ الله؟ قال: المختال الفخور ، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾⁽³⁾.

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد من حديث أبي تيممة عن رجل من بلهَجِيم قال: قلت: يا رسول الله ، أوصني. قال: [إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحبّ المَخيلة]⁽⁴⁾.

37 - 39. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ

وَيَكْمُنُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91) ، وأبو داود (4091) ، وأخرجه الترمذي (1999).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (221/10) ، (222/10) ، وأخرجه مسلم (2088).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (88/2 - 89) ح (2446) ، والبيهقي في «الشعب» (9549) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

(4) إسناده صحيح. وجهالة الصحابي لا تضر. وهو جزء من حديث أطول. انظر مسند أحمد (63/5). و(64/5) ، ح (20109) (20110).

الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ .

في هذه الآيات : ذم الله تعالى أهل البخل عن الإنفاق فيما أمرهم الله ، من الأرحام واليتامى والمساكين . وفضح أهل الرياء الذين حملهم عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر على فساد نياتهم . ثم التقرير عليهم بأنه ما الذي كان يمنعهم من صدق الله الإيمان والاستعداد للقائه والإنفاق في سبيله !! والله تعالى غني عنهم محيط بأعمالهم ونياتهم سواء صدقوا أم كذبوا .

قال طاووس : (البخل أن يخل الإنسان بما في يديه ، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس . قال : يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحِلِّ والحرام ، لا يقنع) .

وقال قتادة : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ وهم أعداء الله أهل الكتاب ، بخلوا بحق الله عليهم ، وكنتموا الإسلام ومحمدًا ﷺ ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) .

وهذا تأويل محتمل ، وإن كان السياق يدل على التأويل الأول ، وهو البخل بالمال .

وفي التنزيل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ وَأَسْتَفْقَ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : 8 - 11] . وكذلك قوله تعالى في سورة التغابن : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم] (1) .

وله شاهد في المسند ، للإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ : [إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ، برقم (2578) ، كتاب البر والصلة .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/195) ، والحاكم (1/11) ، والبيهقي (10/243) ، وغيرهم .

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. تأكيد لشدة البخل المؤدي لجحود النعمة ، فلا تظهر عليهم في مطعم أو ملبس أو إعطاء .

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ .

أخرج الإمام أحمد والنسائي عن والد أبي الأحوص قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا آتاك الله مالا فليُرْ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته] (1).

وله شاهد عند الطبراني من حديث زهير بن أبي علقمة ولفظه: [إذا آتاك الله مالا فليُرْ عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس] (2).

وسببه أنه أتى النبي ﷺ رجل سيئ الهيئة ، فقال: ألك مال؟ قال: نعم كل أنواع المال. قال: فليُرْ عليك ، فذكره . . .

وله شاهد عند البيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه ، ويكره البؤس والتباؤس ، ويبغض السائل الملحف ، ويحب الحيي العفيف المتعفف] (3).

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

قال القرطبي: (فَصَلَ تَعَالَى تَوَعَّدَ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاحِلِينَ مِنْ تَوَعْدِ الْكَافِرِينَ بِأَنْ جَعَلَ الْأَوَّلَ عَدَمَ الْمَحَبَّةِ وَالثَّانِي عَذَابًا مُّهِينًا).

وقال ابن كثير: (والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجعلها ، فهو كافر لنعم الله عليه).

وقال ابن جرير: (وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنعم بها عليهم ، من المعرفة بنبوة محمد ﷺ ، المكذبين به بعد علمهم به ، الكاتمين نعته وصفته مَنْ أمرهم الله ببيان له من الناس ، ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يعني: العقاب المذل من عُدْبٍ بخلوده فيه ، عَتَاداً له في آخرته ، إذا قَدِمَ على ربه وَجَدَهُ).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (473/3) ، والنسائي في السنن (180/8). وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (252).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني رقم (5308) ، ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد (132/5).

(3) أخرجه البيهقي (2/231/1) في «الشعب». وله شواهد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1320).

قلت: ولا شك أن البخل والشح يريد إلى الكفر بالله ونعمه فأول المطاف البخل والشح ، وأوسطه استحلال المحارم وسفك الدماء وقطيعة الأرحام ، ونهاية المطاف الكفر بالمنعم سبحانه وجحود نعمه . وهذا يجمع بين الأقوال السابقة ، والله الفضل والمنة .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ . يعني: أنهم يقصدون السمعة والمدح وحصول الثناء عليهم من الناس والشهادة لهم بالكرم .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه⁽¹⁾].

وفي صحيح مسلم عن سليمان بن يسار قال: تفرَّق الناس عن أبي هريرة . فقال له نَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ⁽²⁾: أَيُّهَا الشَّيْخُ! حَدَّثْنِي حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال: نعم . سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا ، قال: فما عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ ، قال: كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعْمَتُهُ فَعَرَفَهَا . قال: فما عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قال: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا ، قال: فما عَمِلْتَ فِيهَا؟ قال: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قال: كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌّ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ⁽³⁾].

وقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

يعني: ولا يصدقون بوحدانية الله ، ولا بالرجوع إليه يوم المعاد .

- (1) حديث صحيح . أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم (2985) ، كتاب الزهد والرقائق .
- (2) وفي رواية: نَاتِلُ الشَّامِي ، وهو ناتل بن قيس الحزامي الشامي من أهل فلسطين ، وهو تابعي ، وكان أبوه صحابياً ، وكان ناتل كبير قومه .
- (3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1905) ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرج الإمام مسلم عن عائشة قالت: [قلت: يا رسول الله! ابنُ جُدعانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، فهل ذاك نافعٌ؟ قال: لا يَنْفَعُهُ ، إنه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين] (1).

والخلاصة: أنَّ الرياء الذي كان عليه هؤلاء كان بسبب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، واتخاذهم الشيطان ولياً فَسَوَّلَ لهم وأملى لهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

والمعنى: من يكن الشيطان له خليلاً وصاحباً وناصباً فساء الصاحب وهلك المصحوب.

وقوله: ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

المعنى: أي شيء كان يمنع هؤلاء من صدق الإيمان بالله ، والتصديق بالدار الآخرة ، والاستعداد لها ، والإنفاق في وجوه الطاعات مما رزقهم الله .

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. أي: بنياتهم وأعمالهم ، فمهما أرادوا فهو محيط به ، سواء أرادوا الدنيا والسمعة أو أرادوا الله ورضوانه والدار الآخرة .

40 - 42. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى أنه لا يبخس أحداً من عباده شيئاً حتى لو كان مثقال ذرة ، فيضاعف للمؤمن ، ويعطي الكافر من الدنيا ثم يحبط عمله في الآخرة . فكيف - يا محمد - إذا أُحضر من كل أمة من يشهد عليهم وجئنا بك على كل الأمم شهيداً . يومئذ يتمنى الذين جحدوا الله ونعمه وشكره لو سواهم الله والأرض فصاروا تراباً شأن مصير البهائم ، ولم يكتموا شيئاً بل فضحهم الله وأخزاهم .

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (214)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل. ورواه أيضاً برقم (2791)، وأخرجه أحمد (35/6)، والترمذي (3121).

فعن ابن عباس : (الذرة : رأس النملة). وقال مرة : (النملة الحمراء).

وقال يزيد بن هارون : (زعموا أن الذرة ليس لها وزن).

قلت : وهذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلها وزن عند الله وترجح بها كفة الميزان ، كما قال جل ذكره : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47].

وقال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِنَّكَ مُثْقَلٌ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ﴾ [لقمان : 16].

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [١] فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٣﴾ [الزلزلة : 6 - 8].

وفي صحيح مسلم ومسند الطيالسي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : [إن الله لا يظلم المؤمن حسنته ، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيُطعم بها في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم تكن له حسنة] ⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - في حديث الشفاعة - قال رسول الله ﷺ : [يقول الله تعالى : اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقالَ دينار من إيمان فأخرجوه ، ويُحرّم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه ، فيُخرجون مَنْ عَرَفُوا ، ثم يعودون فيقول : اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيُخرجون مَنْ عَرَفُوا ، ثم يعودون فيقول : اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيُخرجون مَنْ عَرَفُوا. قال أبو سعيد : فإن لم تصدّقوا فافروا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾ [النساء : 40] ⁽²⁾. وفي رواية : «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار ، فيُخرجون خلقاً كثيراً».

قال قتادة : (كان بعض أهل العلم يقول : لأن تفضل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة ، أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا جميعاً).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ، والطيالسي (2011) ، وأحمد (123/3) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7439) ، كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم برقم (183) ، ورواه أحمد في المسند (16/3).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾. يعني: وإن تك زنة الذرة حسنة يضاعفها.

وفي الصحيحين عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه عز وجل: [إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك في كتابه ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة. زاد مسلم في رواية: أو محاسنها ، ولا يهلك على الله إلا هالك] (1).

وقوله: ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قال ابن مسعود: (أي: الجنة يعطيها). وقال سعيد بن جبير: (الأجر العظيم: الجنة).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

أخرج البخاري عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوح وأمه ، فيقول الله: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب! فيقول لأمه: هل بلغتكم؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه ، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ، والوسط: العدل ، فيدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم] (2).

وصحَّ أن أمة محمد ﷺ تشهد لكل نبي أيضاً بالبلاغ حين يكذبه قومه يوم القيامة. فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم ، فيدعى قومه ، فيقال لهم: هل بلغتكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهد لك ، فيقول: محمد وأمه ، فيدعى محمد وأمه ، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدّقناه ، فذلك

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (131) ح (207) ، (208). ورواه بنحوه البخاري. انظر صحيح الجامع (1792) ، وتفصيل الروايات في كتابي: أصل الدين والإيمان (1/219).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3339) ، كتاب أحاديث الأنبياء. وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7890).

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾⁽¹⁾.

والخلاصة في المعنى: كيف إذا جئنا من كل أمة بمن يشهد عليها بأعمالها ، وتصديقها رسلها أو تكذيبها ، وجئنا بك يا محمد على كل الأمم شهيداً ، بما فيها أمتك .

قال ابن جريج: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ ، قال: رسولها ، فيشهد عليها أن قد أبلغهم ما أرسله الله به إليهم ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه).

فكل رسول يشهد على أمة ، ثم يجيء محمد ﷺ وأمته فيشهدون على جميع الأمم ، ولا شك أن هذه الآية أبكت نبينا ﷺ عندما سمعها تلتى عليه .

ففي الصحيحين والمسند عن عبد الله بن مسعود قال: [قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ. فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك ، وعليك أنزل؟ قال: نعم ، إني أُحِبُّ أن أسمع من غيري. فقرأت سورة النساء ، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حَسْبُكَ الآن. فإذا عيناه تَذَرِفَانِ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾. أي: يتمنى الذين جحدوا وحدانية الله وتعظيمه وعصوا رسوله. ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ يعني لو سواهم الله والأرض فصاروا تراباً مثلها شأن مصير البهائم .

وقراها قراء الكوفة ﴿لَوْ تَسَوَّى﴾. وقراء الحجاز ومكة والمدينة: ﴿لَوْ تَسَوَّى﴾. وقرأها غيرهم: ﴿لَوْ تَسَوَّى﴾ ، وكلها قراءات مشهورة .

وقوله: ﴿وَلَا يَكْفُرُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فيه أكثر من تأويل :

1 - قال قتادة: (معناه أنهم لما تبين لهم وحوسبوا لم يكتموا).

2 - قال ابن عباس: (لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: ﴿وَاللَّهُ رِيتًا مَا

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (286/6) ، ومسند أحمد (32/2) ، ورواه النسائي. انظر صحيح الجامع (7889). من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5050) ، ومسلم (800) ، وأحمد (380/1) ، وأخرجه أبو داود (3668) ، وأخرجه النسائي (125) في «التفسير» ، وأخرجه الترمذي (3028) ، وابن حبان (735) ، وغيرهم. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

كُفَّارًا مُشْرِكِينَ ﴿ فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمَت أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .
 3 - وقال الزجاج : (قال بعضهم : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ مستأنف ، لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانهم . وقال بعضهم : هو معطوف ، والمعنى : يودّ لو أن الأرض سوّيت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثاً لأنه ظهر كذبهم) .
 قلت : وكلها معان يحتملها البيان الإلهي المعجز ، فإن صدقوا فأعمالهم تدل عليهم ، وإن كتموا وكذبوا أنطق الله جوارحهم فشهدت بما كان من مكرهم وصنيعهم وشركهم .

43. قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايِبِ أَوْ لِمَسَمًّى الْإِنْسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ ﴿٤٣﴾ .

في هذه الآية : نهى الله المؤمنين أن يصلّوا حالة سكرهم في تمهيد لتحريم الخمر ، ولا جنبا حتى يغتسلوا ، وإباحة التيمم عند فقدان الماء .

قال مجاهد : (نهوا أن يصلوا وهم سكارى ، ثم نسخها تحريم الخمر) .

أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال : [نزلت في أربع آيات : صنع رجل من الأنصار طعاماً ، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ، ثم افتخرنا ، فرفع رجلٌ لحييٌ بغير ففّر به أنف سعد ، فكان سعد مفزور الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر ، فنزلت : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ . . . الآية] الحديث (1) .

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن علي بن أبي طالب قال : [صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدموني فقرأت ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ونحن نعبد

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1748) ح (34) ، و (4/1878) ح (44) ، وأخرجه أبو داود (208) ، وأحمد (1/185-186) ، والترمذي (3189) ، وهو جزء من حديث أطول .

ما تعبدون ، فأنزل الله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [1].

وقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ .

تحذير مما يكون حالة السكر من التخليط بالقراءة وفقدان التدبر والخشوع في الصلاة . وقد حذرت السنة النعسان المغلوب من استمرار القيام في الليل ، فربما يدعو على نفسه من حيث لا يدري .

أخرج البخاري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول] [2] .

وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة : [إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع] .

وفي لفظ عنده من حديث عائشة : [إذا نعس أحدكم فليرقد ، حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس ، لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه] [3] .

كما حذرت السنة من كل ما يشوش على المصلي ويشغله عن الإقبال بقلبه على الله كالجوع ومدافعة الأخبثين . ففي سنن أبي داود بسند حسن من حديث أبي هريرة قال ﷺ : [لا يصلين أحدكم وهو حاقن] [4] . وروى مسلم عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [لا صلاة بحضرة طعام ، ولا هو يدافعه الأخبثان] [5] . وروى عنها أيضاً مرفوعاً : [إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة ، فابدؤوا بالعشاء] [6] .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ .

اختلف فيه أهل التأويل على أقوال ، أقربها للمعنى الصحيح الموافق للسنة الصحيحة ما يأتي :

1 - قال ابن عباس : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ ﴾ ، يقول : لا تقربوا الصلاة وأنتم

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (2422) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (43) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (213) ، والنسائي (215/1) ح (442) ، وأحمد (100/3) .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (212) ، وصحيح مسلم (786) ، ومسند أحمد (56/6) .

(4) حديث حسن . أخرجه أبو داود (91) ، والحاكم (168/1) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وله شواهد .

(5) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح برقم (560) ، وأخرجه أبو داود في السنن برقم (89) .

(6) حديث صحيح . أخرجه البخاري (671) ، (5465) ، وأخرجه مسلم (558) ، وأحمد (40/6) .

- جُنِبَ إذا وجدتم الماء ، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللتُ لكم أن تمسحوا بالأرض).
- 2 - وقال علي رضي الله عنه : ﴿ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ ، قال : (إلا أن تكونوا مسافرين فلم تجدوا الماء ، فتيّموا) ذكره ابن جرير .
- 3 - وقال مجاهد : (المرء إذا لم يجد الماء فإنه يتيّم ، فيدخله فيصلي) . وقال : (مسافرين ، لا يجدون ماء فيتيممون صعيداً طيباً ، لم يجدوا الماء فيغتسلوا) .
- وأما ما ذكر الحسن : (الجنب يمر في المسجد ولا يقعد فيه) ، وكذلك ما ذكر ابن مجاهد عن أبيه : (لا يمر الجنب في المسجد يتخذه طريقاً) فلا دليل على هذا المنع .
- أضف إلى ذلك أن استنادهم في ذلك إلى أحاديث ضعيفة منها : [إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب] فهو ضعيف عند المحدثين ، فيه أفلت العامري - مجهول - قاله الخطابي . وفيه جَسْرَة . قال البخاري : عند جسر عجائب . وفيه محدودج لم يوثق . والحديث في ضعيف سنن أبي داود .
- وكذلك استنادهم لحديث : [يا علي ، لا يحل لأحد أن يُجْنِبَ في هذا المسجد غيري وغيرك] . أخرجه الترمذي وهو ضعيف ، فيه علتان : عطية العوفي وسالم بن أبي حفصة كلاهما وإه .
- وخلاصة المعنى : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب حتى تغتسلوا ، إلا أن تكونوا عابري سبيل في سفر ولم تجدوا ماء فتيّموا صعيداً طيباً . وهذا هو المعنى الذي يتوافق مع السنة الصحيحة : ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : [قال لي رسول الله ﷺ : ناوليني الخُمرة من المسجد . فقلت : إني حائض . فقال : إن حيضتك ليست في يدك] (1) .
- وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : [لَقِيتَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا جُنْبٌ ، فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ ، فَأَنْسَلْتُ فَأَتَيْتُ الرَّحْلَ فَأَغْتَسَلْتُ ، ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ فَقَالَ : أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : فَقَالَ : سَبْحَانَ اللَّهِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (298) ، وأبو داود (261) ، والنسائي (192/1) ، والترمذي (134) ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (114/6) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (285) ، كتاب الغسل . باب : الجُنْبُ يخرج ويمشي في السوق وغيره . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: [الصعيد الطيب طهورُ المسلم ، وإن لم تجد الماء عشر حجج ، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك ، فإن ذلك خير]⁽¹⁾.

ويشهد للمعنى السابق أيضاً ما رواه الإمام أحمد بن حنبل بن منصور في سننه بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. قال سعيد بن منصور في سننه: [حدثنا عبد العزيز بن محمد - هو الدراوردي - عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، يجلسون في المسجد وهم مُجْنِبُونَ ، إذا توضؤوا وُضوء الصلاة]. ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، وقال: وهذا إسناد على شرط مسلم.

وقوله: ﴿وَأَن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

المرض المبيح للتيمم مع وجود الماء هو كل مرض لا ينصح معه باستعمال الماء لأنه يزيده أو يؤدي صاحبه. يروي ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قال: (المرضى الذي قد أرخص له في التيمم ، هو الكسير والجريح. فإذا أصابت الجنابة الكسير اغتسل ، ولم يحل جبائره. والجريح لا يحل جراحته ، إلا جراحة لا يخشى عليها).

قال ابن كثير: (أما المرض المبيح للتيمم ، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء ، فوات عضو أو شيء أو تطويل البرء. ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية).

وقال الشافعي: (لا يجوز له التيمم مع وجود الماء إلا أن يخاف التلف) ، وبه قال مالك.

قلت: وأشمل ما ذكر هو قول ابن كثير رحمه الله ، فكل مرض يخشى معه من استعمال الماء بتأخر البرء أو الإفساد لبعض مناطق الجسم وأعضائه فيباح فيه التيمم.

وقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾. يجوز التيمم بسبب السفر طال أو قصر عند عدم الماء. وهو مذهب مالك.

قلت: ولا يقتصر التيمم على السفر بل يجوز في الحاضر في الحالات التالية:

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (332) ، وأحمد (5/155) ، والترمذي (124) ، وغيرهم.

- 1 - عند الحاجة للماء للطعام والشراب ، وعدم كفاية الماء المتوفر للطهارة .
 2 - عند البرد الشديد وصعوبة التسخين في الوقت وخشية الأذى من ذلك الماء البارد في الطقس البارد .

3 - عند المرض في الحضر وخشية إمرار الماء على العضو المصاب .

وقوله : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنَ اللَّعَاطِطِ ﴾ . يعني المقيم إذا عدم الماء تيمم .

أخرج البخاري عن أبي الجُهيم بن الحارث بن الصَّمة الأنصاري قال : [أقبل النبي ﷺ من نحو «بئر جَمَلٍ»⁽¹⁾ فلقيه رجل فسلم عليه فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم ردّ عليه السلام]⁽²⁾ .

ورواه الدارقطني من حديث ابن عمر وفيه : [ثم ردّ على الرجل السلام ، وقال : إنه لم يمنعني أن أردّ عليك إلا أنني لم أكن على طهر]⁽³⁾ .

وقوله : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ .

قُرئ ﴿ لَمَسْتُمْ ﴾ و«لا مستم» . وفيه قولان :

1 - عني بذلك كلّ لمس ، بيدٍ كان أو بغيرها . وأوجبوا منه الوضوء . وهو قول الشافعي وأصحابه ، ومالك ، والمشهور عن أحمد . وحجتهم أنه ببعض القراءات ﴿ لَمَسْتُمْ ﴾ والنبي ﷺ قال لِمَاعِزٍ حين أقرّ بالزنا : [لعلك قبلت أو لمست] . وقول ابن مسعود : (اللمس ما دون الجماع) ذكره ابن جرير . وقوله أيضاً : (يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللمس بيده ، ومن القبلة) .

2 - عني بذلك الجماع دون ما سواه .

قال ابن عباس : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ : الجماع) رواه ابن أبي حاتم .

ويروي ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبّير قال : ذكروا اللمس ، فقال ناس من الموالي : ليس بالجماع . وقال ناس من العرب : اللمس الجماع . قال : فأتيت ابن عباس فقلت له : إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس ، فقالت الموالي : ليس

(1) موضع قرب المدينة .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (337) ، وبنحوه أخرجه مسلم (369) ، وأخرجه النسائي (165/1) ، وكذلك أخرجه ابن حبان (805) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (16) ، والدارقطني (177/1) من عدة طرق ، وسنده قوي .

بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: من أيّ الفريقين كنت؟ قلت: من الموالي. قال: (غلب فريق الموالي. إن اللبس والمسّ والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكتفي ما شاء بما شاء).

قلت: ولا عبرة باستخدامات اللفظ المختلفة في زمن التنزيل، إنما العبرة بفعل النبي ﷺ وتشريعه.

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة: [أن النبي ﷺ: قَبَلَ امرأة من نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ]⁽¹⁾.

قال عروة: فقلت لها: من هي إلا أنت؟ فضحكت⁽²⁾.

وروى عن عائشة: [أن النبي ﷺ قبلها ولم يتوضأ]⁽³⁾.

وله شاهد عند الإمام أحمد والنسائي عنها قالت: [كان يُقَبِّل بعض أزواجه، ثم يصلي ولا يتوضأ]⁽⁴⁾.

فالتقيل مسٌّ وزيادة، وهذه الأحاديث الصحيحة تقطع الخلاف عند من نور الله حياته بعلم الحديث، ومن ثمّ فاللمس المقصود بالآية بعد الاستئناس بالسنة الصحيحة هو الجماع، وهذا يوافق مرونة الشريعة ومقاصدها، فالحرج كل الحرج أن يتوضأ العبد لكل لمس عارض ليد أخته أو أمه أو زوجته أو ما يكون في طريق الناس وازدحام أسواقهم.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَحْدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

منه استنبط الفقهاء القاعدة المشهورة: (إذا حضر الماء بطل التيمم).

أخرج البخاري ومسلم عن عمران بن حصين: [أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تُصَلِّي مع القوم؟ ألسنتك برجل مسلم؟

(1) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود (165)، باب الوضوء من القبلة.

(2) هو عروة بن الزبير، الراوي عن عائشة وهو ابن أختها.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (164)، الباب السابق.

(4) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند، والنسائي في السنن. انظر صحيح سنن النسائي (164).

ورواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4873).

قال: بلى يا رسول الله ، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء . قال: عليك بالصعيد ، فإنه يكفيك⁽¹⁾.

والتيّم لغة: القصد. والصعيد: كل ما صعد على وجه الأرض. ومن ثمّ فإن كل ما هو من جنس الأرض من التراب والرمل والحجر والجدران داخل في ذلك. والطيب: قيل الحلال ، أو الذي ليس بنجس.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: [فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً ، وَجُعِلَتْ تَرَبُّهُا لَنَا طَهُوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ]. وفي لفظ: [وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء]⁽²⁾.

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي وصحيح الحاكم عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ وَضُوءَ الْمُسْلِمِ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ سَنِينَ ، فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ فَلْيَمْسَهُ بِشَرَّتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ خَيْرٌ]⁽³⁾.

وفي لفظ: [إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورٌ مَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ وَلَوْ إِلَى عَشْرِ حُجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمْسَهُ بِشَرَّتِكَ].

وقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: [أَجْنَبْتُ فَلَمْ أَصْبِ مَاءً ، فَتَمَعْتُ⁽⁴⁾ فِي الصَّعِيدِ وَصَلَيْتُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا. وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَيْهِ الْأَرْضَ وَنَفَخَ فِيهِمَا ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَيْهِ]⁽⁵⁾.

وفي المسند عن عمار ، عن النبي ﷺ قال: [التيمم ضربة للوجه والكفين]⁽⁶⁾. وسيأتي سبب نزول آية التيمم في أول سورة المائدة إن شاء الله تعالى.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (344) و(348)، ومسلم (682)، وأخرجه أحمد (434/4).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (522)، والنسائي في «الكبرى» (8022)، وأحمد (383/5).

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (155/5)، وسنن الترمذي (124)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1663)، وكذلك رقم (1662) للفظ الذي بعده.

(4) فتمعت: تمرغت.

(5) متفق عليه. أخرجه البخاري (347/455)، ومسلم (368/280)، والنسائي (1/166).

(6) حديث صحيح. رواه أحمد وغيره. انظر صحيح الجامع (3017)، وهو في معنى الحديث السابق.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. أي: عفواً عن ذنوب عباده ، ما لم يشركوا به ،
﴿غَفُورًا﴾ فلم يزل يستر عليهم ذنوبهم كما غفر وستر عن صلاتهم في ما مضى سكارى.

44 - 46. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ
الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ
نَصِيرًا ۚ﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ
غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لِيَّا يَا لَسِنَّهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: فضحُ الله اليهود في تكذيبهم محمداً ﷺ وقد عرفوه ، وفي
سلوكهم الفاسد وتعاملهم المنكر ، وطردهم من رحمة الله بكفرهم .

قال قتادة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا
السَّبِيلَ﴾ ، فهم أعداء الله اليهود ، اشتروا الضلالة).

والمقصود باشتراؤهم الضلالة: تكذيبهم بمحمد ﷺ وتركهم الإيمان به وهم عالمون
أن الواجب عليهم كما جاء في كتبهم الإيمان به .

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾. أي: يود هؤلاء اليهود لو تكفرون بما أنزل
عليكم فتشابهونهم في الضلال .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾. أي: بعداوة هؤلاء اليهود ومكرهم بكم أيها
المؤمنون ، فاحذروا الوقوع في أهوائهم .

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾. أي: حسبكم الله يحرسكم من أعداء دينكم . ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ
نَصِيرًا﴾ أي: وينصركم عليهم .

وقوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنس . ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾
أي: يبدلون معناها ويغيرونها عن تأويله . قال مجاهد: (تبديل اليهود التوراة).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. قال ابن زيد: (قالوا: قد سمعنا ، ولكن
لا نطيعك). وقال مجاهد: (قالت اليهود: سمعنا ما تقول ولا نطيعك). يخاطبون
رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ - فيه قولان :

1 - قال الحسن: (كما تقول اسمع غير مسموع منك).

2 - وقال الضحاك عن ابن عباس: (أي: اسمع ما نقول ، لا سمعت) ، وهذا استهزاءٌ منهم واستهتار . واختاره ابن جرير .

وقوله: ﴿وَرَاعِنَا لِيَأْأَلْسِنَهُمْ وَطَعَنَّا فِي الدِّينِ﴾ .

قال ابن عباس: (فإنهم كانوا يستهزئون ، ويلوون ألسنتهم برسول الله ﷺ ، ويطعنون في الدين).

فهم يُوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم راعنا ، وإنما يريدون الرعونة ، وقد مضى الكلام في ذلك في سورة البقرة ، آية (104) ، وكيف يستخدمون ذلك في سب النبي ﷺ .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ .

قال ابن جرير: (ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم ، قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك ، وأطعنا أمرك ، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله ، واسمع منا ، وانظرنا ما نقول ، وانظرنا نفهم عنك ما تقول لنا . . . لكان ذلك خيراً لهم عند الله ، وَأَقْوَمَ﴾ يقول: وأعدل وأصوب في القول).

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

المعنى: ولكن استمرارهم على صفة التكبر والمكر أبعدهم عن الله ، فلا يؤمنون إيماناً نافعاً ينجيهم ، وإنما هو خليط من التشكيك والاستهزاء والكبر والغرور .

47 - 48. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا

مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ .

في هذه الآيات: الخطاب موجه لأهل الكتاب ، يأمرهم به الله سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ ، والذي فيه تصديق ما بأيديهم من بشارات

التوراة والإنجيل ، وذلك قبل أن ينالهم ما يكرهون من طمس الوجوه واللعن وغير ذلك من أسباب الخزي والهلاك . فإن الله تعالى لا يغفر الشرك به وقد يغفر ما دون ذلك من الأعمال لمن يشاء ، فالشرك أكبر الإثم وأعظم الظلم .

وقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ - فيه أكثر من تفسير :

التفسير الأول : محوه آثارها حتى تصير كالأقفاء ، أو نطمس أبصارها فنصيرها عمياء ، أو نجعل أبصارها من قبل أقفائها .

قال ابن عباس : (وطمسها : أن تعمي .) ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ ، يقول : أن نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم ، فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه .

وقال قتادة : (نحول وجوهها قبل ظهورها) .

التفسير الثاني : أن نعي قومًا عن الحق فنردهم في الضلالة والكفر .

قال مجاهد : ﴿ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ ، فردها عن الصراط ، عن الحق ، ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ ، قال : في الضلالة) .

وقال الضحاك : (يعني : أن نردهم عن الهدى والبصيرة ، فقد ردّهم على أدبارهم ، فكفروا بمحمد ﷺ وما جاء به) .

التفسير الثالث : أن نمحو آثارهم فنردهم من حيث جاؤوا من الشام .

قال ابن زيد : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ﴾ قال : كان أبي يقول : إلى الشام) .

التفسير الرابع : أن نمحو آثارها فنجعل الوجوه منابت الشعر كالقردة ، لأن شعور بني آدم في أدبار وجوههم .

واختار ابن جرير التفسير الأول : أي من قبل أن نطمس أبصار وجوههم ونمحو آثارها فنسويها بالأقفاء ، فيمشون القهقري ، فإن السياق يقتضيه .

وقوله : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ . أي : نحولهم قردة . قاله قتادة والحسن .

وقال ابن زيد : (هم يهود جميعاً ، نلعن هؤلاء كما لعنّا الذين لعنّا منهم من أصحاب السبت) .

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. أي: لا يُخالف ولا يمانع.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

المعنى: من لقي الله وهو يشرك به لا يغفر له ، ويغفر سبحانه ما دون ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده .

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي ذر قال: [أتيت رسول الله ﷺ فقال: ما من عبد قال: لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة. قلت: وإن زني وإن سرق؟ قال: وإن زني وإن سرق. قلت: وإن زني وإن سرق؟ قال: وإن زني وإن سرق. ثلاثاً ، ثم قال في الرابعة: على رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ. قال: فخرج أبو ذر وهو يجرُّ إزاره وهو يقول: وإن رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! مهما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرتُ لك على ما كان منك ، وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئهنَّ من المغفرة ، وأغفرتُ لك ولا أبالي]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البزار بسند جيد عن نافع ، عن ابن عمر قال: [كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ، وقال أَخْرَجْتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5827) ، ومسلم (94) ح (154) ، وأحمد (5/166).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (93) ، كتاب الإيمان. باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/72) ، لتمام البحث.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (4217) ، ومسند أحمد (5/154) ، (5/153).

(4) إسناده جيد. أخرجه البزار - حديث رقم - (3254) ، وذكره ابن كثير في التفسير ، وله شواهد.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله قال: [قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك...] الحديث⁽¹⁾.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

49 - 52. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾.

في هذه الآيات: ذم الله الذين يزكون أنفسهم من أهل الكتاب ، ويفترون على الله الكذب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويمدحون المشركين ويطعنون بالمؤمنين ، أولئك الذين طردهم الله من رحمته في الملعونين .

قال قتادة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ، وهم أعداء الله اليهود ، زكوا أنفسهم بأمر لم يبلغوه ، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا).

وقال الضحاك: (قالت اليهود: ليست لنا ذنوب إلا كذنوب أولادنا يوم يولدون! فإن كانت لهم ذنوب فإن لنا ذنوباً! فإنما نحن مثلهم ، قال الله تعالى ذكره: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾).

وقال الحسن: (هم اليهود والنصارى ، قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾. وقالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾).

وقيل: تركبتهم أنفسهم تقديمهم أطفالهم لإمامتهم في الصلاة زعماً أنه لا ذنوب

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6001) ، كتاب الأدب ، وأخرجه مسلم برقم (76) ، ورواه أحمد في المسند (1/434) ، وغيرهم.

لهم. أو زعمهم أن أبناءهم سيشفعون لهم. وكله مرجوح بالقول الأول المناسب للسياق.

وقد جاءت السنة الصحيحة بدم التمداح والتزكية ، في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن المقداد بن الأسود قال: [أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجود المداحين التراب]⁽¹⁾.

وفي لفظ: [إذا رأيت المداحين ، فاحثوا في وجوههم التراب].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى قال: [سمع النبي ﷺ رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في المدحة ، فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل]⁽²⁾. والإطراء المبالغة في المدح.

الحديث الثالث: أخرج الشيخان من حديث أبي بكرة وفيه: [إن كان أحدكم مادحاً لا محالة ، فليقل: أحسبُ كذا وكذا ، إن كان يرى أنه كذلك ، ولا يزكي على الله أحداً]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

1 - قال ابن عباس: (الفتيل ما خرج من بين إصبعيك). يعني من الوسخ ، إذا فتلت إحدهما بالأخرى.

2 - وقال عطاء: (الفتيل ، الذي في بطن النواة). وقال مجاهد: (الفتيل ، في النوى).

3 - وقال الضحاك: (الفتيل ، شق النواة).

وكلها معان محتملة ، مفادها أن الله يزكي من يشاء من خلقه فيوفقه ، ويخذل من يشاء من أهل معاصيه ، ولا يظلم أحد عنده مقدار الفتيل.

وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. يعني الذين يزكون أنفسهم من أهل

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3002) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (339) ، وأحمد (5/6).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (2662) ، وصحيح مسلم - حديث رقم - (3000) ، ومسند أحمد (46/5) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (397/10) ، (398/10) ، وصحيح مسلم (3000) ، (3001) ، وكذلك سنن أبي داود (4805) ، وسنن البيهقي (242/10).

الكتاب ويقولون: ﴿غَنُ أَنْبَتُوا اللَّهَ وَأَجَبْتُوهُ﴾ وأنه لا ذنوب لهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، إلى غير ذلك من الزور والكذب .

وقوله: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ . قال ابن جرير: (يعني أنه يبين كذبهم لسامعيه ، ويوضح لهم أنهم أفكّة فجرة) .

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُم نَصِيرًا﴾ .

أخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، قال: نعم ، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبت من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية . قال: أنتم خير منه ، قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ . وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن نَّجِدَ لَهُم نَصِيرًا﴾⁽¹⁾ .

وفي قوله: ﴿بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أقوال:

1 - قال عكرمة: (الجبت والطاغوت صنمان) .

2 - قال ابن عباس: (الجبت: الأصنام ، والطاغوت: الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس) .

3 - قال مجاهد: (الجبت: السحر ، والطاغوت: الشيطان) .

وقال: (والطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه ، وهو صاحب أمرهم) .

4 - قال سعيد بن جبير: (الجبت: الساحر ، بلسان الحبشة ، والطاغوت: الكاهن) .

والجمع بين هذه الأقوال: الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون

(1) حديث صحيح . ورواه ابن جرير (9791) ورجاله رجال الصحيح . وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة النساء آية (51) . والصنبور المنبت: كناية عن الرجل الضعيف الدليل بلا أهل ولا عقب ولا ناصر .

الله ، فيدخل في ذلك الحجر والإنسان والكاهن والساحر والشيطان ، ومن دعا إلى عبادة نفسه ، ومن عبد وهو راض ، وكل منهج يخالف شريعة الله ومنهجه الذي ارتضى لعباده .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ . يعني : أخزاهم وأبعدهم من رحمته بسبب إيمانهم بالجبوت والطاغوت وكفرهم بالله ورسوله . ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجْدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ . يعني : من يخزاه الله ويطرده من رحمته فلا ناصر له ولا منقذ .

53 - 55. قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ .

في هذه الآيات : ذمُّ القوم من أهل الكتاب الموصوفين بالبخل ، والحاسدين لمحمد ﷺ وأصحابه على النبوة والصحبة ، وقد كانت النبوة فيهم من قبل الملك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكفى بجهم سعيراً .

قال ابن كثير : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك . ثم وصفهم بالبخل ، فقال : ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ : أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً ، ولا ما يملأ النكير) .

قال ابن عباس : ﴿نَقِيرًا﴾ يقول : النقطة التي في ظهر النواة . وقال مجاهد : النكير ، حبة النواة التي في وسطها) .

والخلاصة : لقد وصف الله هؤلاء القوم من أهل الكتاب بالبخل بالشيء اليسير الدنيء ، حتى لو كانوا أهل سعة وقدرة . كما قال سبحانه في سورة الإسراء : ﴿قُلْ لَّوْأَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ . والقفور : البخل .

وقوله: ﴿أَمْرٌ يُحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاءِ أَنْهَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

المعنى: توبيخ من الله لهؤلاء اليهود على حسدهم محمداً وأصحابه ، على اختياره الله سبحانه للنبوّة ، واختيار الأصحاب للجندية والمتابعة .

قال مجاهد: ﴿النَّاسُ﴾ محمداً ﷺ. وقال قتادة: (أولئك اليهود ، حسدوا هذا الحيّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله). وقال ابن عباس: (نحن الناس دون الناس).

وقوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾. يعني جعلنا النبوّة في ذرية إبراهيم ، وأنزلنا عليهم الكتاب والسنن ، وجعلنا منهم الملوك .

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾. يعني بما اصطفينا للنبوّة. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: كفر وأعرض عنه. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾: بما أنزل على محمد من يهود ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾. أي: كفى بالنار لهيباً وعقوبة وألماً لمن كان من أهلها.

56 - 57. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ^(٥٦) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ ^(٥٧).

في هذه الآيات: آية هي من أشد آيات القرآن هولاً ورهبة ووعيداً ، يخبر بها سبحانه عن حال مقيت لأهل النار ، وعن مصير فاجع مؤلم رهيب. وآية تقابل الأولى تَنْعَتْ الحال الهنيء لأهل الإيمان والعمل الصالح ، في روضات الجنات حيث الظل الظليل وجريان الأنهار والزوجات المطهرة ذات الجمال .

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ - أي: ندخلهم فيها لتذوق أجسامهم لهيبها.

وقوله: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

يروى ابن جرير بسنده عن ابن عمر قال: (إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاً أمثال القراطيس). وقال قتادة: (كلما احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها). أي: هم في عذاب دائم يشبه ديمومة كفرهم في الأرض ومكرهم المتتابع بالرسول والمؤمنين.

وقوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. أي: ليجدوا ألم العذاب وكرهه وشدته ، مقابلة لما كانوا يستكبرون ويبغون في الأرض بغير الحق.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. أي: ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه ممن عانده ، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وقضائه.

وقد جاءت السنة الصحيحة بوصف بعض ألوان العذاب للكفار ونعت بعض صفاتهم آنذاك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب السريع].

وفي رواية: [ضرس الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن سمرة بن جندب ، أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوتِهِ]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1983) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 766) لمزيد من تفصيل عن صفة النار وصفة أهلها وأحوالهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 342) ، والحاكم (4/ 595). وانظر تخريج المشكاة (5675) ، والسلسلة الصحيحة (1105) ، وصحيح الجامع (2110) بزيادة: «وأربعون ذراعاً بذراع الجبار» أي: من جبايرة الآدميين ممن كان في القرون الأولى وأحسبه ملكاً من ملوك الأعاجم كان تام الذراع ، وكان أعظم خلقاً وأطول أعضاء وذراعاً من الناس.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1953) في تفصيل أكبر من حديث المقداد. والحجزة: وسط الإنسان ، ومعقد إزاره.

الحديث الرابع: أخرج الحاكم في المستدرک بسند حسن عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليبكون ، حتى لو أُجريت السفن في دموعهم جَرَتْ ، وإنهم ليبكون الدم]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

هذه هي الصورة المقابلة للصورة الأولى. فجنات الخلود والنعيم والسعادة والاستقرار ، وهي تجري من تحتها الأنهار ، من ثواب العاملين المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾. قال ابن عباس: (مطهرة من الأقدار والأذى). وقال مجاهد: (مطهرة من البول والحيض والتخام والبزاق والمني والولد). وقال قتادة: (مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف).

والمقصود أن الله سبحانه هيا للمؤمنين في الجنة أزواجاً جمع من الحسن والجمال والأدب والطهارة والفتنة والبهاء أعلى درجاته.

وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. أي: ظلًا كنيئاً عميقاً ممدوداً. قال تعالى: ﴿وَضَلَّيْ

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مئة عام ما يقطعها]⁽²⁾. زاد ابن جرير في رواية عنده: (اقرأوا إن شئتم: ﴿وَضَلَّيْ تَدْوِرُ﴾).

58. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ

النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

في هذه الآية: أُمِرُّ من الله سبحانه بأداء الأمانات إلى أهلها ، وإقامة العدل عند الحكم بين الناس ، فنعم الأمر هو من المنعم الكبير السميع البصير.

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 605). انظر السلسلة الصحيحة ، حديث رقم (1679).

(2) حديث صحيح. وانظر صحيح البخاري (3251) من حديث أنس ، وصحيح مسلم (2828) من حديث أبي سعيد. وانظر اللفظ السابق في صحيح الجامع - حديث رقم (2121).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاء الجلحاء من الشاة القرناء]⁽¹⁾.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك]⁽²⁾.

قال أبو العالية : (الأمانة ما أمروا به ونُهِوا عنه). وقال أبي بن كعب : (من الأمانات أن المرأة أو تُمْنِتْ على فَرَجِها). وقال ابن عباس : (يدخل فيه وَعَظُ السلطان النساء ، يعني يوم العيد). وقال الربيع بن أنس : (هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس). وفي الصحيح : [وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً].

وقوله : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

هذا أمر للولاة بإقامة العدل في الحكم بين الناس ، ويدخل في ذلك كل من وُكِّل إليه أمر الفصل بين الناس في شؤونهم المختلفة ، وأمر القضاء.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن معقل بن يسار ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى مع القاضي ما لم يحِفْ عمداً]⁽³⁾.

ورواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن أبي أوفى بلفظ : [إن الله تعالى مع القاضي ما لم يجز ، فإذا جاز تبرأ منه ، وألزمه الشيطان].

ورواه ابن حبان عنه بلفظ : [إن الله مع القاضي ما لم يجز عمداً ، فإذا جاز وكله إلى نفسه].

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

أي : نعم ما يعظكم الله به من أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، فهو سبحانه لم يزل سميعاً بما تقولون وتنطقون ، بصيراً بما تعملون وتفعلون فيما وكل إليكم حفظه من الأمانة أو الرعية.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2583) ، كتاب البر والصلة ، وأخرجه أحمد في المسند (235/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3535) ، والترمذي (1264) ، وانظر صحيح الجامع (238).

(3) حديث حسن. ورواه الطبراني عن ابن مسعود. انظر تخريج المشكاة (3741) ، وصحيح الجامع الصغير (1824) ، وانظر لرواية الحاكم وابن حبان بعده صحيح الجامع الصغير ، الحديث رقم (1822) ، (1823) ، ورواه الترمذي وغيره.

أخرج أبو داود وابن خزيمة في الصفات بسند على شرط مسلم ، عن المقري ، حدثنا حرمله ، حدثني أبو يونس ، سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ، ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ويقول : [هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع إصبعيه] (1) .

59. قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

في هذه الآية : أمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وأمرء الحق والعلماء من بعدهم ، وَرَدَّ الْأَمْرَ عِنْدَ الْخِلَافِ إِلَى الْأَصْلِينَ الْعَظِيمِينَ : الكتاب والسنة ، ذلك هو السبيل القويم لمن آمن بالله واليوم الآخر .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما : [﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾] قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية (2) .

وعن عطاء : (﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾) ، قال : طاعة الرسول ، اتباع سنته . أو قال : (طاعة الرسول ، اتباع الكتاب والسنة) . وقد ورد أكثر من قول في قوله : ﴿ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ :

- 1 - قال أبو هريرة : (هم الأمراء) - ذكره ابن جرير .
- 2 - وقال مجاهد : (أولي الفقه منكم) . أو قال : (أولي الفقه والعلم) .
- 3 - وقال ابن أبي نجيع : (أولي الفقه في الدين والعقل) .
- 4 - وقال ابن عباس : (يعني : أهل الفقه والدين) .

(1) حديث على شرط مسلم . أخرجه أبو داود (4728) ، وابن حبان (265) ، وابن خزيمة في «الصفات» ص 42-43 . وأورده الحافظ ابن كثير . النساء (58) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4584) ، ومسلم (1834) ، وأبو داود (2624) ، وغيرهم .

5 - قال مجاهد: (أهل العلم). وقال عطاء: (الفقهاء والعلماء).

6 - وقال مجاهد في رواية: (أصحاب محمد). وقال عكرمة: (أبو بكر وعمر). واختار ابن جرير أنهم الأمراء والولاة. وقال الحافظ ابن كثير: (والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء).

قلت: ولا شك أن الأمراء المسلمين من الخلفاء والحكام ومن قام بالأمر منهم على منهاج الكتاب والسيرة النبوية يجب طاعتهم، فإن غابوا أو غاب الحكم بالإسلام فالواجب طاعة العلماء الربانيين الذين هم يقتفون أثر المنهج النبوي لإعادة بناء جماعة المسلمين واستئناف الخلافة في الأرض والشوكة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: [السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، ما لم يؤمَّرْ بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: [اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِرَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت قال: [بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَن لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ. قال: إِلَّا أَن تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرَهَانٌ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ]⁽⁴⁾.

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم، وأحمد واللفظ له، عن علي قال: [بعث رسول الله ﷺ سَرِيَّةً، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنَّها.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2955) و(7144)، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه (1839)، ورواه أحمد (17/2)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (693) و(7142)، وابن ماجه (2860)، وأحمد (114/3).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7055 - 7056)، ومسلم (1840) ح (42)، وأحمد (321/5).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1837). وانظر الرواية رقم (1838) بمعناه أيضاً.

قال: فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدْخُلُوهَا. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تَعْجَلُوا حتَّى تَلْقُوا رسول الله ﷺ، فإن أَمَرَكُم أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف⁽¹⁾.

الحديث السادس: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [كانت بنو إسرائيل تَسُوءُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وسيكون خلفاء فيكثرون. قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم]⁽²⁾.

الحديث السابع: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية]⁽³⁾.

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: [من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية].
وقوله: ﴿فَإِنْ لَنْتَزِعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. قال مجاهد: (أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله).

فهذا منهاج المؤمنين عند التنازع، التجرد من حظوظ النفس والشبهات، والنزول عند حكم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه، ولا حياة للأمة ولا قوة ولا شوكة إلا بهذا المنهج العظيم، فهو الذي يوحد القلوب والنفوس ويحيي مجد هذه الأمة من جديد، وغيابه شر عظيم يمزق الأمة ويفرق قلوب أبنائها ويُسلط عليها أعداءها.
وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

في هذه الآية تشكيك بإيمان من لا يرضى بالتحاكم لله وسنة رسوله وسيرته العطرة عند التنازع، يشكك الله بها بإيمانه به وبلقائه في الدار الآخرة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7257)، ومسلم (1840)، وأحمد (82/1)، (124/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3455)، ومسلم (1842)، وأحمد (297/2)، وابن ماجه (2871)، وأبو يعلى (6211)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7053)، ومسلم (1849)، وانظر للشاهد بعده صحيح مسلم - حديث رقم - (1851).

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾. أي: التحاكم إلى المنهاج الأحكم والأمثل: كتاب الله وسنة نبيه.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قال مجاهد: (أحسن جزاء). وقال قتادة: (أحسن ثواباً وخيراً عاقبة). وقال ابن زيد: (وأحسن عاقبة. والتأويل: التصديق).

60 - 63. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: أمرٌ من الله بالكفر بمنهاج الطاغوت واقتراحات الشياطين ، وتحكيم شرع الله الحكيم ، وفَضْحُ سبل المنافقين والمُبْطِلين والمعاندين ، وكَشْفُ لما في قلوبهم من الزيف والهوى وما في ألسنتهم من الافتراء والكذب والحلف الباطل .

يروى الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ، عن عكرمة عن ابن عباس قال: [كان أبو بَرَزَةَ الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين ، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ - إلى قوله - ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾] ⁽¹⁾.

ثم إن الآية عامة في كل من عدل عن الكتاب والسنة ورضي التحاكم إلى منهج من منهاج أهل الدنيا ، وهو المراد بالطاغوت في تعريفه العام: كل منهج يخالف منهج الله

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - سورة النساء - آية (60).

ورسوله ، فيدخل بذلك الشيطان ومناهج الكهنة والسحرة وأهل المناهج الوضعية الأرضية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ . أي : يمتنعون من المجيء إليك لتحكم بينهم ، كما يمتنعون من المصير إليك غيرهم ، فيعرضون عنك كبراً وعلواً .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ .

أي : كيف بهم يا محمد إذا نزلت بهم نقمة من الله أو مصيبة بما اكتسبوه من ذنوبهم ثم جاؤوك يعتذرون ويحلفون كذباً وزوراً ، أنهم ما ذهبوا ليتحاكموا إلى غيرك إلا مداراة ومصانعة ، فإن قلوبهم معك ومع التحاكم إليك .

فقال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ . أي : من الكذب وإرادة التحاكم إلى الطاغوت لأنه يناسب أهواءهم وشهواتهم ومنهاج حياتهم الفاسد . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ، ولكن عظمهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم ، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله ، ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةٌ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ ، يقول : مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعدده ووعيده) .

64 - 65 . قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ ٦٤ ﴾ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ﴿ ٦٥ ﴾ .

في هذه الآيات : يخبر تعالى أن الرسل طاعتهم مرهونة بإذنه سبحانه ، فلا أحد يستطيع في هذه الدنيا أن يحدث طاعة لله إلا بإذن الله ومشيئته وتوقيه ، ثم يخبر عن حال العصاة المذنبين زمن النبوة أنهم لو تواضعوا حينئذ وجاؤوك - يا محمد - لتستغفر لهم الله ، لوجدوا الله تواباً غفوراً رحيماً يحب التوبة والاستغفار والندم من المذنبين ،

ثم يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع أموره ، ثم ينقاد للحق الذي يحكم به ويستسلم لذلك دون حرج أو مدافعة .

قال مجاهد: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ : لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله . وهذا توبيخ من الله للمنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت ، وهم يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل الله إلى رسوله ﷺ . فإن من هداه الله ونور قلبه وفقه لطاعة رسله ، وإلا تركه متخبطاً تائهاً في ظلمات الهوى .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ .

إرشاد من الله للعصاة المذنبين أن يأتوا إلى الرسول ﷺ ، فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم ، إذن لوجدوا مغفرة الله ورحمته قريبة منهم .

قلت: وهذه الآية خاصة في حياة النبي ﷺ ، أما وقد غاب عنا ومات فلا يلجأ العبد عند استغفاره إلا إلى الله العزيز الغفار .

ففي صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنني أتوب في اليوم مئة مرة⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها]⁽²⁾ .

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه]⁽³⁾ .

قال القرطبي: (هذا الحديث أجري مجرى المثل الذي يفهم منه قبول التوبة واستدامة اللطف والرحمة ، وهو تنزل عن مقتضى الغني القوي القاهر إلى مقتضى اللطيف الرؤوف الغافر) .

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه برقم (2702) (42) دون قوله: «واستغفروه» ، وبزيادة «إليه» بعد «في اليوم» ، وأخرجه أبو داود (1515) ، وغيرهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم (2759) ، كتاب التوبة .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2703) - كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

وقوله: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: حتى يجعلوك حكماً بينهم فيما تشابه واختلط عليهم والتبس حكمه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾. قال مجاهد: (شكاً).

وقال الضحاك: (إنماً).

وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾. قال الضحاك: (ويُسَلِّمُوا لقضائك وحكمك ، إذعائاً منهم بالطاعة ، وإقراراً لك بالنبوة تسليماً).

أخرج البخاري ومسلم عن عروة قال: [خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في صريح⁽¹⁾ من الحرّة ، فقال النبي ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصاري: يا رسول الله ، أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال: اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر ، ثم أرسل الماء إلى جارك. واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾... الآية]⁽²⁾.

ورواه ابن ماجة بسند صحيح عن عروة بن الزبير ، أن عبد الله بن الزبير حدثه: [أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ في شراج الحرّة التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر. فأبى عليه. فاختصما عند رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير. ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري ، فقال: يا رسول الله! أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: يا زبير ، اسق. ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر. قال ، فقال الزبير: والله ، إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك. ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾]⁽³⁾.

(1) أي في مسيل الماء من الحرّة إلى السهل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4585) (2361) مرسلًا ، وأخرجه (2708) ، ووصله البخاري (2359) ، وأخرجه مسلم (2357) ، وأحمد (4/4 - 5).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (15) - باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه. والشرج جمع شرجة ، وهي مسایل الماء. والحرّة: أرض ذات حجارة سود. والجدر: الجدار. قيل المراد ما رفع حول المزرعة. وقيل أصول الشجر.

66 - 70. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۖ وَإِذَا لَا تَذُنُّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ۖ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى عن قلوب هؤلاء المتحاكمين للطاغوت وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، فلو أمروا بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم طاعة لله ما فعلوا ذلك ولا هاجروا ، ولو امتثلوا أمر الله لهم لكان لهم عنده ذخرًا وأجرًا ونورًا ، فإن من يطع الله والرسول يجعله الله مع مَنْ أنعم عليهم من خير خلقه: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهؤلاء خير الرفقاء ، وهذا فضل كبير من الله الكريم العليم .

قال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ ، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر ، لم يفعلوا إلا قليل منهم) . وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ . قال السدي: (تصديقاً) . أي: لو أنهم امتثلوا ما يذكرون به من طاعة الله وتعظيم أمره لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم وآجل معادهم .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تَذُنُّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . يعني: جزاء وثواباً كبيراً . وقوله تعالى: ﴿وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ . أي: طريقاً لا اعوجاج فيه يسهل فيه الثبات ، فهداية الله تحمل الثبات ، والصراط المستقيم هو دين الله القويم .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ .

أخرج الطبراني في «الصغير» بسند جيد ، عن عائشة قالت: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنك لأحب إلي من نفسي ، وإنك لأحب إلي من أهلي

ومالي ، وأحب إلي من ولدي ، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [1].

وقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ . يعني في الجنة . فإن مرافقة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين مقامٌ عظيم يوم القيامة .

أخرج البخاري عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من نبي يمرضُ إلا خُيِّرَ بين الدنيا والآخرة . وكان في شكواه الذي قبض فيه فأخذته بُحَّةٌ شديدة ، فسمعتة يقول : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ فعلمت أنه خُيِّرَ] [2].

ثم قال عليه الصلاة والسلام وهو مسند ظهره إلى عائشة : اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى . كررها ثلاثاً ثم مالت يده .

فكذلك أخرج البخاري عنها - في قصة وفاته عليه الصلاة والسلام - قالت : [فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسحُ بهما وجهه يقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات . ثم نصب يده فجعل يقول : في الرفيق الأعلى . حتى قبضَ ومالت يده] [3].

وفي رواية : [أنها سمعت النبي ﷺ ، وأصغَتْ إليه قبل أن يموت ، وهو مسندٌ إليّ ظهره يقول : اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى] . قالت عائشة : [فكانت آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق الأعلى] .

والرفيق : اسم جنس يشمل الواحد والجماعة . أي : أدخلني في جملة الرفقاء الذين

(1) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الصغير» (52) ، و«الأوسط» (480) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج 7) ص (7) : رجاله رجال الصحيح إلا عبد الله بن عمران وهو ثقة . وله شاهد من حديث ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ، وله شواهد كما في تفسير ابن كثير تقويه . وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول - سورة النساء - آية (69) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4586) ، ومسلم (2444) ، وأخرجه أحمد (176/6) ، وغيرهم .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4449) ، كتاب المغازي ، وهو جزء من حديث أطول . وأحمد (48/6) . وانظر للروايات الأخرى صحيح البخاري - الحديث السابق - ، ومسند أحمد (121/6) . ومسند أبي يعلى (4585) .

خصصتهم بالمكانة الرفيعة في أعلى الجنان . وهم المذكورون في آية النساء السابقة .

وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : [كُنْتُ أَيْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتَهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : سَلْ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَسْأَلُكَ مِرَافِقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ . قَالَ : فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السَّجُودِ]⁽¹⁾ .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [إِنْ أَهَلَ الْجَنَّةَ لِيَتَرَاءَوْا أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ ، لِنِفَاضِ مَا بَيْنَهُمْ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَقُوا]⁽²⁾ .

وفي صحيح البخاري عن أنس : [أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ ؟ قَالَ : وَتِلْكَ ، وَمَا أَعْدَدْتُ لَهَا ؟ قَالَ : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ : إِنَّكَ مَعَ مَنْ أُحِبِّتَ ، فَقُلْنَا : وَنَحْنُ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا]⁽³⁾ .

وفي رواية : [الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ] . قَالَ أَنَسٌ : (فَمَا فَرَحَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ) . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ أَنَسٌ : (إِنِّي لِأُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَأُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَبْعَثَنِي اللَّهُ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ كَعَمَلِهِمْ) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ . يعني ذلك عطاء الله المؤمنين وفضله عليهم .

وقوله : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ . أي : بطاعة المطيع منهم ، ومعصية العاصي ، ومن يستحق صحبة الذين أنعم الله عليهم من الرفيق الأعلى .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (489) ، والنسائي (2/227) ، (2/228) ، وغيرهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3256) ، وأخرجه مسلم (2831) ، وابن حبان (7393) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6167) كتاب الأدب . وانظر لروايات أنس : صحيح البخاري (3688) ، وصحيح مسلم (2639) ح (164) ، ومسند أحمد (3/192) ، وصحيح مسلم (2639) ح (163) ، وكذلك صحيح ابن حبان (557) .

71 - 74. قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
 انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ
 مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ
 يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
 يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ
 نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤).

في هذه الآيات: أَمُرُّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّأَهُبِ لِلْعَدُوِّ وَأَخْذِ الْحِذْرِ
 وَاسْتِكْمَالِ الْعِدَّةِ لِقِتَالِهِ وَالْحَثِّ عَلَى مَلَقَاتِهِ جَمَاعَةً وَفِرْقَةً بَعْدَ فِرْقَةٍ وَسِرِّيَّةٍ بَعْدَ
 سِرِّيَّةٍ لِإِنْهَاكِهِ وَتَحْقِيقِ كَسْرِهِ. ثُمَّ تَحْذِيرٌ مِّنَ سَبِيلِ الْمُنَافِقِينَ وَأَسَالِيبِ مَكْرِهِمْ
 وَخَدَاعِهِمْ ، وَحَثٌّ عَلَى الصَّدَقِ فِي التِّجَارَةِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَشِرَاءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ،
 وَتَذْكِيرٌ بِأَجْرِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ
 وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾. وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَحُذُّوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:
 102].

قال القرطبي: (هذا وصاة بالحذر لثلاثين لئلا ينال العدو أمله ، ويدرك فرصته).

وفي معجم الطبراني بسند صحيح من حديث معاذ ، عن النبي ﷺ قال: [استعينوا
 على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود] (1).

فالآية أمر من الله بأخذ العدة والسلاح الذي ينفع في مواجهة العدو وغزوه وحربه .

وقوله: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عصباً ، يعني سرايا متفرقين).
 وقال مجاهد: (فرقاً ، قليلاً قليلاً). وقال قتادة: (الثبات: الفرق). والثبات: جمع
 ثُبَّة ، وقد تجمع على ثُبَيْنَ. والمقصود انفروا جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة ،
 وسرية بعد سرية ، بما يحصل فيه كسر العدو وقهره .

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة ، وأبو نعيم في الحلية (5/ 215) ، (6/ 96) ،
 والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 291/ 1) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1453).

وقوله: ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾. قال ابن عباس: (كلكم). وقال السدي: (مع النبي ﷺ). وكل ذلك يرجع إلى قرار الإمام والقائد. قال القرطبي: (ولا تخرج السرايا إلا بإذن الإمام ليكون متجسسا لهم ، عضداً من ورائهم ، وربما احتاجوا إلى دَرُئِهِ).

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبْتَغَىٰ﴾. قال قتادة: (عن الجهاد والغزو في سبيل الله). وقال ابن جريج: (المنافق يُبْتَغَىٰ المسلمين عن الجهاد في سبيل الله). وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾. فقوله: ﴿مُصِيبَةً﴾. قال ابن زيد: (هزيمة). وقال ابن جريج: (بقتل العدو من المسلمين). فينطق بقول الشامت الكاذب: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾. ولم يدر هذا المنافق كم فاته من أجر الشهادة والصبر على القتال وحضور المعركة.

وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَصَبَكُمْ فَضَلٌّ مِنَ اللَّهِ﴾. أي نصر وظفر وغنيمة. قال ابن جريج: (ظهور المسلمين على عدوهم فأصابوا الغنيمة).

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾. قال القرطبي: (أي: كأن لم يعاقدكم على الجهاد).

وقال ابن كثير: (أي: كأنه ليس من أهل دينكم). وقال القاسمي: (أي: صلة في الدين ، ومعرفة بالصحة). والكلام فيه تقديم وتأخير.

فالمنافقون كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر ، ويبغون لهم الغوائل في الباطن ، فقولهم هذا: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ - أي: أصيب غنائم كثيرة ، وحظاً وافراً - هو قول من لم تتقدم له معكم مودة ، بل هو قول الحاسد. قال قتادة وابن جريج: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ حسداً منهم لهم).

ثم حث سبحانه المؤمنين على الجهاد - بعد ذم المبطلين المنافقين - فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعونها بها. فهناك تأويلان:

1 - قال السدي: (يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة). وقال ابن زيد: ﴿يُشْرِي﴾: يبيع ، و﴿يُشْرِي﴾: يأخذ ، وإن الحمقى باعوا الآخرة بالدنيا).

فالمعنى هنا: ليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة أعداء الله.

2 - قيل: بل عني بالاسم الموصول ﴿الذين﴾ المنافقين المبطلين. قال القاسمي: (أي الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة، فيكون وعظاً لهم بأن يبدلوا الشبيط بالجهاد).

وقال ابن كثير: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أي: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم).

وكلا المعنيين يحتملهما البيان الإلهي، والسياق القرآني.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة] (1).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يُدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة] (2).

وأما حديث عبد الله بن عمرو - رواه مسلم -: [ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا لثلي أجْرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث وإن لم يصبوا غنيمة تم لهم أجْرهم] (3).

فلا تعارض مع الحديث قبله، فالحديث الأول محمول على مجرد النية والإخلاص في الجهاد، فذلك الذي ضمن الله له إما الشهادة، وإما رده إلى أهله مأجوراً غانماً، ويحمل الثاني على ما إذا نوى الجهاد ولكن مع نيل المغنم، فلما انقسمت نيته انحط أجره. ذكره القرطبي.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3123)، (7457)، وأخرجه مسلم (1876)، وأحمد (399/2). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2787)، كتاب الجهاد والسير. وأخرجه مسلم (1876) ح (104). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1906)، وأبو داود (2497)، وأحمد (2/169)، وغيرهم.

75-76. قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا ءَوِلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾.

في هذه الآيات: يحث تعالى أهل الصدق والإيمان على الجهاد لكسر شوكة الكافرين ، واستنقاذ المستضعفين بمكة ، - ثم الآية عامة في كل وضع مشابه إلى قيام الساعة - من الرجال والنساء والولدان الذين يقاسون تحت حكم الكفر. فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله العظيم ، والكافرون يقاتلون في سبيل الشيطان الرجيم المهيمن .

قال مجاهد: (أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفي المؤمنين ، كانوا بمكة). وقال ابن عباس: (هم أناس كانوا بمكة ، لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا ، فعذرهم الله ، فهم أولئك).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (كنت أنا وأمي من المستضعفين)⁽¹⁾.

وفيه عن ابن مئكة أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال: (كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل).

قال ابن زيد: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ، قال: وما لكم لا تفعلون؟ تقاتلون لهؤلاء الضعفاء المساكين الذين يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، فهم ليس لهم قوة ، فما لكم لا تقاتلون حتى يسلم الله هؤلاء ودينهم؟ قال: ﴿وَالْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ، مكة).

وقوله: ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أي: هم يسألون الله سبحانه أن سخر لنا من عندك ولياً وناصراً لنخرج مما نحن فيه من الفتنة في الدين .

وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أي: في سبيل إعلاء كلمته وإقامة منهاج

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4587) ، والأثر بعده أخرجه أيضاً البخاري (4588).

دينه وشريعته. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّلَعِ﴾ - أي: في سبيل طاعة الشيطان وحزبه وفي سبيل نشر مناجاه وطريقه.

وقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أمر من الله للمؤمنين بقتال أعدائه الذين يتولون الشيطان وحزبه ، ويريدون أن يحكموا في الأرض بمناجاه ، وتهوين لكيد الشيطان وأوليائه ، فإنه ضعيف مهزوم لا يثبت أمام الصدق مع الله والصدق في الجهاد.

77 - 79. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَبَيِّنَا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

في هذه الآيات: لقد كان الأمر في بدء الإسلام بتمكين إقامة الدين والمجاهدة بالقرآن الكريم ، فأمر المسلمون بمكة بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة - دون نصاب معلوم قد عُرف بعد - بمواساة الفقراء والمحتاجين والأرحام ، وكان كثير من الصحابة يتمنون لو أُمروا بالقتال ليشفوا صدورهم من جلاذيتهم ومن الطغاة المجرمين الذين كانوا يعيشون في البلاد فساداً - وهي البلاد أشرف بقاع الأرض وفيها بيت الله الحرام - فلما حوّلهم الله إلى المدينة وصارت للمسلمين دولة وشوكة ونزل الأمر بالقتال خاف بعضهم من سفك الدماء ويتم الأولاد وتأييم النساء ومتاع الحياة الدنيا ، فنزلت هذه الآية تفرعهم. إن الموت الذي تفرون منه قادم ولو تحصّنتم في قصور مشيدة ، والنصر والهزيمة من عند الله ، وإنما يُنصر المسلمون بإخلاصهم لربهم ، ويهزمون بمعصيتهم وتخاذلهم عن الحق والصبر.

أخرج النسائي والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عكرمة عن ابن عباس: [أن عبد

الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة ، فقالوا: يا رسول الله ، إنا كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة ، فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقتاتلوا ، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ... ﴾ [الآية (1)] .

وقوله: ﴿ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ وهو الموت . قال ابن جريج: (قال: إلى أن نموت موتاً ، هو «الأجل القريب»).

وقوله: ﴿ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ . قل يا محمد لهؤلاء: إن عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل لأنها فانية وما فيها فان ، وإن نعيم الآخرة هو النعيم الباقي لمن أقام الدين وجاهد في سبيل الله. ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾: أي لا ينقصكم الله من أجوركم مقدار فتيل - وهو ما يكون في شق النواة.

وقرأ الحسن: ﴿ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ فقال: (رحم الله عبداً صَحِبَهَا عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ ، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومةً ، فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه) - ذكره ابن كثير بسنده عند ابن أبي حاتم .

وقال ابن معين: كان أبو مُسْهَرٍ ينشد:

ولا خيرَ في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجالاً فإنها متاعٌ قليلٌ والزوال قريب

وقوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ .

قال قتادة: (في قصور محصنة) . وقال ابن جريج: (قصور مشيدة) . وقال السدي: (وهي قصور بيض في سماء الدنيا ، مبنية) . وقال الربيع: (ولو كنتم في قصور في السماء).

والمقصود أن الموت قادم إلى العبد لا محالة ولو تحصن في أعلى أبراج الدنيا وقصورها. وفي التنزيل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي (3/6) ، وفي «التفسير» (132) ، والحاكم (2/66) ، والبيهقي (11/9) ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي . النساء (77) .

وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

قال ابن جرير: «وإن ينلهم رخاء وظفر وفتح ويصيبوا غنيمة» يقولوا هذه من عند الله ، يعني: من قبل الله ومن تقديره ، «وإن تصبهم سيئة» ، يقول: وإن تنلهم شدة من عيش وهزيمة من عدو وجراح وألم ، يقولوا لك يا محمد: «هذه من عندك» ، بخطئك (التدبير).

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها).

وقوله: ﴿فَالْهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. أي لا يكادون يعلمون حقيقة ما يجري حولهم في شأن الحسنات والسيئات ، وقسمة الله ذلك بين عباده كالأرزاق ، فمن رضي الله عنه وفقه لفعل الحسنات ، ومن سخط على منهجه ذلل له فعل السيئات ، والله وحده أعلم بالشاكرين.

وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. المعنى: الحسنة فضل من الله ييسرها للعبد ليرفعه عنده سبحانه ، والسيئة عقاب من الله لتقصير في حياة العبد يبتعد العبد بها عن ربه.

قال ابن جريج: ﴿﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾﴾ ، قال: عقوبة بذنبك).

أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها]⁽¹⁾. والنصب: التعب ، والوصب: المرض.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن البراء ، عن النبي ﷺ قال: [ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1798) ، ومسند أحمد (303/2) ، وسنن البيهقي (373/3) ، وصحيح مسلم (2573) ، وسنن الترمذي (966).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) ، وانظر: الصحيحة (2215).

وفي التنزيل: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ .
وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

المعنى: وإنما جعلناك يا محمد رسولاً إلى الخلق كافة ، تبلغهم رسالة ربك فيما أوحى إليك ، وقد أيدك الله بحجة الوحي وبإثباتات النبوة ، فما عليك إلا البلاغ ، ثم الله شهيد على أعمال عباده ومطلع على قلوبهم ، وهو جامعهم بين يديه يوم يقوم الناس لرب العالمين .

80 - 81. قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

في هذه الآيات: طاعة رسول الله ﷺ واجبة لأنها من طاعة الله ، ولا عذر لأحد عند الله في التكرار لمنهاج نبيه وسنته وسيرته ، فهو رسوله الذي دعا إلى دينه الذي ارتضى ، والله محيط بما يُبَيِّت المنافقون والكافرون من المكر بدينه ورسوله ، فتوكل عليه يا محمد ، وكفى بالله وكيلاً .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني] (1) .

وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ . قال ابن زيد: (هذا أول ما بعثه ، قال: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ [الشورى: 48] . قال: ثم جاء بعد هذا بأمره بجهادهم والغلبة عليهم حتى يسلموا) .

والمقصود أن من أطاعه فقد نجا ، ومن عصاه فقد خاب وخسر ، فلا عليك منه يا محمد .

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كل أمتي يدخلون الجنة إلا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7137) ، ومسلم (1835) ، وأحمد (270/2) ، وغيرهم .

من أبى ، قيل : ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى⁽¹⁾ .
 وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ خبر عن المنافقين يظهرهم الموافقة ويقولون لنبي الله ﷺ أمرك طاعة ، وهم الذين ذكر أنهم يخشون الناس من الجهاد كخشية الله أو أشد خشية .
 وقوله : ﴿ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ .

أي : إذا خرجوا من لفائك غير جماعة منهم ليلاً الذي تقول لهم . قال قتادة : (يغيرون ما عهد نبي الله ﷺ) . وقال ابن عباس : (غَيَّرَ أولئك ما قال النبي ﷺ) .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْصِفُونَ ﴾ . أي : ما يقولون ويغيرون . قال الضحاك : (هم أهل النفاق) . وقال ابن جرير : (والله يكتب ما يغيرون من قولك ليلاً في كتب أعمالهم التي تكتبها حفظته) .

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

إرشاد من الله لنبيه ﷺ بالصفح عنهم وعدم مكاشفتهم ، والاعتصام بالله سبحانه وكفى به منتقماً منهم ، ودافعاً عنك وولياً وناصرأ ومعيناً .

82 - 83 . قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٣) .

في هذه الآيات : يرشد تعالى هؤلاء ويأمرهم بتدبر هذا الكتاب وتفهم معانيه ، ويحذرهم مغبة الإعراض عنه ، فإنه لو كان مفتعلاً لوجدوا فيه اضطراباً كثيراً . ثم يحذر سبحانه من الإشاعة الكاذبة وبث الأخبار بين المسلمين دون تثبت من مصادرها ونقلتها ، وأنهم لو ردوها إلى عالميها لكان خيراً لهم من بثها وخلخله الصفوف بها ، وتدخل الشيطان في محاولات الإفساد والتخريب لمجتمع المسلمين .

فعن قتادة : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(1) حديث صحيح . رواه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7280) ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أي: قول الله لا يختلف ، وهو حق ليس فيه باطل ، وإن قول الناس يختلف).
وقال الضحاك: ﴿يَتَذَبَّرُونَ﴾ ، النظر فيه).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: [لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس يكتون بالحصي ويقولون: طلق رسول الله نساءه ، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. قال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم - فذكر الحديث ، وفيه بعد استئذانه على رسول الله ﷺ - فقلت: أطلقتهن يا رسول الله؟ قال: لا ، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والناس يكتون بالحصي يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: نعم إن شئت ، فذكر الحديث وفيه: فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ، ونزلت الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. قال: وكنت أنا استنبطت ذلك ، وأنزل الله آية التخيير⁽¹⁾.

فالآية إنكار على من يبادر بنشر الأمور قبل التحقق منها ، فإنه قد لا يكون لها أساس من الصحة.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع]⁽²⁾. قلت: والآيتان مترابطتان مع بعضهما في المنهج ، فإن العلم بالواقع جزء من العلم بالدين ، فكما أن فهم القرآن لا يكون إلا من عالم بتأويله وبتفسير رسول الله ﷺ له ، وكذلك الواقع لا يؤخذ الخبر فيه إلا من أهل الثبوت والدقة. وتفصيل ذلك:

أ- في أمر الدين وفهم المتشابه من القرآن

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال: [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمْرَ النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ عند باب من أبوابه ، ففكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حَجْرَةَ إِذْ ذَكَرُوا آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَباً

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (1479) ح (30) من حديث ابن عباس عن عمر. وهو حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (5) ، وأخرجه أبو داود (4992) ، وابن حبان (30). عن أبي هريرة.

حتى احمَرَّ وجهه يرميهم بالتراب ويقول: مهلاً يا قوم ، بهذا أَهْلِكْتِ الأُمَمَ من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يَكْذِبُ بعضه بعضاً ، إنما نزل يُصَدِّقُ بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه⁽¹⁾ .

وله شاهد عند ابن ماجة بسند حسن عنه قال : [خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ، والناس يتكلمون في القدر ، فكأنما يُقْفَأُ في وجهه حَبُّ الرِّمَانِ من الغضب . قال : فقال لهم : مالكم تَضْرِبُونَ كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم . قال : فما غَبَطْتُ نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس ، أني لم أشهده]⁽²⁾ .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : [هَجَرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً ، فإننا لجلوسٌ إذ اختلف اثنان في آية ، فارتفعت أصواتهما فقال : إنما هلكت الأُمَم قبلكم باختلافهم في الكتاب]⁽³⁾ .

ب - في أمر الواقع وفقهه

أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة قال : قال النبي ﷺ : [إن الله حَرَّمَ عليكم عقوق الأمهات ، ووَادَّ البنات ، وَمَنَعَ وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال]⁽⁴⁾ .

فقوله : «وكره لكم قيل وقال» يشمل إشاعة الأخبار بين الناس دون تثبت من صحتها ، ودون الرجوع إلى مصادرها ، وسؤال أهل العلم فيها وبمدلولاتها .

وقوله : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يعني بفضل الله ورحمته كان حفظ المؤمنين من اتباع سبيل المنافقين والشياطين .

قال ابن زيد : (هذه الآية مقدّمة ومؤخرة ، إنما هي : أذاعوا به إلا قليلاً منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير) .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (2/ 181) ح (6663) ، وله شواهد .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (85) ، وأحمد (2/ 178) . وانظر صحيح ابن ماجة (69) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2666) ، وأحمد (2/ 192) ، والنسائي في الكبرى (8095) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2408) ، كتاب الاستقراض ، وكذلك (5975) ، وأخرجه مسلم

(3/ 1341) ح (14) ، وأحمد (4/ 233) ، وغيرهم .

84 - 87. قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَدَنَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّدْتُمْ فِي حَيَاتِهِ فَمِنْهُمْ أَحْسَنُ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) .

في هذه الآيات: أُمِرَ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِمُجَاهَدَةِ الْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَقِتَالِهِمْ ، ثُمَّ لَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَنْ نَكَلَ عَنْكَ ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَحْرِضَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْتَمُّهُمْ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْفِيَ قِتَالَ مَنْ جَحَدَ وَعَانَدَ ، وَاللَّهُ أَشَدُّ نَكَايَةً فِي عَدُوهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ فِي الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ إِنْ مِنْ يَسْعَى فِي أَمْرٍ فَيَتَرْتَبُ عَلَيْهِ خَيْرٌ يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ نَصِيبٌ ، وَمَنْ يَسْعَى فِي أَمْرٍ يَتَرْتَبُ مِنْهُ شَرٌّ يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ الْوِزْرُ وَاللَّهُ حَفِيزٌ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ . ثُمَّ مَنْ سَلِمَ عَلَيْكُمْ فَرُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلِمَ أَوْ أَحْسِنُوا وَاللَّهُ حَفِيزٌ كَذَلِكَ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ . فَهُوَ إِلَهُ الْمَعْبُودِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لِيُعِثَّنَكُمْ بَعْدَ مِمَاتِكُمْ وَلِيَحْشُرَنَّكُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ فَهُوَ وَعْدُهُ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا .

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: [قُلْتُ لِلْبَرَاءِ: الرَّجُلُ يَحْمِلُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، أَهُوَ مِمَّنْ أُلْقِيَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ: لَا ، إِنْ اللَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ وَقَالَ: ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ، إِنَّمَا ذَلِكَ فِي النِّفْقَةِ] (١) .

وقوله: ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . أَي: وَحَضَّهُمْ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَمَرَتْ بِقِتَالِهِ .

وقد امتلأت السنة الصحيحة بكنوز في الحث على الجهاد والترغيب بأجره ومقامه .

الحديث الأول: أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا . قَالُوا:

(1) حديث صحيح . أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (281 / 4) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ . وَلَهُ شَاهِدٌ آخَرُ ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ .

يا رسول الله ، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [يا أبا سعيد ، من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً ، وَجَبَتْ له الجنة. قال: فَعَجِبَ لها أبو سعيد ، فقال: أَعَدّها عَلَيَّ يا رسول الله ، ففعل ، ثم قال رسول الله ﷺ: وأخرى يرفع الله العبد بها مئة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أنس - في غزوة بدر حين دنا المشركون - : [فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ راح روحه في سبيل الله ، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكاً يوم القيامة]⁽⁴⁾.

الحديث الخامس: يروي الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم]⁽⁵⁾.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال ابن كثير: (أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هِمَمُهُمْ على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حَوَزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم).

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2790) ، ورواه ابن حبان (1748) ، والبيهقي (15/9) من حديث أبي هريرة.
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1884) ، والنسائي (19/6) ، وأحمد (14/3) ، وغيرهم.
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1901) ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، ضمن حديث طويل.
- (4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجه (2775). انظر صحيح سنن ابن ماجه (2239) - كتاب الجهاد - باب الخروج في النفير. وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6136).
- (5) حديث صحيح. أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الحاكم (74/2 - 75) ، وانظر مسند أحمد (326/5) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1941).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾. قال قتادة: (أي عقوبة).

وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾. قال مجاهد: (شفاعة بعض الناس لبعض).

وقال الحسن: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾، كتب له أجرها ما جرت منفعتها).

وقال السدي: (أما «الكفل» فالحظ). وقال الربيع: ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ قال: حظ منها ، فبئس الحظ).

وخلاصة المعنى: أنَّ من يسعى في أمر يترتب عليه نفع وخير كان له نصيب من ذلك ، كما لو سعى في أمر ترتبت عليه مفسدة في حياة الناس كان له من ذلك الوزر.

وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: [اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء]⁽¹⁾.

وأصل الشفاعة والشفعة من الشفع وهو الزوج من العدد ، ومنه الشفيع ، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً. والشفاعة تشمل البر والطاعة والدعاء وكل وجوه الخير. وفي صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء ، قال رسول الله ﷺ: [من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك المؤكل به: آمين ، ولك بمثل]⁽²⁾.

وفي لفظ: [دعوة المرء المسلم لأخيه - بظهر الغيب - مستجابة ، عند رأسه ملك مؤكل ، كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك المؤكل به: آمين ، ولك بمثل].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾.

قال ابن عباس: (حفيظاً). وقال مجاهد: (شهيداً ، حسيباً ، حفيظاً).

وقال السدي: (قديراً). وقال الضحاك: (المقيت الرزاق).

وقال عبد الله بن كثير: (المقيت: الواصب). أي القائم على الأمر أحسن القيام.

قلت: وكلها معانٍ يحتملها البيان الإلهي ، وهي تزيد المعنى ثراء وتوضح آفاقه.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1431) ، وأخرجه مسلم برقم (2627) ، وأخرجه أحمد (4/ 400) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2732) ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

قال ابن زيد: قال أبي: حق على كل مسلم حيي بتحية أن يحيي بأحسن منها ، وإذا حيّاه غير أهل الإسلام أن يردّ عليه مثل ما قال).

وقال ابن كثير: (أي: إذا سلّم عليكم المسلم فرّدوا عليه أفضل مما سلّم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلّم ، فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة).

وقال الحسن البصري: (السلام تطوع ، والردّ فريضة).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عمران بن حصين: [أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال: السلام عليكم يا رسول الله ، فردّ عليه ثم جلس. فقال: عَشْرُ. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله ، فردّ عليه ثم جلس ، فقال: عشرون. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردّ عليه ، ثم جلس فقال: ثلاثون]⁽¹⁾.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا سلّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك ، فقل: وعليك]⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطّروهم إلى أضيّقه]⁽³⁾.

قلت: «السلام» اسم من أسماء الله تعالى وضعه بين المؤمنين في الأرض ليفشوه بينهم ، فإذا فعلوا تحاببوا ، وزادت المودة والأخوة بينهم.

فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض فأفشوا السلام بينكم]⁽⁴⁾.

ورواه البيهقي من حديث ابن مسعود بلفظ: [السلام اسم من أسماء الله وضعه الله في الأرض فأفشوه بينكم]. ورواه البزار وزاد: [فإن الرجل المسلم إذا مرّ بقوم فسلمّ عليهم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 439) ، وأبو داود (5195) ، والترمذي (2689) ، وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6257) ، ومسلم (2164) ، وأحمد (2/ 19) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2167) ، والترمذي (1602) ، وأحمد (2/ 266) ، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (989) ، وانظر السلسلة الصحيحة (184).

فردوا عليه ، كان له عليهم فضل درجة ، فإن لم يردوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم]⁽²⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. قال مجاهد: (حفيظاً). أي حتى يجازيكم بها جزاءه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُتُبَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

المعنى: هو الإله المعبود سبحانه الذي لا تنبغي الألوهية إلا له ، ولا يليق التعظيم والكبرياء إلا به ، ليعثنكم من بعد مماتكم ، ثم ليحشرنكم في مشهد الحساب ، ثم يضع الميزان سبحانه ليزن أعمالكم ، فيجازي كلّا حسب عمله ، قوله الصدق وخبره الحق وليس في الوجود أصدق من الله حديثاً وخبراً ، سبحانه وتعالى عما يشك المنافقون علواً كبيراً.

88 - 91. قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ^(٨٨) وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ^(٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَوْ يَفْعَلُوا قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلَهُمْ فَإِنْ أَعَزَّلَوْكُمْ فَلَمْ يَقُولُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ

(1) حديث صحيح أخرجه البزار (رقم - 1999) ، وانظر معجم الطبراني الكبير (10392) ، والسلسلة الصحيحة (1894). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (54) كتاب الإيمان. باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وأن محبة المؤمنين من الإيمان ، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها.

فَاجْعَلْ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بَكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِزُوا لَكُمْ وَيُقْبُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّهُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾ .

في هذه الآيات: إنكار من الله على المؤمنين اختلافهم في شأن المنافقين الذين تخاذلوا يوم أحد ، وهؤلاء المنافقون كانوا يتمنون أن تجحدوا وحدانية ربكم وتصديق نبيكم كما جحدوا ، فإياكم أن توالوهم حتى يهاجروا من دار الشرك إلى دار الإسلام ابتغاء دين الله ونصره ، فإن أبوا الإيمان والهجرة فخذوهم واقتلوهم ، إلا من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مودة وعهد وميثاق فدخلوا فيهم ، أو جاؤوكم ضاقت صدورهم أن يقتلوكم أو يقتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلط هذين الفريقين عليكم ولكنه كفههم سبحانه ، فإن اعتزلكم هذان الفريقان: مَنْ دخل منهم مع قوم بينهم وبينكم مودة أو ضاقت نفوسهم عن قتالكم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً بالقتل والسبي . وهناك قوم آخرون من المنافقين يظهرون الإسلام لرسول الله ﷺ وأصحابه خوف القتل والسبأ وأخذ الأموال وهم كفار ، كلما خلوا إلى قومهم عبدوا الأوثان معهم وأشركوا بالله ، فهؤلاء إن لم يستسلموا إليكم بالصلح ويكفوا أيديهم عن قتالكم فخذوهم أين أصبتموهم فاقتلوهم ولكم عليهم حجة بذلك وسلطان .

أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: [لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رجع ناس ممن خرج ، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم ، فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ . وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد] (1) .

وفي لفظ: [إنها طيبة ، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة] .
وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ . قال ابن عباس: (أوقعهم) . وقال قتادة: (أهلكهم) .

وقال السدي: (أضلهم) . أي بسبب عصيانهم رسول الله ﷺ وتخاذلهم عنه ، والمراد عبد الله بن أبي بن سلول حين رجع بثلاث الجيش يوم أحد ، وبقي النبي ﷺ في سبع مئة .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1884) ، و (4050) ، ومسلم (1384) ، وأحمد (184/5) .

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. خطاب من الله للفئة التي دافعت عن هؤلاء المنافقين ، أتريدون هدايتهم وقد أعمى الله قلوبهم بنفاقهم وخشيتهم على دنياهم ، ومن يضلله الله فلا طريق له إلى الهدى والنور ، بل إلى العمى والظلام والأفول .

وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. يقول: تمنى هؤلاء المنافقون أنكم نافقتم مثلهم ، ووجدتم أمر الله كما جحدوا لتكونوا سواء ، وما ذلك إلا لشدة بغضهم لكم وشدة عداوتهم . فإياكم أن توالوهم حتى يخلصوا لله ويهاجروا كما هاجرتم . قال ابن عباس: (يقول: حتى يصنعوا كما صنعتم ، يعني الهجرة في سبيل الله).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾. قال ابن عباس: (فإن تولوا عن الهجرة).

وقال السدي: (يقول: إذا أظهروا كفرهم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم).

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. أي: لا توالوهم ولا تناصروا بهم على عدوكم .

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾. استثناء لبعض هؤلاء القوم . قال السدي: (يقول: إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم ، فإن أحد منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فأجروا عليه مثل ما تجرون على أهل الذمة).

وقال ابن زيد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ ، يصلون إلى هؤلاء الذين بينكم وبينهم ميثاق من القوم ، لهم من الأمان مثل ما لهؤلاء).

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

قال السدي: (رجعوا فدخلوا فيكم ، .. ، ضاقت صدورهم ، أن يقتلوكم أو يقتلوا قَوْمَهُمْ). فهؤلاء لا لكم ولا عليكم ، يبغيضون أن يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أن يقاتلوا قومهم .

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾. أي: من رحمته سبحانه بكم كفهم عنكم . وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾. أي: صالحوكم وسالموكم .

وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. أي: لم يجعل الله لكم إذناً بقتل فيهم أو

قال ابن كثير: (أي: فليس لكم أن تقتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء الجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضرُوا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره).
وقوله: ﴿سَتَجِدُونََ آخَرِينَ يُريدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

هؤلاء منافقون أظهروا الإسلام حقناً لدمائهم وأموالهم وذرائعهم ، وهم يصنعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾. قال قتادة: (كلما عرض لهم بلاء ، هلكوا فيه). والفتنة في كلام العرب: الاختبار ، والإركاس: الرجوع. والمقصود كلما دعاهم قومهم إلى الماضي المشترك المليء بالوثنية والشرك وتعظيم الآبائية في منهجها الجاهلي ، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم. قال مجاهد في هذه الآية: (ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا. فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا) ذكره ابن جرير.
وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعتَزلُوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾. قال الربيع: (الصلح).

والمقصود أن هؤلاء لابد أن يستسلموا وينقادوا إلى الحق وإلى طريق المؤمنين.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرُوا أَيديَهُمْ﴾. أي عن قتالكم ، فيصالحوكم ويعطوكم المقاد.

وقوله: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ وَأَقْلَبُوا حَيْثُ يَفْقَهُوهُمْ﴾. يعني: خذوهم أين أصبتموهم فاقتلوهم إن لم يفعلوا ما أمروا به. ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾. قال السدي: (أما السلطان المبين فهو الحجة). وقال عكرمة: (ما كان في القرآن من «سلطان» ، فهو الحجة).

92 - 93. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَدَّقُوا فَإِن كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا
وَعُذِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنُهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ .

في هذه الآيات : تحذير ووعيد أن يقتل مؤمن أخاه المؤمن ، فإن حصل فالمسوءُ
الوحيد هو الخطأ ، ومع ذلك ففيه الكفارة والدية . فالإلى تفصيل ذلك كما ذكر الفقهاء :

القتل ثلاثة أنواع :

1 - القتل العمد : وهو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بأداة يغلب الظن أنه
يقتل بها . كالإحراق بالنار ، والإغراق بالماء ، والإلقاء من شاهق ، أو إلقاء حائط
عليه ، أو خنق الأنفاس ، أو حبس الإنسان ومنعه من الطعام والشراب ، أو تقديمه
لحيوان مفترس ، أو تقديم الطعام المسموم له .

فقد ثبت في صحيح أبي داود أن النبي ﷺ أمر بقتل اليهودية التي سمّت النبي ﷺ في
طعام قدّمته إليه فمات منه بشر بن البراء بن معرور .

أخرج الطبراني بسند صحيح لغيره من حديث عمرو بن حزم مرفوعاً : [الْعَمْدُ قَوْدٌ ،
وَالْخَطَأُ دِيَّةٌ] ⁽¹⁾ .

وله شاهد عند الدارقطني عن ابن عباس مرفوعاً : [العمد قود ، والخطأ عقل لا قود
فيه] .

ومعنى : «قود» : قصاص ، وهو مجازاة الجاني بمثل صنيعه .

وولي المقتول - في القتل العمد - بالخيار بين القود والعفو على الدية ، لقوله
تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ
عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْسَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بِعَدَا
ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 178] .

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «الكبير» . انظر مجمع الزوائد (6/ 286) ، وأخرجه - كما في
الشاهد - الدارقطني في «سننه» (ص 324) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1986) .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلَ فَهُوَ بخير النظرين إما أن يُودي وإما أن يقاد]⁽¹⁾.

وليست هذه الدية هي الواجبة بالقتل ، بل بدل عن القصاص ، ومن ثم فإن لهم أن يصلحوا على غير الدية ، ولو بالزيادة عليها.

فقد أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن النبي ﷺ قال : [مَنْ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا دُفِعَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَإِنْ شَاؤُوا قَتَلُوا ، وَإِنْ شَاؤُوا أَخَذُوا الدِّيَةَ ، وَهِيَ ثَلَاثُونَ حِقَّةً ، وَثَلَاثُونَ جَذَعَةً ، وَأَرْبَعُونَ خَلِيفَةً ، وَمَا صَلَحُوا عَلَيْهِ فَهُوَ لَهُمْ . وَذَلِكَ لِتَشْدِيدِ الْعَقْلِ]⁽²⁾.

وأما العفو مجاناً فهو أفضل عند الله تعالى ، لقوله سبحانه : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة : 237]. ولقوله ﷺ : [وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً]⁽³⁾.

2 - القتل شبه العمد : وهو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بما لا يقتل عادة ، كأن يضربه بعصا خفيفة ، أو حجر صغير ، أو لكزة بيده ، أو سوط . فإن مات فشبه عمد ، وفيه دية مغلظة : مئة من الإبل في بطون أربعين منها أولادها . وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وجماهير الفقهاء .

خالف مالك والليث ، قالوا : يعتبر عمداً وفيه القصاص . إذ الأصل عندهم عدم اعتبار الآلة في إزهاق الروح ، فكل ما أزهاق الروح أوجب القصاص .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عمر : [أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الفتح فقال : ألا إن دية الخطأ العمد بالسوط أو العصا مغلظة مئة من الإبل منها أربعون خليفة في بطونها أولادها]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (12/205/6880) ، وأخرجه مسلم (2/988/1355).

(2) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي (1121) ، أبواب الديات ، وسنن ابن ماجة (2626) . و«حِقَّة» : من الإبل ما طعن في السنة الرابعة والجمع حقاق . و«جذعة» مؤنث جذع ، ولد الشاة في السنة الثانية ، وولد البقرة في السنة الثالثة . وللإبل في السنة الخامسة . و«خليفة» هي الحامل من الإبل .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1894) من طريق أبي كبشة الأنماري ، وصحيح مسلم (2588) ، وهو جزء من حديث أطول .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند . انظر تخريج «الإرواء» (7/257) . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2127) ، باب دية شبه العمد مغلظة .

وأخرج أبو داود بسند حسن من حديث ابن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [عقلُ شبه العمد مُغلَطٌ مثل عقل العمد ، ولا يُقتلُ صاحبه] ⁽¹⁾.

3 - القتل الخطأ: وهو أن يفعل المكلف ما يباح له فعله ، كأن يرمي صيداً ، أو يقصد غرضاً ، فيصيب إنساناً معصوم الدم فيقتله ، وكأن يحفر بئراً فيتردى فيها إنسان ، أو ينصب شبكة حيث لا يجوز فيعلق بها رجل فيقتل . وكأن يقود سيارة مسرعاً فيقفز طفل إلى الطريق من مدخل بيته أو البناء الذي هو فيه ، إلى غير ذلك مما فيه نوع تقصير من الذي رُمي بالقتل الخطأ .

موجب القتل الخطأ:

1 - الدية المخففة .

2 - الكفارة: (عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، كما بنص الآية السابقة).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث ابن عمرو ، قال رسول الله ﷺ: [من قُتل خطأ فديته مئةٌ من الإبل: ثلاثون بنتَ مخاض ، وثلاثون بنتَ لبون ، وثلاثون حقةً ، وعشرة بني لبون] ⁽²⁾.

والدية تسمى 'العقل' لأن القاتل يجمع الدية من الإبل فيعقلها بفناء أولياء المقتول ، أي يشدها بعقالها ليسلمها إليهم .

فقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ . قال قتادة: (ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه ، من عهد الله الذي عهد إليه) . وقوله: «إلا خطأ» استثناء منقطع .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلم

(1) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4565) - كتاب الديات . انظر صحيح سنن أبي داود (3819) . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم (3904) ، وتخريج المشكاة (3501) .

(2) حديث حسن . انظر صحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (2128) ، وسنن أبي داود (4518) ، والنسائي (8/43) . من حديث عبد الله بن عمرو .
وبنت المخاض: الأنثى من الإبل تم لها سنة ، وبنت اللبون: الأنثى من الإبل تم لها سنتان ، والحقّة: الأنثى من الإبل تم لها ثلاث سنين . والجذعة: حوالي أربع سنين .

يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة⁽¹⁾.

فإن وقع المسلم في خصلة مما سبق ، فلا يحل لأي واحد أن يقتله ، بل إن ذلك راجع إلى الإمام العام أو نائبه ، فلا ينتقل ذلك إلى آحاد المسلمين .

ففي المسند بسند صحيح ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً]⁽²⁾.

وقوله : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ .

قال ابن عباس : (يعني بالمؤمنة : من قد عقل الإيمان وصام وصلى . فإن لم يجد رقبة ، فصيام شهرين متتابعين ، وعليه دية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا بها عليه) . وقال قتادة : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ ، لا يجزئ فيها صبي .

وفي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن الزهري ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن رجل من الأنصار : [أنه جاء بأمة سوداء فقال : يا رسول الله ، إن علي عتق رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ، فقال لها رسول الله : أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت : نعم . قال : أتشهدين أني رسول الله؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت : نعم . قال : أعتقها]⁽³⁾.

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ يعني : إلا أن يضعوها . ذكره ابن زيد .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ .

قال إبراهيم : (هو الرجل يُسلم في دار الحرب فيقتل . قال : ليس فيه دية ، وفيه الكفارة) . وقال عكرمة : (يعني المقتول يكون مؤمناً وقومه كفار . قال : فليس له دية ، ولكن تحرير رقبة مؤمنة) . وقال ابن زيد : (لا يؤدي إليهم الدية فيتقون بها عليكم) . قلت : فإن أسلم العدو أثناء القتال وجب إيقاف السيف ، فإن حصل خطأ وجبت الدية . أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر قال : [بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يُحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صَبَأْنَا صَبَأَنَا ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال : اللهم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6878) ، وأخرجه مسلم (6876) ، وأحمد (444/1) .

(2) حديث صحيح . رواه أحمد ، ورواه البخاري ، انظر صحيح الجامع الصغير - رقم (7568) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (452/3) ، ورجاله رجال الصحيح ، وجهالة الصحابي لا تضر .

إني أبرأ إليك مما صنع خالد . وبعث علياً فودى قتلهم وما أتلف من أموالهم ، حتى **مِيلَغَةَ الْكَلْبِ** ⁽¹⁾ .

قال الحافظ ابن كثير - وذكر هذا الحديث في التفسير - : (وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ .

يعني : إن كان المقتول أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم (دية المؤمن كاملة ، ودية الكافر نصف دية المسلم) ، ويجب على القاتل أيضاً تحرير رقبة مؤمنة .

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [دية المعاهد نصف دية الحر] ⁽²⁾ أي المسلم ، فقد صح من حديث ابن عمر بلفظ : [دية المسلم] . وله شاهد عند الترمذي عنه بلفظ : [دية عقل الكافر نصف عقل المؤمن] .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ .

يعني من لم يجد عتق رقبة مؤمنة ، فعليه صيام شهرين لا إفطار بينهما ، فإن أفطر عذر : مرض أو حيض أو نفاس ، استأنف ولا حرج .

وقوله : ﴿ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن جرير : (يعني : تجاوزاً من الله لكم إلى التيسير عليكم ، بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرت بها ، بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ . أي : لم يزل سبحانه «عليماً» بما يصلح أمر عباده وما هو الأمثل لهم في التكليف «حكيماً» بما يشرع لهم ويقضي فيهم ويأمر وينهى ويريد .

-
- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4339) ، و (7189) ، وأحمد (2/ 150 - 151) ، وأخرجه النسائي (8/ 236) ، وميلغة الكلب : الإناء الذي يشرب منه .
- (2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4583) - كتاب الديات - ، وابن ماجه (2644) . انظر صحيح سنن أبي داود (3831) . وانظر الإرواء (2252) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3389) ، وكذلك - حديث رقم - (3391) للشاهد بعده .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

قال البخاري: حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا المغيرة بن النعمان ، قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة ، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسأله عنها ، فقال: [نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء] (1).

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن زيد بن ثابت قال: [لما نزلت هذه الآية التي في «الفرقان»: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ عَجَبْنَا لِلَّيْنِهَا ، فلبثنا ستة أشهر ، ثم نزلت التي في «النساء»: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ﴾ حتى فرغ] (2).

وروى ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قال: (إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمناً متعمداً ، فجزاؤه جهنم ولا توبة له). فذكرت ذلك لمجاهد فقال: «إلا من ندم».

وقد جاءت السنة الصحيحة بالتهديد والوعيد لمن أهدر دم مسلم أو أصاب من ذلك.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء] (3).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ

- (1) حديث موقوف ، أخرجه البخاري (4590) ، وغيره . وله شواهد عند ابن جرير في التفسير .
- (2) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (4869/150/5) ، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد . وأخرجه النسائي (4007) ، وابن جرير في «التفسير» (139/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2799) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6533) ، وكذلك (6864) ، وأخرجه مسلم برقم (1679) ، وغيرهما . من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

قال: [لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يُصب دماً حراماً ، فإذا أصابَ دماً حراماً بَلَحَ⁽¹⁾]. والمعنى: طويل العنق، الذي له سوابق في الخير. وقوله: «بَلَحَ» أي: أعيأ وانقطع وتعرض للهلاك.

الحديث الثالث: وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا من مات مشركاً ، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [لزوال الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجل مسلم]⁽³⁾.

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من قتل مؤمناً فاغبط بقتله لم يقبل الله منه صرماً ولا عدلاً]⁽⁴⁾.

وروى عن أبي مجلز في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قال: (هي جزاؤه ، فإن شاء الله أن يتجاوز عنه فعل)⁽⁵⁾.

وعند ابن جرير عن ابن عباس قال: (أكبر الكبائر: الإشراف بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبٌ عَلَيْهِ وَلَعْنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾). وقال ابن مسعود في هذه الآية: (إنها لمحكمه ، وما ترداد إلا شدة).

94. قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ لَسْتُ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود وغيره . انظر صحيح سنن أبي داود (3590) ، باب: في تعظيم قتل المؤمن . من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم (3588) - الباب السابق .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً ، (1395) ، ورواه النسائي (82/7) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود عن عبادة . انظر صحيح سنن أبي داود (3589) - الباب السابق .

(5) حسن مقطوع . أخرجه أبو داود عن أبي مجلز . انظر صحيح سنن أبي داود (3595) - الباب السابق .

فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ .

في هذه الآية: أمرٌ من الله سبحانه بالتأني أثناء القتال وعدم التعجل بقتل من التبس أمره ، وعدم الإسراع في القتل إلا لمن كان حرباً لله ورسوله ، فإن ما عند الله أكبر من غنيمة الدنيا بأسرها ، وإسلام الناس أحب إلى الله من سفك الدماء حتى لو كان ظاهره الخوف من أهوال السلاح والحرب ، فقد كنتم أيها المؤمنون في جاهلية وامتن الله عليكم وأنقذكم منها فتمهلوا والله خير بنواياكم وأعمالكم .

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عطاء ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ . قال : قال ابن عباس : [كان رجل في غنيمة له ، فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمة ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ . قال ابن عباس : عَرَضَ الدنيا تلك الغنيمة ⁽¹⁾ . ولفظ الترمذي : [مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومعه غنم له ، فسلم عليهم ، قالوا : ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم ، فقاموا وقتلوه ، وأخذوا غنمه ، فأتوا بها رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾] .

وأخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله بن أبي حذرر رضي الله عنه قال : [بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ، ومُحَلَّم بن جَثَّامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم ، مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ، معه مُتَبِّع له وَوَطْبٌ ⁽²⁾ من لبن ، فلما مرَّ بنا سلم علينا ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه مُحَلَّم بن جَثَّامة فقتله ، لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بغيره ومُتَبِّعه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر ، نزل فينا القرآن : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ ⁽³⁾ .

وأخرج الحافظ أبو بكر البزار بسند جيد عن ابن عباس قال : [بعث رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4591) ، ومسلم (3025) ، وأبو داود (3974) . وانظر صحيح سنن الترمذي (2426) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (94) .

(2) القعود : البكر من الإبل : متبّع : تصغير متاع ، والوطب : سقاء اللبن .

(3) حديث رجاله ثقات . أخرجه أحمد (11/6) ، والطبري (10217) ، والطبراني وغيرهم .

سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجَدُوهم قد تفرَّقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . فأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ . فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد . فقال : ادعوا لي المقداد ، يا مقداد : أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً ؟ قال : فأنزل الله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُوثَ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . فقال رسول الله ﷺ للمقداد : كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل [1] .

وله شاهد عند البخاري عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ للمقداد : [إذا كان رجل مؤمن يُخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، فكذلك كنت أنت تُخفي إيمانك بمكة من قبل] [2] .

وقوله : ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ ﴾ . أي : من الخير والنعيم والخلود مما هو أجمل وأطيب من كل ما حرصتم عليه من هذه الدنيا الفانية ، إذ حملكم ذلك على قتل من شهد أن لا إله إلا الله ، واعتبرتموها تقية وتجاوزتم .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ ﴾ - فيه تأويلان :

1 - قال سعيد بن جبير : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، تستخفون بإيمانكم ، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه . وقال في لفظ : (تكتُمون إيمانكم في المشركين) . واختاره ابن جرير .

2 - قال ابن زيد : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ ﴾ ، كفاراً مثله ، ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ .

قلت : وكلاهما يحتمله البيان الإلهي .

(1) إسناده جيد . أخرجه البزار (2202) ، والطبراني (12379) ، وانظر ما بعده .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (6866) معلقاً ، وانظر ما قبله .

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. قال سعيد بن جبير: (هذا تهديد ووعد).

95 - 96. قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

في هذه الآيات: معذرة أولي الضرر عن الجهاد ، وفضيلة المجاهدين على القاعدین ، فالجهاد ذروة سنام الإسلام ، ويترتب عليه الدرجات العظيمة والمغفرة والرحمة ، والله هو الغفور الكريم الرحيم .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق ، قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: [لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاءه بكتف فكتبها وشكى ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾] (1).

وفي الصحيحين عن البراء قال: [لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: ادع فلاناً. فجاءه ومعه الدواة واللوح والكف ، فقال: اكتب: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» ، وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال: يا رسول الله ، أنا ضرير؟ فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾] (2).

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي: [أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد ، قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه ، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله ﷺ أملأ عليّ: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4593) ، كتاب التفسير ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ، سورة النساء ، آية (95).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4594) ، ومسلم (1898) ، والترمذي (1670) ، والنسائي (10/6) . من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

الله». فجاءه ابن أم مكتوم ، وهو يملئها عليّ ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذُه على فخذي ، فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرَضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه ، فأنزل الله : «غير أولي الضرر»⁽¹⁾.

وقد جاءت رواية صحيحة عند الإمام أحمد وأبي داود تفصل ما حصل ، قال زيد بن ثابت : [إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ إذ أوحى إليه ، قال : وعَشِيَّتِه السكينة ، قال : فوقع فخذُه على فخذي حين غَشِيَّتِه السكينة . قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سُرِّي عنه فقال : اكتب يا زيد . فأخذت كتفاً فقال : اكتب : «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» إلى قوله : «أجرأ عظيماً» فكتبت ذلك في كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين وقال : يا رسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ومن هو أعمى وأشباه ذلك؟ قال زيد : فو الله ما قضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - غَشِيَّت النبي ﷺ السكينة ، ف وقعت فخذُه على فخذي ، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى ، ثم سُرِّي عنه فقال : اقرأ . فقرأت عليه : «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» فقال النبي ﷺ : «غير أولي الضرر» . قال زيد : فألحقتها ، فو الله لكأنني أنظر إلى مُلَحَقِها عند صَدْع كان في الكتف»⁽²⁾.

وقد جاء تفسير عن ابن عباس للآية رواه البخاري من حديث مِقْسَم : [أن ابن عباس أخبره : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر ، والخارجون إلى بدر]⁽³⁾.

قال الحافظ ابن كثير : (فقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مُطْلَقاً ، فلما نزل بوحى سريع ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ، صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العمى والعرج والمرضى - عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4592) ، والترمذي (3033) ، وأحمد (84/5) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2507) ، وأحمد (190/5 - 191) ، والحاكم (81/2) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4595) ، وانظر تفسير ابن كثير ، وعزاه أيضاً إلى عبد الرزاق ، ثم ذكر له شاهداً عند الترمذي (3032) والنسائي (137) في التفسير .

قلت: فالمؤمن قد يبلغ بنيته ما لا يبلغه بعمله ، وهؤلاء قوم علم الله في قلوبهم الصدق فأنزل الوحي ليستدرك ما يشمل أعدارهم ويشركهم بالأجر والفضيلة .
وفي صحيح البخاري عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : [إن بالمدينة أقواماً ما سِرُّتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه . قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال : نعم حَبَسَهُمُ العذر]⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ ﴾ .

قال ابن جريج : (على أهل الضرر) . وقال ابن جرير : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، على القاعدتين من أولي الضرر ، درجة واحدة - يعني : فضيلة واحدة - وذلك بفضل جهاده بنفسه ، فأما فيما سوى ذلك ، فهما مستويان) .
وقوله : ﴿ وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ ۚ ﴾ . قال السدي : (الجنة) .

وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ ﴾ . تأكيد لرجوح مباشرة الجهاد وقاتل الأعداء ، فإن ركوب أهوال الحرب ودخول ساحات الموت له ثوابه الخاص عند الله .

ففي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تتفجر أنهار الجنة]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۚ ﴾ .

تأكيد لدرجات اختصهم الله بها في الآخرة من درجات الجنة ، رفعهم بها سبحانه على القاعدتين لقاء ما أبلوا في ذات الله أثناء مواجهة الأعداء في ساحات القتال .
قال قتادة : (كان يقال : الإسلام درجة ، والهجرة في الإسلام درجة ، والجهاد في الهجرة درجة ، والقتل في الجهاد درجة) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : [يا أبا سعيد ، من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيّاً ، وجبت له الجنة] . قال : فعَجِبَ لها أبو سعيد ، فقال : أعدّها عليّ يا رسول الله ، ففعل ، ثم قال

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2839) ، و (4423) ، وأخرجه أحمد (103 / 3) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (2790) ، ورواه أحمد في المسند ، وقد مضى .

رسول الله ﷺ: وأخرى يرفع الله العبد بها مئة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله⁽¹⁾ .

ثم أضاف سبحانه إلى الدرجات ، مغفرة الذنوب والزلات ، وحلول الرحمة والبركات ، فهو سبحانه لم يزل ﴿عَفُورًا﴾ لذنوب عباده المؤمنين ، يصفح عنهم ما يقلقه من الخطايا وركام التقصير ، ﴿رَحِيمًا﴾ يتفضل عليهم بنعمه ، مع ما كان منهم من خلاف أمره ونهيه ، ووقوعهم وركوبهم معاصيه .

97 - 100 . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ قَالُوا لَيْتَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ۝٩٩ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٠ ﴾ .

في هذه الآيات : تحذير من التهاون في الدين بحجة الظروف وتحكم الطغاة وكثرة الفساد ، فإن أرض الله واسعة والهجرة ممكنة إلى حيث الأمن على الدين والإيمان ، فمن اختار التهاون والمذلة في الدين فإن سوء المصير ينتظره ويتوعدده ، ولا استثناء في ذلك إلا للمستضعفين من الرجال الشيوخ أو النساء والولدان لا حيلة لهم ، فأولئك عسى أن يصفح الله عنهم . ثم إن في الهجرة خيراً كثيراً وأجرأ كبيراً وكان الله غفوراً رَحِيمًا .

أخرج البخاري في صحيحه عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال : [قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ ، فَكَتَبْتُ فِيهِ ، فَلَقِيتُ عَكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتَهُ ، فَهَنَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ ، ثُمَّ قَالَ : أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَكْتُمُونَ سَوَادَهُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَى بِهِ فَيَصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1884) ، والنسائي (19/6) ، وأحمد (14/3) ، وغيرهم .

يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُكَلِّبَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ﴾⁽¹⁾ .

وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : [كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأكرهوا ! فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُكَلِّبَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ الآية ، قال : فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية ، لا عذر لهم . قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فحزنوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌّ رَّحِيمٌ ﴾ ، فكتبوا إليهم بذلك : « إن الله قد جعل لكم مخرجاً » ، فخرجوا فأدركهم المشركون ، فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقتل من قتل⁽²⁾ .

وفي سنن أبي داود بسند حسن عن سَمُرَةَ بن جندب قال : [أما بعد ، قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله]⁽³⁾ .

وقوله : ﴿ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . أي بالمكنوث في جو الكفر وترك الهجرة .

وقوله : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . أي لا نقدر على إقامة ديننا في بلادنا بسبب تسلط الكفار .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا ﴾ - استنكار عليهم بعدم خروجهم في أرض وبلاد الله الواسعة يلتمسون فيها أمن دينهم وتوحيد ربهم وتعظيمه لا شريك له .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ . يعني مسكنهم ومصيرهم . ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي : ساءت مسكناً ومستقراً لمن كانت مسكنه ومصيره في الآخرة .

وقوله : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : (وهم العجزة عن الهجرة ، بالعُسرة ، وقلة الحيلة ، وسوء البصر والمعرفة بالطريق ، من أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام) .

وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ . أي يصفح عنهم لعذرهم في ترك الهجرة .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4596) ، و (7085) ، والنسائي في «التفسير» (139) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبري (10265) ، وإسناده صحيح ، رجاله ثقات كلهم .

(3) حديث حسن . أخرجه أبو داود في السنن (2787) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (2420) .

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. أي ذو صفح سبحانه عن ذنوب عباده ، وذو مغفرة وستر لذنوبهم بعفوه عنها.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: [بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ] (1).

وأخرج عبد الرزاق في «التفسير» بسند صحيح عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: (كنت أنا وأمّي من المستضعفين من النساء والولدان) (2).

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: «إلا المستضعفين» قال: (كانت أمي ممن عذر الله عز وجل) (3).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قال ابن عباس: (المُرَاعِمُ التحول من أرض إلى أرض). وقال مجاهد: («مراعماً كثيراً»: يعني مُتَرَحِّزاً عما يكره). وقال سفيان بن عيينة: («مراعماً كثيراً»: يعني بروجاً).

وقال ابن جرير: («مراعماً كثيراً»: وهو المضطرب في البلاد والمذهب).

وقال ابن كثير: (والظاهر - والله أعلم - أنه الممتنع الذي يُتَحَصَّنُ به ، ويُرَاعَمُ به الأعداء).

والمقصود ترغيب المؤمن بمفارقة دار الكفر والفساد وحياة المشركين ، إلى دار الإيمان وأخوة الإسلام ، فإنه حيثما اتجه المؤمن يجد بإذن الله مندوحة وملجأ يتحصن فيه ويفرّ بدينه. والمُرَاعِمُ في كلام العرب المذهب والمهرب.

وقوله: ﴿وَسَعَةً﴾. قال ابن عباس: (السعة في الرزق). وقال قتادة: (إي والله ، من الضلالة إلى الهدى ، ومن العيلة إلى الغنى).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4598) ، ومسلم (675) ح (295) ، وأخرجه أبو داود (1442).

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (632) ، وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4597) من حديث ابن أبي مليكة عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه من وجه آخر (1357) ، (4587).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. ضمان من الله سبحانه بكامل الأجر ووافي الثواب لمن خرج من منزله بنية الهجرة فمات أثناء الطريق ، أي فله أجر من هاجر دون نقصان .

أخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس قال: [نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِمْ﴾ ، فكان بمكة رجل يقال له ضمرة من بني بكر ، وكان مريضاً فقال لأهله: أخرجوني من مكة فإني أجد الحر ، فقالوا: أين نخرجك؟ فأشار بيده نحو المدينة ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى آخر الآية⁽¹⁾. ورواه أبو يعلى وفيها: (فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى في تمام أجر من خرج مهاجراً إلى الله ومات في الطريق:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن والمسانيد عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى] ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانٌ بِي وتصديق برُّسُلِي أن أُرْجِعَهُ بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشقَّ على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولودِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثم أُحْيَا ، ثم أَقْتُلُ ، ثم أُحْيَا ثم أَقْتُلُ]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم خرج يسأل ، فأتى راهباً فسأله فقال له: توبة؟ قال: لا ، فقتله ، فجعل يسأل ، فقال له رجل: اتت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت فناءً بصدِّره نحوها ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (10299) ورجاله ثقات ، كما قال الهيثمي ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - سورة النساء ، آية (100).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1) ومسلم (1907) ، وأحمد (43/1) ، وأبو داود (2201) والترمذي (1647) والنسائي (13/7) ، وابن ماجه (4227) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (36) ، كتاب الإيمان ، وانظر كذلك (7457) ، كتاب التوحيد.

العذاب ، فأوحى الله إلى هذه أن تقرّبي ، وأوحى إلى هذه أن تباعدني ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشير فغفر له⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . يعني لم يزل ساتراً ذنوب عباده المؤمنين ، يصفح عن ذنوبهم ويتجاوز عن كثير مما سقطوا فيه من الآثام إذا تابوا إليه ، «رحيماً» بهم رقيقاً ورؤوفاً وحليماً.

101. قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ .

في هذه الآية : ترخيص من الله سبحانه في قصر الصلاة لمطلق السفر والضرب في الأرض .

فقوله : ﴿ ضَرَبْتُمْ ﴾ . أي : سافرتم . وفي التنزيل : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَمَأْوَاهُ الْبُيُوتُ وَالْأَرْضُ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل : 20] .

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : [إن الصلاة فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة]⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن يعلى بن أمية قال : [سألت عمر بن الخطاب قلت له : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد أَمَّنَ الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبٌ مما عجبْت منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته]⁽³⁾.

فبقيت الرخصة قائمة في مطلق السفر ومطلق الظروف ، فالآية تدل على تشريع القصر ، وتحدده بالخوف من الكفار ، والسنة تطلقه في جميع الأحوال .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3470) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم (2766) ، وأحمد (20/3) . من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (687) ، وأبو داود (1247) ، والنسائي (168/3 - 169) ، وغيرهم . من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (686) ، وأبو داود (1199) ، والترمذي (3034) ، وابن ماجه (945) ، وأحمد (25/1) ، (36/1) ، والبيهقي (134/3) ، (140/3) .

أخرج الترمذي بسند صحيح عن محمد بن سيرين ، عن ابن عباس : [أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين ، فصلّى ركعتين]⁽¹⁾.

وله شاهد عند ابن أبي شيبة عنه بلفظ : [صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، ونحن آمنون لا نخاف بينهما ، ركعتين ركعتين]⁽²⁾.

وأخرج البخاري عن حارثة بن وهب قال : [صلّى بنا رسول الله ﷺ آمناً ما كان بمنى ركعتين]⁽³⁾.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : [فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقّرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر]⁽⁴⁾.

قلت : والورع هو الأخذ بالرخصة في السفر وقصر الصلاة فهو الأحب إلى الله ورسوله ، وليس الإتمام.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه]⁽⁵⁾.

وفي لفظ : (كما يكره أن تؤتى معصيته).

ويرى مالك أن القصر فرض ، في حين أكثر العلماء أنه سنة وهو مذهب الشافعي .

وقوله : ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ كَأْتُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ . أي : قد أبانوا عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله ورسوله ، فتمسكوا بدينكم فهو عزكم وبه تعيظون عدوكم ، واحرصوا على رخصة ربكم ، ففيها إظهار لجمال شعائركم وهديكم .

102 . قوله تعالى : ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْيَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (547) ، والنسائي (117/3) ، وأحمد (215/1) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (337/2) ، والنسائي (117/3 - 118) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1083) ، (1656) ، وأخرجه أحمد (306/4) ، وابن حبان (2757) . من حديث حارثة بن وهب رضي الله تعالى عنه .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (350) و(1090) ، ومسلم (685) وأحمد (272/6) ، وغيرهم .

(5) حديث صحيح . وأخرجه البيهقي والطبراني وابن حبان . انظر صحيح الجامع (1881) ، (1882) .

أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

في هذه الآية: تشريع صلاة الخوف أثناء القتال في المعركة: للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة ، ولها أيضاً أشكال كثيرة. فإلى تفصيل ذلك التشريع الرهيب .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن مجاهد ، عن أبي عياش الزرقعي قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بِعُصْفَانَ فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتْهم ، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح ، قال: فصففنا خلفه صفين ، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ، ثم رفع فرفعنا جميعاً.]⁽¹⁾

قلت: وقد وردت صلاة الخوف في السيرة في أشكال مختلفة ، راعى فيها النبي ﷺ ظروف القتال .

قال الخطابي: (صلاة الخوف أنواع صلاها النبي ﷺ في أيام مختلفة وأشكال متباينة ، يتوقى فيها كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة) .
وتفصيل ذلك :

الشكل الأول: صف مع الإمام وصف وُجَّاه العدو ، فيصلي بالذين يلونه ركعة ثم يقوم قائماً حتى يصلي الذين معه ركعة أخرى ، ثم ينصرفون وجاه العدو ، وتجيء الطائفة الأخرى التي دخلت معه بالصلاة ليصلي بهم ركعة ، ويثبت جالساً ، فَيُتِمُّونَ لأنفسهم ركعة أخرى ، ثم يسلم بهم جميعاً .

والدليل ما روى البخاري من حديث أبي حثمة رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ صلى

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 59 - 60) ، وأبو داود (1236) ، والنسائي (3/ 176) .

بأصحابه في خوف⁽¹⁾ فجعلهم خلفه صفين ، فصلى بالذين يلونه ركعة ، ثم قام فلم يزل قائماً حتى صلى الذين خلفهم ركعة ، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم ، فصلى بهم النبي ﷺ ركعة ، ثم قعد حتى صلى الذين تخلفوا ركعة ، ثم سلم⁽²⁾.

الشكل الثاني: صفان خلف الإمام ، يركع بهم جميعاً ، ثم يسجد بالصف الأول والآخرون قيام يحرسونهم ، فإذا قاموا سجد الآخرون ، ثم تأخر الصف الأول لمكان الثاني ، وتقدم الثاني لمكان الأول ، ثم يركع بهما ويسجد بالأول والآخرون يحرسونهم ، فإذا جلس الإمام والصف الذي يليه سجد الآخرون ثم جلسوا جميعاً ثم سلم بهم جميعاً.

والدليل ما روى أبو داود عن أبي عياش الزرقى قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بعُنفان ، وعلى المشركين خالد بن الوليد ، فصلينا الظهر ، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة. لقد أصبنا غفلة ، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة ، فنزلت آية القصر بين الظهر والعصر ، فلما حضرت العصر ، قام رسول الله ﷺ ، مستقبل القبلة والمشركون أمامه ، فصَفَّ خلفَ رسول الله ﷺ صف ، وصفَ بعد ذلك الصف صف آخر ، فركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذين يلونه ، وقام الآخرون يحرسونهم ، فلما صلى هؤلاء السجدين وقاموا سجد الآخرون الذين كانوا خلفهم ، ثم تأخر الصف الذي يليه إلى مقام الآخرين ، وتقدم الصف الأخير إلى مقام الصف الأول ، ثم ركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه ، وقام الآخرون يحرسونهم.

فلما جلس رسول الله ﷺ والصف الذي يليه سجد الآخرون ، ثم جلسوا جميعاً ، فسلم عليهم جميعاً ، فصلاه بعُنفان ، وصلاه يوم بني سليم⁽³⁾.

الشكل الثالث: صف خلف الإمام وصف وجاه العدو ، فيصلي بالأول ركعة ويثبت قائماً ، ويتموا لأنفسهم ركعة ثم يسلموا وينصرفوا وجاه العدو ، ثم تجيء الطائفة الأخرى ، واختلف في السلام.

(1) والمراد كما في رواية: يوم ذات الرقاع.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4131)، كتاب المغازي ، وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 1157) لتفصيل أشكال صلاة الخوف في عهد النبوة.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (1096) ، باب صلاة الخوف.

والدليل ما في الصحيحين عن صالح بن خوات: عمن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: [أن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً ، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو . وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً ، وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم] ⁽¹⁾.

وفي سنن أبي داود عن سهل بن أبي حثمة نحوه قال: [ثم يقبل الآخرون الذين لم يصلوا فيكبرون وراء الإمام فيركع بهم ويسجد بهم ، ثم يسلم فيقومون فيركعون لأنفسهم الركعة الباقية ، ثم يسلمون] ⁽²⁾.

ورواه البخاري دون ذكر التسليم . قال الألباني رحمه الله: (وهو موقوف ، وما قبله مرفوع ، وفيه سلام الإمام بالطائفة الثانية وهو الأصح) .

الشكل الرابع: يكبرون معاً وإن كانوا مستدبري القبلة ثم يصلي بمن معه ركعة ، ثم يأتون مصاف أصحابهم ويجيء الآخرون فيركعون لأنفسهم ركعة ، ثم يصلي بهم ركعة ثم تقبل الطائفة التي كانت مقابل العدو فيصلون لأنفسهم ركعة ، والإمام قاعد ، ثم يسلم بهم جميعاً .

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن مروان بن الحكم: [أنه سأل أبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة: نعم ، قال مروان: متى؟ فقال أبو هريرة: عام غزوة نجد ، قام رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر ، فقامت معه طائفة ، وطائفة أخرى مقابل العدو ، ظهورهم إلى القبلة ، فكبر رسول الله ﷺ فكبروا جميعاً الذين معه والذين مقابلي العدو ، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة ، وركعت الطائفة التي معه ، ثم سجد فسجدت الطائفة التي تليه ، والآخرون قيام مقابلي العدو ، ثم قام رسول الله ﷺ ، وقامت الطائفة التي معه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم ، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو فركعوا وسجدوا ، ورسول الله ﷺ قائم كما هو ، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى وركعوا معه ، وسجد وسجدوا معه ، ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو ، فركعوا وسجدوا ، ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه ، ثم كان

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4129) ، كتاب المغازي ، ورواه مسلم وغيره .

(2) حديث إسناده صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (1104) ، باب صلاة الخوف .

السلام ، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً ، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ، ولكل رجل من الطائفتين ركعة ركعة⁽¹⁾ .

الشكل الخامس: يصلي بكل طائفة ركعة ثم يسلم ، فيقوم كل صف فيصلون لأنفسهم ركعة .

والدليل ما في الصحيحين عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ صلى بإحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرى مواجهة العدو ، ثم انصرفوا ، فقاموا في مقام أولئك ، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أخرى ، ثم سلم عليهم ، ثم قام هؤلاء فقصوا ركعتهم ، وقام هؤلاء فقصوا ركعتهم]⁽²⁾ .

الشكل السادس: يصلي بكل طائفة ركعة ولا يقضون .

والدليل ما روى أبو داود بسند صحيح عن ثعلبة بن زهدم ، قال: [كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقام فقال: أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا ، فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا]⁽³⁾ .

وقد مضى حديث ابن عباس عند الإمام مسلم وفيه فرض الله تعالى الصلاة في الخوف ركعة .

الشكل السابع: يصلي بكل طائفة ركعتين .

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي بكرة قال: [صلى النبي ﷺ في خوف الظهر ، فصاف بعضهم خلفه وبعضهم بإزاء العدو ، فصلى بهم ركعتين ثم سلم ، فانطلق الذين صلوا معه فوققوا موقف أصحابهم ، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سلم ، فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ، ولأصحابه ركعتين ركعتين]⁽⁴⁾ .

قال أبو داود: (وبذلك كان يفتي الحسن) .

وجملة القول: فصلاة الخوف تُصلى بأشكال مختلفة ، وذلك حسب ما يقرره القائد المسلم .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود ، حديث رقم - (1105) - باب صلاة الخوف .

(2) حديث صحيح . رواه الشيخان عن ابن عمر ، ورواه أبو داود . انظر المرجع السابق (1108) .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم (1109) - باب صلاة الخوف .

(4) حديث صحيح . انظر المرجع السابق - حديث رقم (1112) - الباب السابق .

قال الحافظ ابن كثير: (وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرّون على الجماعة بل يصلّون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة).

ثم ذكر قول الأوزاعي رحمه الله: (إن كان تهيأ الفتح ولم يقدرّوا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدرّوا على الإيماء أخوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين).

وقال: ومن العلماء من قال: (يصلّون والحالة هذه ركعة واحدة). وبه قال أحمد بن حنبل. وقال إسحاق بن راهويه: (أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة تؤمّي بها إيماء)⁽¹⁾.

قلت: فيأوئل من ضيّع صلاة الجماعة في الحضر والرخاء دون عذر ، وقد أبى الله إلا الجماعة حتى في القتال وأثناء الخوف واقتراب العدو ، وقد استدل كثير من الفقهاء من صلاة الخوف وتشريعها على وجوب الصلاة في المسجد مع الجماعة لمن سمع النداء إلا من عذر ، كمرض أو سفر.

وقوله: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

المعنى: تمنى الكفار لو تشغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم ليحملوا عليكم حملة واحدة ، ولينالوا منكم غزاة يكون فيها قتلهم واستباحة عسكرهم.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: [إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى] قال: عبد الرحمن بن عوف وكان جريحاً⁽²⁾.

قال الحافظ ابن حجر: (أي فنزلت الآية). قلت: والتصريح بلفظ النزول أخرجه الحاكم⁽³⁾.

- (1) انظر تفسير ابن كثير - سورة النساء ، آية (102) - ، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1162).
- (2) حديث صحيح. انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة النساء - آية (102).
- (3) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي. وانظر المرجع السابق.

وقوله: ﴿وَحُذُّوا حِذْرَكُمْ﴾. أمرٌ بأخذ الحذر ، لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته .
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. أي: عذاباً مذلاً موجعاً فيه الألم والذل والمهانة .

103 - 104. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد على ذكر الله عقب صلاة الخوف مع ورود الترغيب فيه عقب كل صلاة ، إلا أنه أثناء المعركة وفي ساحات القتال أمر أبلغ ، فإن حاجة المجاهد إلى عون الله ومدده شديدة لإحداث الهزيمة في العدو . ثم تأكيد على وجوب صلاة الجماعة والمحافظة على أوقات الصلوات المكتوبات . ثم حث على تحمل آلام القتال والنزال فإن العدو يألم كما تألمون معشر المسلمين مع أنهم لا يرجون ما ترجون ، وكل أمر يمضي بعلمه وحكمته سبحانه وتعالى .

فقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ .

قال ابن جرير: (بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسّر والعلانية ، وعلى كل حال). وقال ابن كثير: (أي في سائر أحوالكم) .

وقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ . يعني: إذا ذهب الخوف فصلوا صلاتكم بإقامة أركانها وواجباتها وخشوعها وجميع شؤونها ، ويشمل ذلك عند انتهاء القتال أو العودة إلى حياة السلم .

قال قتادة: (يقول: إذا اطمأنتم في أمصاركم ، فأتوا الصلاة). وقال السدي: (فإذا اطمأنتم بعد الخوف). وقال ابن زيد: (فإذا اطمأنتم فصلوا الصلاة ، لا تصلها راكباً ولا ماشياً ولا قاعداً) .

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ . قال ابن عباس: (أي مفروضاً) .

وقال ابن مسعود: (إن للصلاة وقتاً كوقت الحج). وقال زيد بن أسلم: (منجماً ، كلما مضى نجم جاء نجم آخر . يقول: كلما مضى وقت جاء وقت آخر) ذكره ابن جرير . وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة: (يقول: لا تضعفوا في طلب القوم ، فإنكم إن تكونوا تيجعون ، فإنهم ييجعون كما تيجعون ، وترجون من الله الأجر والثواب ما لا يرجون).

أي: كما ينزل بكم ألم الجراح والقتل ، فإنه ينزل بعدوكم ، وأنتم أولى بالصبر منه فإنكم: ﴿ لَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ يعني المثوبة والجنة مقابل القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض .

وفي التنزيل: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران: 140] .

وقوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ . أي يعلم أمثل القضاء والتقدير فيمضيه بحكمته الكاملة ، فهو أحكم الحاكمين .

105 - 109 . قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تَجِدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) .

في هذه الآيات: خطاب من الله لرسوله بأن الكتاب المنزل عليه حق من الله ويتضمن الحق في كل أمره وخبره ، ليحكم به بين الناس ووفق منهاجه ، فلا تدافع به عن خائن . وأمر من الله لرسوله باستغفاره عما سلف من خصومته لذلك الخائن أو همّ بذلك . ثم تحذير من المجادلة عن الخونة ومرتكبي الخيانة والآثام فإن الله لا يحب أهل الخيانة والإثم . الذين يستخفون في الدنيا والله مطلع على سرائرهم ومكرهم وتنتظرهم فضيحة الآخرة ، فإنه إن وجد من يجادل عنهم في الدنيا فمن لهم بين يدي الله يوم القيامة ، ومن يتوكل بالدفاع عنهم؟!!

أخرج الترمذي وابن جرير بسند حسن . . . حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أبيه ، عن جدّه قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : [كان أهل بيت منا يقال لهم : بَنُو أُبَيْرِق : بِشْرٌ وَبُشَيْرٌ وَمُبَشَّرٌ ، وكان بُشَيْرٌ رجلاً منافقاً ، يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم يَنْحَلُهُ ، لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا وقال فلان كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقاة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة⁽¹⁾ من الشام من الدَرَمَكِ⁽²⁾ ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعه بن زيد حملاً من الدَرَمَكِ فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعُدِي عليه من تحت البيت ، فنُقِبَت المشربة ، وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعه فقال : يا ابن أخي ، إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ، فنُقِبَت مشربتنا ، فذهَب بطعامنا وسلاحنا . قال : فتحسّسنا في الدار وسألنا ، فقليل لنا : قد رأينا بني أُبَيْرِق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا تُرَى فيما تُرَى إلا على بعض طعامكم . قال : وكان بنو أُبَيْرِق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجلاً منا له صلاح وإسلام . فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق؟! والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة . قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لي عمي : يا ابن أخي ، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له . قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمّدوا إلى عمي رفاعه بن زيد ، فنُقِبُوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . فقال النبي ﷺ : سآمر في ذلك . فلما سمع بذلك بنو أُبَيْرِق أتوا رجلاً منهم يقال له : أُسَيْر بن عروة فكلّموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمّه ، عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بيّنة ولا ثبت . قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فكلّمته ، فقال : عمّدت إلى أهل بيت ذكّر منهم إسلام وصلاح ،

(1) الضافطة : الضففاط : القوم الذين يجلبون الميرة والطعام إلى المدن وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط

يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغير ذلك .

(2) الدرملك : الدقيق الأبيض .

ترميمهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟ قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلّم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ ، فقال: الله المستعان . فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ يعني بني أبيرق ، ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ رَحِيمًا ﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ قولهم للبيد . ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة . فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عشا أو عسا - الشك من أبي عيسى - في الجاهلية وكنت أرى إسلامه كان مدخولاً ، فلما أتيت به بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشرّكين ، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ﴿ ١١٩ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . فلما نزل على سلافة بنت سعد ، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعت على رأسها ثم خرجت به فرمته في الأبطح ، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ .

قال القرطبي: (معناه على قوانين الشرع ، إما بوحي ونص ، أو بنظر جارٍ على سنن الوحي . وهذا أصل في القياس ، وهو يدل على أن النبي ﷺ إذا رأى شيئاً أصاب ، لأن الله تعالى أراه ذلك ، وقد ضمن الله تعالى لأتباعه العصمة ، فأما أحدنا إذا رأى شيئاً يظنه فلا قطع فيما رآه) .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3036) ، والحاكم (4/ 385) ، وابن جرير الطبري في التفسير (10416) ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وله شواهد . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2432) - كتاب التفسير - سورة النساء - الآيات (105 - 109) .

فهذه الآية تبين أن للنبي ﷺ أن يحكم باجتهاده ، وقد استدل بها علماء الأصول على ذلك .

وفي الصحيحين عن أم سلمة : [أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خضم بباب حُجْرَتِهِ ، فخرج إليهم فقال : ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو ما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحْمِلْها أو لِيَذَرْها] (1) .

وتفصيل هذا الحديث في مسند أحمد ، قالت أم سلمة : [جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد دَرَسَتْ ، ليس عندهما بيّنة ، فقال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشرٌ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيامة» . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقّي لأخي . فقال رسول الله ﷺ : أما إذ قلتما فاذبها فاقسما ، ثم توخّيا الحق بينكما ثم استهِما ، ثم ليُخْلِلْ كل واحد منكما صاحبه] (2) .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ . فيه نهى عن الدفاع عن المبتطل والمتهّم في الجور والخصومة أو عضده والنيابة عنه .

وقوله : ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ .

قال ابن عطية : (وهذا ليس بذنب ، لأن النبي ﷺ إنما دافع على الظاهر وهو يعتقد براءتهم) . قيل : فالمعنى استغفر الله للمذنبين ، وقيل : أمر بالاستغفار على طريق التسبيح . وقيل : الخطاب للنبي ﷺ والمراد بنو أبيرق ، كقوله تعالى : ﴿يَكَايَأُ الْنَبِيُّ أُنْتِ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ ، ذكره القرطبي .

وذهب ابن جرير إلى أن المخاطب النبي ﷺ ليستغفر من ذنبه في خصام الخائن ، وهذا مذهب من جوّز الصغائر على الأنبياء صلوات الله عليهم .

قلت : والعبد يحتاج إلى الاستغفار في كل أحواله ، وكذلك الحاكم والعالم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2680) ، ومسلم (1713) ، وأحمد (203/6) ، وأكثر أهل السنن . من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(2) إسناده جيد . أخرجه أحمد (308/6) - (320/6) ، وأبو داود (3583) ، والبيهقي (66/6) .

والمجتهد ليسلم منهاجه عند الله حتى لو اجتهد فأصاب ، فالاستغفار تطهير للنفس من حظوظها ، وكلما رقيت مرتبة العبد بين الناس احتاج لذلك الاستغفار أكثر ، فالخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ ، فهو للولادة والقضاة والحكام بعده من باب أولى .

وفي صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة]⁽¹⁾ .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة]⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاتًا أَثِيمًا ﴾ .

أي لا تحتاج عن الذين يخونون أنفسهم ، والمجادلة المخاصمة . قيل من الجدل : القتل ، أو من الجدالة وهي وجه الأرض ، فكل واحد من الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها . والخَوَّان : الخائن ، إلا أنه في لفظ أبلغ ، لعظم خيانه .

وقوله : ﴿ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ . أي : يستترون من الناس لئلا يفتضحوا ، وقد غفلوا عن رؤية الله لهم ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ أي بعلمه وسمعه وبصره .

وقوله : ﴿ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ . أي : يقولون ما لا يرضاه تعالى لأهل طاعته . قاله ابن عباس .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ . أي : محصياً حافظاً لا يخفى عليه من أمرهم شيء حتى يوافيهم ويجازيهم به يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ هَآأَنَـتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّدْ لَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

استفهام بمعنى التوبيخ والإنكار ، فهو يشمل كل من خاصم عن الخونة وقام بتدبير أمورهم والدفاع عنهم في أكلهم أموال الناس وحقوقهم بالباطل ، فهم إن عبروا في الدنيا ولم يكشف أمرهم أو ظهوروا بمظهر مزيف كاذب ، فمن لهم يوم القيامة يقوم

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2702) (41) ، وأبو داود في السنن - حديث رقم - (1515) . والغين : ما يتغشى القلب من الغفلات .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (85/11) ، وأخرجه الترمذي في السنن (3255) ، وغيرهما .

بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه وأدخلهم النار ، ومن يتوكل للدفاع عنهم يومئذ ، وقد جعل الوكيل والموكل له في نقاش الحساب ، ومن نوقش الحساب فقد هلك .

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة : [أن النبي ﷺ قال : ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك . قلت : أو ليس يقول الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال : إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك]⁽¹⁾ .

وفي سنن ابن ماجة ومستدرک الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [من أعان على خصومة بظلم ، لم يزل في سخط الله حتى ينزع]⁽²⁾ .

وله شاهد عند أبي داود في السنن ، وعند الحاكم والسياق له عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : [من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه ، حبس في ردغة الخبال ، حتى يأتي بالمخرج مما قال]⁽³⁾ .

110 - 113 . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

في هذه الآيات : ترغيب في التوبة مما اكتسب العبد من الظلم واجترح من الآثام ،

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4939) ، وأخرجه مسلم (2876) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (2320) . انظر صحيح ابن ماجة (1878) . ورواه الحاكم . انظر تخريج الإرواء (2376) ، وصحيح الجامع الصغير - رقم (5925) .
- (3) صحيح الإسناد . أخرجه أبو داود (117/2) ، والحاكم (27/2) ، وأحمد (70/2) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (438) ، وله شواهد .

وتَحْذِيرٌ من الإصرار والتعمد ، أو الافتراء والظلم ونسب المعصية إلى غير صاحبها ، وتَفَضُّلٌ من الله على نبينا ﷺ بالرعاية والحماية من الزلل ، وإنزال الكتاب والسنة عليه وتعليمه الحق والحكم وكان فضل الله عليه عظيماً .

قال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ، قال : أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه ، وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ، ولو كانت ذنوبه أعظم من السماوات والأرض والجيال .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . المعنى : لا يغني أحد عن أحد ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وهذا من علم الله وحكمته .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ . هذا في الذي يرمي بما أتى من المعصية من هو بريء ، فقد أتى فرية وكذباً وهو البهتان ، وتحمل وزراً عظيماً ، يبين عن أمر متحمل وجراءته على ربه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : [أن النبي ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته]⁽¹⁾ .

وفي لغة العرب : بَهْتَهُ بُهْتًا وَبُهْتَانًا إِذَا قَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَبُهْتٌ : دُهْشٌ وَتَحِيرٌ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ . قيل : بأن نبهك للحق ، وقيل : بالنبوة والعصمة . ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ عن الحق ، وذلك في شأن سؤالهم رسول الله ﷺ أن يبرئ ابن أبيرق من التهمة ويلحقها اليهودي .

وقوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ - لأن وبال ذلك راجع عليهم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ - لأنك معصوم وقد تكفل الله بحمايتك من الزلل .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . أي : القرآن والسنة . قيل هذا ابتداء ، وقيل الواو للحال .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2589) ، وأبو داود (4874) ، وأحمد (230/2) ، وغيرهم .

قال القرطبي: (فالكلام متصل ، أي ما يضرّونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن. «والحكمة» القضاء بالوحي).

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾. أي من التشريع وفصل القضاء والأحكام.

وقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ - بكل ما سبق بيانه وبغيره من النعم الكبيرة الأخرى.

114 - 115. قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٩) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٢٠).

في هذه الآيات: الندب إلى الصدقة وفعل الخيرات والإصلاح بين الناس والنجوى بنحو ذلك ، والتحذير من ترك سنة الرسول ﷺ ومنهاج المؤمنين .

قال ابن جرير: (لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً).

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. المعروف: هو ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير. والإصلاح بين الناس: يعني بين المتخاصمين ليعودوا إلى الألفة ووحدّة الكلمة ويسدوا الباب على الشياطين.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه ، عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ليس الكذاب الذي يُصْلِحُ بين الناس فيَنمي خيراً أو يقول خيراً]⁽¹⁾.

وقالت: [لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها]⁽²⁾.

وفي سنن أبي داود والترمذي بسند جيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2692) ، كتاب الصلح. باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس. من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (403/6) ، وأبو داود (4920) ، وانظر صحيح مسلم (2605) ، ورواه الترمذي (1938) ، وانظر سنن البيهقي (10/197) ، وصحيح ابن حبان (5733).

[ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين . قال : وفساد ذات البين هي الحالقة] (1) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

أي : من يأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس يريد بذلك وجه الله سبحانه ، فإن الله سبحانه قد تكفل له بأعظم الثواب وأحسن الأجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

أي : من يفارق طريق رسول الله أو يعاديه ، ويمضي على غير سبيل ومنهاج أصحابه المؤمنين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فإن الله يتوعده أسوأ العذاب في جهنم وبئس المصير .

وقد عوّل الشافعي رحمه الله في هذه الآية على الاحتجاج بكون الإجماع حجة تحرّم مخالفته .

116 - 122 . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخِذْنَ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَتَيْتَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكُ خَلْقُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجْدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ .

في هذه الآيات : ترهيب من مغبة الشرك وسوء عاقبته عند الله وإمكانية مغفرة ما دونه

(1) إسناده جيد . أخرجه أبو داود (4919) ، والترمذي (2519) ، وأحمد (444/6) ، وغيرهم .

من الكبائر والصغائر ، فالشرك ضلال بعيد ، إنهم يدعون أوثاناً ويزعمون الملائكة بناتاً ، وهم يدعون شيطاناً مريداً استحق لعنة الله فتوعد بإضلال الذرية من بني آدم ، بأمرهم بتغيير خلق الله وتبتيك آذان الأنعام واتباع الجاهلية ، فيتوعد الله من يطيعه بصلي نار جهنم . وأما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فقد وعدهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار فيها نعيم وخلود ، والله أصدق القائلين .

قال السدي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، يقول : من يجتنب الكبائر من المسلمين).

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ . أي زال بشركه عن قصد السبيل ، وطريق الحق زوالاً شديداً ، فالضياع كل الضياع ، والضلال كل الضلال في الشرك .

وقوله : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا ﴾ - فيه أكثر من تأويل :

1 - إن يدعون من دونه إلا اللات والعزى ومناة ، فسماهن الله إناثاً بتسمية المشركين إياهن بتسمية الإناث . قال السدي : (يسمونهم «إناثاً» : لات ومناة وعزى).

وقال أبو مالك : (اللات والعزى ومناة ، كلها مؤنث). وقال ابن زيد : (ألتهن ، اللات والعزى ويساف ونائلة ، إناث ، يدعونهم من دون الله . وقرأ : ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾).

2 - قيل بل المعنى : إن يدعون من دونه إلا مواتاً لا روح فيه .

قال ابن عباس : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا ﴾ يقول : ميتاً . وقال قتادة : (إلا ميتاً لا روح فيه). وقال الحسن : (و «الإناث» كل شيء ميت ليس فيه روح : خشبة يابسة أو حجر يابس).

3 - قيل بل عني بذلك قول المشركين : الملائكة بنات الله .

قال الضحاك : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا ﴾ ، قال : الملائكة ، يزعمون أنهم بنات الله .

4 - قيل بل المعنى : (الإناث : الأوثان). قال مجاهد : («إناثاً» . أوثاناً).

والقول الأول هو الراجح وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله .

وقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾. قال قتادة: (تَمَرَّدَ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ). والمقصود أنه متمرّد على الله بمخالفة أمره وتكبّره وغروره.

وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾. أي: أخزاه وأقصاه وأبعده من كل خير ، فهو ملعون رجيم.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾. قال الضحاك: (معلوماً).

فالشیطان أخذ على نفسه إذ أبعد الله إغواء ذرية بني آدم حسداً وعلواً وبغياً ، بتزيين الضلالة لهم حتى يزيلهم عن منهج طريق الهدى ويركبوا طريق الضلال ، فمن اتبع ذلك فهو من نصيبه المعلوم ، وحظّه المقسوم ، ويكون قد صدّق بذلك ظن إبليس وأمانيه إذ رضي لنفسه أن يكون جزءاً من حظ أمانى إبليس اللعين.

وقوله: ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مِئْتَهُمْ﴾. أي: لأصدنهم عن الطريق ، ولأزيغنهم بالأمانى الكاذبة التي تملأ نفوسهم.

وقوله: ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَذَاكَ الْأَنْعَمِ﴾. قال قتادة: (البتك في البحيرة والسائبة ، كانوا يبتكون آذانها لطواغيتهم). وقال السدي: (فيشقونها ، فيجعلونها بحيرة).

وقال عكرمة: (دين شرعه لهم إبليس ، كهيئة البحائر والسائب).

والمقصود: تشقيق آذان بعض الأنعام وجعلها علامة وسمّة للبحيرة والسائبة والوصيلة. فكانت العرب في الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر شقوا آذنها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعبي المنقطع به لم يركبها. وهذه هي البحيرة.

وأما السائبة: فهي الناقة تسيب للأصنام لنحو بُرء من مرض أو نجاة في حرب. وسيأتي تفصيل ذلك في آية المائدة إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَعْبِرْتُ خَلَقَ اللَّهُ﴾. قال ابن عباس: (يعني بذلك خصاء الدواب). وقال الحسن: (الوشم). وقال مجاهد: (الفطرة ، دين الله).

قلت: وكل ما يجري اليوم من عمليات التجميل والوشم والنمص وتغيير لون البشرة وتفلج الأسنان للحسن وغير ذلك مما يشير إلى عدم الرضا عن الله في خلقه داخل في مفهوم هذه الآية ووعيدها.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه : [أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة]⁽¹⁾.

والواشمة هي التي تغرز إبراً في الجلد ليخرج الدم وتذّر بموضعه كحل أو نيل ليتلون به ، والمستوشمة من تطلب أن يفعل بها ذلك .

والوشر تحديد الأسنان ، وقد جاء النهي عن تفليج الأسنان للحسن .

ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال : [لعن الله الواشحات والمستوشحات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله]⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم]⁽³⁾.

والمقصود أن خلق الله هو الأقوم والأمثل ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ . وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الأحسن والأكمل ، ومخالفة ذلك اتباع لسبيل الشياطين .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو يُنصرانه ، أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاءً ، هل تحسون فيها من جدعاء]⁽⁴⁾.

وقوله : ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ .

أي : من يطع الشيطان ويرضاه ويواليه نصيراً من دون الله فقد أورد نفسه موارد العطب والخسارة والهلاك .

وقوله : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾ . قال ابن جرير : (يعد الشيطان المريد أوليائه الذين هم نصيئه المفروض : أن يكون لهم نصيراً ممن أرادهم بسوء ، وظهيراً لهم عليه ، يمنعهم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (317/10) ، ومسلم (2124) ، وأخرجه الترمذي (2784) ، وغيرهم . من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (313/10) ، و (314/10) ، وأخرجه مسلم (2125) ، وغيرهما . من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2865) ، وأحمد (4/266) ، وابن حبان (653) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4775) ، ومسلم (2658) ، وأحمد (253/2) ، وغيرهم .

منه ويدافع عنهم ، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروهمم والفالج عليهم). وقال ابن كثير: (يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافتري في ذلك).

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. أي: إلا باطلاً وكذباً ومكراً.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾. أي: جهنم مأوى الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله ، ولا يجدون عنها معدلاً يعدلون إليه ، ولا مندوحة ولا مناص ولا خلاص. وفي لغة العرب: حاص فلان عن أمر فهو يحيص حصاً إذا عدل عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

هذه هي الصورة المقابلة لتلك الصورة ، بساتين نعيم وجمال وخلود ، وأنهار تجري في ربوعها ، أعدّها الله نزلاً للقائمين بأمره المتنكرين لسبل الشيطان وغروره ومنهاجه ، وعدّ من الله وهو أصدق من وعد سبحانه وتعالى ، وأصدق من قال.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمّرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه مُنذِر جيش يقول: صَبَحَكُمْ مَسَاكُم... ويقول: أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد].

وفي روايات أخرى عند النسائي والبيهقي وابن ماجة وأحمد - واللفظ للنسائي: [إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكلُّ محدثة بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النار]⁽¹⁾.

123 - 126. قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَجْزِ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

(1) حديث صحيح. انظر للروايات المختلفة صحيح مسلم (867) ، وسنن النسائي (3/ 188) ، وابن ماجة (45) ، وأحمد (3/ 310 - 311 - 337 - 338 - 371) ، والبيهقي (3/ 213).

نَقِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مُّحِيطًا .

في هذه الآيات: تأكيد على مجازاة الذنوب والخطايا في الدنيا والآخرة وما يدفع الله أكثر، وترغيب في إتباع الخطايا بالتوبة والعمل الصالح، فإن ذلك من أحسن ما يعالج به الزلل، ثم تنبيه لثواب الإخلاص لله في المنهج واتباع ملة التوحيد ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو أعلى مقامات العمل، والله له كل ما في هذا الكون الفسيح، وهو محيط بكل شيء، قد وسع كل شيء علماً.

يروى ابن جرير بسنده عن مسروق قال: (تفاخر النصارى وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾).

وكذلك روى عن قتادة قال: (ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبئنا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم! وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبئنا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله! فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فأفجع الله حجة المسلمين على من ناوهم من أهل الأديان).

وذكر عن السدي نحوه وفي آخره: (ثم فضل الله المؤمنين عليهم فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾).

ثم قال ابن جرير: (إنما هو خبر من الله عن أمانى أولياء الشيطان. وما إليه صائرة أمانيتهم، مع سيئ أعمالهم من سوء الجزاء، وما إليه صائرة أعمال أولياء الله من حسن الجزاء. وإنما ضم جل ثناؤه أهل الكتاب إلى المشركين في قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، لأن أمانى الفريقين من تمينة الشيطان إياهم التي وعدهم أن يمنيهموها بقوله: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مَيِّتَتُهُمْ وَلَا مُرْتَهَنُهُمْ﴾).

وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. أي كل من عمل سوءاً صغيراً أو كبيراً من مؤمن أو كافر، جوزي به. وفي هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج سعيد بن منصور بسند حسن عن عبيد بن عمير ، عن عائشة :
[أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ، فقال: إنا لنُجْزَى بكل عمل؟
هلكنا إذن. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: نعم يُجْزَى به المؤمن في الدنيا في نفسه وفي
جسده فيما يؤذيه⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: [لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا
وسددوا ، ففي كل ما يُصاب به المسلم كفارة ، حتى التكبّة يُتَكَبَّها ، أو الشوكة
يُشَاكها⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا
رسول الله ﷺ يقول: [ما يُصيبُ المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا سقمٍ ولا حَزَنٍ ، حتى
الهمُّ يَهْمُهُ إلا كفر الله بها من سيئاته]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن زينب بنت كعب بن عجرة عن أبي
سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أ رأيت هذه الأمراض التي تُصيبنا ، ما لنا
بها؟ قال: كفارات. قال أبي: وإن قلت. قال: وإن شوكة فما فوقها. قال: فدعا أبي
على نفسه أنه لا يفارقه الوعكُ حتى يموت ، في أن لا يشغله عن حجٍّ ولا عُمْرة
ولا جهاد في سبيل الله ، ولا صلاة مكتوبة في جماعة ، فما مسّه إنسان إلا وجد حرّه ،
حتى مات رضي الله عنه⁽⁴⁾.

وذكر ابن جرير بسنده عن الربيع بن زياد قال: (قلت لأبي بن كعب: قول الله تبارك
وتعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ، والله إن كان كل ما عملنا جُزينا به هلكنا! قال:
والله إن كنتُ لأراك أفقّة مما أرى! لا يُصيب رجلاً خدشٌ ولا عثرةٌ إلا بذنب ، وما يعفو
الله عنه أكثر ، حتى اللدغة والنّفحة).

(1) إسناده حسن ، رجاله ثقات. انظر تفسير ابن كثير ، حديث رقم (2279).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2574) ، كتاب البر والصلة ، وأخرجه
أحمد في المسند (2/ 248).

(3) حديث صحيح؛ أخرجه البخاري (5641) ، ومسلم (2573) ، وأحمد (4/ 3) ، (48/ 3) ،
وغيرهم. من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(4) حديث رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (3/ 23) ، ورواه أبو يعلى (995) ، وله شواهد.

ثم روى عن أبي المهلب قال: دخلت على عائشة كي أسألها عن هذه الآية: ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ ، قالت: (ذاك ما يصيبكم في الدنيا).

والخلاصة: لا مَفَرَّ من تذوق أثر الخطايا والذنوب في الحياة الدنيا قبل الآخرة ، وما يدفع الله أكثر ، ثم إن من تاب وتاب الله عليه نجاه يوم القيامة وستر عليه .

يروى الطبراني بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اختلج عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بذَنْبٍ ، وما يدفعُ الله عنه أكثر⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَلَا يَحْذَرُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ . أي لا يجد فاعل المعصية من بعد الله من يحميه من غضب الله وبأسه أو ينصره من عقاب الله وألمه .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ .

قال السدي: (أبى أن يقبل الإيمان إلا بالعمل الصالح ، وأبى أن يقبل الإسلام إلا بالإحسان).

والمقصود: لا بد من العمل الصالح مع الإيمان ، فإن الإيمان يشمل القول والعمل معاً ، والموعود الجنة ولا يظلم أحد نقيراً . قال مجاهد: (النقير ، الذي يكون في ظهر النواة). وقال عطية: (النقير ، الذي في وسط النواة).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ .

فإن شرط القبول: الإخلاص وسلامة المنهج . والمنهج هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ملة التوحيد وإفراد الله بالتعظيم .

قال القاسمي رحمه الله: ((«وهو محسن» أي آت بالحسنات تارك للسيئات . أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي)).

فخلاصة المعنى: أحسن الدين عند الله ما كان:

(1) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2215) .

1 - على الإخلاص ابتغاء وجهه تعالى لا شريك له . أي على منهاج التوحيد ملة أبينا إبراهيم .

2 - على منهج الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ في العمل الصالح وبلوغ مرتبة الإحسان .

وقوله : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ . أي : ولياً . والخلة أرفع درجات المحبة ، وقد ثبتت لبنينا محمد ﷺ أيضاً .

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : [أما بعد ، أيها الناس ، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً ، لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله] (1) .

وفي صحيح مسلم من حديث جندب بن عبد الله البجلي وعبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً] (2) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ .

المعنى : كل ما في هذا الكون الفسيح : مخلوقاته وجماداته وما في أرجاء سماواته وأرضه تحت تصرفه سبحانه ، وعلمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية فله الكبرياء وحده لا شريك له .

127 . قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَكُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّبَاكِ وَأَنْ تَقُوْمُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ .

في هذه الآية : 1 - تحذير من نكاح اليتيمة - في حجر صاحبها - دون أن يمهرها مهر مثلها . 2 - وتحذير إن لم يكن له رغبة في نكاحها أن يعضلها ويمنعها عن الأزواج خشية

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3904) ، ومسلم (2383) ح (6) - واللفظ له . وأخرجه الترمذي (3660) ، وابن حبان (6861) بلفظ مشابه ، وله ألفاظ متقاربة في الصحيحين .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (532) ح (23) ، وانظر النسائي في «التفسير» (143) .

أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها . 3 - دعوة إلى العدل في القسمة والمواريث .

أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير : [أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ - فذكرت نحو ما تقدم في أول السورة - قال : قالت : ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾] .

وفي لفظ البخاري عن عائشة رضي الله عنها : [﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ ، قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة ، هو وليها ووارثها ، قد شركته في ماله حتى في العَدَقِ ، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلًا فيشركه في ماله بما شركته ، فيعضلها ، فنزلت هذه الآية ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت : [وقول الله عز وجل : ﴿ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنها أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهن عنهن ⁽²⁾ .

ويلخص معنى الآية ما ذكره علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس :

قال ابن عباس : (كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها فحَرَّمَ الله ذلك ونهى عنه) .

وقوله : ﴿ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾ .

قال السدي : (كانوا لا يورثون جارية ولا غلاماً صغيراً ، فأمرهم الله أن يقوموا لليتامى بالقسط . و«القسط» : أن يعطى كل ذي حق منهم حقه ، ذكراً كان أو أنثى ،

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (4600) ، وصحيح مسلم (3018) ، وسنن أبي داود (2068) ، والنسائي في «التفسير» (144) ، والبيهقي (141/7) ، وانظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» للرواية الأولى - سورة النساء - آية (127) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (2494) ، ومسلم (3018) من حديث عائشة مطولاً .

الصغير منهم بمنزلة الكبير). وبنحوه عن ابن عباس وفيه: (كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله: «لا تَوْتِنِهْنِ مَا كَتَبَ لَهُنَّ»).

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

دعوة إلى التجارة الربحية - مع الله سبحانه - ، فإن الله لم يزل عالماً بما يكون منكم ، وهو يحصي ذلك ليجازيكم به يوم الحساب .

128 - 130 . قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٢٩ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ۝١٣٠﴾ .

في هذه الآيات: إرشاد للمرأة الخائفة من إعراض زوجها عنها لبغض أو كراهة أن تترك له يومها أو تضع عنه بعض الواجب لها من حق عليه لاستدامة مقامه على عقدها والصلح خير من الفراق عند المشاحة . وإرشاد للزوج أن يتجاوز ما يجده من كراهية ويحسن لزوجته والله لا يخفي عليه هذا الإحسان ويجزي به . ثم في الآيات تنبيه لعدم طاقة الرجال غالباً في العدل بين النساء في المحبة ، وتحذير من الجور عند الميل لواحدة دون أخرى ، وإن تصلحوا وتعدلوا يستر عليكم سبحانه ما فات من الجور . فإن أبت المرأة التي أعرض عنها زوجها إلى ضررتها لجمال أو شباب أو شيء مما تميل إليه النفوس الصلح بصفحةا لزوجها عن يومها وليلتها وطلبت حقها كاملاً بالقسم والنفقة وأبى الزوج الإحسان وتفرقا بطلاق فإن الله يغني كلًّا من سعته وكان الله واسعاً لهما في رزقه حكيماً فيما قضى بينهما من الفرقة والطلاق .

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾] قالت: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها

فتقول: أجعلك من شأني في حل ، فنزلت هذه الآية في ذلك⁽¹⁾.

وأخرج أبو داود والحاكم عن عائشة - قالت لعروة -: [يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا ، وكان قلّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة من غير ميسس ، حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنّت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله! يومي لعائشة ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منها. قالت: تقول في ذلك أنزل الله عز وجل وفي أشباهها أراه قال: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا﴾⁽²⁾.

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن رافع بن خديج: [أنه كانت تحته امرأة قد خلا من سنّها فتزوج عليها شابة ، فأثر البكر عليها ، فأبت امرأته الأولى أن تقرّ على ذلك ، فطلقها تطليقة ، حتى إذا بقي من أجلها يسير قال: إِنْ شِئْتَ رَاجَعْتُكَ وَصَبَرْتَ عَلَى الْأَمْرِ ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْتُكَ حَتَّى يَخْلُوَ أَجْلُكَ. قالت: بل راجعني أصبر على الأثرة ، ثم أثر عليها فلم تصبر على الأثرة ، فطلقها الأخرى وأثر عليها الشابة. قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾⁽³⁾.

و خلاصة المعنى:

لو خافت المرأة نفور زوجها عنها فلها أن تسقط عنه بعض حقها في النفقة أو الكسوة أو المبيت ، وله أن يقبل ذلك منها. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾. ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ، أي: من الفراق. وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

أي: وأحضرت أنفس النساء الشح على أنصبائهن من أنفس أزواجهن وأمواهم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2450) و(5131) ، وأخرجه مسلم (3021) ح (13).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2135) ، والحاكم (186/2) ، والبيهقي (74/7 - 75).

وأخرج نحوه الترمذي عن ابن عباس قال: [خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ، ففعل فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز]. صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2434) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (128).

(3) حديث صحيح. انظر مستدرک الحاكم (308/2 - 309) ، والصحيح المسند من أسباب النزول - سورة النساء ، آية (128). من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

قال ابن عباس: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ ، قال: نصيبها منه). وقال عطاء: (في الأيام والنفقة). وقال سعيد بن جبیر: (المرأة تشحُّ على مال زوجها ونفسه).

وقيل: وأحضرت نفس كل واحد من الرجل والمرأة ، الشحُّ بحقه قيل صاحبه. والأول أرجح واختاره ابن جرير. فتأويل المعنى: وأحضرت أنفس النساء أهواءهن ، من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن ، والشح بذلك على ضرائرهن. قال ابن عباس: (والشح: هواه في الشيء يحرص عليه).

فالصلح خير من الفراق عند المشاحة ، ولذلك صالحت سودة بنت زمعة رسول الله ﷺ حين كبرت وعزم على فراقها ، على أن يمسكها وتهب يومها لعائشة ، فقبل ذلك منها وأبقاها.

ففي الصحيحين عن عائشة قالت: [لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة ، فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَأَنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

قال ابن كثير: (وإن تَحَسَّنُوا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتَقَسَّمُوا لهنَّ أسوة أمثالهن ، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء).

وقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

قال مجاهد: (واجب ، أن لا تستطيعوا العدل بينهن). وقال عبيدة: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. قال: بنفسه في الحب والجماع).

والمقصود: مهما حاول الرجل العدل الظاهر في المبيت والنفقة ، فإنه لا بد من التفاوت في أمر المحبة والشهوة والجماع.

وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾. أي: إن حصل الميل فانتبهوا من المبالغة المؤذية. وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾. أي: فتبقى الأخرى معلقة. قال قتادة: (كالمسجونة). وقال ابن عباس: (تذروها لا هي أيم ، ولا هي ذات زوج). وقال الربيع: (لا مطلقة ولا ذات بعل). وقال الضحاك: (لا تدعها كأنها ليس لها زوج).

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (212) ، وأخرجه مسلم (1463) ، وأبو يعلى (4621).

رسول الله ﷺ: [من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شقيّه ساقطاً]⁽¹⁾. وفي رواية: (وشقّه مائل).

وقوله: ﴿وَأِنْ تَصَلُّواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إن تداركتم ما حصل منكم من ميل أو ظلم فأصلحتهم واتفقتم الله عاد عليكم سبحانه بالمغفرة والتوبة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَنْفَرَا يُغْنِ اللَّهُ عَنْكَ كُلَّ مِمَّنْ سَعَيْتَ. وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

يعني إن تعذر كل ما فيه إصلاح وكان الفراق آخر المطاف ، فإن الله سبحانه بكرمه يغني كل واحد منهما فيعوضه خيراً من صاحبه ، ويبارك له في حياة جديدة أفضل ، إنه سبحانه واسع الفضل والكرم ، عظيم المنّ والعطاء ، حكيم في كل ما يقدر ويشرع.

131 - 134. قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أنه الحاكم لهذا الكون ، فكل ما في السماوات والأرض ملك له يمضي بأمره ، وليس للإنسان في ذلك من شيء إلا أن يتقي الله ، فهي وصية الله لكل الأمم والله هو الغني الحميد ، وهو الوكيل القائم على كل نفس بما كسبت ، ولو شاء أذهبكم وأتى بقوم آخرين يطيعونه ولا يعصونه ، فمن أراد هذه الدنيا فليعلم أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، فليكن سعيه لهما جميعاً وإن الآخرة خير وأبقى.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2133)، والترمذي (1141)، والنسائي (63/7)، وأحمد (471/2)، وابن أبي شيبة (4/388)، وغيرهم.

فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال ابن جرير: (ولله جميع ملك ما حوته السماوات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعِنَ اللَّهُ كِلَا مِّنْ سَعَتِهِ﴾، تنبيهاً منه خلقه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كل ذي وحشة).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

التقوى عماد كل أمر، وعنوان كل عمل، فبدونها يهزل العمل ويصبح صورة وحركة بلا مضمون. قال تعالى: ﴿وَتَسْرُدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ﴾. وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَالِيهِ﴾.

والتقوى حالة في القلب يرجح بها تعظيم أمر الله ومحابه، فتنعكس بالخوف منه سبحانه على أعمال الجوارح. وقد أورد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان قول ابن عمر رضي الله عنه: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات... (1)].

ولأهمية التقوى، أوصى الله بها أهل الكتاب قبلنا - أهل التوراة والإنجيل - كما أوصانا بها، «اتقوا الله» أي احذروا الوقوع في ما يسخطه ويغضبه.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

أي: إن كفرتم فلا تضرون بخلافكم وصيته سبحانه، ورضاكم بالكفر إلا أنفسكم فالله ملك هذا الكون الفسيح ذي السماوات السبع والأرضين السبع.

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2559)، كتاب البر والصلة.

وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ، قال: غنياً عن خلقه ، «حميداً» ، قال: مستحمداً إليهم) ذكره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ . قال قتادة: (حفيظاً).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا . قال سعيد ، عن قتادة: (قادرٌ والله ربنا على ذلك: أن يهلك من يشاء من خلقه ، ويأتي بآخرين من بعدهم).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قال ابن كثير: (أي: بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرنَّ قاصرُ الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن هِمَّتُه ساميةً إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة ، بين الناس وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾).

قلت: بل طلب العبد سعادة الآخرة بصدق يورثه سعادة الدنيا والآخرة ، وحرصه على الآخرة بصدق يقابله مجيء الدنيا إليه وهي راغمة .

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [من كانت الآخرة هِمَّةً ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا هِمَّةً ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له] (1) .

135 - 136 . قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ

لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (76/2) . وله شاهد عند ابن ماجه (524/2) ، وابن حبان (72) من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (949 - 950) .

أَزَلَّ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ .

في هذه الآيات : أُمِرُ مِنَ اللَّهِ عباده بإقامة العدل والقسط وأداء الشهادة ابتغاء وجه الله دون تحريف أو كتمان ، وإن كانت الشهادة على الوالدين أو الأقربين أو على غني أو فقير ، فأياكم والهوى أو التحاكم إلى العواطف وميل النفس فإن فعلتم نالكم الوعيد والتهديد . ثم أُمِرُ للمؤمنين بالاستمرار على منهج الإيمان والثبات عليه فإن من كفر به أو حاد عنه فقد سلك سبيل الضلال يعقبه الهلاك .

قال قتادة : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ الآية ، هذا في الشهادة . فأقم الشهادة ، يا ابن آدم ، ولو على نفسك ، أو الوالدين ، أو على ذوي قرابتك ، أو شَرَفٍ ⁽¹⁾ قومك ، فإنما الشهادة لله وليست للناس ، وإن الله رضي العدل لنفسه ، والإقسط والعدل ميزان الله في الأرض ، به يردّ الله من الشديد على الضعيف ، ومن الكاذب على الصادق ، ومن المبطل على المحق .

وقال ابن زيد : (لا يحملك فقر هذا على أن ترحمه فلا تقيم عليه الشهادة . قال : يقول هذا للشاهد) .

وقوله : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ . أي عن الحق ، فتجوروا . وفيه ثلاثة أقوال متقاربة :

- 1 - إن عدلتم عن الحق كنتم من الجائرين ممن يتبع الهوى .
- 2 - لا تتبعوا أهواء نفوسكم هرباً من القسط في إقامة الشهادة .
- 3 - لا تتبعوا الهوى لتعدلوا ، بمعنى النهي عن ذلك لأجل إقامة العدل .

والخلاصة : نهى عن اتباع الهوى وتقديم العصبية والتحاكم إلى العاطفة عند الحكم ، فإن ذلك يبعد من القسط وإقامة العدل . وفي التنزيل : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

(1) شَرَفٌ : جمع شريف ، كما يجمع «شريف» على أشرف وشرفاء .

وقوله: ﴿وَلِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعِزُّوا فَأِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اللي: هو التحريف وتعمد الكذب ، والإعراض: كتمان الشهادة وتركها. فإلى أقوال أهل التفسير:

1 - قال ابن عباس: (يقول: تلوي لسانك بغير الحق ، وهي اللجلجة ، فلا تقيم الشهادة على وجهها. والإعراض: الترك).

2 - قال مجاهد: («وإن تلوا» ، بتبديل الشهادة ، و«الإعراض» كتمانها). وقال: (إن تحرفوا أو تركوا).

3 - عن ابن عباس قال: (هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي ، فيكون لي القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر). فوجه الخطاب هنا إلى الحكام ، عندما يميل الحاكم في الحكم لأحد الخصمين على الآخر.

واختار ابن جرير المعنى الأول والثاني. قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويل الثالث والله تعالى أعلم.

وفي مسند أحمد بسند حسن عن الشريد بن سويد عن النبي ﷺ قال: [لي الواحد يُجَلَّ عرضه وعقوبته]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. أي: مطلع على قضائكم وشهادتكم ليجازيكم بها.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيتته والاستمرار عليه).

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ يشمل جميع الكتب المتقدمة. والفرق بين «نزل» و«أنزل» أن القرآن نزل منجماً مفرقاً على الوقائع ، بينما أنزلت الكتب السابقة دفعة واحدة.

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3628) ، وابن ماجه (2427). وأخرجه أحمد والنسائي والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5363). قال ابن الأعرابي: (عقوبته حبسه ، وعرضه شكايته).

يروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن عامر الشعبي ، عن علي رضي الله عنه ، أنه قال : (يستتاب المرتد ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا ثُمَّ يُكْنِي اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾) .

وقوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . أي : سوجعاً في نار جهنم .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . أي : يوالونهم ويسرون إليهم بالموودة ، وإذا خلوا بهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون . يعني بأهل الإيمان ، يحرصون على عرض الدنيا ورياستها وزينتها الفانية على حساب نصرته الدين الحق والجهاد في سبيل الله .

وقوله : ﴿ أَيْبِنُغُونَ عَلَيْهِمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

هل يريد هؤلاء الذين ينافقون للذين كفروا العزة من هؤلاء؟! فهؤلاء الكفار هم الأذلاء في الدنيا والآخرة ، رغم ما يظهر للناس من سلطانهم وكبرهم وغرورهم ، فإن هذا الظاهر من أسباب العلو والبغي سيفنى عما قريب ، وتبقى العزة لله جميعاً . كما قال جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وكما قال جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

إن فخر الأمة بالانتساب لغير الإسلام والاعتزاز بغير الله هو مصدر ذلها وشقائها ، فلا فخر للأمة ولا فرح لها إلا بنصر هذا الدين العظيم ، وانهايار كل مناهج النفاق والكفر والانحراف في الأرض ، فلا بد أن يرتبط أي فرح للأمة بمعنى من معاني نصر دينها .

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لينتهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجعل الذي يذْهَبُ الحُرَّةُ بأنفه ، إن الله أذهبَ عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من التراب] ⁽¹⁾ .

وكذلك أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن أبي ، عن النبي ﷺ قال : [انتسب رجلان على عهد موسى ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدَّ

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3955) . انظر صحيح الترمذي (3100) . ورواه أحمد . انظر تخريج المشكاة (4899) ، وصحيح الجامع الصغير - رقم (5358) .

تسعة فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام. فأوحى الله إلى موسى ، أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾.

هذه الآية العظيمة - آية المفاصلة - أو - آية الولاء والبراء - بين المؤمنين والمنافقين أو الكافرين ، فلا يجوز للمسلم أن يجلس في مكان يُستهزأ به في دين الله ، ولا يجوز له أن يقعد مع قوم ينالون من أمر الله أو منهاجه أو من رسله ، أو يتحاكمون لغير هذا الدين العظيم ، الذي ارتضاه سبحانه منهجاً فريداً للعالمين. فإن استمر في الجلوس معهم وهم على ذلك كان مثلهم ، وتوعده الله أن يجمعه معهم في العذاب يوم القيامة.

وقد كان الوعيد أخف في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُ﴾ وهي مكبة. فجاء التهديد الشديد في آية النساء - وهي مدنية - : ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾. أي في المآثم.

أخرج الترمذي والدارمي والحاكم بسند حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر]⁽²⁾.

قال شيخ الإسلام: (فاتباع سنة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله ، كما أن الجهاد في سبيل الله ، وموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها)⁽³⁾.

وفي الصحيحين وسنن ابن ماجه عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال: [تكون دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، هم قومٌ من جلدتنا ، يتكلمون بألسنتنا ،

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 128) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 188).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2801) ، والدارمي (2/ 112). وانظر صحيح الجامع (6382).

(3) انظر تفصيل ذلك في «التحفة العراقية»: ص (76).

فالزمر جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم تكن جماعة ولا إمام فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (أي : كما اشرركوا في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال ، وشراب الحميم والغسلين لا الزلال) .

141 - 143 . قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۚ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ مَذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَ لَهُ سَبِيلًا ۚ ﴾ .

في هذه الآيات : فضح لسلوك المنافقين وطبيعة قلوبهم المريضة الهزيلة ، فهم ينتظرون السوء والمصائب أن تحل بالمؤمنين ليفرحوا وليشمتوا ، فإن ظهر المسلمون جاؤوا يدعون النصره ويطالبون بالاشتراك في الغنيمة . إنهم يخادعون أنفسهم والله يمكر بهم لقاء قيامهم الهزيل إلى الصلاة ، ومقابل الرياء الذي شغل عليهم قلوبهم ، حتى أصبحوا مذبيين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ولا سبيل ولا فلاح لمن أعماه الله عن سواء السبيل .

قال ابن جريج : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ : المنافقون يتربصون بالمسلمين ، ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ ، قال : إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ ، قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون ، ﴿ وَإِنْ

(1) حديث صحيح . رواه البخاري في الفتن (7084) ، ورواه مسلم في الإمارة (1847) ، ورواه ابن ماجه . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2991) .

كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴿١٤١﴾ ، يصيبونه من المسلمين ، قال المنافقون للكافرين : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قد كنا نبسطهم عنكم).

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ من الاستحواذ ، وهو الغلبة. قال السدي : (نغلب عليكم). وقال ابن جريج : (ألم نبين لكم أنا معكم على ما أنتم عليه). وفي التزويل : ﴿ أَسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة : 19].

وقوله : ﴿ فَأَلَّهُ يَحْكُمَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . قال السدي : (حُجَّة). وقال ابن عباس : (ذاك يوم القيامة).

وقد يكون المعنى في الدنيا ، أي : لن تكون العاقبة والغلبة للكفار على المؤمنين وإن كانت لهم جولة ، فالنهاية لا بد أن تكون بالنصر الأكيد للمؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ﴾ . ولقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

قال ابن كثير : (وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصحّ قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم من الكافر ، لما في صحّة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال).

وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ .

قال السدي : (يعطيهم يوم القيامة نوراً يمشون به مع المسلمين كما كانوا معهم في الدنيا ، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفئه ، فيقومون في ظلمتهم ، ويضرب بينهم بالسُّور).

والمقصود أن الله سبحانه يستدرجهم في طغيانهم ويخذلهم عن الحق الذي عادوه إلى حيث هلاكهم وهم لا يشعرون ، كما قال جل ذكره : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَّكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : 54]. ومن السنة الصحيحة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الشيخان من حديث جندب ، عن النبي ﷺ قال : [مَنْ سَمَعَ سَمَعَ الله به ، ومن رأى رأى الله به]⁽¹⁾.

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6499) ، ومسلم (2987) ، وأحمد (4/ 313) ، وغيرهم.

أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته]⁽²⁾ .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يُعنه]⁽³⁾ .

وقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَىٰ إِرَآءٍ وَنَ النَّاسِ ﴾ .

قال ابن زيد: (هم المنافقون ، لولا الرياء ما صلوا) . وقال قتادة: (والله لولا الناس ما صلى المنافق ، ولا يصلي إلا رياء وسُمعة) .

وقال ابن عباس: (يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح ، فإنه يناجي الله وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَىٰ ﴾) . رواه ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس .

وقوله: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال الحسن: (إنما قل لأنه كان لغير الله) .

وقال قتادة: (إنما قل ذكر المنافق ، لأن الله لم يقبله . وكل ما ردَّ الله قليل ، وكل ما قبل الله كثير) .

والمقصود أن المنافقين هذه صفتهم في أجل الأعمال وأشرفها وهي الصلاة ، فقد أفسدت عليهم نيتهم كل خشية أو خوف من الله ، فقاموا بين يديه كسالى مستهترين .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا ، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال ، ومعهم حُرْمٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (64/2) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (154) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) ، كتاب التفسير . وأخرجه مسلم (2583) ، كتاب البر والصلة . ورواه ابن ماجة والترمذي وغيرهم . انظر صحيح الجامع (1818) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (2932) . انظر صحيح سنن أبي داود (2544) .

من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار⁽¹⁾.

وفي رواية للبخاري: [والذي نفسي بيده ، لو عَلِمَ أحدهم أنه يجد عَرْقاً سميناً أو مَرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ ، لَشَهِدَ الصلاة]⁽²⁾.

زاد أحمد في رواية: [ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لَحَرَّقْتُ عليهم بيوتهم بالنار].

وفي الموطأ ومسنند أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق: يجلس يَرْقُبُ الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً]⁽³⁾.
وقوله: ﴿ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾.

قال مجاهد: (يقول: لا إلى أصحاب محمد ﷺ ، ولا إلى هؤلاء اليهود).

وقال ابن زيد: (بين الإسلام والكفر). وقال ابن جريج: (لم يخلصوا الإيمان فيكونوا مع المؤمنين ، وليسوا مع أهل الشرك).

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [مَثَلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، ولا تدري أيتهما تتبع]⁽⁴⁾.

وفي مسند أحمد بسند صحيح ، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: [بينما عُيِدَ بن عُمَيْرٍ يَقْصُ وعنده عبد الله بن عمر ، فقال عُيِدُ بن عمير: قال رسول الله ﷺ: مثلُ المنافق كالشاة بين رَيْضَيْنِ ، إذا أتت هؤلاء نطحتها ، وإذا أتت هؤلاء نطحتها. فقال ابن عمر: ليس كذلك قال رسول الله ﷺ ، إنما قال رسول الله ﷺ: كشاة بين غنمين. قال: فاحتفظ الشيخ وَغَضِبَ ، فلما رأى ذلك ابن عمر قال: أما إني لو لم أسمع له لم أَرُدُّ ذلك عليك]⁽⁵⁾.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (657) ، ومسلم (651) ح (252) ، وأبو داود (548) ، وأخرجه أحمد (424/2) ، وابن ماجه (791) ، والبيهقي (55/3) ، وغيرهم.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (644) . والزيادة لأحمد في المسند (367/2).
- (3) حديث صحيح. أخرجه مالك (221/1) ، ومن طريقه أخرجه أبو داود (413) ، وأخرجه أحمد (149/3) ، وكذلك أخرجه مسلم (622) ، والبيهقي (443/1).
- (4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2784) ، وأحمد (102/2) ، والنسائي (124/8) ، وابن جرير.
- (5) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (32/2) ، والطيالسي (1802) ، وأورده الحافظ ابن كثير بأسانيد مختلفة يقوي بعضها بعضاً ، في سورة النساء ، آية (142).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ .

أي: من صرفه الله عن سبيل المؤمنين مقابل النفاق الذي مشى عليه ورضيه لنفسه منهجاً ، فلا طريق له ولا منقذ ولا هادي له ، قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لَهْدٍ لَّهُ﴾ [الأعراف: 186].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخرة أسود مُزبداً كالكوز مُجْحِيّاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه] (1).

144 - 147. قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: نَهْيٌ عَنْ مَوَالاةِ الْكَافِرِ ، وَمَنَاصِحَتُهُمْ وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، مِمَّنْ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ حِجَّةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ أَسْفَلَ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ وَأَخْلَصَ لِلَّهِ مِنْ جَدِيدٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَصْحَابُ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، فَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ أَصْلَحْتُمْ وَتَبْتُمْ وَشَكَرْتُمْ ، فَإِنْ مِنْ شُكْرِ شُكْرِ اللَّهِ لَهُ ، وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَحْسَنَ جَزَاءَهُ وَثَوَابَهُ .

وعن قتادة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ

(1) حديث صحيح . رواه الإمام مسلم وغيره . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1990).

تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ قال: إن الله السلطان على خلقه ، ولكنه يقول: عذراً مبيناً).

قال عكرمة: (ما كان في القرآن من «سلطان» ، فهو حجة).

وفي التنزيل: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَهُ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: 28].

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

أي في الطبقة الأسفل من أطباق جهنم ، وبئس المقر وبئس المصير ، حيث لا نصير لهم. وقرأها كذلك قراء الكوفة «الدرك» بتسكين الراء ، في حين قرأها قراء المدينة والبصرة «الدَّرَك» بفتح الراء ، وهما قراءتان مشهورتان.

قال ابن عباس: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ، يعني: في أسفل النار). وروى ابن جرير ، عن خيثمة ، عن عبد الله قال: (توابيت من نار تُطَبَّقُ عليهم).

وفي جامع الترمذي ومسنند الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالِ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمْ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، يُسَاقُونَ إِلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ غُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةُ الْخَبَالِ] (1).

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فمن ندم وتاب وأصلح ما كان أفسد من علاقة بالله سبحانه ودينه وعباده المؤمنين - بنفاقه أو موالاته الكفار أو ركوبه معصية الله - فرجع واعتصم بالله وأخلص له السريرة والعمل ، فبدل الرياء بالإخلاص فإن الله سبحانه بكرمه يقبله مع المؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.

أي ما يصنع الله بعذاب المنافقين إن تابوا وآمنوا وأحسنوا الرجوع والشكر لله.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن. أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2025). ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع - حديث رقم - (7896).

148 - 149. قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^{١٤٨} وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٥٠﴾.

لقد ورد الجهر بسوء القول بمعنيين أو أكثر:

قال ابن عباس: (لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أَرْخَصَ له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ، وإن صبر فهو خير له). وقال قتادة: (عذر الله المظلوم كما تسمعون: أن يدعو). وقال السدي: (إن الله لا يحب الجهر بالسوء من أحد من الخلق ، ولكن من ظلم فانتصر بمثل ما ظلم ، فليس عليه جناح).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [المُسْتَبَانِ ما قالا ، فعلى البادئ ، ما لم يعتد المظلوم] ⁽¹⁾.

فإن تمكن المظلوم من استرجاع حقه دون تشهير بمن ظلمه ، أو عفا عنه فذلك أرفع . ففي صحيح مسلم أيضاً عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : [ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله] (2) .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2589)، الكتاب السابق، باب استحباب العفو والتواضع.

2 - عند التفريط بحق الضيافة .

فقد روى ابن جرير بسنده إلى مجاهد قال : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ الآية . قال : ضاف رجل رجلاً فلم يؤدّ إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس ، فقال : ضفت فلاناً فلم يؤد حق ضيافتي ! فذلك جهراً بالسوء إلا من ظلم ، حين لم يؤد إليه ضيافته . وقال : (هو في الضيافة ، يأتي الرجل القوم ، فينزل عليهم فلا يضيفونه ، رخص الله له أن يقول فيهم) .

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري ، عن عقبة بن عامر قال : [قلنا للنبي ﷺ : إنك تبعنا فتنزل بقوم لا يقرؤنا ، فما ترى فيه ؟ فقال لنا : إن نزلتم بقوم فأمر لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقّ الضيف]⁽¹⁾ .

وله شاهد أخرجه أحمد والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : [أيما ضيف نزل بقوم ، فأصبح الضيف محروماً ، فله أن يأخذ بقدر قراه ، ولا حرج عليه]⁽²⁾ .

وشاهد آخر أخرجه أحمد عن المقدم أبي كريمة ، سمع رسول الله ﷺ يقول : [ليلة الضيف واجبة على كل مسلم ، فإن أصبح بفنائهم محروماً كان ديناً له عليه ، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه]⁽³⁾ .

3 - عند اشتداد أذى الجار .

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي جحيفة قال : [شكى رجل إلى النبي ﷺ جاره ، فقال : احمل متاعك فضعه على الطريق فمن مر به يلعنه . فجعل كل من مرّ به يلعنه . فجاء إلى النبي ﷺ فقال : ما لقيت من الناس ؟ فقال : إنّ لعنة الله فوق لعنتهم . ثم قال للذي شكى : كُفيت أو نحوه]⁽⁴⁾ .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2461) ، ومسلم (1727) ، وأحمد (4/149) ، وغيرهم .
- (2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/380) ، والحاكم . وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (4/40) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (640) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (4/130) من حديث المقدم ، وأخرجه أبو داود في السنن (3750) ، وإسناده على شرط الشيخين .
- (4) حسن صحيح . انظر صحيح الأدب المفرد (93) ، باب شكاية الجار . وانظر للشاهد بعده مسند البزار (1903) ، وسنن أبي داود (5153) ، ومستدرک الحاكم (4/160) .

ورواه البزار من حديث أبي هريرة: [أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني. فقال له: أخرج متاعك فضعه على الطريق. فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكل من مرَّ به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني ، فيقول: اللهم العنه ، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك ، والله لا أؤذيك أبداً].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: كان الله ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ بما تجهرون به من سوء القول ومن جميع كلامكم ، ﴿عَلِيمًا﴾ بما تخفون وما تعلنون من قولكم وكلامكم ، وسيجازيكم على إحسانكم أو إساءتكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

المعنى: إن إخفاءكم خير القول أو إظهاره ، أو عفوكم عن أساء إليكم ، هو مما يقربكم عند ربكم. والله هو العفو القدير: يعفو عن مسيئكم إن تاب ويصفح عنه ، وهو ذو قدرة على الانتقام من كل مسيء بقول أو عمل.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عوف ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاثٌ أقسِمُ عليهن: ما نقصَ مالٌ قط من صدقة ، فتصدقوا. ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلا زاده الله تعالى بها عزاً ، فاعفوا يزدكم الله عزاً ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر]⁽¹⁾.

150 - 152. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ

أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا

(1) حديث صحيح. رواه أحمد والبزار ، انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3022) ، وله شاهد عند الإمام مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2588).

مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ .

في هذه الآيات: تَوَعَّدُ من الله للذين يكفرون به وبرسله من اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، كما فعلت اليهود بتكذيبهم عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، فأولئك توعدهم الله عذاباً مهيناً . وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله وبجميع رسله دون تمييز في ذلك فأولئك أعد لهم نزلاً كريماً .

قال قتادة: (أولئك أعداء الله اليهود والنصارى). آمنت اليهود بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ).

وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، يقولون: محمد ليس برسول الله ، تقول اليهود: عيسى ليس برسول الله! فقد فرقوا بين الله وبين رسله ، ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ ، فهؤلاء يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض).

وقال ابن جريج: (آمنت اليهود بُعْزِيرٍ وكفرت بعيسى ، وآمنت النصارى بعيسى وكفرت بعزير ، وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر ، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ، قال: ديناً يدينون به الله).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٥٢﴾ .

إن منهاج الإيمان عند المؤمنين أن يؤمنوا بالله ويعظموه وحده لا شريك له ، ولا يفرقوا بين أحد من رسله ، بل يقرون أن الجميع جاؤوا بالحق من عند الله ، وأن خاتمهم محمداً ﷺ جاء بشرع ناسخ لكل الشرائع قبله فيفردوه بالمتابعة فهو أسوة الأمة إلى يوم القيامة ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر ما سلف من الآثام والتقصير لمن شاء من عباده ، ﴿رَّحِيمًا﴾ لم يزل كذلك بتفضله على المخلصين بالهداية في الدنيا والنجاة يوم الحساب .

153 - 154. قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلَيِّنْتُ لَهُمْ فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَى سُلْطَنَا مُبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: يسألك يا محمد أهل التوراة من اليهود أن تنزل عليهم كتاباً خاصاً بهم على سبيل التعنت والعناد والكبر والإلحاد ، شأن كفار قريش سألوا نحو ذلك ، فاعلم يا محمد أن هؤلاء اليهود أحفاد من سلفهم من أجدادهم الذين عاجزوا موسى بالأسئلة ومحاولات التشكيك فسألوا رؤية الله فنالتهم صاعقة من الله سبحانه بتنطعهم ، ثم عبدوا العجل وانتكسوا عن عبادة الله بعدما هداهم بالبينات الواضحات ، ثم عفا عنهم وأكرم موسى عليه السلام بالحجج الدالة على نبوته وصدقه ، فلما عادوا إلى التشكيك رفعنا الطور فوقهم بما أعطوا الله الميثاق والعهد بالعمل بالتوراة ، وقلنا لهم اختباراً ادخلوا باب بيت المقدس سجداً ، وألا يأكلوا الحيتان يوم السبت ، وواثقناهم على ذلك .

قال السدي: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ ، قالت اليهود: إن كنت صادقاً أنك رسول الله ، فأتنا كتاباً مكتوباً من السماء ، كما جاء به موسى). وقال قتادة: (أي: كتاباً ، خاصة).

وقال محمد بن كعب القرظي: (جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك! فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُولِهِمْ عَلَى مَرِّمَ مِهْنَتَنَا عَظِيمًا﴾).

وقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾. يعني أسلاف هؤلاء اليهود.

وقوله: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾. أي: عياناً نعاينه وننظر إليه.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾. أي: فصعقوا بظلمهم لأن مسألتهم رؤية الله مما لم يكن لهم مسألته.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: 55 - 56].

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ آلِيبَتٌ﴾.

أي: من بعد ما رأوا من المعجزات الكبيرة كإغراق فرعون وجنوده ، وآيات على يد موسى ﷺ. فلما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138]. ثم اتخذوا العجل الذي كان السامري نبذ فيه ما نبذ من القبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، إلهاً يعبدونه من دون الله ، كل ذلك من بعد ما أراهم الله الآيات الواضحات على صدق موسى ووجوب اتباعه ونبذ كل أشكال الهوى.

وقوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. أي: فعفونا عن عبدة العجل صنيعهم بتوبتهم ، وعن السائلين رؤية الله حين أنابوا إلى الطريق وأعطينا موسى زيادة من الحجج التي تبين صدقه وحقيقة نبوته.

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾. قال ابن كثير: (وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام ، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171].

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْعَدًا﴾. قال قتادة: (كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس). أمروا أن يدخلوه سجداً مع قولهم حطة ، أي: اللهم حطّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، حتى تُهنا في التيه أربعين سنة ، وكانوا أمروا بتلك الهيئة في الدخول ليظهر منهم التواضع لله سبحانه والشعور الحقيقي بندم التقصير والزلل ، إلا أنهم كانوا عند أسوأ الظن ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وهم يستهزئون ويقولون: حنطة في شعيرة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾. أي: بترك أكل الحيتان يوم السبت أو صيدها ، وكذلك ترك التحايل عليها يوم السبت ، فمكروا وتحايلوا ونصبوا لها الشباك ليأخذوها في اليوم التالي.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾. أي: عهداً مؤكداً بالعمل بهذه الأوامر وترك كل ما جاء النهي عنه.

155 - 159. قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِثَائِتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٥٩﴾.

في هذه الآيات: ومن ذنوبهم وإجرامهم نقض الموائيق والعهود، وإنكار المعجزات والآيات وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا في غطاء لا تعي ما يقال، وإنما ختم الله عليها بكفرهم وعنادهم فقل ما آمنوا حق الإيمان، بل كفروا وتجروا على مريم بالبهتان، وادعوا تطاولاً وغروراً قتل المسيح عليه السلام، ولم يفعلوا بل شبه لهم شبهاً له، وقد التبس عليهم وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وسيعود قبل يوم القيامة ويؤمن به أهل الكتاب، أو يضرب رقابهم بالسيف، وسيحتج عليهم يوم القيامة ويشهد بما كذبوه أو صدقوه.

فعن قتادة: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، يقول: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا نفقه، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، ولعنهم حين فعلوا ذلك). وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾. قال ابن عباس: (يعني: أنهم رموها بالزنا).

وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾. فكذبهم الله بادعائهم وسفاهتهم وجراءتهم ووقاحتهم فقال جل ذكره: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني رجل كان نصرانياً فأسلم: (أن عيسى حين جاءه من الله: «إني رافعك إلي» قال: يا معشر الحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة، على أن يشبه للقوم في صورتني فيقتلوه مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله! قال:

فاجلس في مجلسي . فجلس فيه ، وُرفِعَ عيسى صلوات الله عليه . فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه ، فكان هو الذي صلبوه وشبّه لهم به) - ذكره ابن جرير بسنده عنه .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ . قال ابن جرير : (﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ ﴾ ، اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله . وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم ، فيما ذكر . فلما دخلوا عليهم ، فقدوا واحداً منهم ، فالتبس أمر عيسى عليهم بفقدهم واحداً من العدة التي كانوا قد أحصوها ، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسى) .

وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ . قال ابن عباس : (يعني لم يقتلوا ظنهم يقيناً) .

وقوله : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ . أي : رفع الله المسيح إليه ، وهذه من الآيات العظيمة الدالة على علو الله على جميع خلقه ، وأنه على السماء واستوى على العرش ، وكل المخلوقات دونه ، سبحانه وتعالى عما يضل الجاهل به علواً كبيراً .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ . أي : في انتقامه من أعدائه وأعداء رسله وأوليائه . ﴿ حَكِيمًا ﴾ في تدبيره وخلقته وقدره وتشريعه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا يُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ . قال ابن عباس : (يعني : أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى ، فيؤمنون به) .

قال الحسن : (قبل موت عيسى . والله إنه الآن لحَيٌّ عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون) .

وقال ابن جريج : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ ، أنه قد أبلغهم ما أرسل به إليهم) . وقال قتادة : (يكون عليهم شهيداً يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه ، وأقر بالعبودية على نفسه) .

قلت : يحكم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حين ينزل بالقرآن والسنة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويقاتل الناس على الإسلام فلا يقبل الجزية بل الإسلام أو السيف ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام . فمن أدركه من أهل الكتاب آمن به واتبع منهجه في الحكم بالكتاب والسنة ، وإلا كان بينه وبينهم السيف . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

[والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم ، حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : فافروا إن شئتم : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَآلِئُومِينَ بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِمُ ﴾ الآية⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : ليس بيني وبينه نبيٌ - يعني عيسى - وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مَرْبُوعٌ ، إلى الحمرة والبياض ، بين مُمْصَرَّتَيْنِ - الممصرة : ثياب فيها صفرة خفيفة - كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدقُّ الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يُتوفى فيصلي عليه المسلمون⁽²⁾ .

الحديث الثالث : يروي ابن ماجة والحاكم وابن خزيمة بسند صحيح من حديث أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : [... فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ... وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها] الحديث⁽³⁾ .

وقد فصلت كل هذه الأحوال - من صفات عيسى عليه الصلاة والسلام ، ونزوله وأعماله إلى موته - في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فليله الحمد والمنة .

160 - 162 . قوله تعالى : ﴿ فَيُظْلَمُونَ أَلْزِيمَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ

لَهُمْ وَبَصَدَّ هُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوْا وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2222) ، (2476) . وأخرجه مسلم برقم (155) ، ورواه أحمد في المسند (240/2) . وأخرجه الترمذي (2233) ، وابن ماجة (4078) . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6954) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1051/2) لتفصيل الروايات وصفات عيسى عليه السلام .
- (2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن من حديث أبي هريرة . انظر صحيح سنن أبي داود (3635) ، والمرجع السابق (1052/2) .
- (3) جزء من حديث طويل . رواه ابن ماجة والحاكم وابن خزيمة . انظر صحيح الجامع الصغير (7752) .

بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ .

في هذه الآيات: إنه بسبب ظلم اليهود واجتراحهم الذنوب والآثام حرم الله عليهم طيبات كان أحلها لهم ، ومن هذه الآثام نقض الميثاق مع ربهم ، وكفرهم بآياته وقتلهم الأنبياء وقول البهتان على مريم ، والصد عن سبيل الله وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وفي الآخرة عذاب أليم . واستثنى الله من أهل الكتاب من آمن بالله واليوم الآخر وما أنزل عليهم وما أنزل على محمد ﷺ فأولئك لهم أجر عظيم .

قال قتادة: ﴿ فِظَلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ الآية ، عوقب القوم بظلم ظلموه وبغى بعوه ، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وبظلمهم) .

وعن مجاهد: ﴿ وَيَصْدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ، قال: أنفسهم وغيرهم عن الحق) .

وقوله: ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوعَتْهُ ﴾ . يعني: انتشار الربا بينهم وهو محرم يعرفونه .

وقوله: ﴿ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ . يعني أخذهم الرِّبَا على الحكم ، وأخذهم أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم ثم يقولون ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 79] .

وفي التنزيل: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 62] .

وقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . أي: للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود ، أعد الله لهم عذاباً مؤلماً موجعاً .

وقوله: ﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ .

قال قتادة: (استثنى الله أُنْبِيَاءَ⁽¹⁾ من أهل الكتاب ، وكان منهم من يؤمن بالله وما أنزل عليهم ، وما أنزل على نبي الله ، يؤمنون به ويصدقون ، ويعلمون أنه الحق من ربهم) .

(1) «الأنبياء» و«النَّبِيَّة»: الجماعة من الناس .

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.

ذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿والمقيمون الصلاة﴾. والراجح أنها ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ وهي كذلك في مصاحف الأئمة ، ومصحف أبي بن كعب ، والأشهر عند جماهير القراء .

فيكون التأويل بأحد طريقين :

1 - وأمدح ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ للصلاة ، أو : وأخص ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ الصلاة منهم . فيكون لفظ ﴿المقيمين﴾ قد نصب على المدح أو الاختصاص ، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177]. أي : وأخص الصابرين ، أو : وأمدح الصابرين .

2 - أن يكون مخفوضاً ، أي : في محل جر ، والتأويل : (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة) - أي : بالعطف على ما سبقها ، والتقدير : وبإقامة الصلاة ، أي : يعترفون بوجوبها ويقرون بكتابتها عليهم .

وذهب ابن جرير إلى أن المقصود الملائكة ، ولا وجه له ولا يدل عليه السياق ، بل الأنسب أن يقال : استثنى أهل الرسوخ في العلم من يهود من المؤمنين الذين يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ - وخاصة الذين يقيمون الصلاة مع المؤمنين ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ - زكاة الأموال ، وزكاة النفوس . ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : أي : يشهدون لله بالوحدانية ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء والحساب .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتُهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . أي : الجنة ، لقاء هذا التحول في تجديد الإيمان من رسولهم إلى خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام ، ومتابعتهم له بمنهج الإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي بُرْدة بن أبي موسى عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدرك النبي ﷺ فأمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدّى حق الله عز وجل عليه وحق سيّده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 93) . وانظر مختصر صحيح مسلم (21) .

163 - 165. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنُثَلِّثَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: إنا أرسلنا إليك يا محمد بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح وإلى سائر الأنبياء الذين سميتهم لك من بعده ، والذين لم أسمهم لك ، واختص الله موسى بالكليم فكلمه كما كلمك يوم المعراج ، وأراد الله بإرسال جميع الرسل إقامة الحجة على عباده ، لثلا يكون لأحد من خلقه حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً.

قال الربيع بن خثيم: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ، قال: أوحى إليه كما أوحى إلى جميع النبيين من قبله.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ - وهو الكتاب المسمى 'زبوراً'.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾. يعني: وأوحينا إلى رسل قد قصصناهم عليك ، ورسل لم نقصصهم عليك.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. أي: كلاماً مباشراً دون جبريل عليه السلام. وهو تشریف لموسى ﷺ.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [احتج آدم وموسى ، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم! قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة ، أتلومني على أمر كتبته الله عليّ قبل أن يخلقني؟ فحج آدم موسى⁽¹⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4738) و(6614). وأخرجه مسلم برقم (2652). وأخرجه أبو داود (701) ، وابن ماجه (80) ، وأحمد (248/2) ، وأخرجه ابن حبان (6180). وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (182).

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. التقدير: أرسلتهم رسلاً إلى جميع عبادي مبشرين برحمتي وثوابي وجنتي لمن أطاعني ، منذرين غضبي وعقابي وناري لمن عصاني ، فلا حجة لأحد بعد ذلك .

وفي الصحيحين والمسند عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين]⁽¹⁾.

وفي لفظ عند الإمام مسلم : [من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه]⁽²⁾.

166 - 170. قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠).

في هذه الآيات: فإن يكفر هؤلاء - ممن أشرك وكفر من أهل الكتاب وأنكر نبوتك والتنزيل - فالله يشهد بتزيله إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه وخليله وصفيه ، وكذلك الملائكة يشهدون بذلك ، فلا يحزنك تكذيب من كذب فالله خير الشاهدين . إن جزاء المكذبين بك يا محمد ، وبأن الله اصطفاك وأوحى إليك هذا القرآن ، هو الحرمان من المغفرة والهداية إلا إلى طريق جهنم ، وهو أمر يسير على الله فالخلق خلقه والكل مقهور بإرادته . فأنبيوا أيها الناس إلى ربكم وتابعوا نبيّه وصدقوه خير لكم ، فإن أبيتم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4634) ، (7403) ، وأخرجه مسلم (2760) ، وأخرجه أحمد (381/1) ، (436/1) ، والترمذي (3530) ، والنسائي في «الكبرى» (11173) و(11183) ، وأخرجه ابن حبان (294) من حديث ابن مسعود.

(2) رواية صحيحة. رواها مسلم برقم (2760) ح (35) ، من حديث عبد الله بن مسعود.

فإن الله ملك هذا الكون يعلم ما تبيتون وما أنتم صائرون إليه من طاعة أو كفر ، وهو الحكيم في إيرادكم المصير الذي ينتظركم ، وفي كل أمر قدره وشرعه .

وعن قتادة: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ . قال: شهودُ الله غيرُ مُتهمة .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ . أي: جاروا عن قصد السبيل جوراً أكيداً شديداً ، حين وضعوا مكرهم أمام تقدم الناس لمتابعة الرسل لإقامة الحق في الأرض وتحكيم شرع الله العظيم .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .

هذه هي الهداية إلى النار يوم القيامة . فمراتب الضلال ثلاثة :

1 - مرتبة الضياع والانحراف . قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس : 108] .

2 - مرتبة الخذلان والحرمان . قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر : 34] .

3 - هداية إلى النار يوم القيامة . قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢٢] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات : 22 - 24] .

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ . قال ابن عباس: (ومن أشبههم من الظلمة) . وقال أبو العالية: (الذين ظلموا وأشياعهم) .

وبنحو هذا قوله تعالى في آية النساء السابقة: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ فهي الهداية إلى النار يوم القيامة بعد تجاوز مرحلة الضياع إلى مرحلة الخذلان إلى بس المصير .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ، بسند حسن ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى

بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال⁽¹⁾ .

وتفصيل هذا البحث - مراتب الهداية والضلال - في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمَنَّةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ .

وقوله : ﴿ خَلِّدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ . قال ابن جرير : (وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم ، على الله يسيراً ، لأنه لا يقدر من أراد ذلك به على الامتناع منه ، ولا له أحد يمنع منه ، ... لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره) .
وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

التأويل - أيها الناس : قد جاءكم محمد ﷺ بدين الحق الذي لا يقبل الله سواه ، فآمنوا واتمسوا طريق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تفعلوا فالله غني عنكم وعن إيمانكم ولا يؤثر كفركم على ملكوته ، وهو العليم بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الضلال فيضله ويشقيه ، وهو الحكيم في أمره ونهيه وقدره وشرعه وفي كل شأنه .

171. قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ

اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَحْدٌ سُبْحٰنَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

في هذه الآية : نهى الله سبحانه أهل الكتاب عن الغلو والتنطع في الدين ، كما أبعدهوا الإطراء والوصف في شأن عيسى عليه السلام ، الذي هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ودعوة لهم للإيمان بالله ورسله ونبذ عقيدة التثليث التي خاضوا فيها ، فإنما الله إله واحد لا شريك له ولا ولد ، له ما في هذا الكون الفسيح ، وحسب

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) . ورواه أحمد . انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896) .

ما في السماوات وما في الأرض قيماً ومدبراً ورازقاً ، من الحاجة معه إلى غيره .

قال الربيع : (صاروا فريقين : فريق غلّوا في الدين ، فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه ، وفريق منهم قصّروا عنه ، ففسقوا عن أمر ربهم) .

وأصل الغلو في لغة العرب مجاوزة الحد . وهذا واقع في النصارى إذ تجاوزوا الحد في أمر عيسى فرفعوه من مرتبة النبوة لمرتبة الألوهية ، وغلّوا في أتباعه فنسبوا العصمة لهم . كما قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : 31] .

أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن ابن عباس ، عن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : [لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله] (1) .

فحذّر النبي ﷺ من سلوك سبيلهم بالغلو في المدح ، والمبالغة في الإطراء .

وأخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس بن مالك : [أن رجلاً قال : يا محمد ، يا سيدنا وابن سيدنا ، وخَيْرَنَا وابن خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل] (2) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ . أي : لا تتجرؤوا على الله بوصفه بغير صفاته سبحانه ، فلا تنسبوا له صاحبة ولا ولداً ولا غير ذلك مما يسخطه سبحانه ، تنزهت أسماءُه وصفاته ، وتفرّد بالتعظيم والوحدانية والتقدّيس والكبرياء .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

قال قتادة : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ : هو قوله : «كن» ، فكان .

وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ . قال مجاهد : (ورسول منه) . وقال غيره : (ومحبة منه) . وقال غيره : (ورحمة منه) .

وخلاصة المعنى : أي إنّ عيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق من روح مخلوقة ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3445) ، وأحمد (1/ 23 ، 24) ، وأبو يعلى (153) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (3/ 153) ، (3/ 241) ، والنسائي في «الكبرى» (10078) .

خلقها سبحانه ، ثم أرسلها إلى مريم فدخلت بها ، فَصَيَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى رُوحَ عِيسَى عَلَيْهِ السلام ، وقد أضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف .

أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل]⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . أي : الزموا منهج الإيمان بالله ورسوله دون تحريف أو تشبيه ، فالله واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم تكن له صاحبة ، وعيسى بن مريم عبده ورسوله .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ﴾ انتهوا خيراً لكم .

قال ابن جرير : (يعني : ولا تقولوا : الأرباب ثلاثة . قال : انتهوا أيها القائلون : الله ثالث ثلاثة ، عما تقولون من الزور والشرك بالله ، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من قيله ، لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم - على قيلكم ذلك ، إن أقمتهم عليه) .

وفي التنزيل : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة : 73] . وكذلك : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : 72] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

أي : تعالى الله وتقدس أن يكون له صاحبة أو ولد ، فهو الملك له جميع ما في السماوات والأرض ، ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام : 101] . فإن من كان له ولد لا يستحق الإلهية ، وكذلك من كان له صاحبة ، لا يصح أن يكون إلهاً معبوداً .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ﴿ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3435) ، ومسلم (28) ، وأحمد (313/5) ، وغيرهم .

وَلَدَا ﴿٩٦﴾ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٧﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٨﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فََرْدًا ﴿٩٩﴾ [مريم: 88 - 95].

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وحسب ما في السماوات وما في الأرض بالله قيماً ومدبراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره).

172 - 173. قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧٣﴾.

في هذه الآيات: لن يأنف المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام أن يكون عبداً خاضعاً لله ولن يتكبر عن ذلك، وكذلك الملائكة المقربون، لا يمتنعون من الإقرار لله بالعبادة والتعظيم وحده لا شريك له، فمن يأنف من التذلل لله ويستكبر فالجميع قادمون يوم الحشر لموعده. فيعز المؤمنين الخاضعين ويزيدهم من الثواب ويضاعف لهم أعمالهم الصالحات، ويعذب الذين تكبروا عن عبادته عذاباً مخزياً لا نصير لهم ولا منقذ ولا سبيل لمنعه عن أنفسهم.

قال قتادة: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: لن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة).

وقوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾. أي: الذين قربهم الله ورفع منازلهم واختصهم بمراتب مميزة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾. أي: - كما قال شيخ المفسرين -: (ومن يتعظم عن عبادة ربه، ويأنف من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لموعده عنده).

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. يعني: يثيبهم على الأعمال الصالحة، ويزيد في بعضها من الثواب ورفع الدرجات مما

لا يعلمه إلا هو سبحانه ، فإن الأعمال تتفاوت أحوالها وأوزانها عند الله .

أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال :
[يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لَوَسِعَتْ . فتقول
الملائكة : يا رب : لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي . فتقول
الملائكة : سبحانه ما عبدناك حق عبادتك . ويوضع الصراط مثل حد موسى ، فتقول
الملائكة : من تجيز على هذا؟ فيقول : من شئت من خلقي . فيقولون : سبحانه
ما عبدناك حق عبادتك⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

أي : وأما الذين تعظموا عن عبادته سبحانه وإفراده بالإلهية والتعظيم فينتظرهم
عذاب موجه لا منقذ منه ولا دافع ولا مانع .

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال :
[يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ ، يُسَاقُونَ إِلَى سَجَنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ
عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةُ الْخَبَالِ]⁽²⁾ .

174 - 175 . قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ

نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ
وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾﴾ .

في هذه الآيات : يا أيها الناس من كل الأصناف والملل - التي مضى ذكرها في هذه
السورة - قد أتتكم حجة الله عليكم وهي نبوة محمد ﷺ ، والوحي الذي أنزله الله عليه ،
فآمنوا بالله واعتصموا بمنهجه وهدى نبيه ، يدخلكم في رحمة منه تنجيكم من عقابه ،
ويهديكم إلى سبيل النعيم في الدنيا والآخرة .

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 586) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941) .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) . ورواه أحمد .

انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896) ، وقد مضى .

فعن مجاهد: ﴿بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، قال: حجة). وقال قتادة: (بينة من ربكم).

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾. قال ابن جريج: (القرآن).

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ﴾. قال ابن جريج: (بالقرآن).

وقوله: ﴿فَسَيُذِخُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾. قال ابن جرير: (فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه ، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته ، ويلحقهم من فضله ما لِحَقَّ أهل الإيمان به والتصديق برسله).

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي: في الدنيا والآخرة. أي: طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. قال ابن كثير: (وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات).

176. قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ أَمَرْتُ هَٰلَكَ

لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا

أُنثَىٰ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

هذه الآية: هي آية الميراث ، أو آية الفرائض ، وفيها تفصيل لأحكام كثيرة.

أخرج الإمام مسلم والترمذي وابن ماجه عن محمد بن المنكدر ، أنه سمع جابر بن عبد الله قال: [مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي عليّ ، فتوضأ ثم صبَّ عليّ من وضوئه فأفقت ، قلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾] (1).

وفي لفظ عند الإمام أحمد والبخاري - قال محمد بن المنكدر: سمعت جابر بن عبد الله قال: [دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ثم صبَّ عليّ - أو

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1616) ح (5). وأخرجه الترمذي (2097) ، وابن ماجه (2728) ، وأحمد (307/3) ، وأخرجه أبو داود (2886).

قال: صُبُّوا عليه - فَعَقَلْتُ فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله ، فكيف الميراث؟ فأَنْزَلَ اللهُ آية الفرائض⁽¹⁾.

قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، قال: سمعت البراء قال: [آخر سورة نزلت: «براءة» ، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾]⁽²⁾.

وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فيه محذوف ، والتقدير: يستفتونك عن الكلاله! ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه. قال ابن كثير: (ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد. ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له ، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا هَٰكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾).

قلت: ولا شك أن فهم الكلاله وأحكامها يحتاج إلى رسوخ في العلم ، وصبر في متابعة علم الفرائض وأحكام الموارث ، وحسن فقه واستنباط.

ففي الصحيحين عن عمر أنه قال: [ثلاث ودِدْتُ أن رسول الله ﷺ ، كان عهداً إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجدُّ ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا]⁽³⁾.

وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة قال: قال عمر بن الخطاب: [ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله ، حتى طَعَنَ بإصبعه في صدري وقال تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء]⁽⁴⁾.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن البراء قال: [آخر آية أنزلت ، أو آخر شيء أنزل ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾]⁽⁵⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (149) ، ومسلم (1616) ح (8) ، وأحمد (298/3). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3605) ، و(4654) ، ومسلم (1618) ، وأخرجه أبو داود (2888) ، والترمذي (3044) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5588) و(7337) ، ومسلم (3032) ، وابن حبان (5353).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (567) و(1617) ، وأخرجه أحمد (15/1) ، والنسائي ، وغيرهم. وقال بعض أهل العلم: سميت هذه الآية بذلك لأن نزولها كان في الصيف.

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود والترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي (2435) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (176). وأصله في الصحيحين.

وفيه عن البراء قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فقال له النبي ﷺ: «تجزئك آية الصيف»⁽¹⁾.

وذكر ابن جرير بسنده عن قتادة قال: (وذكر لنا أنّ أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، مما جرّت الرحم من العصبّة).

وقوله: ﴿إِنْ أَمَرُوا هَآئِكَ﴾. أي: مات. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾. قال الحافظ ابن كثير: (تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الولد ، بل يكفي في وجود الكلاله انتفاء الوالد. وهو رواية عن عمر بن الخطاب ، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذي يُرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد ، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع ، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يُفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية).

وقوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

أخرج البخاري عن هُزَيْل بن شُرْحَبِيل قال: [سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة ، وابنة ابن ، وأخت. فقال: للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأنت ابن مسعود فسئلتني. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبي موسى - فقال: لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف ، ولابنة الابن السُدُسُ تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي وأبو داود. انظر صحيح سنن الترمذي (2436) - كتاب التفسير - سورة النساء ، آية (176) ، وأصله في صحيح مسلم من حديث عمر كما تقدم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6736) ، (6742) ، وأبو داود (2890) ، وأحمد (440/1).

وقد نقل ابن جرير عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت ، لقوله: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَٰذَا هَٰذَا لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ قال: (فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت). قال ابن كثير: (وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب ، بدليل غير هذه الآية ، وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة. وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري من طريق سليمان ، عن إبراهيم ، عن الأسود قال: [قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للبنت ، والنصف للأخت] (1).

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾.

المعنى: إذا ماتت كلاله فإن الأخ يرث كل مالها ، وذلك حالة ليس لها ولد ، أي: ولا والد. فإن الأخ لا يرث مع وجود الوالد.

قال ابن كثير: (فإن فرض أن معه من له فرضٌ صرفٌ إليه فرضه ، كزوج أو أخ من أم ، وصرف الباقي إلى الأخ. لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: [أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضَ فَلْأُولَى رَجُلٌ ذَكَرَ] (2).

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

أي: إن ترك الميت كلاله أختين فلهما الثلثان ، وما زاد على الأختين فهو في حكمهما. ويشبه ذلك حكم البنتين فأكثر ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: إن كان المتروكون من إخوته رجالاً ونساءً فيخصص للذكر منهم مثل نصيب اثنتين من أخواته. قال ابن جرير: (وذلك إذا ورث كلاله ، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه ، أو: لأبيه).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6741) ، وانظر تفسير ابن كثير ، سورة النساء ، آية (176).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6732) ، ومسلم (1615) ، وأحمد (292/1) ، وغيرهم.

وقال ابن كثير: (هذا حكم العصابات من البنين وبنى البنين ومن الإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أُعطي الذكر منهم مثل حظ الأنثيين).

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: يبين الله لكم القسمة "الرعية للمواريث" ، وحكم الكلاله ، وكل ما تحتاجونه من الحق لئلا تقعوا في الجور أو الإثم. قال ابن جريج: (﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ ، قال: في شأن المواريث). والله عليم بمصالح عباده ، وأفضل القسمة لمواريثهم ، وبعواقب الأمور في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة النساء

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَوِاسِعِ مِنْهُ وَكَرَمِهِ



دروس ونتائج وأحكام

- 1 - ربط الله تعالى التقوى بصلة الرحم ، فإن الرحم معلقة بالعرش ، وهي شجنة من الرحمان ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه .
- 2 - تحريم أكل المهور ، وخير النكاح أيسره ، ولليتيمة مهر مثلها . ولا زواج فوق أربع ، ويجب العدل في المبيت والنفقة .
- 3 - تعليق إجابة دعوة واضع ماله بيد السفهاء . والسفهاء هم : الصغار ، المجانين ، قليل الدين ، المفلس .
- 4 - ولي اليتيم الغني يستعفف ، والفقير يأكل بالمعروف ، وآكل مال اليتيم ظلماً إنما يأكل في بطنه ناراً .
- 5 - ترك توريث النساء والأطفال من عادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام . فللذكر مثل حظ الأنثيين ، وللنساء فوق اثنتين الثلثان ، فإن كانت واحدة فلها النصف .
- 6 - الدّين مقدّم على الوصية ، وأقصى الوصية الثلث .
- 7 - الكلاله : من لا ولد له ولا والد ، ولا وصية لوارث .
- 8 - حدّ الزنا : الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن . وحدّ عمل قوم لوط : قتل الفاعل والمفعول به .
- 9 - تحريم الجمع بين الأختين ، وتحريم نكاح ما نكح الآباء ، فذلك من أمور الجاهلية .
- 10 - العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .
- 11 - الرضاعة تحرّم ما يحرم النسب والولادة ، ولا تحرّم إلا خمس رضعات .

- 12 - الريبة حرام ، سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن .
- 13 - تحرم زوجات الأبناء من الأصلا ب ، والجمع بين الأختين حرائر أو إماء .
- 14 - نكاح الأمة بإذن سيدها ، أو بإذن وليِّ سيدها .
- 15 - حدّ المملوك نصف حدّ الحر ، ولا رجم عليه .
- 16 - قتل النفس بحديدة أو بِسُمّ مصير صاحبه إلى النار .
- 17 - نشوز الزوجة يُعالج بالوعظ والهجر والضرب غير المبرّح .
- 18 - النهي عن اقتراب السكران الصلاة ، وكل مسكر حرام .
- 19 - جواز مرور الجنب والحائض في المسجد ، وإباحة التيمم لفقدان الماء ، والتيمم ضربة للوجه والكفين ، فإن وجد الماء بعد ذلك لزمه أن يمسّه بشرته .
- 20 - لمس المرأة لا ينقض الوضوء ، والمقصود بـ ﴿لَمَسْتُمُ﴾ الجماع .
- 21 - الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، كالأصنام والشيطان والطغاة .
- 22 - أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل هو جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة .
- 23 - وجوب تولية ولي الأمر على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده .
- 24 - إنما الطاعة في المعروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل .
- 25 - التحاكم للكتاب والسنة دليل الإيمان ، وإلى سواهما دليل الكفر .
- 26 - جواز التوسل بالرسول ﷺ - أي بدعائه - في حياته ، وامتناع ذلك بعد وفاته .
- 27 - الجنة وعد الله المجاهد إن قتل ، وإن عاد فبالأجر والغنيمة .
- 28 - الجهاد لم يشرع بمكة ، لقلة عدد المؤمنين وعدم اكتمال بناء الجماعة ، فلما اكتمل البناء في المدينة شرع الله الجهاد وأذن بقتال الأعداء .
- 29 - الأصل طاعة الله وطاعة رسوله ، والتماري بين المؤمنين شر ، والجهل بالقرآن يعالج بالرد إلى عالمه .
- 30 - إفشاء السلام بين المؤمنين سبيل عظيم إلى تحابب قلوبهم ، ورد السلام واجب من الواجبات ، وحق من حقوق المسلم على أخيه .

- 31 - الولاء للمؤمنين ، والبراء من الكفار والمنافقين : من اتخذهم أولياء ، أو الاستنصار بهم على الأعداء .
- 32 - دية قتل الخطأ على العاقلة ، وخطأ الإمام أو نائبه يضمنه بيت المال .
- 33 - الدية مخففة ومغلظة ، فالمخففة تجب في قتل الخطأ ، والمغلظة تجب في شبه العمد . وأما دية قتل العمد إذا عفا وليّ الدم فهي ما اصطلحوا عليه .
- 34 - الدية المغلظة : مئة من الإبل في بطون أربعين منها أولادها .
- 35 - دية المعاهد نصف دية الحُرّ المسلم ، ودية عَقْل الكافر نصف عَقْل المؤمن .
- 36 - النطق بـ « لا إله إلا الله » يعصم المال والنفس ، وحساب صاحبه على الله .
- 37 - المؤمن والكافر لا تراءى ناراهما ، والهجرة واجبة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام .
- 38 - المسافر يقصر الصلاة ما دام لم ينو الإقامة ببلد السفر .
- 39 - صلاة الخوف تجزئ ركعة واحدة عند المسايقة إيماء .
- 40 - إن للصلاة وقتاً كوقت الحج ، لا تجوز بعد فواته ، فويل لمؤخريها .
- 41 - سنة الرسول ﷺ هي المنهاج ، وسبيل المؤمنين هو التفسير والبيان .
- 42 - عضل اليتامى اللاتي في حجور المسلمين ظلم ، فإما الزواج بهن أو تزويجهن ، والمرأة إذا خافت نشوز بعلها فلها أن تسقط عن حقها .
- 43 - وجوب العدل بين الزوجات في المبيت والنفقة ، وأما ميل القلب فلا ملك للرجل فيه .
- 44 - النهي عن الجلوس في مجلس ينتقص فيه من دين الله ، ومن فعل ذلك فإنه مثلهم ، وكلمة «مصلحة الدعوة» قد تكون مزية من الشيطان ، غفل عن ذلك كثير من المسلمين .
- 45 - صلاة الجماعة واجبة في المسجد لمن سمع النداء ، والمتخلفون عن صلاة الجماعة في المساجد هم الرسول بتحريق بيوتهم عليهم .
- 46 - اليهود أمكر خلق الله ، قتلوا الأنبياء ، وهموا بقتل عيسى عليه السلام ، فرفعه الله خزيًا لهم .

- 47 - نزول عيسى بن مريم عليه السلام آخر الزمان في مدينة دمشق ، وحكمه في المؤمنين بالإسلام ، ويده يكون قتل المسيح الدجال .
- 48 - المسيح عليه السلام سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .
- 49 - ما من نبي إلا حذر أمته الأعور الكذاب ، إنه أعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، كاتب وغير كاتب .
- 50 - المسيح عيسى عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبداً لله فما بال هؤلاء القوم يؤلهونه !! وإنما الحجة الخالدة في البيان القرآن والسنة المطهرة .
- 51 - الكلالة: من ليس له ولد ولا والد .
- 52 - رجوع عمر بن الخطاب إلى قول أبي بكر في تعريف الكلالة .



5

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

آيَاتُهَا
١٢٠رَتَبَهَا
٥

وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (120) .

أخرج الحاكم بسند جيد عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال : [حَجَجْتُ فدخلْتُ على عائشة ، فقالت لي : يا جُبَيْر ! تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه] ⁽¹⁾ .

ورواه أحمد عن عبد الرحمن بن مَهْدِي ، عن معاوية بن صالح ، وزاد : [وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ - فقالت : القرآن] .

موضوع السورة

العقود والصيد وقصة المائدة والتنطع في الدين ، وذم أهل الكتابين في تحريفهم وتركهم العمل بالوحي المبين .

- منهاج السورة -

1 - أمرُ الله تعالى عباده المؤمنين الوفاء بالعقود والعهود والمواثيق .

(1) إسناده جيد . أخرجه النسائي في «الكبرى» (11138) ، والحاكم (311/2) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو على شرط مسلم ، والرواية بعده لأحمد (188/6) .

- 2 - إعلام الله تعالى عباده بكون بهيمة الأنعام حلالاً إلا ما استثني بنص تحريم الميتة والدم وما أهل لغير الله وما شابهها.
- 3 - الصيد محرم حالة الإحرام.
- 4 - ما ذبح لغير الله نجس وأكله حرام.
- 5 - يعفى أكل جوارح السباع المعلمة.
- 6 - إكمال الله تعالى هذا الدين ، وكل بدعة ضلالة ولو سموها حسنة.
- 7 - إباحة كل المحرمات للمضطر ، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه.
- 8 - الصيد بالجوارح المعلمة مع التسمية عند الانطلاق حلال أكله.
- 9 - طعام أهل الكتاب والمحصنات من نسائهم حلال لنا.
- 10 - لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، وأركان الوضوء : غسل اليدين إلى المرافق وغسل الوجه ومسح جميع الرأس وغسل القدمين ، مع النية والتتابع.
- 11 - العدل واجب حتى على الأعداء والخصوم ، فلا يجوز جعل البغض مانعاً من العدل.
- 12 - تذكير الله المؤمنين بنعمه عليهم بأن أنجاهم من غدر اليهود.
- 13 - أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل ، وحلول لعنة الله بهم بنقضهم العهد.
- 14 - أخذ الله الميثاق على النصارى ، وحلول العداوة والبغضاء فيهم بإخلافهم.
- 15 - نبيان الرسول ﷺ ما أخفى أهل الكتاب وما بدلوا وما حرّفوا.
- 16 - إثبات كفر من قال إنّ الله هو المسيح ، وتكذيب اليهود والنصارى في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.
- 17 - قطع الله بيعت محمد ﷺ حجة من سيقول : ما جاءنا من نذير . ومحمد ﷺ هدى الخلائق وتركهم على المحجة البيضاء والشرعية الغراء.
- 18 - أمر الله بني إسرائيل استرداد بيت المقدس من العمالقة ، وتحريم الله على اليهود دخول بيت المقدس أربعين سنة لعصيانهم.
- 19 - اليهود هم المغضوب عليهم من الله ، ويزعمون أنهم أحباؤه.
- 20 - هابيل أول مقتول ، وقايل أول قاتل ، وتقبّل الله قربان هابيل ، وسخطه على قابيل الذي قتل أخاه حسداً.

- 21 - قَاتِلُ النَّفْسِ ظُلماً كَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَالْحَاكِمُ مُخَيَّرٌ فِي قِطَاعِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْقَطْعِ وَالنَّفْيِ .
- 22 - مَفْهُومُ التَّوَسُّلِ ، وَإِثْبَاتُ الْخُلُودِ فِي النَّارِ لِلْكَافِرِينَ ، وَعَدَمُ الْخُلُودِ لِعَصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ .
- 23 - تَشْرِيعُ قَطْعِ الْيَدِ فِي السَّرْقَةِ .
- 24 - تَحَاكُمُ الْيَهُودَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِشَرَطِ مَوَافَقَةِ أَهْوَائِهِمْ ، وَالرَّسُولُ يَحْكُمُ فِي زِنَاةِ يَهُودَ بِالرَّجْمِ الَّذِي حَرَفُوهُ وَأَخْفَوْهُ فِي تَوَرَاتِهِمْ .
- 25 - مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .
- 26 - تَشْرِيعُ الْقَصَاصِ فِي الْجِرَاحِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .
- 27 - الْإِنْجِيلُ تَصْدِيقٌ لِلتَّوْرَةِ ، وَأَهْلُ الْإِنْجِيلِ مَأْمُورُونَ بِالتَّحَاكُمِ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .
- 28 - الْأَمْرُ بِالتَّحَاكُمِ إِلَى الْقُرْآنِ ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَهِيدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، وَأَحْكَامُهُ هِيَ النَّافِذَةُ ، وَلَا أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْماً لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُوقِنِينَ .
- 29 - النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، وَرَسُولُ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ هُمُ حِزْبُ اللَّهِ ، وَإِنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ .
- 30 - غَضَبُ اللَّهِ عَلَى بَعْضِ الْيَهُودِ فَمَسَخَهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ .
- 31 - عُلَمَاءُ الْيَهُودِ وَرُؤَسَاؤُهُمْ لَمْ يَنْهَوْهُمْ عَنْ قَوْلِ الْإِثْمِ وَأَكْلِ السَّحْتِ .
- 32 - قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ - غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ - بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .
- 33 - لَوْ اتَّبَعَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ كِتَابِيهِمَا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ .
- 34 - بَلَاغُ الرَّسُولِ الْحَقِّ جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ حَصَانَةً فَاسْتَغْنَى عَنِ الْحِرَاسَةِ .
- 35 - إِخْبَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ حَتَّى يَتَّبِعُوا مُحَمَّدًا ﷺ .
- 36 - الْيَهُودُ حَكَمُوا بِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَقَدَّمُوهَا عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ .
- 37 - إِثْبَاتُ كُفْرِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ أَوْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَتَبَرُّةُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ هَذَا الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ .
- 38 - لَعْنُ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِتَأْمَرِهِمْ عَلَى فِشْوِ الْمُنْكَرِ وَعَدَمِ التَّنَاهِي عَنْ فِعْلِهِ .
- 39 - الْيَهُودُ وَالْمَشْرِكُونَ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالنَّصَارَى أَقْرَبُهُمْ مَوَدَّةً لَهُمْ .

- 40- نهى الله المؤمنين عن تحريم طيبات أحلت لهم ، فالحرام ما حرّم الله ورسوله .
- 41 - لا عبرة للغو اليمين ، وإنما العبرة باليمين المتععدة ، والكفارة إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .
- 42- آية تحريم الخمر ، والخمر ما خامر العقل ، وكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام .
- 43- ما يقتل من الحيوانات المضرة في الحل والحرم .؟
- 44 - الحكم بذبح مثل ما قتل يجب أن يصدر عن عدلين مسلمين ، فإن لم يجد مثل ما قتل فإطعام أو صيام بحسب نوع الصيد .
- 45- صيد البحر حلال ، وصيد البر محرم حالة الإحرام .
- 46- النهي عن السؤال عن أشياء إذا علمت ساءت سائلها .
- 47 - الإنكار على أهل الجاهلية أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وتشريع ما لم يأذن به الله استجابة لضلالهم وضلال آبائهم .
- 48- المؤمنون يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ثم لا يضرهم من ضل إذا اهتمدوا .
- 49- جواز استشهاد الذميين في الوصية عند فقدان المسلمين في السفر ، وأولياء الميت يحلفون الشاهدين الذميين بعد الصلاة إذا ارتابوا منهما ، فإن تبين خيانتهم حلف شاهدان من أولياء الميت ببطان شهادة الذميين ، وعند ذلك يستحقون ما يدعون عليهما .
- 50- الغيب لا يعلمه إلا الله ، وعلم المرسلين بالنسبة لِعِلْمِ الرَّبِّ كَلَّا عِلْم .
- 51- امتنان الله تعالى على المسيح ابن مريم وعلى والدته .
- 52 - طَلَبُ أصحاب عيسى عليه السلام أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ، ونزول المائدة فعلاً ، امتحاناً لهم .
- 53 - سؤال الله تعالى عيسى عليه السلام غداً: أَأَنْتَ قُلْتَ للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله ، وبراءة عيسى من ذلك .
- 54- شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنال المشركين ، بل هي للمؤمنين الموحّدين .
- 55- الله تعالى جَلَّ عن النظير والعديل والصاحبة والوالدة والولد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1-2 . قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بالوفاء بالعهود والمواثيق . وإعلامٌ بكون بهيمة الأنعام حلالاً إلا ما استثني بنص تحريم الميتة والدم وما أهل لغير الله وما شابهه ، وكذلك حالة الإحرام حرم عليكم الصيد ، والله سبحانه له الحكم يحكم ما يشاء . ثم فيها نهي عن تعدي حرمة الله وحدوده ، والقتال في الشهر الحرام - إلا حالة الاعتداء - ولا تتركوا الإهداء إلى البيت ، ففيه تعظيم لشعائر الله ، وكذلك لا تتركوا تقليدها في أعناقها ، لِيُعْلَمَ أنها هَدْيٌ إلى الكعبة ، ولا تستحلوا قتال القاصدين بيت الله الحرام فمن دخله كان آمناً ، فإذا فرغتم من إحرامكم وحلَلْتُمْ حلَّ لكم الصيد ، ولا يَحْمِلَنَّكُمْ بغض قوم كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام - عام الحديبية - أن تقتصوا منهم ظلماً ، بل أقيموا العدل في كل أحد ، وتعاونوا على فعل الخيرات ، ولا تعاونوا على فعل الآثام والمنكرات ، واتقوا الله واحذروا أن تنزل بكم العقوبات .

وتفصيل ذلك :

قوله : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ .

قال ابن عباس : (العهود) . وقال مجاهد : (ما عقد الله على العباد مما أحل لهم وحرّم عليهم) . وقال عبد الله بن عبيدة : (العقود خمس : عُقْدَةُ الْإِيمَان ، وَعُقْدَةُ النِّكَاح ، وَعُقْدَةُ الْعَهْد ، وَعُقْدَةُ الْبَيْع ، وَعُقْدَةُ الْحِلْف) .

وقال ابن زيد : (العقود خمس : عقدة النكاح ، وعقدة الشركة ، وعقد اليمين ، وعقدة العهد ، وعقدة الحلف) .

والعقود : جمع عَقْد . وعقد الشيء غيره هو وصله به . ومنه قولهم : يعقد الحبل بالحبل . وعقد فلان مع فلان عقداً : إذا واثقه وعاهده على الوفاء بما في العقد .

قلت : ولا شك أن الآية عامة في الوفاء بجميع العهود والمواثيق ووجوب القيام بمقتضاها .

وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ .

قال الحسن : (بهيمة الأنعام ، هي الإبل والبقر والغنم) ، وهو قول قتادة والربيع . أي يشمل الأنعام كلها .

والجنين يباح أكله إذا وجد في بطن البقرة أو الشاة المذبوحة ولو كان ميتاً .

وفي ذلك حديثان :

الحديث الأول : أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بسند حسن لغيره عن أبي سعيد قال : [قلنا : يارسول الله!! ننحر الناقة ، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه] ⁽¹⁾ .

وهو قول ابن عمر ، وابن عباس ، والشافعي وأحمد .

الحديث الثاني : أخرج أحمد والحاكم وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد ،

(1) حسن لشواهده . أخرجه أبو داود (2827) ، والترمذي (1476) ، وابن ماجه (3199) ، وأخرجه أحمد (31/3) ، (53/3) ، والبيهقي (335/9) ، وغيرهم .

وكذلك أبو داود والحاكم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [ذكاة الجنين ذكاة أمه] ⁽¹⁾.
وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير).

وقال قتادة: (يعني بذلك: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه).

قال ابن كثير: (والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾، فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ يعني: منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاحقه. ولهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: إلا ما سيُتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال).

وقوله: ﴿غَيْرَ مَحْيٍ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

قال القرطبي: (أي ما كان صيداً فهو حلال في الإحلال دون الإحرام، وما لم يكن صيداً فهو حلال في الحالين). والإحرام يشمل الحج والعمرة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي له الحكم يشرع لعباده ما يشاء، كما يشاء. وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

أي لا تعدوا حدود الله - والخطاب للمؤمنين - والشعائر جمع شعيرة. قال ابن عباس: (يعني بذلك: مناسك الحج). وقال مجاهد: (الصفاء، والمروة، والهدي، والبدن من شعائر الله).

قلت: ويبدو أن الآية تعم أكثر من ذلك. كما قال عطاء: (شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه). وقال الحسن: (دين الله كله). فالمراد تعظيم حرمة الله والتحذير من انتهاكها، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2828)، وأحمد. انظر صحيح أبي داود (2452). ورواه الحاكم عن أبي أيوب وعن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع (3425)، والحديث السابق.

وقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

المقصود النهي عن استحلال القتال فيه ، إلا إن اعتدى العدو وبادر إلى انتهاك هذه الحرمات . كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

قال ابن القيم: (والمقصود: أن الله سبحانه قد حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يُرى أوليائه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام ، بل أخبر أنه كبير ، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام ، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة ، لا سيما وأوليائه كانوا متأولين في قتالهم ذلك ، أو مقصّرين نوع تقصير يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات ، والهجرة مع رسوله ، وإيثار ما عند الله ، فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يُقاس ببغيض عدو جاء بكل قبيح ، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن)⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾.

نَهَى عن استحلال الهدي جملة ، ثم خصّ ذوات القلائد تأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد . والهدي ما أُهدي إلى بيت الله تعالى من ناقة أو بقرة أو شاة . والقلائد كل ما علّق على أسنمة الهدايا وأعناقها علامة أنه لله سبحانه .

قال ابن كثير: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ ، يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت ، فإن فيه تعظيماً لشعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة ، فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، ومن غير أن ينقص من أجورهم شيئاً).

(1) انظر: «زاد المعاد» (170/3-171) ، وكتابي: السيرة النبوية (527/1).

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: [أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى البيت غَنَمًا فقلدها]⁽¹⁾.

وهو قول الشافعي وأحمد ، وأنكر ذلك مالك وأصحاب الرأي ، وكأنهم لم يبلغهم هذا الحديث في تقليد الغنم . والصواب أن التقليد سنة بالغنم والبقر . وأما البقر إن كان لها أسنمة أشعرت كالبُدن ، وهو قول ابن عمر ، وبه قال مالك .

وقوله: ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ .

المعنى: نهى عن قتال من قصد البيت الحرام طالباً فضل الله ورضوانه أو التجارة .

قال ابن عباس: ((وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ)): يعني من توجه قبل البيت الحرام).

وقوله: ﴿يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ . قال مطرف بن الشَّخِير: (التجارة في الحج، والرضوان في الحج). وقال ابن عباس: (يعني: أنهم يترضون الله بحجهم). وقال مجاهد: (ينتفون الأجر والتجارة).

وذكر ابن جرير الإجماع أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس ، وروى عن قتادة قال: (نسخ من «المائدة»): ﴿أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ، نسختها «براءة» قال الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ . وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ . وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ .

وهو العام الذي حج فيه أبو بكر ، فنأدى فيه بالأذان).

ولا شك أن من قصد البيت بالإلحاد فيه ، والشرك عنده ، والكفر به ، يمنع للآية السابقة.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ .

فيه إباحة الصيد عند الفراغ من الإحرام والتحلل . قال مجاهد: (هي رخصة). وقال: (إذا حلّ ، فإن شاء صاد ، وإن شاء لم يصطد). وكان مجاهد لا يرى الأكل من هدي المتعة واجباً ويتأول الآية السابقة .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1701) ، (1702) ، (1703) ، وأخرجه مسلم (1321) ح(365). من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ .

الشَنَاَن: البُغْض . قال ابن عباس: (لا يحملنكم شَنَاَن قوم) - أي على العدوان .

والمقصود: الحكم بالعدل وترك الاقتصاص ممن منع المسلمين يوم الحديبية من الوصول إلى المسجد الحرام . كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ . وهو أمر بالعدل في جميع الأحوال .

أخرج البزار والطبراني بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، فقال: ثلاث مهلكات: شُحُّ مطاع ، وهوى مُتَّبِعٌ ، وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث مُنْجِيَات: خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، والعدل في الغضب والرضا]⁽¹⁾ .

قال بعض السلف: (ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، والعدلُ به قامت السماوات والأرض) .

وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .

أمرٌ من الله عباده بالتعاون في فعل الخيرات وأعمال البر والتقوى ، وترك المنكرات والمآثم وعدم المعاونة عليها . وفي السنة الصحيحة كنوز كثيرة في هذا المعنى :

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قيل: يا رسول الله! هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: تحجّزه وتمنعه ، فإن ذلك نصره]⁽²⁾ .

وفي رواية: [تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن يحيى بن وثاب ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال: أظنه ابن عمر - عن النبي ﷺ قال: [المؤمن الذي يُخالط

(1) حديث حسن . أخرجه البزار (رقم - 80) ، وبنحوه الطبراني في «الأوسط» (5584) ، وانظر سلسلة

الأحاديث الصحيحة (1802) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3041) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2443) ، (6952) ، وأخرجه أحمد (99/3) .

الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم⁽¹⁾.

وفي رواية : (خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم وأبو داود من حديث أبي مسعود البصري الأنصاري قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبدعَ بي⁽²⁾ فاحملني. فقال: ما عندي. فقال رجل: يا رسول الله! أنا أدُّله على من يَحْمِلُهُ، فقال رسول الله ﷺ: من دَلَّ على خير فله مثل أجر فاعله]⁽³⁾.

وله شاهد عند البزار من حديث ابن مسعود بلفظ: [الدال على الخير كفاعله].

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن خالد الجهني عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا]⁽⁴⁾.

وله شاهد عند ابن خزيمة والنسائي عنه بلفظ: [من جهز غازياً، أو جهز حاجاً، أو خلفه في أهله، أو فطر صائماً، كان له مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أمرٌ بالتقوى، وتحذير من عقوبة المتجرى بالمعصية.

3. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّيتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (365/5)، ورجاله رجال البخاري ومسلم، وجهالة الصحابي لا تضر. وانظر للرواية الأخرى المسند (43/2)، وابن ماجه (4032)، وغيرهم.

(2) أي هلكت دابتي وهي مركوبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1893)، كتاب الإمارة. وأخرجه أبو داود (5129)، وغيرهما. وانظر للشاهد مسند البزار (154)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم (3393).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1895)، كتاب الإمارة. من حديث زيد بن خالد الجهني. وانظر للشاهد بعده صحيح الترغيب (1072/1).

النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَيْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ .

في هذه الآية: إخبار من الله عن بعض المحرمات: كالميتة - وهي ما مات من
الحيوان حتف أنفه - ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما ذبح فذكر عليه اسم غير
الله ، وما مات خنقاً ، أو بالضرب ، أو بالتردي من شاهق ، أو بسبب نطح غيرها ، أو
بسبب اعتداء السبع عليها ، إلا ما أمكن تداركه من هذه الأنواع بالذبح الشرعي ،
وكذلك حرّم من الحيوان ما ذبح عند الأصنام أو الآلهة المزيفة ولو ذكر اسم الله عليها ،
كما يحرم الاستقسام بالأزلام ، فإن تعاطيه فسق وغي وضلال وشرك ، فالיום يئس
الكفار أن تراجعوا دينهم فأفردوا الله بالخشية ، فقد أتم لكم دينكم في هذا اليوم وأكمل
بيان تشريعه لكم ، فمن وقع في العنت والجأته الضرورة لأكل بعض ما سبق من
المحرمات فبالحد الأدنى ويستغفر الله الغفور الرحيم .

وتفصيل ذلك :

قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ .

أي ما مات حتف أنفه دون صيد أو ذكاة شرعية . والتحريم خير ، لما تتضمن الميتة
عادة من المضرة كالدم المحدثن الفاسد ، وإمكانية تجمع الجرائم وتشكل الأوبئة
والأمراض .

ويستثنى من الميتة السمك والجراد . وفي ذلك حديثان :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والبيهقي بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله
عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان فالحوت
والجراد. وأما الدمان فالكبد والطحال] (1).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [جاء
رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر. ونحمل معنا القليل من

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/255/96) ، والبيهقي (254/1) ، وانظر صحيح الجامع (208) .

الماء . فإن توضأنا به عطشنا . أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ : هو الطَّهْرُ ماؤه ، الحِلُّ مَيْتُهُ [1] .

وقوله : ﴿ وَالْدَّمُ ﴾ . يعني به : الدم المسفوح . ويؤيده قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ .

قلت : والنهي عن أكل الدم لا يعني نجاسة الدم ، فنجاسته في الأكل مثل نجاسة الخمر - أي نجاسة معنوية . وإلا فدم مأكول اللحم طاهر غير نجس ، وكذلك دم الإنسان طاهر - إلا دم الحيض والنفاس فهو نجس .

أخرج البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت : [جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : إحدانا يصيب ثوبها من دم الحيض كيف تصنع؟ فقال : تحته ثم تقرصه بالماء ثم تنضجه ، ثم تصلي فيه] [2] .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه : [أن خولة بنت يسار قالت : يا رسول الله ، ليس لي إلا ثوب واحد ، وأنا أحيض فيه؟ قال : فإذا طهرت فاغسلي موضع الدم ثم صلي فيه . قالت يا رسول الله : إن لم يخرج أثره؟ قال : يكفيك الماء ولا يضرك أثره] [3] .

وقوله : ﴿ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ﴾ .

يعني : حُرِّمَ عليكم لحم الخنزير - أَهْلِيُّهُ وَبَرِّيُّهُ ، إِنْسِيَّتُهُ وَوَحْشِيَّتُهُ . واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم .

أخرج البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : [أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو بمكة عام الفتح : إن الله ورسوله حَرَّمَ بَيْعَ الخمرِ والمَيْتَةِ والخنزير والأصنام . فقليل : يا رسول الله ، أرأيت شحومَ المَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بها السُّفْنُ

(1) حديث صحيح . أخرجه مالك (44-45/1) ومن طريقه أخرجه أصحاب السنن . انظر صحيح أبي داود (76) ، وكذلك صحيح سنن ابن ماجه (309) ، والسلسلة الصحيحة (480) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (1/240/291) واللفظ له ، وأخرجه البخاري (1/410/307) . والقرص : هو الأخذ بأطراف الأصابع ، والحديث أورده الفقهاء في بحث النجاسات - دم الحيض . والنفاس له حكم الحيض .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (2/26/361) . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (351) ، ورواه البيهقي (408/2) .

وَيُذْهِقُ بِهَا الْجُلُودَ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ، فَقَالَ : لَا ، هُوَ حَرَامٌ . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : قَاتِلِ اللَّهَ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شَحُومَهَا جَمَلَوْهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ لَعَبَ بِالزَّرْدَشِيرِ⁽²⁾ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخَنزِيرِ وَدَمِهِ⁽³⁾ . وفي لفظ أحمد : (فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخَنزِيرِ وَدَمِهِ) .

قال ابن كثير - في التفسير - : (فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمَجَرَّدِ اللَّمَسِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ وَالتَّغْذِي بِهِ . وفيه دلالة على شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ إِلَّا اللَّهُ بِهِ ﴾ .

هو كل ما ذُبِحَ فذكر عليه اسم غير الله ، من صنم أو وثن أو طاغوت أو أي مخلوق ، فهو حرام لا اقترانه بالشرك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 162 - 163] .

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال : [حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى مُحَدِّثًا ، لعن الله من غيّر منار الأرض⁽⁴⁾] .

قال شيخ الإسلام : ﴿ وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا⁽⁵⁾ .

وقال الزمخشري : (كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2236) ، كتاب البيوع . ومسلم (1581) ، وأحمد (324/3) .

(2) الزرد : معرّب ، لعبة معروفة اخترعها أردشير بن بابك ، ولهذا يقال الزردشير .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2260) ، وأبو داود (4939) ، وأحمد (352/5) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - رقم (1978) (43) ، كتاب الأضاحي .

(5) انظر لهذا الأثر وما بعده كتابي : أصل الدين والإيمان - (457/1) . وفتح المجيد (157) .

خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك).

وذكر إبراهيم المروزي: (أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقريباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ، لأنه مما أهل لغير الله).

وفي سنن أبي داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [نهى رسول الله ﷺ ، عن مُعَاقَرَةِ الأعراب]⁽¹⁾.

قال الخطابي في معالم السنن (2702): (والمعاقرة: هو أن يتبارى الرجلان كل واحد يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ، ويعقر صاحبه فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه . وكره أكل لحومها لثلاث يكون مما أهل لغير الله به).

أي: كان يتبارى الرجلان في الجود والسخاء ، فيعقر هذا إبلأً ويعقر هذا إبلأً حتى يعجز أحدهما رياء وسمعة وتفاخراً ولا يقصدون به وجه الله ، فشبه به ما ذبح لغير الله .

ويشهد لهذا ما روى أبو داود أيضاً بسند حسن عن عكرمة يقول: وكان ابن عباس يقول: [إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَالْمُخَنَقَةُ﴾ . هي التي تموت خنقاً عمداً أم دون قصد . فهي حرام .

وقوله: ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ . هي التي تموت بالضرب . قال الضحاك: ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ : التي تضرب حتى تموت). وقال قتادة: (كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي ، حتى إذا ماتت أكلوها). وقال عبيد بن سليمان: سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ : (كانت الشاة أو غيرها من الأنعام تضرب بالخشب لآلهمتهم ، حتى يقتلوا فيأكلوها).

أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المِعْرَاضِ فقال: [إِذَا أَصَبَتْ بِحَدِّهِ فِكَلْ ، فَإِذَا أَصَابَ بِعَرَضِهِ فَقَتَلْ فَإِنَّهُ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْ]⁽³⁾.

(1) حسن صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود (2446) - باب ما جاء في أكل معاقرة الأعراب .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو داود (3754) ، بإسناد حسن - لأجل هارون بن يزيد - وباقي رجاله ثقات .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5476) ، (5486) ، وأخرجه مسلم برقم (1929) ، وأخرجه أحمد في المسند (256/4) ، وغيرهم .

وفي لفظ: [قلت يا رسول الله! إنني أرمي بالمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأَصِيبُ. قال: إذا رميت بالمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلُّهُ ، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيدٌ فلا تأكله].

وقوله: ﴿وَالْمُرْدِيَّةُ﴾ - هي التي تسقط من شاهق فتموت .

قال ابن عباس: (التي تتردى من الجبل). وقال قتادة: (كانت تتردى في البئر فتموت ، فيأكلونها). وقال السدي: (هي التي تتردى من الجبل ، أو في البئر ، فتموت).

وقوله: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ - هي التي تموت بسبب نطح غيرها لها . فهي نطيحة على وزن فعيلة بمعنى مفعولة - أي منطوحة . فهي حرام ولو خرج الدم بسبب النطح . قال ابن عباس: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾: الشاة تنطح الشاة). وقال الضحاك: (الشاتان تنتطحان فتموتان). وقال السدي: (هي التي تنطحها الغنم والبقير فتموت).

وقال قتادة: (كان الكبشان ينتطحان ، فيموت أحدهما ، فيأكلونه).

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ - أي ما عدا عليها حيوان مفترس فأكل بعضها فماتت ، ولو سال الدم من اقتراس ذلك الحيوان لها ، والسَّبُعُ يدخل في اسمه الأسد والفهد والنمر والذئب والكلب ونحو ذلك .

قال قتادة: (كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع شيئاً من هذا أو أكل منه ، أكلوا ما بقي). فجاء التحريم: أي حرّم عليكم ما أخذ السبع ، أو ما أكل السبع غير المُعَلَّم من الصوائد .

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ .

أي: إلا ما تداركتم من الأنواع السابقة بالذبح الشرعي قبل خروج الروح منه .

قال ابن عباس: (يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح ، فكلوه ، فهو ذكي).

وقال أيضاً: (ما أدركت ذكاته من هذا كله ، يتحرك له ذنب ، أو تطرف له عين ، فاذبحوا وذكروا اسم الله عليه ، فهو حلال).

وروى ابن جرير بسنده عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب قال: (إذا ركضت برجلها ، أو طرفت بعينها ، وحركت ذنبها ، فقد أجزأ).

قال الضحاك: (كان أهل الجاهلية يأكلون هذا ، فحرّم الله في الإسلام إلا ما ذكّي

منه ، فما أدرك فتحرك منه رجل أو ذنب أو طرف ، فذكي ، فهو حلال).

وخلاصة القول : إن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، وبه قال الجمهور ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل . خالف الإمام مالك وقد سئل عن الضبيّ يعدو على الكبش فيدق ظهره ، أترى أن يذكي قبل أن يموت ، فيؤكل ؟ فقال : إن كان قد بلغ الشحرة - وفي لفظ : إن كان بلغ السحر - أي الرئة - فلا أرى أن يؤكل ، وإن كان إنما أصاب أطرافه ، فلا أرى بذلك بأساً . قيل له : وثب عليه فدق ظهره ؟ قال : لا يعجبني أن يؤكل ، هذا لا يعيش منه . قيل له : فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء ؟ قال : إذا شق بطنها ، فلا أرى أن تؤكل . ذكره ابن جرير بسنده عن يونس عن أشهب .

قلت : ولا دليل على هذا التخصيص ، فالآية عامة لا استثناء فيها ، والقول قول الجمهور ، وهو مذهب الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة والشافعي وأحمد .

أخرج البخاري ومسلم عن رافع بن خديج أنه قال : [قلت : يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غداً ، وليس معنا مدى ، أفندبج بالقصب ؟ فقال : ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ، ليس السنّ والظفر ، وسأحدثكم عن ذلك ، أما السنّ فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة] (1) .

وقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ . هو نوع من الشرك كان عليه أهل الجاهلية .

قال مجاهد : (كانت النُّصُب حجارة حول الكعبة) . وقال ابن جريج : (وهي ثلاث مئة وستون نُصباً ، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، ويضضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويُسرحون اللحم ويضعونه على النُّصب) .

قال ابن كثير : (فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النُّصب حتى ولو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبح عند النُّصب ، من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ، لأنه قد تمّ تحريم ما أُهِّلَ به لغير الله) .

وقوله : ﴿ وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْكَرِ ﴾ .

نوع آخر من الشرك بالله ، والأزلام قدامح ثلاثة : مكتوب على أحدها : «افعل» ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (5543) - كتاب الذبائح والصيد . ورواه مسلم وغيره .

وعلى الآخر: «لا تَفْعَلْ» ، والثالث غُفْل ليس عليه شيء . وقيل مكتوب على أحدها: «أمرني ربي» ، وعلى الآخر: «نهاني ربي» ، والثالث دون شيء . فإذا أجالها فخرج السهم الأمر فَعَلْ ، أو الناهي ترك ، وإن ظهر الذي ليس عليه شيء أعاد الاستقسام . والاستقسام مأخوذ من طلب القَسَم من الأَزالَم ، والأَزالَم: جمع زَلَمَ أو زُلِمَ . قال ابن عباس: (والأَزالَم قِداحٌ ، كانوا يستقسِمون بها في الأمور) .

وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾: القِداح ، كانوا إذا أرادوا أن يخرجوا في سفر جعلوا قِداحاً للجلوس والخروج . فإن وقع الخروج خرجوا ، وإن وقع الجلوس جلسوا . وقال أيضاً فيها: (حصي بيض كانوا يضربون بها) . وقال مجاهد: (حجارة كانوا يكتبون عليها ، يسمونها «القِداح») .

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إن رسول الله ﷺ لما قدم أبي أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأُخْرِجَتْ ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأَزالَم ، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله ، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط⁽¹⁾ .

وفي صحيح البخاري أيضاً - من حديث سراقه بن مالك في قصة لحاقه بالنبي ﷺ وصاحبه أثناء الهجرة -: [فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأَزالَم ، فاستقسمتُ بها: أضربهم أم لا؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيتُ الأَزالَم]⁽²⁾ .

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [لن يلج الدرجات العلأ من تكهَنَ ، أو استقسم ، أو رجع من سفر تطيُراً]⁽³⁾ .

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ .

قال ابن عباس: (يعني: من أكل من ذلك كله فهو فسق) . فدخل في ذلك أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وكل ما ذكر من المحرمات في الأكل ، والاستقسام بالأَزالَم . فإن الله سبحانه قد حرّم الخبائث وأباح الطيبات ، ونهى عن كل ألوان الشرك وأمر بالتوكل عليه وإقامة منهاج التوحيد .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1601) - كتاب الحج . وكذلك (398) . ورواه أحمد (334/1) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3906) - كتاب مناقب الأنصار - وهو ضمن حديث طويل .

(3) حديث حسن . أخرجه الطبراني كما في المجمع (118/5) ح (8487) . وانظر صحيح الجامع الصغير

- حديث رقم - (5102) . وإسناده حسن .

فالبديل عن المحرمات هو ألوان الطيبات التي لا تُحصى ، والبديل عن الذبح على النصب هو النسك لوجه الله ، والبديل عن الاستقسام بالأزلام هو التوكل على الله وطرق باب الاستخارة .

أخرج الإمام البخاري وأحمد وأهل السنن عن جابر قال : [كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرُ بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدرُ ولا أقدرُ ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر - ويسميه باسمه - خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدرْه لي ويسره لي وبارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفني عنه ، واصرفه عني ، واقدرْ لي الخير حيث كان ، ثم رَضِّنِي بِهِ] (1) .

وقوله : ﴿ اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ - فيه تفاسير متكاملة ، منها :

1 - الآن انقطع طمع الأحزاب وأهل الكفر والجحود من دينكم أن تتركوه فترتدوا عنه راجعين إلى الشرك .

قال ابن عباس : ﴿ اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ ، يعني : أن ترجعوا إلى دينهم أبداً .

وقال السدي : (أظن ، يئسوا أن ترجعوا عن دينكم) .

2 - قيل بل المراد : يئسوا من مشابهة المسلمين ، بما تميّز به المسلمون من صفات المخالفة للشرك وأهله .

3 - وقيل : بل المراد يئس المشركون من أي تنازل يكون في دينكم لصالحهم .

وقد صنّف الإمام مسلم في صحيحه باباً في هذا المعنى : «باب تحريش الشيطان ، وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قريناً» .

روى فيه عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : [إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1162) ، (6382) ، وأحمد (344/3) واللفظ له ، وأهل السنن .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2812) ، وأحمد (313/3) ، والترمذي (1938) .

وروى فيه عن جابر أيضاً ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : [يَبْعَثُ الشَّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَقْتُنُونَ النَّاسَ ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فَتْنَةً].

وقوله : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ .

قال ابن جريج : (فلا تخشوهم أن يظهروا عليكم).

وقال ابن جرير : (فلا تخشوا ، أيها المؤمنون ، هؤلاء الذين قد يؤسوا من دينكم أن ترجعوا عنه من الكفار ، ولا تخافوهم أن يظهروا عليكم ، فيقهروكم ويردوكم عن دينكم ، ... ولكن خافون ، إن أنتم خالفتهم أمري واجترأتم على معصيتي ، وتعديتكم حدودي ، أن أحل بكم عقابي وأنزل بكم عذابي).

قال ابن كثير : (أي : لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم واخشوني ، أنصركم عليهم ، وأبيدوهم ، وأظفركم بهم ، وأشفي صدوركم منهم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة).

والخشية تعرف بضدها كما قال الحسن : (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً).

قال ابن القيم رحمه الله : (والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة).

وفي التنزيل : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ . هو وصف لحال قلوب المؤمنين .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن عائشة رضي الله عنها : [أنها قالت : يا رسول الله ! الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات] (1).

وقوله : ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

قال ابن عباس : (وهو الإسلام). قال : أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً ، وقد رضى الله فلا يسخطه أبداً).

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (159/6) ، والترمذي (201/2) ، وانظر السلسلة الصحيحة (162).

وهذه الآية شرف عظيم لهذه الأمة ، إذ كمل دينها فلا تحتاج إلى أحد بزيادة أو حذف ، ولا إلى نبيّ يقَدِّم لها بعد وفاة نبيّها ، فهو ﷺ خاتم الرسل والأنبياء ، وقد بعث إلى الجن والإنس ، والدِّين هو ما تركنا عليه يوم مات ، لا يحيد عن منهاجه إلا هالك ، والحلال والحرام هو الذي استقر عليه الأمر بمغادرة النبي ﷺ .

أخرج البخاري عن طارق بن شهاب ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [أن رجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ! آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : أي آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . قال عمر : قد عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ] (1) .

وأخرج ابن جرير وإسناده على شرط الصحيح - عن عمار - مولى بني هشام - [أن ابن عباس قرأ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً . فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين : يوم عيد ويوم جمعة] (2) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : (﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ ﴾ ، يعني : في مجاعة) . وقال السدي : (ذكر الميتة وما فيها ، فأحلها في الاضطرار ، ﴿ فِي مَخْصَصَةٍ ﴾ ، يقول : في مجاعة) . وقال ابن زيد : (المخخصة : الجوع) .

وقوله : ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ .

قال ابن عباس : (غير متعمد لإثم) . وقال ابن زيد : (لا يأكل ذلك ابتغاء الإثم ، ولا جراءة عليه) .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يعني من ألجأته الضرورة لأكل بعض هذه المحرمات فلا حرج والله غفور له رحيم ، يتجاوز عن عبده ما أوقعه فيه العنت والهلاك .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (45) ، ومسلم (3017) ، والنسائي (114/8) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبري في «التفسير» - حديث رقم - (11102) - وإسناده على شرط الصحيح ، من حديث عمار - مولى بني هاشم - عن ابن عباس .

4 . قوله تعالى : ﴿ يَسْتُلُونَكَ مَادَا أَجَلَ لَهُمْ قُلْ أَجَلَ لَكُمْ أَطْيَبْتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

في هذه الآية : يسألك يا محمد أصحابك عن حلال الطعام فأخبرهم أنه ما كان من الطيبات . يعني الذبائح الحلال الطيبة . وما اصطدتموه بالجوارح المعلمة . فكلوا منه واذكروا اسم الله واشكروه وعظموه .

قال مقاتل : (فالطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه ، وهو الحلال من الرزق) .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ ﴾ .

الجوارح : هنّ الكواسب من سباع البهائم : من الكلاب والفهود والضفقر وأشباه ذلك . يعني أحل لكم ما اصطدتموه بهذه الجوارح . سميت كذلك من الجرح ، وهو الكسب . والعرب تقول : جرح فلان لأهله خيراً : إذا أكسبهم خيراً . وفلان جارحة أهله : يعني كاسبهم . ولا جارح لفلان ، أي : لا كاسب له . وفي التنزيل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَيْتِلٍ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ . ﴾ [الأنعام : 60] - يعني ما كسبتم وعلمتم من خير أو شر .

والجمهور على أن صيد الطيور كصيد الكلاب ، لأنها تكلب الصيد بمخالبها ، كما تكلب الكلاب . وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك ، وكذلك الإمام أحمد إلا أنه استثنى صيد الكلب الأسود ، لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه . وفي ذلك حديثان :

الحديث الأول : روى مسلم عن أبي ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : [يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود . فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال : الكلب الأسود شيطان] (1) .

الحديث الثاني : أخرجه الإمام مسلم وأبو داود عن مُطَرِّف بن عبد الله يحدث

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (510) - كتاب الصلاة . باب قدر ما يستر المصلي .

عن ابن المغفل قال: [أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب. ثم قال: ما بالهم وبأل الكلاب؟ ثم رخص في كلب الصيد وكلب الغنم]⁽¹⁾.

وفي حديث أبي داود عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: [لولا أن الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم]⁽²⁾.

قلت: والراجح قول الجمهور، فإن الكلب الأسود المعلم يجوز صيده، ولا حرج. فكونه يقطع الصلاة أو يستحب قتله أمر آخر - والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

المعنى: إذا كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله حل ذلك الصيد وإن قتله بالإجماع. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن عدي بن حاتم قال: [سألت النبي ﷺ، قلت: إني أرسل الكلاب المعلمة فتمسك عليّ أفأكل؟ قال: إذا أرسلت الكلاب المعلمة، وذكّرت اسم الله، فكل ممّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكَ. قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن ما لم يشرّكها كلبٌ ليس منها. قلت: أرمي بالمعراض فأصيب أفأكل؟ قال: إذا رميت بالمعراض وذكّرت اسم الله، فأصاب فخرّق فكل، وإن أصاب بعرضه فلا تأكل]⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن عدي بن حاتم قال: [سألت النبي ﷺ، قلت: إنا نصيد بهذه الكلاب؟ فقال لي: إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكّرت اسم الله عليها فكل ممّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكَ، وإن قتل، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أَمْسَكَهُ على نفسه]⁽⁴⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن عدي بن حاتم، أن النبي ﷺ قال: [إذا رميت بسهمك وذكّرت اسم الله فوجدته من الغد ولم تجده في ماء ولا فيه أثر]

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (280)، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2845) كتاب الصيد: باب في اتخاذ الكلب للصيد وغيره.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5476)، ومسلم (1929)، وأبو داود (2847) واللفظ له، ورواه بقية أهل السنن. والمعراض: سهم بلا ريش ولا نصل. والمزراق: رمح قصير.

(4) حديث صحيح. أخرجه الشيخان وأبو داود - واللفظ له. انظر صحيح سنن أبي داود (2474).

وصحيح البخاري (175)، (5477)، وكذلك صحيح مسلم (1929).

غَيْرَ سَهْمِكَ فَكُلْ ، وَإِذَا اخْتَلَطَ بِكَلَابِكَ كَلْبٌ مِنْ غَيْرِهَا ، فَلَا تَأْكُلْ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّهُ قَتَلَهُ
الذي ليس منها⁽¹⁾.

وفي رواية: [أرسل كلبني فأجد عليه كلباً آخر ، فقال: لا تأكل لأنك إنما سميت
على كلبك].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت: يا
رسول الله ، إني أصيد بكلبي المعلم ، وبكلبي الذي ليس بمعلم ، قال: [ما صدت
بكلبك المعلم ، فاذكر اسم الله وكل ، وما أَصَدْتَ بكلبك الذي ليس بمعلم ، فأدركت
ذكاءه فكل]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَأَنْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: احذروا مخالفة حدود ربكم ، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو
مما أمسكت على نفسها ، أو أن تطعموا ذبائح المشركين عبدة الأوثان ، فإن الله سريع
حسابه ، يجازي الشكور والمطيع ، ويعاقب العاصي بمعصيته .

5. قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآلَايِنِ فَقَدْ
حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

في هذه الآية: اليوم أحل لكم أيها المؤمنون حلال الطعام وذبائح أهل الكتاب دون
غيرهم من سائر أهل الشرك ، وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب ، وأحل لكم
نكاح المحصنات - أي العفيفات - من نسائكم ونساء أهل الكتاب إذا دفعتم لهن
مهورهن وأنتم أعفاء لا معالنين بسفاح ولا متخذي أخدان - ذات الخدن ، ذات الخليل

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (2475) ، (2479) - كتاب الصيد. ورواه الشيخان.
انظر صحيح البخاري (5486) ، وصحيح مسلم (1929) ، ومسنند أحمد (4/256).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2855) من حديث أبي ثعلبة. انظر صحيح سنن أبي داود
- حديث رقم - (2480) - كتاب الصيد. وأصله في الصحيحين.

الواحد - ومن يجحد ما أمر الله بالإيمان به بطل ثواب عمله وهو في الآخرة من الهالكين .
فقوله : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ .

يعني الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها . ذكره ابن جرير .
وقوله : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ .

قال مجاهد : (ذبائحهم) . وقال الضحاك : (أحل الله لنا طعامهم ونساءهم) - وبه قال ابن عباس .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [لما فتحت خيبرُ أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُم . .] الحديث (1) .

قال ابن إسحاق : (فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مَصْلِيَّة - أي مشوية - ، وقد سألت أي عَصُو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ ف قيل لها : الذراع ، فأكثر في السُّم ، ثم سمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ ، تناول الذراع فلاك منها مضغة ، فلم يُسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله ﷺ فلفظها ، ثم قال : إن هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم) .

قال ابن كثير : (ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم : هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شَحْمِها أم لا؟) . قال : وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ أضافه يهوديٌّ على خُبْزٍ شعير وإهالة سَنَخَةٍ (2) ، يعني : وَدَكَأَ زَنْخًا) .
وقوله : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ .

المعنى : ولكم أن تجاوزوهم بإطعامهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، فهو من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة . ذكره ابن كثير ثم قال : (فأما الحديث الذي فيه :

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (5777) - كتاب الطب . ضمن حديث طويل .

(2) أخرجه أحمد (210/3-211) من حديث أنس ، وأخرجه البخاري (5437) ، ومسلم (2041) ، وأخرجه أبو داود (3782) ، وأخرجه ابن حبان (4539) .

«لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي»⁽¹⁾ ، فمحمول على النذب والاستحباب ، والله أعلم.

وقال القرطبي : ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ : دليل على أنهم مخاطبون بتفاصيل شرعنا ، أي إذا اشتروا منا اللحم يحل لهم اللحم ويحل لنا الثمن المأخوذ منهم).

وخلاصة المعنى : لكم - أيها المؤمنون - أن تأخذوا ثمن اللحوم التي يشترونها منكم ، ولكم أن تكافئوهم على إطعامكم ذبائحهم بإطعامهم من ذبائحكم ، ولهم أن يأكلوا من ذبائحكم فهي حل لهم ، يعلمون ذلك عندهم.

وقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ .

يعني أحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات . وقد تقدم المعنى في «البقرة» و«النساء» والله الحمد .

وقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

أي يحل لكم نكاح نساء أهل الكتاب بشروط :

1 - أن تكون من العفيفات العاقلات .

2 - أن تكون تحصن فرجها فلا تزني .

3 - أن يكون المؤمن صلباً في دينه لا يترك دينه لدينها ولا يتأثر بمحاولاتها في ذلك .

4 - أن لا يتزوج من نساء أهل الكتاب إلا عندما تلجئه الحاجة إلى ذلك ، فالأصل نكاح المؤمنات الطاهرات ، والنظر القويم إلى مستقبل أولاده وأسرته .

فعن مجاهد : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال : العفائف).

وقال الشعبي : (إحصان اليهودية والنصرانية : أن لا تزني).

وعن سعيد بن المسيب والحسن : (أنهما كانا لا يريان بأساً بنكاح نساء اليهود والنصارى ، وقالوا : أحله الله على علم).

يروى ابن جرير بسنده عن الحسن - وسأله رجل : أيتزوج الرجل المرأة من أهل

(1) حديث إسناده جيد . أخرجه أبو داود (4832) ، والترمذي (2395) ، وأحمد (38/3) ، وغيرهم .

الكتاب؟ - قال: (ماله ولأهل الكتاب ، وقد أكثر الله المسلمات ، فإن كان لا بد فاعلاً فليعتمد إليها حصاناً غير مسافحة).

ولا فرق بين الحرة والأمة ، فالعفاف أهم شرط في نكاح الذمية ، وهو قول الجمهور.

وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (يعني: مهورهن).

وقال ابن جرير: (فإن «الأجر»: العوض الذي يبذله الزوج للمرأة للاستمتاع بها ، وهو المهر).

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: ينكحوهن بالمهر والبينة ، غير مسافحين متعالنين بالزنا ، وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ يعني: يسرون بالزنا).

قال رجل للحسن: ما المسافحة؟ قال: (هي التي إذا لمح الرجل إليها بعينه اتبعته).

وقال ابن كثير: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ، فكما شرط الإحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنا ، كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً مُحْصِناً عفيفاً ، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ، ولا يردون أنفسهم عنم جاءهم ، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ، أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

قال مجاهد: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ ، قال: بالله). وقال عطاء: (الإيمان: التوحيد).

وقال ابن عباس: (أخبر الله سبحانه أن «الإيمان» هو العروة الوثقى ، وأنه لا يقبل عملاً إلا به ، ولا يحرم الجنة إلا على من تركه).

ومن ذلك الإيمان ما أحل الله من تزوج نساء أهل الكتاب على تلك الشروط.

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾.

أي من الهالكين ، نتيجة الكفر بأوامر الله أو بعضها.

6 . قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

في هذه الآية: ذكر أحكام شرعية تتعلق بالطهارة ، من أركان الوضوء وأحكام تخص التيمم ومشروعيته ، وبيان نعمة الله سبحانه على المؤمنين بهذا التشريع ، وغير ذلك .

أخرج البخاري عن عائشة قالت: [خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام. فقال: حَبَسَتْ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يَطْعَنُ بيده في خاصرتي ، ولا يمينني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم ، فتيمموا. فقال أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته⁽¹⁾.

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

أي على غير طهر . وعليه أقوال المفسرين :

1 - سئل عكرمة عن قول الله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (334) ، ومسلم (367) ، والنسائي (162/1-164) ، وغيرهم .

الْمَرَفِقِ ﴿١﴾ ، فكل ساعة يتوضأ؟ فقال: قال ابن عباس: (لا وضوء إلا من حدث).

وقال عكرمة: (كان سعد بن أبي وقاص يصلي الصلوات بوضوء واحد).

وقال: (كان سعد بن أبي وقاص يقول: صلّ بطهورك ما لم تحدث) رواه ابن جرير.

2- عن قتادة ، عن واقع بن سحبان ، عن يزيد بن طريف - أو: طريف بن يزيد: (أنهم كانوا مع أبي موسى على شاطئ دجلة ، فتوضؤوا ، فصلّوا الظهر ، فلما نودي بالعصر ، قام رجال يتوضؤون من دجلة ، فقال: إنه لا وضوء إلا على من أحدث).

3- عن زيد بن أسلم قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ قال: (يعني: إذا قمتم من النوم).

أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أنس قال: [كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال: قلت⁽¹⁾: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نُحْدِثْ⁽²⁾].

وقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (قد استدل طائفة من العلماء بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء ، لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها).

قلت: بل النية ركن من أركان الوضوء الذي بيّن الله في هذه الآية ، فأركان الوضوء:

1- النية: ومحلها القلب ، وتعني القصد والإرادة ، والتلفظ بها لا أصل له. وقد ثبت في الصحيحين من حديث عمر: [إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى]⁽³⁾.

2- غسل الوجه: عرضاً من شحمة الأذن اليمنى إلى شحمة الأذن اليسرى ، ومن منبت الشعر من الرأس إلى أسفل اللحية طولاً. لقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

- (1) هو عمرو بن عامر الأنصاري راوي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (132/3) ، والبخاري في الصحيح (214) ، وأبو داود في السنن (171) ، والترمذي في الجامع (60).
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1) - كتاب بدء الوحي ، ورواه مسلم وأهل السنن.

أخرج الإمام الترمذي بسند جيد عن أبي وائل قال: [رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت] (1).

وأخرج البخاري عن عطاء عن ابن عباس: [أنه توضأ فغسل وجهه ، أخذ غَرْفَةً من ماء فَمَضْمَضَ بها واستنشق ، ثم أخذَ غَرْفَةً من ماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بها وَجْهَهُ ، ثم أخذَ غَرْفَةً من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذَ غَرْفَةً من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح برأسه ، ثم أخذَ غَرْفَةً من ماء فَرَشَّ على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذَ غَرْفَةً أخرى فغسل بها رِجْلَهُ يعني اليسرى ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ] (2).

3- غسل اليدين إلى المرافق.

المرفق هو العظم «المفصل» الذي بين العضد والساعد. لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

4- مسح الرأس كله. لقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾.

والباء تفيد الإلصاق - وفعله ﷺ يدل على ذلك - ومن ذهب إلى التبعض فالحديث التالي حجة عليه ، إذ فيه وصف مسحه ﷺ الذي علينا أن نتابعه فيه .

أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن وأحمد والبيهقي وابن حبان - من حديث عمرو بن يحيى المازني ، عن أبيه ، أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد - وهو جد عمرو بن يحيى -: أتستطيع أن تُرَيِّنِي كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم ، فدعا بماء فَأَفْرَغَ على يديه فغسل مرتين ، ثم مَضْمَضَ واستنثر ثلاثاً ، ثم غَسَلَ وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بِمُقَدِّمِ رأسه حتى ذهب بهما إلى قَفَاهُ ، ثم رَدَّهُمَا إلى المكان الذي بدأ منه ، ثم غَسَلَ رِجْلَيْهِ (3).

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه الترمذي في السنن (31) ، وابن ماجه (430) ، والحاكم (149/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (140) ، كتاب الوضوء. وأخرجه أحمد (268/1).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (185) - كتاب الوضوء. باب مسح الرأس كله. وأخرجه مسلم (235) ، وأبو داود (118) ، والترمذي (32) ، والنسائي (71/1) ، وابن ماجه (434) ، وأخرجه =

فالحديث يدل على وجوب تكميل مسح جميع الرأس ، وهو مذهب مالك وأحمد .

5- غسل القدمين إلى الكعبين . لقوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ .

ونصبت ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالعطف على ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : (رجعت إلى الغسل) .

والكعبان هما العظمان الناتان على جانبي مشط القدم ، ويدخل مع القدم العقب وهو العظم الناتئ أسفل القدم آخر المشط الذي يركز عليه الإنسان إذا مال إلى الخلف ويسمى عند الناس أحياناً «كاحلاً» فيجب غسله مع القدم .

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال : [تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أزهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا ، فنادى بأعلى صوته : أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ ، ويل للأعقاب من النار]⁽¹⁾ . وفي لفظ عند أحمد : [ويل للعراقيب من النار] .

وفي لفظ آخر : [ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار]⁽²⁾ .

6- الموالاة: أي غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بلا فارق زمني .

ففي مسند أحمد وسنن داود من حديث خالد بن معدان ، عن بعض أزواج النبي ﷺ : [أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي ، وفي ظهر قدميه لُمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء ، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء]⁽³⁾ .

زاد أبو داود : [والصلاة] .

وأما واجبات الوضوء وسننه فلها مكان آخر في الفقه سيأتي في موسوعة خاصة به إن شاء الله تعالى .

= أحمد (38/4) ، والبيهقي (59/1) ، وابن حبان (1084) ، (35) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (60) ، (96) ، ومسلم (241) ، وأحمد (193/2) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (191/4) ، والحاكم (162/1) ، من حديث جابر بن عبد الله .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (424/3) ، وأبو داود في السنن (175) ، لكن «عن بعض

أصحاب النبي ﷺ» ، وجهالة الصحابي لا تضر .

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ .

تقدم الكلام عن تفصيل ذلك في سورة النساء ، وبيان أسباب النزول في ذلك .

وقد أخرج البخاري - حول هذه الآية - عن عائشة رضي الله عنها : [سقطت قِلادةٌ لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ النبي ﷺ ونزل ، فثنى رأسه في حجرٍ راقداً ، أقبل أبو بكر فلكزني لكزةً شديدة وقال : حبست الناس في قِلادةٍ ، فبي الموت ، لِمَ كان رسول الله ﷺ وقد أوجعني ، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصُّبح ، فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية ، فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ .

قال عكرمة: (من ضيق). أي أباح سبحانه لكم التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ولئلا يعتكم .

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ، ولكن الله يريد أن يطهركم ، بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث ، والغسل من الجنابة ، والتيمم عند عدم الماء ، فتتظفوا وتطهروا بذلك أجسامكم من الذنوب) .

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه ، خرج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينه مع الماء - أو : مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ بطشتها يده مع الماء - أو : مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئةٍ مشتها رجلاه مع الماء - أو : مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب]⁽²⁾ .

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : [من

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4608) ، كتاب التفسير . تفسير سورة المائدة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (244) ، والترمذي (2) ، ومالك (32/1) ، وأحمد (303/2) .

توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه⁽¹⁾.

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار بسند صحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أنه دعا بماء فتوضأ ثم ضحك ، فقال لأصحابه : ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا : ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال : [رأيت رسول الله ﷺ توضأ كما توضأت ، ثم ضحك فقال : ألا تسألوني؟ فقالوا : ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال : إن العبد إذا دعا بوضوء ، فغسل وجهه ، حطَّ الله عنه كلَّ خطيئة أصابها بوجهه ، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك ، وإذا طهَّرَ قدميه كان كذلك . زاد البزار : فإذا مسح رأسه كان كذلك⁽²⁾.

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

أي كي تشكروا الله على هذه النعم الجليلة عليكم ، بطاعتكم إياه وتعظيمكم لأوامره ، فقد خصَّكم بجزيل الثواب على الطاعة والتعظيم .

11 - 7 . قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ .

في هذه الآيات : تَوْجِيهٌ من الله سبحانه لذكر نعمته عليكم - أيها المؤمنون - في

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (252/5) ، (256/5) ، والطبري (11548) ، وغيرهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد وأبو يعلى . إسناده أحمد جيد ، ورواه البزار بسند صحيح . انظر صحيح الترغيب (179/1) - كتاب الطهارة ، الترغيب في الوضوء وإسباغه .

ما هداكم له من ميثاق طاعته ونجاتكم من الضلالة والردى . وأمر منه سبحانه أن تكونوا قائمين بالحق لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل ، وهو سبحانه عليم بذات الصدور ، خبير بأعمالكم ، وقد وعد المؤمنين القائمين بمنهاج العمل الصالح مغفرة وأجرًا عظيمًا ، في حين وعد الكافرين عذابًا أليمًا . ثم ذكرهم إذ نجّاهم من مكر قوم من أعدائهم هموا ببسط الأذى لهم - أفلا يحملكم هذا كله على التقوى وصدق التوكل على الله جل ثناؤه . فإلى تفصيل ذلك :

فعن مجاهد: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ، قال: النعم ، آلاء الله).

وعن ابن عباس: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية ، يعني: حيث بعث الله النبي ﷺ وأنزل عليه الكتاب ، فقالوا: «آمنّا بالنبي ﷺ وبالكتاب وأقرنا بما في التوراة» فذكرهم الله ميثاقه الذي أقرّوا به على أنفسهم ، وأمرهم بالوفاء به). فالنعمة الإسلام ، والميثاق كما قال ابن جرير: (يعني: وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة له في المنشط والمكره والعسر واليسر).

ففي الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: [بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا ، وعُسْرنا ويُسْرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا نُنَازِعَ الأمر أهله. قال: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنْ اللَّهِ بَرَهَانٌ⁽¹⁾ .

- وقيل هو العهد المأخوذ على ذرية آدم يوم استخرجها من صلبه ، وقيل بل هو العهد المأخوذ على اليهود في متابعة محمد ﷺ - والأول أظهر ورجحه ابن جرير .

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

أمرٌ بالتقوى ، وتحذيرٌ من مخالفة عهد من يعلم السر وأخفى .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: كونوا قائمين بالحق لله - عز وجل - لا لأجل الناس والسمعة).

وقوله: ﴿شُهِدَ آءَ بِالْقِسْطِ﴾ .

أمرٌ بإقامة العدل وتحذير من الظلم والجور .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7055) ، (7056) ، ومسلم (1840) ، وأحمد (321/5) .

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

أي لا تفحموا حظوظ نفوسكم في القضاء والحكم بين الناس ، بل أقيموا العدل على كل أحد ، قريباً كان أم بعيداً ، صديقاً كان أم عدواً.

وقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي مقام العدل هو الذي يحبه الله ويرضاه ، وأما الظلم فهو بغض إليه جلت عظمته .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه الوصية من الله تعالى لعباده المؤمنين :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير أنه قال: [نَحَلَنِي أَبِي نَحْلًا ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةٌ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضِي حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَجَاءَهُ لِيشْهدهُ عَلَى صَدَقَتِي ، فَقَالَ: أَكُلُّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ؟ قَالَ: لَا . قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ . وَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ . قَالَ: فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ] (2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم - أيضاً - من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ] (3).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: احذروا معشر المؤمنين الجور ومغبة الظلم ، فإن الله قد اطلع على أعمالكم .

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2586) ، ومسلم (1623) ، والنسائي (258/6) ، ومالك (751/2) . من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه
- (2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2578) - كتاب البر والصلة .
- (3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2582) - الباب السابق ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والجلحاء: الشاة التي لا قرَن لها .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ .

هذا من تمام عدله سبحانه: موافاة المؤمنين نتيجة أعمالهم وإقامة الحق والعدل المغفرة والأجر العظيم ، في حين ينتظر الكافرين: الظالمين أنفسهم بالكفر وغيرهم بالظلم والجور ، عذاب الجحيم .

وقوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ . فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول: قيل نزلت في شأن بني النضير حين همّوا بإلقاء الرّحى على رأس رسول الله ﷺ ، حين ذهب إليهم ليعينوه في دية الرجلين من بني كلاب اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري في أعقاب حادثة بئر معونة ، وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ، فكانت نعمة الله بفضحهم وإجلالهم .

قال مجاهد: ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ : اليهود ، دخل عليهم النبي ﷺ حائطاً لهم وأصحابه من وراء جداره ، فاستعانهم في مَغْرَمٍ دية غرمها ، ثم قام من عندهم ، فائتمروا بينهم بقتله . فخرج يمشي القهقري ينظر إليهم ، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تناموا إليه⁽¹⁾ .

ويروي ابن جرير في التفسير أن حبي بن أخطب قال لهم: (لا ترون أقرب منه الآن ، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ، ولا ترون شراً أبداً ، فجاؤوا إلى رحي لهم عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاءه جبريل) .

التأويل الثاني: قيل بل نعمة الله المذكورة هنا إعلام الله نبيه بطعام قدمه له يهود أرادوا به قتله وقتل أصحابه . قال ابن عباس في الآية: (وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله وأصحابه طعاماً ، ليقتلوه إذا أتى الطعام ، فأوحى الله إليه بشأنهم فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابه فلم يأتوه) .

التأويل الثالث: قيل بل النعمة هنا إطلاع الله نبيه ﷺ على محاولة عدوه المشرك قتله في بطن نخل حين استل سيفه ، وتشريع صلاة الخوف للأمة .

(1) انظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين . (802/2) - غدر اليهود وإجلاء بني النضير - وانظر تفسير الإمام الطبري (11560-11563)، وأسباب النزول (387) - للواحدي .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرَّقَاعِ قَالَ: كُنَّا إِذَا آتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَسِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِشَجَرَةٍ ، فَأَخَذَ سِيفَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَرَطَهُ - أَي سَلَّهُ - فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَتَخَافُنِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ. قَالَ: فَتَهَدَّدَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَعَمَدَ السِّيفَ وَعَلَّقَهُ ، قَالَ: فَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ ، فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ تَأَخَّرُوا ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الْأُخْرَى رَكَعَتَيْنِ ، قَالَ: فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ ، وَلِلْقَوْمِ رَكَعَتَانِ⁽¹⁾.

قال معمر: (وكان قتادة يذكر نحو هذا ، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ ، فأرسلوا هذا الأعرابي ، وتأول: ﴿ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية) ذكره ابن جرير.

قلت: والراجح التأويل الأول ، ورجحه شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله ، وقد بسطت القول في ذلك في كتابي السيرة النبوية - على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - عند إجلاء بني النضير ، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

أَمَرُ مِنَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى فِيهِ سِرُّ كُلِّ فَلَاحٍ ، وَإِخْبَارٌ عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهِ كَمَا عَلَّمَهُمْ ذَلِكَ نَبِيُّهُمْ ، فَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ وَعَصَمَهُ وَحَفَظَهُ .

12 - 14. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (843) ، كتاب صلاة المسافرين - باب صلاة الخوف .

ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

في هذه الآيات: ذُكِّرَ للعهد والمواثيق التي أخذها الله على أهل الكتابين: اليهود والنصارى، وبيان مغبة نقضهم تلك العهود وما حلَّ بهم من ضنك العيش في الدنيا، وما ينتظرهم من شقاء يوم القيامة. فالإلى تفصيل ذلك:

قوله: ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴿١٤﴾.

قال الحسن: (اليهود من أهل الكتاب). وقال أبو العالية: (أخذ الله مواعيدهم أن يخلصوا له، ولا يعبدوا غيره).

والنقيب في لغة العرب كالعريف، بل هو فوقه، وهو الأمين الضامن على القوم.

يقال: نَقَبَ فلان على بني فلان فهو يَنْقُبُ نَقْبًا. ويقال: عَرَفَ عليهم يَعْرِفُ عِرَافَةً.

قال قتادة: ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴿١٤﴾، من كل سِبْط رجل شاهد على قومه. وقال الربيع: (النقباء: الأمناء).

والمقصود أنهم عرفاء القوم ينوبون عن قبائلهم بالتمثيل والمبايعة، قال ابن كثير: (يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه).

وقال ابن جرير: (إنما كان الله عز ذكره أمر موسى ﷺ ببعثة النقباء الاثني عشر من قومه بني إسرائيل إلى أرض الجبارة بالشأم، ليتحسَّسوا لموسى أخبارهم، إذ أراد هلاكهم، وأن يورث أرضهم وديارهم موسى وقومه، وأن يجعلها مساكن لبني إسرائيل، بعدما أنجاهم من فرعون وقومه، وأخرجهم من أرض مصر. فبعث موسى الذين أمره ببعثهم إليها من النقباء).

وقد بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة اثنا عشر نقيباً من الأنصار، هم الذين ولّوا

المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة . منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس .

أخرج البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت - أحد النقباء - أن رسول الله ﷺ قال : [تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبايعته - وفي رواية : فبايعناه على ذلك] ⁽¹⁾ .

وكذلك فإن الخلفاء في هذه الأمة الذين هم على منهاج النبوة عددهم اثنا عشر خليفة . ففي الصحيحين والمسند عن جابر بن سُمرة قال : سمعت النبي - ﷺ - يقول : [لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً . ثم تكلم النبي - ﷺ - بكلمة خَفِيتْ عليّ ، فسألت أبي : ماذا قال النبي - ﷺ - ؟ قال : كلهم من قريش] ⁽²⁾ .

وقدمضى منهم الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم . وكذلك عمر بن عبد العزيز ، وقيل عبد الله بن الزبير أيضاً . ويبدو أن البقية الستة يكونون مع عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة مرة أخرى كما في حديث حذيفة :

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن النعمان بن بشير قال : [كنا قعوداً في المسجد ، وكان بشير رجلاً يكف حديثه ، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال : يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته ، فجلس أبو ثعلبة ، فقال حذيفة يرفعه إلى النبي ﷺ : تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعه الله إذا شاء أن يرفعه ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعه الله إذا شاء أن يرفعه ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعه الله إذا شاء الله أن يرفعه ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (3892) - كتاب مناقب الأنصار .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7222) ، ومسلم (1821) ح (6) ، واللفظ له ، ورواه أحمد في المسند (86/5) ، وأخرجه أبو داود (4279) ، والترمذي (2223) ، والبيهقي في «الدلائل» (519/6) ، وغيرهم .

تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

أي بحفظي وكلاءتي ، بسمعي وبصري ، وإني ناصرکم على عدوكم وعدوي الذين أمرتكم بقتالهم.

وقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.

أي حافظتم على إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة ، وصدقتم بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني.

وقوله: ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾.

قال مجاهد: (نصرتموهم). وقال ابن زيد: (التعزيز والتوفير: الطاعة والنصرة).

وقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. أي أنفقتم في سبيله وابتغاء مرضاته.

وقوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخَلَنَّكُمْ جَنَّاتُ بَجْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي أستر عليكم ذنوبكم ، وأتجاوز عنها فأمحوها ، وأتحفكم بدخول جنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أي: فمن جحد هذا الميثاق منكم - يا بني إسرائيل - بعد شدة وتوكيده ، فقد أخطأ طريق النجاة ، وَزَلَّ في طريق الهلاك.

وقوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾.

قال ابن عباس: (هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه). وقال قتادة: (فبنقضهم ميثاقهم لعناهم).. أي طردناهم عن الهدى والحق.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾.

أي: فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً لغلظتها وقسوتها.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (273/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (5) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (989/2) لتفصيل البحث.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: حدود الله في التوراة، ويقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، وإن خالفكم فاحذروا).

والمقصود أنهم حملوا كلام الله في التوراة على غير مراده ومعناه، وأشاعوا فهمًا منحرفًا له يوافق أهواءهم وشهواتهم.

وقوله: ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

قال السدي: (يقول: تركوا نصيبًا).

وقال الحسن: (تركوا عرى دينهم، ووظائف الله جل ثناؤه التي لا تُقبل الأعمال إلا بها).

والمقصود: أنهم تركوا العمل بما ذكروا به رغبة عنه إلى دنيا عكفوا عليها.

وقوله: ﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

يعني الغدر من أكثرهم والخيانة.

قال قتادة: ﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾، قال: على خيانة وكذب وفجور).

وقال مجاهد: (هم يهود، مثل الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل حائطهم).

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال ابن كثير: (وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: «ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه». وبهذا يحصل لهم تأليف وجنح على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، يعني به: الصفح عمن أساء إليك).

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أي: وكذلك الذين زعموا أنهم على دين عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنهم متابعوه على هديه ومناصروه ومآزره، وقد عقدوا لذلك المواثيق والعهود - كما فعل اليهود من قبل - على الإيمان به وبكل نبي يرسله الله بعده إلى الأرض، إلا أنهم كانوا كسابقيهم عند أسوأ الظن. قال قتادة: (نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهد الله الذي

عهده إليهم ، وأمر الله الذي أمرهم به). وقال السدي : (قالت النصارى مثل ما قالت اليهود ، ونسوا حظاً مما ذكروا به).

وقوله : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ .

يعني : أوقع الله بينهم ، فأصبحوا طوائف يأكل البغض والحسد بعضهم بعضاً .

قال إبراهيم النخعي : (هذه الأهواء المختلفة والتباغض ، فهو الإغراء).

وقوله : ﴿ وَسَوْفَ يُنِيتُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

فيه تَوَعُّدٌ من الله بالانتقام منهم إذ كذبوا على الله ورسوله ، وجعلوا لله صاحبة وولداً ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرّفوا التنزيل والأمر والنهي ، تعالى الله الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، وتقدست أسماؤه وجلت عظمته .

15 - 16 . قوله تعالى : ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ

لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ .

في هذه الآيات : عالمية دعوة محمد ﷺ : إلى الناس كافة ، إلى الجن والإنس ، إلى الأمم جميعها من أهل الكتاب وغيرهم . وبيان ما حصل من التحريف والتبديل في الكتب المتقدمة ، وإخبار عن القرآن العظيم وما فيه من النور المبين ، وطريق السعادتين في الدنيا والآخرة .

فعن قتادة : ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ : وهو محمد ﷺ .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : (من كفر بالرجم ، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب . قوله : ﴿ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ، فكان الرجم مما أخفوا) رواه ابن جرير والحاكم .

وقوله: ﴿وَيَعْقُوبُ عَنْ كَثِيرٍ﴾. أي يسكت عن أشياء أخرى مما غيروا وبدلوا وحرفوا لا فائدة ببيانها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

قال ابن جرير: (يعني بالنور محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق ، وأظهر به الإسلام ، ومحق به الشرك ، .. ومن إنارته الحق ، تبينه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من لكتاب . وقوله: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ، يقول جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور لذي أنار لكم به معالم الحق ، ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله ، وحلاله وحرامه ، وشرائع دينه ، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ ، يبين للناس جميع ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم ، ويوضحه لهم ، حتى يعرفوا حقّه من باطله).

وعن السدي: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ، سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه ، وابتعث به رسله ، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به ، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية).

قال القرطبي: (قوله ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي: ما رضيه. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة ، والمؤمنة من كل مخافة ، وهي الجنة).

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .

أي من ظلمات الجاهلية والكفر إلى نور الحق والإسلام.

وقوله: ﴿يُذْنِبُهُ﴾ .

قال ابن جرير: (تحبيبه إياه الإيمان ، برفع طابع الكفر عن قلبه ، وخاتم الشرك عنه ، وتوفيقه لإبصار سُبُل السلام).

فمن باشر السير في طريق رضوان الله سبحانه ، هيأ له سُبُلًا من الخير والتوفيق والإلهام ، وأسباباً لسعادة الدنيا والآخرة.

وأصل الهداية في لغة العرب من الهدى ، وهو الرشاد والدلالة ، وهو يذكر ويؤنث.

والهداية هنا تعني هداية التوفيق والإلهام ، وهي هداية خاصة بالمؤمنين الذين صدقوا الرسل واتبعوهم ، وصار لهم قدم صدق في الإسلام والإيمان والإحسان ، وتعلقت قلوبهم بالله ومحابه ، فهناك يكرمهم ربهم تباركت أسماؤه وصفاته بهداية خاصة بعدهداية الدلالة والإرشاد. فإن مراتب الهداية كما وردت في الكتاب والسنة :

- 1- هداية الخلق العامة .
- 2- هداية الدلالة والإرشاد .
- 3- هداية التوفيق والإلهام .
- 4- هداية إلى طريق الجنة يوم القيامة .

فقوله هنا: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ هو كقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69]. وكقوله في سورة مريم: ﴿ وَبَزَّيْدُ اللَّهِ الَّذِي أَهْتَدُوا هُدًى ﴾ [مريم: 76].

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته] (1).

وقوله: ﴿ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

أي: يرشدهم إلى دين الله القويم ، ويسدّد خطاهم إليه ، وينجيهم من فساد واعوجاج بقية المسالك ، فليس بعد الحق إلا الضلال .

17 - 18. قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (231/4) ، والبغوي في شرح السنة (2/142/1) ، ويشهد له ما في مسند الإمام أحمد (256/6) ، وانظر تمام بحث الهداية في كتابي: أصل الدين والإيمان (900/2).

مَرِيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ .

في هذه الآيات: حكم الله في الذين ادعوا الألوهية في عيسى عليه الصلاة والسلام ، وإثبات عبودية المسيح وأمه الله الملك سبحانه ، وتكذيب الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه من أهل الكتابين ، وإثبات العذاب على المكذبين بالله ورسله وتوحيده يوم القيامة .

فقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ ﴾ .

قال القرطبي: (وكفر النصارى في دلالة هذا الكلام إنما كان بقولهم: إن الله هو المسيح بن مريم على جهة الدينونة به ، لأنهم لو قالوه على جهة الحكاية منكرين له لم يكفروا) .

وقوله: ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۖ ﴾ . أي: أخبر الله المسيح عليه الصلاة والسلام أن لو كان إلهاً لقدر على دفع الضر عنه مما أصابه ، فقد أمات أمه ولم يتمكن من دفع ذلك عنها ، وكذلك لو أراد سبحانه إهلاكه وإهلاك جميع أهل الأرض .

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ﴿١٧﴾ .

أي: كل المخلوقات والموجودات في هذا الكون الفسيح تحت تصرفه سبحانه وفي ملكه ينفذ فيها أمره ، فلو كان المسيح وأمه إلهين فأين سيكونان؟ إن المسيح وأمه ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ أي مخلوقان محصوران بين السماوات والأرض ، وما أحاط به الحد والنهاية لا يصلح للإلهية ، والله وحده على كل شيء قدير .

وقوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۖ ﴾ .

فأروا لأنفسهم فضلاً وشرفاً. قال ابن عباس: (خوف رسول الله ﷺ قوماً من اليهود العقاب فقالوا: لا نخاف فإننا أبناء الله وأحباؤه ، فنزلت الآية) .

قال ابن كثير: (أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري». فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه. وقد ردّ عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يُطْلَقُ عندهم على التّشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربّي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البُنوّة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك معزّتهم لديه وحُظوتهم عنده، ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه).

وقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. تكذيب لهم من الله في ادعائهم.

وفيه أكثر من تأويل:

1 - التأويل الأول: قيل معنى ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ عَذَّبَكُمْ. أي حين مسخهم قردة وخنازير. ذكره القرطبي.

2 - التأويل الثاني: قيل فلم أعدّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم. ذكره ابن كثير.

3 - التأويل الثالث: هو اعتراف اليهود أن الله سيعذبهم أربعين يوماً عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل. ذكره ابن جرير.

قلت: والبيان الإلهي يحتمل بإعجازه كل ما سبق ذكره. والسنة الصحيحة تؤيده في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن حبان في صحيحه، والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [الحيّات مسخُ العجن، كما مُسِخَتْ القردة والخنازير من بني إسرائيل]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما فُتِحَتْ خَيْبَرُ أَهْدَيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ شاةً فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: اجتمعوا إليّ من كان هاهنا من يهود. فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل صادقٌ عنه. فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتُم، بل أبوكم فلان.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1080)، والطبراني في «المعجم الكبير» (11946). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1824)، وصحيح الجامع الصغير (3198).

قالوا: صدقت. قال: فهل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كما عَرَفْتَهُ في أبينا، فقال لهم: مَنْ أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تَخْلَفُونَا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يَضُرْكْ⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار]⁽²⁾.

وقد استدل قوم بهذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أن الحبيب لا يعذب حبيبه. وهذا استدلال طيب، فإن اليهود لو قالوا لا يعذبنا كذبوا ما في كتبهم من أن الله سيعذب العصاة، ولو قالوا يعذبنا أقرؤا أنهم ليسوا أبناء الله وأحباءه.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: [مرّ النبي ﷺ بأناس من أصحابه، وصبي بين ظهرائي الطريق، فلما رأت أمه الدواب خشيت على ابنها أن يوطأ، فسعت والهة، فقالت: ابني! ابني! فاحتملت ابنها، فقال القوم: يا نبي الله! ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، فقال رسول الله ﷺ: لا والله، لا يلقي الله حبيبه في النار]⁽³⁾.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري من حديث عتب بن مالك عن النبي ﷺ قال: [لن يُؤافيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله يبتغي بها وجهَ الله، إلا حرّم الله عليه النار]⁽⁴⁾.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الجزية من صحيحه. انظر مختصر صحيح البخاري - حديث رقم - (1281). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم: (20) -، وصحيح مسلم (93/1).
- (3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (177/4)، وأحمد (104/3)، وهو على شرط الشيخين.
- (4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6423) - كتاب الرقاق. ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5106).

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

قال السدي: (يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له ، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه).

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي جميع الخلق في هذا الكون ملك لله ، والمرد إليه سبحانه لا محالة . وفيه تهديد ووعد للمغترين بالأمانى وفضائل الآباء والأسلاف كأولئك القائلين: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾.

19 . قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

في هذه الآية: الخطاب لأهل الكتابين في أن الله أرسل لهم محمداً ﷺ ، وهو خاتم النبيين والمرسلين .

قال قتادة: (وهو محمد ﷺ ، جاء بالفرقان الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، فيه بيان الله ونوره وهده ، وعصمة لمن أخذ به).

وقوله: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

أي على انقطاع من الرسل . وقد روى ابن جرير في التفسير قال: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد ، عن قتادة قال: (كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما ، ذكر لنا أنها كانت ست مئة سنة ، أو ما شاء من ذلك والله أعلم). ورواه البخاري عن سلمان الفارسي . وهناك أقوال أخرى ولكن ذكرت الراجح ، وربما يعود اختلاف الأرقام بين المفسرين لاختلاف السنة الشمسية والقمرية . ثم إنه لم يكن بين عيسى عليه الصلاة والسلام وبيننا محمد ﷺ بعثة نبي .

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ، ليس بيني وبينه نبي]⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (3442) - كتاب أحاديث الأنبياء . وانظر كذلك (3443).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل ، وطُمُوس من السُّبُل ، وتَغَيَّر الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصليبان ، فكانت النعمة به أتمَّ النعم ، والحاجة إليه أمرٌ عَمَمٌ ، فإن الفساد كان قد عمَّ جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد ، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أبحار اليهود وعُباد النصراني والصابئين).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير ، عن عياض بن حِمَارِ الْمُجَاشِعِيِّ ، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطْبَتِهِ: [ألا! إن ربي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم ما جَهِلْتُم مِمَّا عَلَّمَنِي ، يَوْمِي هذا ، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا ، حلالٌ ، وإني خَلَقْتُ عبادي خُفَاءَ كُلِّهِمْ ، وإنهم أَتَتْهُمُ الشياطين فاجتالَتْهُم عن دينهم ، وَحَرَمْتُ عليهم ما أَحَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي ما لَمْ أُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا ، وإن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ ، عَزَبَهُمْ وَعَجَبَهُمْ ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال: إنما بَعَثْتُكَ لَأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَّ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَان ، وإن الله أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا ، فَقُلْتُ: رَبِّ! إِذْنٌ يَتَلْعَوُ رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةٌ ، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاعْزُهُمْ نُغْرَكَ ، وَأَنْفِقْ فَسَيَنْفَقَ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةَ مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ ، قَالَ: وَأهل الجنة ثلاثة: ذو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَعَفِيفٌ وَمُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. قَالَ: وَأهل النار خَمْسَةٌ: الضعيفُ الذي لَا زَبَرَ لَهُ ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالخائن الذي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ - وَإِنْ دَقَّ - إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْنِخُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يَخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشَّنْظِيرُ: «الْفَحَّاشُ»⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾.

أي كي لا تقولوا ، أو أن لا تقولوا. قال ابن جرير: (كي لا تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. يعلمهم عز ذكره أنه قد قطع عذرهم برسوله ﷺ ، وأبلغ إليهم في الحجة).
والبشير المبشر بالثواب لمن أطاع الله وآمن برسوله ، والنذير المنذر بالعقاب لمن عصى الله وكذب رسوله.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) ، كتاب الجنة ونعيمها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، ورواه أحمد (262/4) ، والبيهقي (60/9).

وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

تأكيد لنبوة محمد ﷺ وإرساله إلى الأمم كافة ، والله لا يعجزه مجازاة من أطاع ، ولا معاقبة من كذب وتولى ، فهو القادر على كل شيء ، والفعال لما يريد .

20 - 26. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَلِبُونَّ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله عن تذكير موسى عليه السلام قومه نعم الله المتراكمة عليهم في تتابع الأنبياء فيهم ، وجمع الله أسباب الدنيا وخيرها عليهم ، وجعلهم أشراف الناس في زمانهم . ثم تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول في بيت المقدس ، الذي كان بأيديهم زمان أبيهم يعقوب عليه السلام ، وبشرهم بالنصر والظفر فنكلوا وعصوا ، وتخوفوا قوماً جبارين فيها ، حتى حرّضهم رجلا من ممن يخاف أمر الله وحلول عقابه ولهم فيهم مهابة ، بأنكم إن توكلتم على الله وواجهتم عدوكم ينصركم سبحانه ، فنكلوا بأبشع وجه وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، فهناك دعا موسى ربه أن يقضي بينه وبينهم وقال لا أملك إلا نفسي وأخي ، فحكم الله عليهم بتحريم دخولها مدة أربعين سنة يقعون في التيه ولا يهتدون للخروج منه . وتفصيل ذلك :

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (عافية الله عز وجل). وقال ابن عينة: (أيادي الله عندكم وأيامه).

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته، حتى خُتِموا بعيسى بن مريم - عليه السلام - ثم أوحى الله إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام -، وهو أشرف من كل من تقدّمه منهم، ﷺ).

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

قال ابن جرير: (سخر لكم من غيركم خدماً يخدمونكم).

قال قتادة: (كنا نحدّث أنهم أول من سخر لهم الخدم من بني آدم وملكوا).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: (الزوجة والخادم والبيت).

وقال: (كان الرجل من بني إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار يسمى ملكاً). وعن السدي قال: (يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله).

وذكر الطبري بسنده إلى أبي عبد الرحمن الجُبلي قال: (سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم! قال ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم! قال: فأنت من الأغنياء! فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك) - ورواه مسلم⁽¹⁾.

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن عبيد الله بن محصن، عن النبي ﷺ قال: [من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سريته، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَأَتَنَكُم مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

كانوا أفضل أهل زمانهم، وأشرف من سائر بني آدم. كما قال تعالى في سورة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2979) - كتاب الزهد. ورواه ابن جرير.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2346)، وابن ماجة (4141)، وقال الترمذي: حسن غريب.

الجاثية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١١). وكذلك قوله في سورة البقرة: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧).

وعن مجاهد: ((وَأَتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ، قال: المن والسلوى والحجر والغمام).

ولكن هذه الأمة أفضل عند الله منهم ، وأشرف منزلة يوم القيامة ، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وذلك لحسن صحبتها لنبيها محمد ﷺ يوم كان بين ظهرانيهم ، ولبشائر استمرار طائفة على الحق في حراسة هذا الدين ومنهاجه في الأرض إلى يوم القيامة. فإلى ذكر بعض الأحاديث الصحيحة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك] (1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: [قام معاوية خطيباً فقال: أين علماؤكم؟ أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقوم الساعة إلا وطائفة من أمتي ظاهرون على الناس ، لا يبالون من خذلهم ولا من نصرهم] (2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وأحمد بسند جيد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [أمتي أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة ، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل].

وفي لفظ: [أمتي هذه أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب في الآخرة ، إنما عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا] (3).

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1920) - كتاب الإمارة. وانظر صحيح ابن ماجة (10).
- (2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن. انظر صحيح ابن ماجة (9) - باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وأصله في صحيح مسلم (1037) من حديث عمير بن هانئ.
- (3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4278) ، وأحمد (410/4) ، (418/4) ، والحاكم (444/4) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني ، انظر السلسلة الصحيحة ، حديث (959).

وقوله: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ، فيه أقوال متكاملة ، مفادها أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس .

1 - قال مجاهد: ﴿الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ﴾ : الطور وما حوله .

2 - قال قتادة: ﴿الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ﴾ : هي الشام .

3 - قال ابن زيد: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: أريحا) - والمراد بيت المقدس .

4 - وقيل: إن ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ ، دمشق وفلسطين وبعض الأردن . ذكره ابن جرير ، ثم روى عن مجاهد: ﴿الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ﴾ قال: المباركة .

قال ابن كثير: (قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس ، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبَنُوهُ وأَهْلُهُ إلى بلاد مصر أيام يوسف - عليه السلام - ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين ، قد استحوذوا عليها وتملكوها ، فأمرهم رسول الله موسى - عليه السلام - بالدخول إليها ، وبقتال أعدائهم ، وبشَرِّهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكَلُوا وَعَصَوْا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سَيْرِهِم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجَّهون فيه إلى مَقْصِدٍ مُدَّةَ أربعين سنة ، عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى ، فقال تعالى مُخْبِراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المُطَهَّرَة).

وقوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

قال القرطبي: (أي فرض دخولها عليكم ووعدهم دخولها وسكنائها لكم) . والمقصود أن الله سبحانه قد وعدهم دخولها على لسان أبيهم إسرائيل أنه وراثته من آمن منكم .

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَى آذَانِكُمْ﴾ .

تحذير لهم من تضييع الجهاد وتركه والركون إلى الدنيا . ولذلك قال: ﴿فَنَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ .

فاعتذروا عن الدخول والقتال بقولهم إن فيها رجالاً عمالقة ذوي خلق هائلة وقوى شديدة: ﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ . يريدون بذلك أن لا طاقة لهم على الصمود أمامهم ولا مصاولتهم، فإن خرجوا دخلوها آمنين مستقرين . فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ورسوله

موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَلَى اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي حثهم على الجهاد رجلان صالحان منهم ممن يخاف بأس الله وعقابه ، قد أنعم الله عليهما بالإيمان واليقين والصلاح ، فأشارا إلى بني إسرائيل أن لا يهولنكم عظم أجسامهم فقلوبهم ملئت رعباً وحرصاً على الدنيا ، فالأجسام عظيمة والقلوب خاوية ضعيفة ، وهذا شأن الكفار على مدار الزمان ، فتقوا بالله وأقدموا ، وقد وعد الله المؤمنين المتوكلين عليه النصر والظفر .

فأجابوا مرة أخرى بالجبن والخوف ، وبالموقف المخزي في تاريخهم مع موسى عليه السلام الذين قاسى منهم الكثير ، ومن ضعف إيمانهم وتردد قلوبهم وظهور النفاق الذي تكشفه الشدائد: ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

ومن هنا تدرك أفضلية هذه الأمة - أمة محمد ﷺ - يوم عُرِضَتْ عليها الشدائد كما عُرِضَتْ على بني إسرائيل قبلها ، فأجابوا بقوة الدين والصدق عند اللقاء ، النابع من علو الثقة بالله ونصره: (والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) . فإلى استعراض هذه الصفحات المشرقة والمواقف المشرفة من تاريخ هذه الأمة :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس: [أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان⁽¹⁾ قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عباد ، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا]⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس: [أن

(1) يبدو أن هذه هي المشاورة الأولى في المدينة قبل الخروج إلى بدر ، شاور فيها كبار أصحابه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1779) - كتاب الجهاد والسير . وانظر كتابي: السيرة النبوية (531/1) . وبرك الغماد: موضع بعيد باليمن ، وقيل بل هي مدينة بالحشة .

رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذن لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، والذي بعثك بالحق لو ضرت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والبخاري - واللفظ لأحمد - عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه: [لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى رسول الله وهو يدعو على المشركين ، فقال: والله - يا رسول الله - لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرقُ لذلك ، وسره بذلك]⁽²⁾.

الحديث الرابع: يروي ابن إسحاق بسند صحيح إلى ابن عباس ، وكذلك الطبراني بسند حسن ، وينحوه البيهقي وأحمد في خبر أحداث بدر ، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: [وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم ، فاستشار الناس⁽³⁾ ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبغله ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له به]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (105/3) ، (188/3) ، والنسائي في «التفسير» (161).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (389-390/1) ، وانظر صحيح البخاري (3952) ، (4609) ، بلفظ قريب ، وكذلك ما أخرجه النسائي في «التفسير» (160).

(3) وهذه هي الاستشارة الثانية من النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر ، وكانت قبل بدء المعركة.

(4) حديث صحيح. انظر سيرة ابن هشام (614-615/1) بإسناد صحيح ، فقد صرح ابن إسحاق بالسماع. وأخرجه الطبراني بسند حسن. انظر تفصيل الروايات في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (530-541).

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : اقض بيني وبينهم) . وقال السدي : (غضب موسى ﷺ حين قال له القوم : ﴿ هَازِبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، فدعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾) .

والمعنى : لقد غضب موسى عليه الصلاة والسلام حين أظهروا الخوار والضعف وعدم الأهلية لحمل الأمانة وراية الجهاد ، فقال داعياً : رب إني لا أقدر على أحد أن أحمله على أمرك لقتال عدوك إلا نفسي وأخي ، فافصل بيننا وبين هؤلاء القوم الخارجين عن طاعتك بما تحب وترضى لهم . فأجابه الله سبحانه :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . أي : قضى الله عليهم أن حرّم عليهم - حين أبوا حرب الجبارين - دخول مدينتهم أربعين سنة ، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه ، وقيل هنا حصل لهم من الخوارق العجيبة : كتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وإخراج الماء الجاري من صخرة صماء تُحْمَلُ معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شَعْبٍ عين ، والله تعالى أعلم .

وأصل التيه في لغة العرب الحيرة ، يقال : تاه يتيه إذا تَحَيَّرَ ، والأرض التَّيهاء هي الأرض التي لا يُهْتَدَى فيها ، فكانت عقوبة من الله لبني إسرائيل مقابل نكولهم عن الجهاد وركونهم إلى الدنيا والشهوات ، أن حرّم عليهم دخول مدينتهم أربعين سنة يتيهون ، ثم فتحها عليهم وأسكنهموها وأهلك الجبارين بعد حرب منهم لهم ، بعد انقضاء الأربعين سنة وخروجهم من التيه .

وعن السدي : (لما ضُرب عليهم التيه ، ندم موسى ﷺ ، فلما ندم أوحى الله إليه : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، لا تحزن على القوم الذين سمّيتهم فاسقين ، فلم يحزن) .

وهذه الآيات تحمل الدرس البليغ لهذه الأمة أنَّ تركها الجهاد هو تشبه منها بأمة يهود التي حلّ بها غضب الله سبحانه وعقوبته ، عندما جنّبوا عن لقاء عدوهم ، وخافوا على دنياهم ، فالجهاد عِزُّ المسلمين وشوكتهم إلى يوم القيامة .

أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : [عليكم

بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يُذهِبُ الله به الهمَّ والغَمَّ⁽¹⁾.

27 - 31. قوله تعالى : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِيَأْتِي وَإِنَّمَا فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَلِّقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ۞ .

في هذه الآيات : بيان ما يؤول إليه البغي والحسد ، ويوقع الإنسان في شباك الندم ، وبيان مرتبة التقوى والصلاح وماتوول إليه من القبول عند الله ، وبيان أثر إحداث المعصية في الأرض وما يؤول إليه من تراكم الآثام على محدث الذنب الأول . كل ذلك يرد في قصة ابن آدم القاتل الأول مع أخيه التقي المقتول .

فقوله : ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ۞ .

أي : اتل يا محمد على هؤلاء المكرة اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليكم ، وعلى أشباههم من الظلمة ، وعلى أصحابك كذلك خبر ابني آدم - قابيل وهابيل - ، وعرفهم بذلك ما يعقب الظلم من وخيم العاقبة وسوء المنقلب . وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ۞ أي على اليقين الذي لا يشوبه لبس أو كذب .

وقوله : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ۞ .

قال ابن كثير : (وكان من خبرهما ، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى كان قد شرع لآدم - عليه السلام - أن يُرْجَحَ بناته من بنيهِ لضرورة الحال ، ولكن

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «الأوسط» . من طريق أبي أمامة ، والحاكم (75-74/2) من طريق عبادة بن الصامت . وانظر مسند أحمد (314/5) ، (326/5) ، وصحيح الجامع (3942) .

قالوا: كان يُؤلَد له في كل بطن ذكرٌ وأنثى ، فكان يزوّجُ أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيلَ دَمِيمَةً ، وأخت قابيلَ وَضِيئَةً ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقرباً قرباناً ، فمن تُقْبِلُ منه فهي له ، فقرباً فَتَقْبَلُ من هابيل ولم يُتَقَبَل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه).

وقوله: ﴿ قَالَ لَا قُتْلَكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

قال قتادة: (ذكر لنا أنهما هابيل وقابيل. فأما هابيل ، فكان صاحب ماشية ، فعمدَ إلى خير ماشيته فتقرب بها ، فنزلت عليه نار فأكلته - وكان القربان إذا تُقْبِلَ منهم ، نزلت عليه نار فأكلته. وإذا رُدَّ عليهم أكلته الطير والسباع - وأما قابيل ، فكان صاحب زرع ، فعمد إلى أردأ زرعه فتقرب به ، فلم تنزل عليه النار ، فحسد أخاه عند ذلك فقال: لأقتلنك! قال: إنما يتقبل الله من المتقين) ذكره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذِيكَ لَا قُتْلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (ما أنا بمنتصر ، ولأمسكنَّ يدي عنك). وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: أيم الله ، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه⁽¹⁾. والتحرج: الورع.

وقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾. أي: أخاف في بسط يدي إليك لقتلك مالك الخلائق كلها عقوبته.

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (إثم قتلي ، إلى إثمك الذي في عنقك).

وقال قتادة: (يقول: بقتلك إياي ، وإثمك قبل ذلك).

وقال مجاهد: (إني أريد أن يكون عليك خطيئتك ودمي ، تبوء بهما جميعاً).

وقوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

قال مجاهد: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾: شجعته على قتل أخيه).

(1) ذكره الطبري في التفسير بإسناده إلى عبد الله بن عمرو. انظر تفسير الطبري (11730).

وقال قتادة: (زينت له نفسه قتل أخيه فقتله).

وأصل «طَوَّعَ» من الطوع: وهو الانقياد. أي آتته نفسه وساعدته عليه. قيل: قتله بحديدة في يده، وقيل بل وجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي في الدنيا والآخرة، فقد وقع في شباك ذنبه فلا رجوع ولا استئناف، إذ ترك نفسه للشيطان فتسلط عليها حتى أوقعه.

وفي القصة فوائد كثيرة أخبرنا بها نبينا ﷺ:

الفائدة الأولى: تحريم التقاء المسلمين بالسلاح.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: [إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بالُ المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه]⁽¹⁾.

الفائدة الثانية: اعتزال الفتن وعدم المشاركة فيها.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، القاعدُ فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخِلَ - يعني: على أحد منكم - فليكن كخير ابني آدم]⁽²⁾.

وفي مسند الإمام أحمد عن بُسر بن سعيد، أن سَعْدَ بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: [إنها ستكون فتنة، القاعدُ فيها خير من القائم، والقائمُ خير من الماشي، والماشي خير من الساعي]. قال: أفرأيت إن دُخِلَ عليّ بيتي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (31)، (7083)، وأخرجه مسلم برقم (2888)، ورواه أحمد في المسند (46/7)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3582) - باب في النهي عن السعي في الفتنة، وسنن ابن ماجه (3961). من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فبسط يده إلي ليقْتلني؟! قال: كن كابن آدم⁽¹⁾. ورواه أبو داود من طريقه عن يزيد بن خالد الرملي عن المفضل عن عيَّاش بن عباس عن بُكير عن بُسر. وقال فيه: [وتلا يزيد: ﴿لَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدَهُ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِلَيَّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾].

الفائدة الثالثة: لزوم الصبر عند اختلاط الأمور ، وبيت الرجل خير له من مشاهدة الفتن ، والتماس التقوى والعمل الصالح للنجاة.

أخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: [يا أبا ذر! قلت: ليك يا رسول الله وسعديك. قال: كيف أنت إذا أصاب الناس موتٌ يكون البيت فيه بالوصيف - وفي لفظ: بالعبد: يعني القبر -؟ قلت: الله ورسوله أعلم ، أو قال: ما خار الله لي ورسوله ، قال: عليك بالصَّبر. أو قال: تَصبر. ثم قال لي: يا أبا ذر! قلت: ليك وسعديك ، قال: كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت⁽²⁾ ، قد غرقت بالدم؟ قلت: ما خار الله لي ورسوله ، قال: عليك بمن أنت منه. قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفي وأضعه على عاتقي؟ قال: شاركت القوم إذن. قلت: فما تأمرني؟ قال: تَلْزُم بيتك. قلت: فإن دُخِلَ علي بيتي؟ قال: فإن خشيت أن يَهْرَكَ شعاعُ السيف ، فألقِ ثوبك على وجهك ، يوءُ بإثمك وإثمه⁽³⁾.

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [إن بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم⁽⁴⁾].

وفيه من حديث المقداد بن الأسود قال: أيم الله! لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (185/1)، والترمذي في الجامع (2195)، وقال: حديث حسن، بل هو صحيح لكثرة شواهد، وانظر للرواية بعده سنن أبي داود (4257)، وكذلك مسند أحمد (168/1-169). وصحيح أبي داود (3581) - باب النهي عن السعي في الفتنة. ولبعض شواهد في صحيح الإمام مسلم.

(2) موضع في الحرة - خارج المدينة المنورة - ، أحجاره فيها لمعان.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4261) - الباب السابق. انظر صحيح أبي داود (3583)، وصحيح ابن ماجه (3197)، باب الثبوت في الفتنة. والوصيف: القبر. والمعنى: يكون العبد قيمة للقبر بسبب كثرة الأموات ، أو يباع البيت بالعبد لقلّة من يسكنه من كثرة الموت.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4262)، وانظر صحيح أبي داود - حديث (3584).

[إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنَ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنَ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنَّبَ الْفِتْنَ ، وَلَمَنْ ابْتَلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا] (1).

الفائدة الرابعة: تعلق الآثام بمحدثها ومن سن أمرها.

فهذا ابن آدم الأول القاتل يتحمل تبعة كل قتل ظلم في الأرض إلى يوم القيامة.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن مسروق ، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ] (2).

وفي لفظ: [ليس من نفس تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا - وفي رواية: من دمها - لأنه سنَّ القتل أولاً].

وفي صحيح مسلم من حديث المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ] (3).

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْتِلَقِي أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

قال السدي: (لما مات الغلام تركه بالعراء ، ولا يعلم كيف يُدفن ، فبعث الله غرابين أخوين ، فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفروا له ثم حثا عليه).

وقال ابن عباس: (جاء غراب إلى غراب ميت ، فبحث عليه من التراب حتى واره ، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يُؤْتِلَقِي أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي﴾).

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4263) ، وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (975).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3335) - كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (7321) للرواية الثانية، وأخرجه مسلم (1677)، والترمذي (2673)، وأحمد (382/1)، وغيرهم .

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1017) - كتاب الزكاة ، وكذلك في كتاب العلم ، ورواه أكثر أهل السنن. من حديث المنذر بن جرير عن أبيه مرفوعاً.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ .

قال القرطبي: (حيث رأى إكرام الله هايل بأن قيض له الغراب حتى واره ، ولم يكن ذلك ندم توبة . وقيل: إنما ندمه كان على فقدته لا على قتله ، وإن كان فلم يكن موفياً شروطه . أو ندم ولم يستمر ندمه) .

قال ابن عباس: (ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه) .

قلت: ويؤيد هذا ما أخرج الطبراني عن أبي سعيد الأنصاري ، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له] ⁽¹⁾ .

فلو استوفى العبد شروط التوبة - وأهمها الندم على ما وقع منه يعقبه الاستغفار والعزم على ألا يعود ، تاب الله عليه وقبل منه .

32 - 34. قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: تشريع القصاص على بني إسرائيل من أثر جناية ابن آدم القاتل ظلماً ، وبأنَّ سَفَكَ دَمٍ ظلماً هو بمثابة سفك الدماء وانتشار الفساد والهرج في الأرض إن لم يُردع بحد القصاص ، فحياة النفس هي حياة للنفوس جميعاً ، ثم في الآيات تشريع حد المحاربة والإفساد في الأرض: القتل والصلب وقطع اليد والرجل من خلاف

(1) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الكبير» ، وأبو نعيم في الحلية . انظر صحيح الجامع (6679) .

أو النفي من الأرض حسب المصلحة التي يراها الحاكم المسلم خزيًا وردعًا للمفسدين ، ثم من لم يتب فينتظره في الآخرة عذاب عظيم .

فقوله : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ .

أي : من جريرة وجناية القاتل الأول من ولد آدم أخاه ظلمًا وعدواناً .

وقوله : ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ - أي شرعنا القصاص لهم .

قال الضحاك : (﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ، يقول : من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلماً) .

وقوله : ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول : من قتل نبياً أو إماماً عادلاً فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن شدد على عضد نبي أو إمام عدل ، فكأنما أحيا الناس جميعاً .

قال ابن عباس : (من شدد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ومن قتل نبياً أو إمام عدل ، فكأنما قتل الناس جميعاً) .

وقال : (يقول : من قتل نفساً واحدة حرمتها ، فهو مثل من قتل الناس جميعاً ، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ يقول : من ترك قتل نفس واحدة حرمتها مخافتي ، واستحيائها أن يقتلها ، فهو مثل استحياء الناس جميعاً ، يعني بذلك الأنبياء) .

التأويل الثاني : من قتل نفساً ظلماً فكأنه قتل الناس جميعاً عند المقتول في الإثم ، والعكس بالعكس .

يروى ابن جرير بسنده عن مرة الهمداني ، عن عبد الله ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : (قوله : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، عند المقتول ، يقول في الإثم ، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ، فاستنقذها من هلكة ، ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، عند المستنقذ) .

التأويل الثالث : قاتل النفس ظلماً يصل إلى النار كما يصلها لو قتل الناس جميعاً .

قال مجاهد : (لو قتل الناس جميعاً ، كان جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه

ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً). وقال: (يصير إلى جهنم بقتل المؤمن ، كما أنه لو قتل الناس جميعاً لصار إلى جهنم). وقال: (من لم يقتل أحداً فقد استراح الناس منه).

التأويل الرابع: القصاص الواجب على القاتل للنفس ظلماً مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً.

قال ابن زيد: (يجب عليه من القتل مثل لو أنه قتل الناس جميعاً).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾. أي: من عفا عمن وجب له القصاص منه فلم يقتله.

قال الحسن: (مَنْ قُتِلَ حَمِيمٌ لَهُ فَعَفَا عَنْ دَمِهِ).

التأويل الخامس: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ - أي من أنجأها من غرق أو حرق.

قال مجاهد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ قال: من أنجأها من غرق أو حرق أو هلكة). أو قال: (من غرق أو حرق أو هدم).

وقال الضحاك: (لو لم يقتله لكان قد أحيا الناس ، فلم يستحل محرماً).

قلت: وكلها تدل على آفاق المعنى ، وتزيد في بيان أبعاده ومعانيه.

وإن كان الأظهر منها - كما قال سعيد بن جبير: (من استحل دم مسلم فكأنما استحلّ دماء الناس جميعاً ، ومن حرّم دم مسلم فكأنما حرّم دماء الناس جميعاً).

ويدل عليه قول النبي ﷺ: [المسلمون تتكافأ دماؤهم].

فقد أخرج أبو داود وابن ماجّة بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [المسلمون تتكافأ دماؤهم: يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يدّ على من سواهم ، يردّ مُشِدُّهُمْ على مُضْعِفِهِمْ ، ومُتَسَرِّعُهُمْ على قَاعِدِهِمْ ، لا يُقْتَلُ مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده⁽¹⁾].

وذكر ابن جرير بإسناده عن سليمان بن علي الربيعي قال: (قلت للحسن: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ الآية ، أهي لنا يا أبا سعيد ، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره ، كما كانت لبني إسرائيل! وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا).

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه أبو داود في السنن من حديث عبد الله بن عمرو . انظر صحيح أبي داود (2390) - كتاب الجهاد - باب في السرية . ورواه ابن ماجّة (2683) .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي من حديث عثمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : [لا يحل دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ : رجل زنى بعد إحصان ، أو ارتد بعد إسلام ، أو قتل نفساً بغير حق ، فيقتل به]⁽¹⁾.

وأصله في الصحيحين والمسند والسنن من حديث ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : [لا يحلُ دمُ امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة]⁽²⁾.

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

أي بالآيات الواضحات ، والأدلة والحجج والبراهين القاطعات .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّا كَثِرْنَا مَتْنَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْسِرِ قُوًى ﴾ .

يعني اليهود من بني إسرائيل كما ذكر ابن جرير .

قال ابن كثير : (وهذا تقرير لهم وتوبيخٌ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حوّل المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدّوا من أسروه ، وودّوا من قتلوه) .

وقد عاب الله عليهم خيانة العهد والميثاق بذلك بقوله في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴾^(Al) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْفُجُورِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(A).

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ﴾

(1) حديث صحيح . ورواه أحمد والنسائي من حديث عائشة كذلك . انظر صحيح الجامع (7517) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6878) - كتاب الديات . وأخرجه مسلم برقم - (1676) - كتاب القسامة والمحاربين ، باب ما يباح به دم المسلم ، وأخرجه أحمد وأهل السنن . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7519) .

أَوْ يُصَكَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴿٣٢﴾ . فيه سببان للنزول:

السبب الأول:

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أنس بن مالك - في حديث العرنين - قال فيه: [فبعث رسول الله ﷺ ، في طلبهم قافة⁽¹⁾ ، فأتى بهم ، قال: فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية⁽²⁾].

وأصله في الصحيحين من حديث أنس بن مالك: [أن نفراً من عُكْلٍ ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوطنوا المدينة ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى ، فخرجوا ، فشربوا من أبوالها وألبانها ، فَصَحُّوا ، فقتلوا الراعي وطرّدوا الإبل . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأدركوا ، فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسُمرت أعينهم ، ثم بُذِّوا في الشمس حتى ماتوا⁽³⁾]. وفي لفظ لهما: [من عُكْلٍ أو عُرينة]. وفي لفظ عند البخاري وأبي داود:

قال أبو قلابة: (فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله).

وقال أنس: (فلقد رأيت أحدهم يكدّم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا).

وفي لفظ لمسلم والنسائي عن أنس قال: (إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك ، لأنهم سَمَلُوا أعين الرعاة)⁽⁴⁾. وفي لفظ لأبي داود عن ابن عمر قال: (ونزلت فيهم آية المحاربة).

وقوله: (سمل أعينهم): أي فقأ أعينهم بمسمار أو حديدة محمّاة. وثبت في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ: [أمر بمسامير فأحميت فكحلهم].

(1) القائف: الذي يعرف الآثار ، والجمع: القافة. يقال: قاف أثره إذا تبعه ، مثل قفا أثره.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4366). انظر صحيح سنن أبي داود (3670) - باب في المحاربة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (233) و(1501)، و(4192)، وأخرجه مسلم (1671)، وأبو داود (4364)، والنسائي (94/7)، وأحمد (198/3)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (3773)، ورواه مسلم. وانظر لرواية ابن عمر بعدها - حديث رقم - (3674) من صحيح أبي داود.

السبب الثاني :

أخرج أبو داود والنسائي واللفظ للنسائي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية قال : [نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يُقدر عليه ، لم يكن عليه سبيل ، وليست هذه الآية للرجل المسلم ، فمن قتل وأفسد في الأرض ، وحارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يُقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يُقام فيه الحد الذي أصاب] ⁽¹⁾.

والمحاربة : هي المضادة والمخالفة . قال ابن كثير : (وهي صادقة على الكفر ، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يُطلق على أنواع من الشر) . وقد جاء في تفسيرها أقوال متقاربة ومتكاملة :

1 - قال قتادة وعطاء : (هذا اللص الذي يقطع الطريق ، فهو محارب) - وهو قول لأوزاعي .

2 - قال الوليد بن مسلم : وأخبرني مالك : (أن قتل الغيلة عنده بمنزلة المحاربة) . قلت : وما قتل الغيلة ؟ قال : (هو الرجل يخدع الرجل والصبي فيدخله بيتاً أو يخلو به ، فيقتله ، ويأخذ ماله . فالإمام ولي قتل هذا ، وليس لولي الدم والجرح قود ولا قصاص) . وهو قول الشافعي .

3 - قال مجاهد : (الزنا ، والسرقه ، وقتل الناس ، وإهلاك الحرث والنسل) .

4 - قال أبو حنيفة : (لا تكون المحاربة إلا في الطرقات ، فأما في الأمصار فلا ، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يُغيثه ويُعينه) .

قلت : والراجح أن الحاربة هي خروج طائفة مسلمة في دار الإسلام ، لإحداث الفوضى ، وسفك الدماء وسلب الأموال ، وهتك الأعراض ، وإهلاك الحرث والنسل ، متحذية بذلك الدين والأخلاق والنظام والقانون ⁽²⁾.

وقوله : ﴿ أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُكَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ .

يبدو أن الأمر للتخيير ، وهو يرجع إلى قرار الحاكم المسلم ، وبه قال الإمام مالك .

(1) صحيح الإسناد . انظر صحيح سنن النسائي (3776) ، وصحيح سنن أبي داود (3675) .

(2) انظر فقه السنة (393/2) ، وكتاب «الوجيز» ص (444) في حد الحاربة .

قال ابن عباس: (من شهر السلاح في قبة الإسلام ، وأخاف السبيل ، ثم ظُفِرَ به وقَدِرَ عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله). وقال الحسن: (ذلك إلى الإمام).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا التخيير. فقد أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قال رسول الله ﷺ: [لا يحِلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان فإنه يَرَجَم ، ورجل خرج محارباً لله ورسوله ، فإنه يقتل ، أو يصلب ، أو ينفي من الأرض ، أو يقتل نفساً فيقتل بها]⁽¹⁾.

وقد وَرَدَتْ «أو» في موضع التخيير كثيراً من القرآن ، من ذلك:

1 - في جزاء الصيد. قال تعالى: ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ... ﴾ [المائدة: 95].

2 - في كفارة الفدية. قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ... ﴾ [البقرة: 196].

3 - في كفارة اليمين. قال تعالى: ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّن أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... ﴾ [المائدة: 89].

واختلف الفقهاء هل يُصَلَّبُ حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب أو يُقتل ثم يُصَلَّبُ تنكيلاً وتشديداً وعبرة لغيره من المفسدين. والذي يبدو لي أنه راجع إلى قرار الحاكم من خلال رؤيته لطبيعة إفساده أو مماثلته بصنيع مثل صنيعه - والله تعالى أعلم.

وأما النفي من الأرض فيه أقوال:

1 - قال ابن عباس: (نفيه أن يطلب). وقال الزهري: (نفيه أن يُطلب فلا يقدر عليه ، كلما سُمِعَ به في أرض طُلِبَ).

2 - قال سعيد بن جبیر: (من أخاف سبيل المسلمين ، نُفي من بلده إلى غيره ، لقول

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن من حديث عائشة. انظر صحيح سنن أبي داود (3659) - كتاب الحدود - باب الحكم فيمن ارتد. وصحيح النسائي (4418).

الله جل وعز: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾. وقال الضحاك: (إنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام).

3- وقيل: (النفي من الأرض هنا الحبس) - وهو قول أبي حنيفة.

قال ابن جرير: (هو نفيه من بلد إلى بلد غيره ، وحبسه في السجن في البلد الذي نفي إليه ، حتى تظهر توبته من فسوقه ، ونزوعه عن معصية ربه).

قلت: وكل ما سبق محتمل ، والقرار في اختيار الشكل يعود للحاكم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي هو لهؤلاء المحاربين شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ، فإن لم يتوبوا كان ينتظرهم عذاب أشد خزيًا في نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾.

هذه الآية تؤيد أن المحاربة هي من خروج طائفة مسلمة في دار الإسلام لإحداث الفوضى من سفك الدماء أو سلب الأموال ، أو هتك للأعراض ، أو غير ذلك على ما سبق بيانه. قال القرطبي: (ومعلوم أن الكفار لا تختلف أحوالهم في زوال العقوبة عنهم بالتوبة بعد القدرة كما تسقط قبل القدرة. والمرتب يستحق القتل بنفس الردة - دون المحاربة - ولا يُنفي ولا تُقطع يده ولا رجله ولا يخلى سبيله بل يقتل إن لم يُسلم ، ولا يصلب أيضاً).

وقال القاسمي: (دلّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ على أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم تسقط عنهم حد المحاربين المذكور في الآية. سواء كانوا مشركين أو مسلمين).

وقال ابن كثير: (أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك ، فظاهر). أي: فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم ، سقط عنهم جميع الحدود المذكورة. فلا يطالبون بشيء مما أصابوا من مالٍ أو دم. قال: (وأما المحاربون المسلمون ، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء ، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة).

قال القرطبي: (استثنى جل وعز التائبين قبل أن يقدر عليهم ، وأخبر بسقوط حقه

عنهم بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾. أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط).

وفي مذهب الشافعي أن ما تعلق به حقّ الآدمي قصاصاً كان أو غيره فإنه لا يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه.

قلت: وهذا هو الراجح ، فالحدود كفارات لأهلها وتبقى حقوق الآدميين.

أخرج الإمام البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال: فبايعناه على ذلك] (1).

35 - 37. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: أمرٌ من الله سبحانه المؤمنين بلزوم طاعته والخوف منه والتقرب إليه بالتقوى والعمل الصالح والجهاد ، وإخبار منه جل ذكره عن خزي موقف الكفار يوم القيامة وهم يتمنون كل ما في الدنيا وأمثاله لو كان لديهم ليفتدوا به من عذاب جهنم وما الله بقابل ذلك ، وقد قضى عليهم لزوم عذاب السعير وبئس المصير.

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾. يعني القربة.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (3892) - كتاب مناقب الأنصار. وكتابي: السيرة النبوية (402/1) لتفصيل هذه البيعة.

وفي لغة العرب: توسلت إلى فلان بكذا ، أي تقربت منه . وأقوال المفسرين على ذلك :

1 - قال عطاء : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ، قال : القربة . وقال أبو وائل : (القربة في الأعمال) .

2 - وقال قتادة : (أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه) .

3 - وعن السدي : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّبْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ، قال : فهي المسألة والقربة) .

4 - وقال ابن زيد : (المحبة ، تحببوا إلى الله . وقرأ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغِ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾) .

والوسيلة أيضاً هي منزلة خاصة برسول الله ﷺ يوم القيامة ، جاءت الأحاديث الصحيحة تحت المؤمنين أن يسألوها لنبيهم ، لتنالهم شفاعته بإذن ربهم .

الحديث الأول: أخرج البخاري وأحمد وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [من قال حين يَسْمَعُ النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة] (1) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم وأحمد وأكثر أهل السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليّ ، فإنه مَنْ صَلَّى عليّ صلاةٌ صَلَّى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلةٌ في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة] (2) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي سعيد ، عن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (614) ، وأبو داود (529) ، والترمذي (211) ، والنسائي (26/2) ، وابن ماجه (722) ، وأخرجه أحمد (354/3) .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (384) ، وأبو داود (523) ، والترمذي (3614) ، والنسائي (25/2) ، وأخرجه أحمد (168/2) ، والبيهقي (410/1) ، وغيرهم .

النبي ﷺ قال: [الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

أي: جاهدوا أيها المؤمنون أعداء الله الذين يحادون الله ورسوله ، والذين يعادون دينه وشرعه ويحولون دون ظهوره على الدين كله ، لعلكم تبلغون فلاح الدنيا وفلاح الآخرة.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأنفسكم وألستكم]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَى لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أَنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تُشرك بي].

وفي لفظ آخر: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع ، فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم ، فيقول: كذبت ، قد أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب (وفي رواية: ظهر) آدم ، أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك ، فيؤمر به إلى النار]⁽³⁾.

وفي التنزيل: ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾. [الحج: 22].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد بسند صحيح. انظر صحيح الجامع (7028) ، وكذلك صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (4/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2504). انظر صحيح أبي داود (2186). ورواه أحمد ورواه النسائي وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع (3085).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر مختصر صحيح مسلم (1955) ، وصحيح البخاري (3334) ، ومسند أحمد (127/3).

وكذلك قوله جلت عظمته: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: 20].

فلا مندوحة للكافر عن العذاب يوم القيامة ولا محيص له ولا مناص ، فقد قضى الله تعالى ليملأن جهنم من المشركين والمجرمين ، وأنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به ، وأنَّ ذَهَبَ الأرض وكنوزها لا تنفع أحداً منهم يوم الحساب .

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [٣٧].

أي عذاب دائم مستمر ثابت لا يزول عنهم ولا يتحول ، هو للذين كفروا بربهم يوم القيامة .

يروى ابن جرير بسنده عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله: أعمى البصر أعمى القلب ، يزعم أن قوماً يخرجون من النار ، وقد قال الله جل وعز: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ فقال ابن عباس: (ويحك ، اقرأ ما فوقها ! هذه للكفار) . وفي صحيح مسلم عن سمرة بن جندب ، أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوتِهِ]⁽¹⁾ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع]⁽²⁾ .

38 - 40. قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٣٨] فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٩] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤٠] .

في هذه الآيات: تشريع قطع يد السارق ، وأنَّ الله يقبل توبته بعد سرقة إذا أناب

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح من حديث سمرة . انظر تفصيل الروايات في كتابي: أصل الدين والإيمان (766/2) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1953) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (154/8) ، من حديث أبي هريرة مرفوعاً . وانظر مختصر صحيح مسلم (1983) ، وله شاهد عند الترمذي . انظر صحيح الجامع (2110) .

إلى الله وأصلح ، وأن الله له ملك كل شيء وهو الحكم وإليه المرجع في كل تشريع وفي كل أمر ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

السرقه: هي أخذ مال الغير على وجه الخفية والاستتار ، وهي من الكبائر ، وحدّثها ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب ، فقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وأما السنة ففيها أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مِجَنٍّ قيمته ثلاثة دراهم] (1) .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لَعَنَ الله السارق ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ] (2) .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: [لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا] (3) .

فقه الأحاديث والمسألة:

1 - قال ابن المنذر: (وأجمعوا على أن قطع يد السارق يجب إذا شهد عليه بالسرقة شاهدان عدلان ، مسلمان حرّان) (4) .

فإذا سرق البالغ العاقل مختاراً فقد وجب عليه الحد بإقراره أو بشهادة عدلين .

2 - ويشترط أن يبلغ المسروق نصاباً ، وأن يكون محروزاً .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6795) ، (6798) ، ومسلم (1686) ، وأحمد (54/2) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6799) ، (6783) ، ومسلم (1687) ، وأحمد (253/2) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6789) ، ومسلم (1684) ، وأبو داود (4362) ، وغيرهم .

(4) انظر الإجماع (140/621) ، وانظر كتاب: «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ص (443) .

قال ابن المنذر: (وأجمعوا أن القِطْع إنما يجب على من سرق ما يجب فيه قطع من الحرز)⁽¹⁾.

والحرز هو ما يُصانُ في مثله المال ويحفظُ ، كالدار المغلقة ، والخزانة ، والمحل المغلق ، ونحو ذلك .

قال صاحب «الروضة الندية» (277/2): (والحرز ما يعده الناس حرزاً لمثل ذلك المال ، فالمتبين حرزٌ للتبن ، والاصطبل للدواب ، والمراح للغنم ، والجرين للثمار) .
والجرين: مثل البيدر للقمح ، يجفف فيه التمر .

أخرج أبو داود بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله ﷺ: أنه سُئِلَ عن الثمر المعلق فقال: [من أصابَ بفيه من ذي حاجة ، غَيْرَ مُتَّخِذِ خُبْنَةٍ ، فلا شيء عليه ، وَمَنْ خَرَجَ بشيء منه فَعَلَيْهِ غَرَامَةٌ مِثْلِيهِ⁽²⁾ والعقوبة ، وَمَنْ سَرَقَ منه شيئاً بعد أن يؤويه الجرينُ فبلغ ثمن المجنِّ فعليه القطع]⁽³⁾ . والمجن: الترس .

3- وللمسروق منه أن يعفو عن السارق قبل رفعه إلى السلطان .

فقد أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن صفوان بن أمية قال: [كنت نائماً في المسجد عليّ خميصة لي ثمن ثلاثين درهماً ، فجاء رجل فاختملسها مني ، فأخذ الرجل فأتني به رسول الله ﷺ فأمر به لِيُقَطَّعَ . قال: فأتيته ، فقلت: أئقطعه من أجل ثلاثين درهماً ، أنا أبيعهُ وأنسه ثمنها؟ قال: فهلاً كان هذا قبل أن تأتيني به]⁽⁴⁾ .

وفي سنن النسائي وأبي داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: [تَعَاَفَوْا الحدودَ فيما بينكم ، فما بلغني من حَدٍّ فقد وجب]⁽⁵⁾ .

4- حكم تكرار السرقة من السارق .

قال صاحب «الروضة الندية» (279/2): (اتفق أهل العلم على أن السارق إذا سرق

(1) انظر الإجماع (139/615) ، والمرجع السابق ص (443) .

(2) وفي رواية: (ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثليه والعقوبة) .

(3) حديث حسن . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم (3689) - باب ما لا قطع فيه .

(4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4394) . انظر صحيح أبي داود (3693) . وانظر صحيح

سنن ابن ماجه (2103) - باب من سرق من الحرز .

(5) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود (3680) - باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان ،

وانظر سنن النسائي (4885) ، (4886) ، وصحيح سنن النسائي (4538) ، (4539) .

أول مرة تقطع يده اليمنى ، ثم إذا سرق ثانياً تقطع رجله اليسرى ، واختلفوا فيما إذا سرق ثالثاً بعد قطع يده ورجله ، فذهب أكثرهم إلى أن تقطع يده اليسرى - قلت : قد صحّ هذا عن أبي بكر وعمر عند البيهقي (284/8) - ثم إذا سرق أيضاً تقطع رجله اليمنى ، ثم إذا سرق أيضاً يعزّر ويحبس).

وقوله : ﴿ جَزَاءُ يَمَافِ كَسْبَانِكَلَّا مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال قتادة : (لا تَزْثُوا لهم أن تقيموا فيهم الحدود ، فإنه والله ما أمر الله بأمرٍ قط إلا وهو صلاحٌ ، ولا نهى عن أمرٍ قط إلا وهو فساد).

وقوله : ﴿ نَكَلَّا ﴾ .

أي : تنكيلاً من الله بهما مقابل ما اقترفاه . ﴿ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : في انتقامه من السارق والساارقة وأهل المعاصي والآثام . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تشريعه وحكمه وقضائه .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَافِ مِّنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أي : من أناب إلى الله وتاب من هذا الصنيع وأصلح نفسه وزكاها بطاعة الله فإن الله يتوب عليه ، ولكن لا بد من ردّ الحقوق إلى أهلها .

أخرج النسائي بسند صحيح عن ابن عمر : [كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على ألسنة جاراتها وتجحدّه ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها] (1) .

وفي لفظ آخر : [أن امرأة كانت تستعير الحلي للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ : لتب هذه المرأة إلى الله ورسوله وتردّ ما تأخذ على القوم ، ثم قال رسول الله ﷺ : قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها] (2) .

ويبدو أن المرأة قد تابت وحسنت توبتها ، بعد أن قطعت يدها .

ففي الصحيحين عن عائشة : [أن قُريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلّمه فيها أسامة بن زيد ، فتكلم وجه رسول الله ﷺ فقال : أتشفع في حدّ من حدود الله عز وجل ؟ فقال له أسامة :

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «الكبرى» (7375) ، وأبو داود في السنن (4395) .

(2) حديث حسن . أخرجه النسائي في «الكبرى» (7376) ، وله شواهد .

استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخْتَطَبَ ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ ، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت ففُطِعتْ يدها. قالت عائشة : فَحَسُنْتَ توبتها بعدُ ، وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أي : الله سبحانه هو المالك لجميع ما في هذا الكون ، وهو الحكم يحكم بين عباده ، وشرعه أعلى من كل تشريع ، والرحمة والمغفرة أو العذاب بأمره وحكمته ، فيغفر لمن يشاء أو يعذب من يشاء ، وهو القادر على ذلك لا شريك له .

41 - 44. قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4375) ، ومسلم (1688) ، وأبو داود (4373) ، والترمذي (1430) ، والنسائي (73/8 - 74) ، وابن ماجه (2547) ، وغيرهم .

الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيْنُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: التقرير على اليهود الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المتحاكمين لأهوائهم وما تعارفوا عليه في أقوامهم، المعرضين بذلك عن حدود الله وتعظيمها.

بيان أسباب النزول:

السبب الأول للنزول:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال: [مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فدعاهم فقال: هكذا تجدون حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى! أَهَكَذَا تجدون حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ قال: لا، ولولا أَنكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أَخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، ولكنه كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فكنّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرْكَنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قلنا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، فجعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ. فَأَمَرَ بِهِ فُرْجِمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾. يقول: اتُّوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فِي الْكُفَارِ كُلِّهَا⁽¹⁾.

السبب الثاني للنزول:

أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس، قال: [كان قريظة، والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قُتِلَ رَجُلٌ مِنْ قَرِظَةَ رَجُلًا مِنْ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1700) - كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة، في الزنى، وأخرجه أبو داود في السنن (4447)، والنسائي في الكبرى (7218)، ورواه ابن ماجه (2558)، وأحمد (286/4).

النضير قُتِلَ به ، وإذا قَتَلَ رجلٌ من النضير رجلاً من قريظة ، فوديَ بمئة وَسَقِيَ من تمر . فلما بعث النبي ﷺ ، قَتَلَ رجلٌ من النضير رجلاً من قريظة ، فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله ، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ ، فأتوه ، فنزلت : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ ، والقسط: النفس بالنفس ، ثم نزلت : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ⁽¹⁾ .

قلت : ولا مانع من اجتماع السببين معاً في نزول الآيات - والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

فيه أقوال يفسر بعضها بعضاً :

القول الأول : يروي ابن جرير بسنده عن علقمة ومسروق : (أنهما سألا ابن مسعود عن الرِّشوة ، فقال : مِنَ الشُّحْتِ . قال : فقالا : وفي الحكم ؟ قال : ذاك الكفر ! ثم تلا : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾) .

القول الثاني : قال السُّدي : (يقول : ومن لم يحكم بما أنزلت ، فتركه عمداً ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين) .

القول الثالث : قال ابن عباس : (من جَحَدَ ما أنزل الله فقد كفر . ومن أَقَرَّ به ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق) .

قلت : والفصل في هذه المسألة أن من ترك التحاكم لشرع الله جحوداً وعناداً فهو الكفر المخرج من الملة ، ومن تركه لشهوة أو ظلم مع إقراره به فهو كفر دون كفر . قال طاووس : (ليس بكفر ينقل عن الملة) . وقال ابن عباس : (ليس بالكفر الذي يذهبون إليه) . وقال في تفسير الآية : (هي به كفر) . وقال عطاء : (كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق) رواه ابن جرير . وقال ابن طاووس : (وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله) ذكره ابن كثير . وقد فصلت في هذه المسألة في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، في بحث توحيد التشريع ، فله الحمد والمنة .

فائدة (1) : الحكم بغير ما أنزل الله سبب إلى الفقر .

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [خمسٌ بخمس :

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4494) - كتاب الديات ، باب النفس بالنفس ، انظر صحيح أبي داود (3772) ، وأخرجه النسائي (18/8-19) ، والحاكم (366/4) ، والبيهقي (24/8) .

ما نقض قومُ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوُّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهمُ الفاحشةُ إلا فشا فيهم الموت ، ولا طَفَّفُوا المِكيالَ إلا مُنِعُوا النبات ، وأُخِذُوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاةَ إلا حُسِرَ عنهم القطرُ⁽¹⁾ .

فائدة (2) : ترك الحكام التحاكم لشرع الله هو عقوبة الله للأمة عند استهتارها . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِبَعْضٍ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] .

وفي المسند ومعجم الطبراني بسند صحيح عن عابس الغفاري ، عن النبي ﷺ قال : [بادرُوا بالأعمالِ سِتًّا : إمارة السفهاء ، وكثرة الشرط ، وبيع الحكم ، واستخفافاً بالدم ، وقطيعة الرحم ، ونشواً يتخذون القرآن مزاميرَ ، يقدمون أحدهم لغيره ، وإن كان أقلَّهم فقهًا]⁽²⁾ .

45 - 47 . قوله تعالى : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٤٥] وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ [٤٦] وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤٧] .

في هذه الآيات : تأكيد على العدل في القصاص الذي أنكره اليهود وخالفوا كتابهم التوراة وفي نصه : أن النفس بالنفس ، أي : تقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ، وكذلك : العين بالعين - تفقاً عين المعتدي بالعين المفقوعة - والأنف بالأنف - يجدع الأنف بالأنف - وتقطع الأذن بالأذن ، وتقلع السن بالسن ، ويقتص من الجراح غيره ظلماً للمجروح ، فمن تصدق به فهو كفارة - للمجروح - وقيل للجراح ، ومن ترك

(1) حديث حسن . رواه الطبراني بإسناد حسن . انظر صحيح الجامع الصغير (3235) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (324/1) (2-1) ، والحاكم (443/3) ، وانظر مسند أحمد (494/3) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (979) .

التحاكم لما أنزل الله كان من الظالمين . وفي الآيات : أن عيسى بن مريم جاء بالإنجيل من عند الله يُصَدِّقُ التوراة في المنهج الذي ارتضاه الله لعباده في العبادة والتحاكم ، فمن ترك التحاكم له من النصارى كان من الفاسقين . وتفصيل ذلك :

قوله : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ .

1 - يراعى في القصاص اختلاف الدين فلا يقتل مسلم بكافر .

أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لا يقتل مسلم بكافر]⁽¹⁾ .

2 - لا فرق بين الرجل والمرأة في القصاص .

فقد أخرج النسائي والحاكم : أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم : [أن الرجل يُقْتَلُ بالمرأة]⁽²⁾ .

وقد مضى قوله عليه السلام : [المسلمون تتكافأ دماؤهم] - أخرجه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده⁽³⁾ .

3 - القصاص من حق الحاكم .

قال القرطبي : (لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود ، وغير ذلك) .

وعلة ذلك ما ذكره الصاوي - حاشيته على الجلالين - قال :

(فحيث ثبت أن القتل عمداً عدواناً ، وجب على الحاكم الشرعي أن يمكن ولي المقتول من القاتل ، فيفعل فيه الحاكم ما يختاره الولي من القتل ، أو العفو ، أو الدية ، ولا يجوز للولي التسلط على القاتل من غير إذن الحاكم ، لأن فيه فساداً وتخريباً . فإذا قتله قبل إذن الحاكم عُزِّر)⁽⁴⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (111) ، ومسلم (1370) ، وأحمد (81/1) ، وأخرجه أبو داود في السنن (2035) ، وغيرهم . من حديث علي رضي الله عنه .

(2) حديث حسن . أخرجه النسائي (58-57/8) ، والحاكم (395/1) ، والبيهقي (78-77/1) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4531) ، وابن ماجه (2659) ، وأحمد (191/2) ، وغيرهم .

(4) انظر : « فقه السنة » (453/2) ، وكتاب : « الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز » ص (457) .

وقوله: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْأَيْمَنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

هذا الحكم وإن كان قد كتب على من قبلنا من أمم أهل الكتاب إلا أنه في التحقيق شرع لنا ، وذلك لتقرير النبي ﷺ له في أمته .

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه : [أن الرُّبِيعَ بنت النضر بن أنس كسرت ثنية جارية ، ففرضوا عليهم الأَرش ، فأبوا إلا القصاص ، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله تكسر ثنية الربيع! والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما ، فقال النبي ﷺ: يا أنس كتاب الله القصاص . فرضي القوم وعفوا . فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأَبْرَهُ⁽¹⁾ .

وشروط القصاص فيما دون النفس :

- 1 - تكليف الجاني .
- 2 - تعمد الجنائية . فالخطأ لا يوجب القصاص في النفس فما دونها أولى .
- 3 - تكافؤ دم المجني عليه والجاني . فلا يقتصر من مسلم جرح ذمياً ، ولا من حرّ جرح عبداً ، ولا من والد جرح ولداً .

شروط القصاص في الأطراف :

- 1 - إمكان الاستيفاء بلا حيف . بأن يكون القطع من مفصل كالمرفق والكوع .
- 2 - المماثلة في الاسم والموضع . فلا تقطع يمين بيسار ، ولا يسار بيمين ، ولا خنصر بينصر .
- 3 - استواء طرف الجاني والمجني عليه في الصحة والكمال . فلا يؤخذ عضو صحيح بعضو أشل ، ولا يد صحيحة بيد ناقصة الأصابع ، ويجوز العكس .

وأما دية الأعضاء .

إذا أتلّف إنسان من آخر عضواً وجبت الدية كاملة ، ولو أتلّف أحد زوجي العضو وجب نصف الدية . فتجب الدية كاملة في الأنف ، والعينين ، وفي العين الواحدة

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2703) ، والنسائي في «التفسير» (1650) ، وابن ماجه (2649) . ولفظ مسلم مقارب ، انظر صحيح مسلم (1675) ، ومسنّد أحمد (128/3) ، (284/3) .

نصفها ، وفي أصابع اليدين والرجلين الدية كاملة ، وفي كل أصبع عشر من الإبل ، وفي الأسنان كامل الدية ، وفي كل سن خمس من الإبل .

ففي سنن النسائي والبيهقي بسند صحيح لغيره عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : [في الأنف الدية إذا استُوعب جدعُه مئة من الإبل ، وفي اليد خمسون ، وفي الرجل خمسون ، وفي العين خمسون ، وفي الآمة ثلث النفس ، وفي الجائفة ثلث النفس ، وفي المنقلة خمس عشرة ، وفي الموضحة خمس ، وفي السن خمس ، وفي كل أصبع مما هنالك عشر] (1) .

الآمة أو المأمومة : هي التي لا يبقى بينها وبين الدماغ إلا جلدة رقيقة . وفيها ثلث الدية .

الجائفة : هي كل ما يصل إلى الجوف : كبطن ، وظهر ، وصدر ، وحلق ، ومثانة . وفيها ثلث الدية أيضاً .

المُنْقَلَة : هي التي ينقل منها العظم من موضع إلى موضع . وفيها خمس عشرة من الإبل .

المُوضحة : هي الإصابة التي تبلغ إلى العظم ، وفيها خمس من الإبل .
دية المرأة :

دية المرأة إذا قُتِلَتْ خطأ نصف دية الرجل ، وكذلك دية أطرافها وجراحاتها على النصف من دية الرجل وجراحاته .

فعن شريح قال : [أتاني عروة البارقي من عند عمر أن جراحات الرجال والنساء تستوي في السن والموضحة ، وما فوق ذلك فدية المرأة على النصف من دية الرجل] (2) .

دية أهل الكتاب :

إن دية أهل الكتاب إذا قتلوا خطأ نصف دية المسلم ، فدية الذكر منهم نصف دية المسلم ، ودية المرأة من نسائهم نصف دية المرأة المسلمة .

(1) حديث صحيح بشواهده . انظر صحيح سنن النسائي (4513) ، والبيهقي (86/8) .

(2) إسناده صحيح . انظر : تخريج «الإرواء» (307/7) ، وانظر كذلك كتاب : «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ص (465) .

ففي سنن الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: [أن رسول الله ﷺ قضى أن عقل أهل الكتابين نصف عقل المسلمين ، وهم اليهود والنصارى]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾. أي: مقاصّة.

قال القرطبي: (ولا قصاص في كل مخوف ولا فيما لا يوصل إلى القصاص فيه إلا بأن يخطئ الضارب أو يزيد أو ينقص).

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عمران بن حصين: [أن رجلاً عضّ يد رجل فنزع يده فوقعت ثنيتاه فاخصما إلى النبي ﷺ فقال: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ ، لَا دِيَّةَ لَكَ». فأنزل الله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾]⁽²⁾.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾.

أي: تصدق بالقصاص فعفا فهو كفارة له ، أي: للمتصدق. وقيل: بل كفارة للجراح فلا يؤاخذ بجنائه في الآخرة ، والقول الأول أظهر وعليه أكثر الصحابة ، وهو أحد قولي ابن عباس ، والسنة الصحيحة تؤيده:

فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحطّ عنه به خطيئة]⁽³⁾.

وله شاهد عند النسائي عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من رجل يُجرح من جسده جراحة ، فيتصدق بها ، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدّق به]⁽⁴⁾.

وشاهد آخر عند أحمد من حديث أبي هريرة ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: [من أصيب بشيء من جسده ، فتركه لله ، كان كفارة له]⁽⁵⁾.

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1434) ، وابن ماجه (2644) ، والنسائي (45/8) نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن من حديث عمران بن حصين. انظر صحيح سنن الترمذي (1144) - أبواب الديات - باب القصاص. وأصله في الصحيحين.

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1393) ، وابن ماجه (2693) ، والطبري (12085).

(4) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (166) ، وأحمد (316/5) ، وهو صحيح لشواهده.

(5) أخرجه أحمد (412/5) ح (22983). انظر تخريج أحاديث تفسير ابن كثير - (2665) - المهدي.

قال ابن العربي : (والذي يقول إنه إذا عفا عنه المجروح عفا الله عنه لم يقم عليه دليل ، فلا معنى له)⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال طاووس : (كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق).

والمقصود أن جحود التحاكم إلى الله وإنكاره بالكلية هو الكفر الثاني المخرج من الملة وهو الظلم والفسق الثاني الذي دونه الظلم الأول والفسق الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعْنِي ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أي : أتبعنا عيسى بن مريم على آثار النبيين من قبله ، وبعثناه بالإنجيل مصدقاً لكتاب موسى من قبل ، وفيه هدى للحق ، وهو نور لكشف الشبهات والمعضلات وحل لمشكلات .

وقوله : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : وزجرأ لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال ، وتنبهأ لهم عليه).

وقوله : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ - أمر لأهل الإنجيل أن يعظموا الوحي النازل إليهم من ربهم . وقوله ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ فيه قراءتان :

القراءة الأولى : ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بالنصب - قراءة جماعة من قراء الكوفة . والمعنى : وآتيناه الإنجيل كي يحكم أهله بما فيه من حكم الله . أو : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم .

القراءة الثانية : ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بتسكين اللام - قراءة قراء الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين . أي : على وجه الأمر . والتقدير : وآتيناه الإنجيل وأمرنا أهله أن يحكموا بما فيه .

وكلاهما قراءتان مشهورتان ، ومن ثم فإن الآية تحتل آفاق المعنيين ، وهذا من عجاز هذا الكتاب الكريم .

(1) ذكره القرطبي في التفسير . سورة المائدة - آية (45).

وقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

قال ابن زيد: (الكاذبون). وقال: (كل شيء في القرآن إلا قليلاً «فاسق» فهو كاذب .
وقرأ قول الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ . قال: «الفاسق» هاهنا ، كاذب).

قلت: والفسق يشمل أكثر من ذلك ، فهو يتضمن جميع أشكال الخروج عن الطاعة
وارتكاب المخالفات الشرعية .

قال ابن كثير: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، أي:
الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق).

48 - 50. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ
مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
لَبَلَّوْكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ فَأَسْتَفِيقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ
عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: ثناء من الله سبحانه على القرآن الكريم ومدح له ، وأمر منه جل
ثناؤه لنبيه محمد ﷺ بالتحاكم إليه وإقامة مناجاه في الحكم ، وتحذير من الانحراف
عنه إلى مناهج أهل الشبهات والشهوات وطريقة الجاهلية .

فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ . أي: هذا القرآن .

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ . أي: بالصدق واليقين .

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ . أي: يصدق ما جاء في كتب الله
المتقدمة .

وقوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

1 - عن ابن عباس: (قوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ ، يقول: شهيداً). قال: القرآن شاهد على التوراة والإنجيل ، مصداقاً لهما).

وقال السدي: (شهيداً عليه). وقال قتادة: (أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله).

2 - قال مجاهد: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ ، مؤتمناً على القرآن ، وشاهداً ومصداقاً).

وقال ابن جريج: وقال آخرون: (القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر ، إن كان في القرآن فصدقوا ، وإلا فكذبوا).

وقال ابن جريج: (القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل).

3 - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: (والمهيمن الأمين). قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله). وقال: (يعني: أميناً عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب).

قلت: ولا شك أن اسم «المهيمن» يشمل هذه المعاني ، فالقرآن أمين وشاهد وحاكم على الكتب قبله. وأما ما جاء عن ابن أبي نجيج ، عن مجاهد: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ ، قال: محمد ﷺ ، مؤتمن على القرآن). فهو صحيح المعنى ، لكنه بعيد التفسير والتأويل في هذا الموضع ، لذلك استبعده شيخ المفسرين الإمام ابن جرير ، وتبعه على ذلك ابن كثير وغيره من المفسرين. فالآية تدل على هيمنة القرآن الكريم على الكتب التي كانت قبله إلى يوم القيامة ، وقد تكفل الله سبحانه بحماية فهم هذا الكتاب كما حمى تنزيله.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن أبي سعيد الخدري قال: [كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه ، فقمنا معه ، فانقطعت نعله ، فتخلفَ عليهما عليٌّ يَخْصِفُهَا ، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه ، ثم قام ينتظره ، وقمنا معه ، فقال: إن منكم من يقا تل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله.

فاستشرفنا وفيما أبو بكر وعمر ، فقال: لا ، ولكنه خاضع النعل . قال: فجئنا نبشّره⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ .

أمر من الله لرسوله ﷺ أن يقيم القرآن في الأمة منهاجاً للحكم والتحاكم .

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

أي: آراءهم وأعرافهم التي تعارفوا على تحكيمها وهي مخالفة في هديها لشرع الله .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح لغيره عن أبي ذر قال: كنت مخاصراً للنبي ﷺ يوماً إلى منزله ، فسمعتة يقول: [غیر الدجال أخوف أمتي من الدجال ، الأئمة المضلون]⁽²⁾.

أخرج البزار والبيهقي بسند حسن ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات . فقال: ثلاث مهلكات: شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنى ، والعدل في الغضب والرضا]⁽³⁾.

وقوله: ﴿ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

قيل المعنى: لا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم . وقيل التقدير: عادلاً عما جاءك . ذكره القاسمي . وقال القرطبي: (ومعنى: «عما جاءك» على ما جاءك).

وقوله: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ .

الشريعة في كلام العرب هي الطريق الذي يتوصل منه إلى الماء . والشريعة أيضاً ما شرع الله لعباده من الدين . قال الرازي: («الشريعة» الشريعة ، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾) . والشارع الطريق الأعظم . وشرع لهم: أي: سنّ . فيكون مفهوم الشريعة والشريعة أنه الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة .

والمنهاج: الطريق الواضح . يقال: نهج الطريق أبانه وأوضحه . ونهجه أيضاً سلكه .

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «خصائص علي» ص (29) ، وأخرجه أحمد في المسند (33/3) . وسنده صحيح .

(2) حديث صحيح لغيره . أخرجه أحمد (145/5) ، ولفظ قريب - أخرجه أبو داود (203/2) ، والدارمي (70/1) ، (311/2) ، وأخرجه الترمذي (231/3) ، والحاكم (449/4) .

(3) حديث حسن . أخرجه البزار (رقم - 80) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1/382/2) .

قال أبو العباس محمد بن زيد: (الشرعة ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستمر).

قال القرطبي: (والمنهاج الطريق المستمر ، وهو النَّهْجُ وَالْمَنْهَجُ).

وأما أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 - قال قتادة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ، يقول: سبيلاً وسُنَّةً. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة ، وللإنجيل شريعة ، وللقرآن شريعة ، يحلُّ الله فيها ما يشاء ، ويحرِّم ما يشاء بلاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاصُ لله ، الذي جاءت به الرسل).

2 - قال ابن عباس: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ، قال: سبيلاً وسنة).

وفي رواية عنه: (سنة وسبيلاً).

3 - قال مجاهد: (الشرعة: السنة ، و﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: السبيل ، لكلكم ، من دخل في دين محمد ﷺ ، فقد جعل الله له شرعة ومنهاجاً. يقول: القرآن ، هو له شرعة ومنهاج). وقال: (الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام ، وقد نسخ به كل ما سواه).

قلت: والراجع عندي أن الشرعة هي الأحكام الشرعية والسنن الخاصة بكل أمة من أمم الأنبياء ، والمنهاج هو الكتاب المنزل في ذلك الذي يوضح الله فيه بيان الطريق الكامل لإقامة أمره في كل أمة. فالتوراة منهاج ، والإنجيل منهاج ، والقرآن منهاج. ويجمع هذه المناهج توحيد الله وإفراده بالتعظيم والعبادة. والله تعالى أعلم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ، ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومَعْصِيَتِهِ ، بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله). وقال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3442) ، (3443) - كتاب أحاديث الأنبياء ، ورواه مسلم وغيره.

عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَاءٍ أَنْتُمْ﴾ ، يعني: من الكتاب. وقال ابن جريج: (ليبلوكم فيما آتاكم من الكتب).

وقوله: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْظَرُ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلَّفُونَ﴾.

أي: سارعوا إلى الطاعات ، وبادروا إلى الأعمال الصالحات ، فالمراد إلى الله سبحانه وهو يفصل بين عباده يوم القيامة ، فيجازي المحسنين بإحسانهم ، والعصاة والمجرمين بآثامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

المعنى: أقم حكم القرآن في الأمة يا محمد ، واحذر أعداءك اليهود الذين يمكرون لثلا تقيم فيهم أمر الله ، فإن أعرضوا عن الامتثال للحق فاعلم أن الله قد كتب ذلك وقدره عقوبة لهم نتيجة تماديهم واستهتارهم ليصرفهم عن الهدى فقد تراكت ذنوبهم وأفقلت قلوبهم ، وإن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم.

وفي التنزيل: ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

وكذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

وهذه الآيات وأمثالها تفيد أن الكثرة في الغالب ليست في موضع المدح ، وأن القلة المؤمنة الصادقة هي الممدوحة في القرآن ، سنة الله في عباده ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قال أبو السعود: (إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم).

والمعنى: أيعدلون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية. فليس من حق أحد أن يضع قوانين وتشريعات للناس إلا الخالق سبحانه ، ومن ثم فمن جعل من نفسه أو غيره مشرعاً لقوانين وأنظمة لم يأذن بها الله فقد أشرك بالله ، ودعا إلى عبادة غير الله. قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21].

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

قال أبو العالية: (أسس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له).

أخرج الدارمي بسند صحيح عن زياد بن حدير قال: [قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين]⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي قال: [أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلَبٌ دَمَ امْرِئٍ بغيرِ حَقٍّ لِيُهِرِقَ دَمَهُ]⁽²⁾.

51- 53. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾.

في هذه الآيات: نَهْيٌ عَنِ مَوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَتَوَعُّدٌ مِنَ اللَّهِ مَنْ خَرَقَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ فِيهَا فَضْحٌ لِسَبِيلِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْكَارٌ لِأَسَالِيْبِهِمْ وَحُجْجِهِمُ الْوَاهِيَةِ فِي ذَلِكَ، وَتَوْضِيحٌ وَتَأْكِيدٌ لِأَنْهِيَارِ أَعْمَالِهِمْ وَخَسَارَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ﴾.

تَحْذِيرٌ مِنْ تَقَرُّبِهِمْ وَمَعَاشَرَتِهِمْ وَمَنَاصِرَتِهِمْ.

قال المهايمي: (إذا كان تَوَدُّدُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَصْدِ افْتِتَانِهِ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَعَ غَايَةِ كَمَالِهِ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟).

وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

إِشَارَةٌ لَعَلَّةَ النَّهْيِ. قَالَ الْقَاسِمِيُّ: (أَي: فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى خِلَافِكُمْ، يُوَالِي بَعْضُهُمْ

(1) حديث صحيح. انظر سنن الدارمي (71/1)، وتخريج المشكاة (269/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6882)، كتاب الديات، وروى نحوه الطبراني (10749).

بعضاً لاتحادهم في الدين . وإجماعهم على مضادتهم . فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم!!).

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

قال الزمخشري : (وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله) .

وقال القرطبي : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ شرط وجوابه ، أي : لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ، ووجب معاداته كما وجبت معاداتهم ، ووجب له النار كما وجبت لهم ، فصار منهم أي : من أصحابهم) .

قلت : وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى :

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن جرير عن عبد الله البجلي : [أن رسول الله ﷺ بايعه على أن : « تنصح لكل مسلم ، وتبرأ من الكافر »]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج أبو داود بسند صحيح عن جرير بن عبد الله قال : [بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل . قال : فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل . وقال : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قالوا : يا رسول الله ! لم ؟ قال : لا تراءى ناراهما]⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج ابن أبي شيبة - والطبراني - عن ابن مسعود مرفوعاً : [أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله]⁽³⁾ .

الحديث الرابع : أخرج الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : [أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله]⁽⁴⁾ .

- (1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (357/4) ، (358/4) ، وله شواهد .
- (2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2645) ، كتاب الجهاد - باب على ما يقاتل المشركون . وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2304) وقال : (صحيح) دون جملة العقل .
- (3) حديث حسن . انظر كتاب « الإيمان » لابن أبي شيبة ص (45) ، والمسند (286/4) .
- (4) ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » (69/1) . وهو حديث حسن . انظر صحيح الجامع (2536) . وقد أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (11537) ، وله شاهد في مسند أحمد (286/4) من حديث البراء . انظر الحديث السابق .

الحديث الخامس: أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [من أحب في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبداً طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المقصود: إن الله لا يوفق من أعطى الولاية لأعدائه ، وكان لهم ظهيراً ونصيراً.

وقوله: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

ففي المقصود بذلك قولان:

1 - قيل عني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول. قاله عطية بن سعد. وقال: ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ (أي: في ولايتهم). أي: لقول ابن أبي: (إني أخشى دائرة تصيبني).

2 - قيل بل المعني قوم من المنافقين كانوا يناصحون اليهود ويغشون المؤمنين.

قال مجاهد: (المنافقون ، في مصانعة يهود ، ومناجاتهم ، واسترضاعهم أولادهم إياهم. وقول الله تعالى ذكره: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ قال يقول: نخشى أن تكون الدائرة لليهود).

وكلا التأويلين وارد محتمل ، فهو خبر عن المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويخدعون المؤمنين بحجة احتمال أن يدور الدهر فيظفر اليهود أو النصارى ، أو أهل الشرك ، أو تنزل نازلة بهؤلاء المنافقين ، فيكون لهم إلى أولئك حاجة.

وقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾.

الفتح عني به أمران عند المفسرين:

1 - فتح مكة. فعن السدي: (﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾ ، قال: فتح مكة).

2 - قيل القضاء والفصل. فعن قتادة: (﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾ قال: بالقضاء).

(1) انظر: «حلية الأولياء» (312/1) عن ابن عباس ، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ص (30) ، الطبعة الثالثة ، سنة (1382) هـ.

ويعجز أن يكون القضاء والفصل هو فتح مكة فيجتمع المعنيان. فإن الفتح في لغة العرب القضاء.

وقوله: ﴿أَوْ أَمَرَ مِنْ عِنْدِهِ﴾. قال السدي: (الأمر الجزية - يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى).

وقوله: ﴿فِيَصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾.

أي: يصبح المنافقون الذين ارتضوا لأنفسهم موالة اليهود والنصارى نادمين على ما أقدموا عليه ، إذ لم يجنوا من ذلك إلا الضعف والخزي والفضيحة بين المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

فيه تفسيران:

1 - هو قول بعض المؤمنين لبعض بعد الفتح ونزول النصر: أهؤلاء - إشارة إلى المنافقين - الذين حلفوا واجتهدوا في الإيمان وقالوا إنهم لمعكم معشر المؤمنين ، فهاهم قد فضحهم الله وأخزاهم وهتك سترهم اليوم. ذكره ابن جرير.

2 - هو قول المؤمنين لليهود على جهة التوبيخ: أهؤلاء - إشارة إلى المنافقين - الذين حلفوا بالله غاية أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد. ذكره القرطبي.

وقوله: ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾.

أي: بطلت بنفاقهم. ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ فيه معنيان:

المعنى الأول: قد خسروا الثواب وضيّعوا مستقبلهم بنفاقهم.

المعنى الثاني: قد خسروا في موالة اليهود ، فقد أجلي النبي ﷺ اليهود وقتل طائفة منهم.

والخلاصة: قد خسر هؤلاء المنافقون الصفقة الهزيلة مع اليهود الذين أخزاهم الله بالقتل والإجلاء ، وكذلك فقد خسروا رضوان الله ، فضيّعوا الدنيا والآخرة.

54 - 56. قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

لَا يَمِرُّ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ .

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله سبحانه عن استغنائه وقدرته ، فمن ترك دين الإسلام
أو ارتد عنه فإنه يخلق جلت عظمته لدينه العظيم رجالاً أوفياء ينصرون هذا الدين
ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون أحداً وقف في طريقهم . إنه ليس لكم أيها
المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله وأهل الإيمان - أهل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتعظيم
شرائع الحق - فمن وثق بالله وتولى الله ورسوله وعباده المؤمنين فهؤلاء لهم الدولة
والغلبة على فئة الشيطان وحزبه .

قال ابن عباس: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الآية ، وعيد من الله أنه من
ارتدَّ منكم ، أنه سيستبدل خيراً منهم).

وقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال ابن جرير: (أرقاء عليهم ، رحماء بهم).

وقوله: ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

قال علي: (أهل غلظة على من خالفهم في دينهم).

وقوله: ﴿يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعة الله ، وقتال أعدائه ، وإقامة
الحدود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يردُّهم عن ذلك راد ، ولا يصدِّهم
عنه صاّد ، ولا يحيك فيهم لومٌ لائم ، ولا عدلٌ عاذل).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في الأوسط ، بسند
جيد عن أبي ذر قال: [أمرني خليلي - ﷺ - بسبع: أمرني بحبِّ المساكين والدينو منهم ،
وأمرني أن أنظرَ إلى من هو دوني ، ولا أنظرَ إلى من هو فوقني ، وأمرني أن أصلَ الرِّجَمَ
وإن أدبرت ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُراً ،

وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثير من قول: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الله ليسأل العبد يوم القيامة. حتى يقول: ما منعك ، إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبداً حجته ، قال: يارب! رجوتك وفرت من الناس]⁽²⁾. وفي لفظ: [وثقت بك ، وفرت من الناس].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح لغيره عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه (أو شاهده أو سمعه)]⁽³⁾.

وروى أحمد نحوه وفيه: [إذا رآه أو شهد ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق ، أن يقول بحق ، أو يذکر بعظيم]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

أي: تلك الصفات والنعوت السابقة هي من فضل الله على المؤمنين الذين اتصفوا بها.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾. أي: جواد بفضله وكرمه ومنه ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بموضع ذلك الجود والعطاء ومن يستحقه من عباده.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

أي: ليس لكم ، أيها المؤمنون ، ناصر ومعين ومؤيد ومحِب إلا الله ورسوله وأهل الإيمان ، الذين وصفت خصالهم بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾.

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (159/5) ، والطبراني في «الأوسط» (5635). وقال الهيثمي في «المجمع» (263/10): وأحد إسنادي أحمد ثقات.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4017) ، وابن حبان (1845) ، وغيرهما.

(3) صحيح لغيره. أخرجه الترمذي (2191) ، وابن ماجة (4007) ، والحاكم (506/4) ، وغيرهم. وانظر للزيادة مسند أحمد (53/3) بسند صحيح على شرط مسلم.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (50/3) ، (87/3) ، وأبو يعلى (2-1/88) ، وهو صحيح الإسناد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

قال السدي: (أخبرهم - يعني الرب تعالى ذكره - من الغالب ، فقال: لا تخافوا الدولة ولا الدائرة ، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، و«الحزب» ، هم الأنصار).

وفي التنزيل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢).

فمن نصر دين الله نصره الله وكتب له الغلبة على عدوه ، سنة الله ولن تجد لسته تبديلاً.

57 - 58. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مَنِ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٨).

في هذه الآيات: تحذير من الله للمؤمنين من موالاته أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين ، الذين يستهزئون بأفضل أديان البرية الذي لا يقبل الله غيره بعد بعثة محمد ﷺ إلى يوم القيامة. وتنفير من صنيع أولئك المستهزئين عند ندائكم لصلاتكم ، إذ يرونها من اللهو واللعب ، وقد اتهمهم الله بعقولهم مقابل ذلك.

قرأ جماعة من قراء الحجاز والبصرة والكوفة ﴿والكفار أولياء﴾ بكسر الراء. والتقدير: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء. في حين قرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة بالفتح: ﴿وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ﴾. والتقدير: لا تتخذوا - أيها المؤمنون - الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً والكفار - أولياء. أي: «ولا الكفار أولياء». وذلك بالعطف للكفار على الذين اتخذوا.

قال ابن جرير: (إنهما قراءتان متفقتا المعنى ، صحيحتا المخرج ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء ، فبأي ذلك قرأ القارئ فقد أصاب).

وفي التنزيل : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28].

فالموالاتة والمحبة والنصرة والتأييد للمؤمنين ، فإنما المؤمنون إخوة .

أخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : [المسلم أخو المسلم] ⁽¹⁾.

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى هاهنا - وأشار إلى القلب - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم] ⁽²⁾.

وقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : بشرع الله العظيم الذي يحاول هؤلاء المبطلون الاستهزاء به .

وقوله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وإذا أذن مؤذنكم ، أيها المؤمنون ، بالصلاة سخر من دعوتكم إليها هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، ولعبوا من ذلك). وقال ابن كثير : (وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حُصاص - أي : ضراط - حتى لا يسمع التأذين).

وَقَدْ جَاءَتِ السَّنَةُ الصَّحِيحَةُ بِهَذَا الْمَفْهُومِ فِي أَحَادِيث :

الحديث الأول : أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [إذا نُودِيَ للصلاة أدبر الشيطان له ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قُضي النداء أقبل ، حتى إذا نُوبَ للصلاة أدبر ، حتى إذا قُضي التَّوْبُ أقبلَ حتى يَخْطُرَ بَيْنَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2442) - كتاب المظالم . باب : لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلِمُهُ .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة . انظر صحيح الترمذي (1572). باب ما جاء شفقة المسلم على المسلم . وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6582)، (6583).

المرء ونفسه ، يقول: اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صَلَّى⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أذن المؤذن أذبر الشيطان ، وله حُصَّاص]⁽²⁾.

وفي لفظ: [إن الشيطان ، إذا تُودي بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَّاص].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ، ذهب حتى يكون مكان الروحاء]⁽³⁾.

قال سليمان: فسألته عن الرَّوْحَاء؟ فقال: هي من المدينة سِتَّة وثلاثون ميلاً.

وقوله: ﴿ اتَّخَذُوا هُزْوَاً وَلِعِباً ﴾ .

أي هزواً بالدعاء إلى الصلاة ولعباً بذلك. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . أي: ما لهم في إجابة النداء إلى الصلاة ، وما عليهم في سخريتهم من العقاب ، فلو عقلوا ما فعلوا ذلك .

ولقد تألق مُعَلِّم البشر وعالم النفس الأول في هذه المعمورة رسول الله ﷺ حين عالج هذا النقص والعيب في الشخصية ، وهو مرض هزال الروح وحب السخرية والاستهزاء الذي ما زال الناس يضربهم الشيطان به من زمان آدم ونوح عليهما السلام ، إلى زماننا هذا. فلنصغ معاً كيف عالج النبي ﷺ ما اعتري أبا محذورة من هزال النفس والاستهزاء عندما سمع النداء!

أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة - واللفظ له - عن عبد الله بن مُحِيرِيز ، وكان يتيماً في حجر أبي محذورة بن مِغِير ، حين جهزه إلى الشام. فقلت لأبي محذورة: أي عم! إني خارج إلى الشام ، وإني أسأل عن تأذنيك؟ فأخبرني أن أبا محذورة قال: [خرجت في نفر. فكنا ببعض الطريق. فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة ، عند

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (608) - كتاب الأذان - باب فضل التأذين. وروى مسلم نحوه .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (389) - كتاب الصلاة. باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (388) - كتاب الصلاة. الباب السابق .

رسول الله ﷺ. فسمعنا صوت المؤذن ونحن عنه متكبرون. فصرخنا نحكيه. نهزأ به. فسمع رسول الله ﷺ. فأرسل إلينا قوماً فأقعدونا بين يديه. فقال: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار إليّ القوم كلهم ، وصدقوا. فأرسل كلهم وحسني. وقال لي: قُمْ فَأَذِّن. فَقُمْتُ ، ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا ممّا يأمرني به. فقمتُ بين يدي رسول الله ﷺ ، فألقى عليّ رسولُ الله التّأذين هو بنفسه. فقال: قل: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسولُ الله ، أشهد أن محمداً رسولُ الله. حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح. الله أكبر ، الله أكبر. لا إله إلا الله. ثم دعاني حين قضيت التّأذين فأعطاني صُرّة فيها شيء من فضّة. ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة. ثم أمرّها على وجهه ، ثم على ثدييه ، ثم على كبدّه ، ثم بلّغَتْ يدُ رسول الله ﷺ سُرّة أبي محذورة. ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله لك وبارك عليك. فقلت: يا رسول الله! أمرتني بالتأذين بمكة؟ قال: نعم. قد أمرتُك. فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية ، وعاد ذلك كُلُّهُ مَحَبّةً لرسول الله ﷺ. فَقَدِمْتُ على عَتَاب بنِ أُسَيْدٍ ، عاملٍ رسول الله ﷺ بمكة ، فَأَذَنْتُ مَعَهُ بالصلاة عَنْ أَمْرِ رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

لقد عالج رسول الله ﷺ مشكلة الهزال والسخرية بالأمر الآتية:

- 1- أرسل رسول الله ﷺ على الفور فجمع القوم بين يديه.
- 2- سأل بقوة وحزم عن صاحب ذلك الصوت.
- 3- أشار القوم جميعهم إلى مصدر الصوت ذباً عن أنفسهم ما يرى أنه ذم.
- 4- أطلق النبي ﷺ القوم وحبس صاحبه ليزيده خوفاً وندماً على ما فعل.
- 5- أمره أن يقوم فيؤذن بما استهزأ به ، فداواه بالتّي كانت هي الداء.
- 6- ألقى عليه التّأذين بحزم ليردّه خلفه، ثم دعاه فكافأه بالمال ليظهر قيمة ما فعل، وليبقى راسخاً في ذهن أبي محذورة إلى الأبد أن هذا التّأذين غال وثمين ولا يُهزأ به.
- 7- ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على ناصية ووجه وصدر وكبد أبي محذورة ودعا له بالعافية والبركة فبرأ مما كان في نفسه بإذن الله.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (503) ، والنسائي (5/2) ، وابن ماجه (708). انظر صحيح ابن ماجه (581) - كتاب الأذان والسنة فيها - باب الترجيع في الأذان. ورواه أحمد في المسند (409/3). وانظر صحيح مسلم (379) ، وسنن الترمذي (192) ، وسنن البيهقي (393/1).

8 - ثم استعمله بالعمل نفسه على أهل مكة ، فَبَتَرَ بذلك الاستهزاء بالتأذين من نفسه إلى الأبد ، إذ أصبح قائماً على هذا العمل فكيف يهزأ بنفسه؟!

فهذه لمسات من بعض أساليب التربية النبوية في معالجة أمراض السلوكية ، وقد بسطت بذلك القول في كتابي: «الأمراض النفسية وعوامل الشد إلى الخلف» ، والله الحمد والمنة .

59 - 63. قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مَنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ٥٩ ﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ٦٠ ﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ۖ آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ٦١ ﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢ ﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ٦٣ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين بدينكم من أهل الكتاب: هل يحملكم على ذلك إلا أن صدقنا وأقرنا بالله فوحدناه ، وبما أنزل إلينا من القرآن ، وبما أنزل إلى المرسلين قبلنا ، وإلا أن أكثركم عاصون لله خارجون عن طاعته . فهل أنبئكم يامعشر أهل الكتاب بشراً من جزاء ما تنقمون منا من الإيمان - إنه من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم الممسوخ القردة والخنازير غضباً من الله وسخطاً وخزياً عاجلاً في الدنيا قبل الآخرة . - فهؤلاء شر مكاناً ممن نقمت عليهم من المؤمنين ، وأنتم معشر اليهود أضل عن قصد الطريق وأَجْوَرُ عن سبيل الهدى والرشاد . وإذا جاءكم - أيها المؤمنون - هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا آمنا بألستهم ، وما تبطن صدورهم هو الكفر والله أعلم بما يبطنون . ثم إن أكثرهم يسارعون بالمعصية والبغي وأكل الرشوة وسبى العمل ، فأين علماؤهم لينهولهم عن ذلك ويحذروهم سبى ما كانوا يعملون .

وتفصيل ذلك :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَآَنَ أَكْذَرُكُمْ فَنَسِيْقُونَ ﴾ .

قال القاسمي : (أي ما تعيون وتنكرون منا ﴿ إِلَآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهو رأس الكمالات ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهو يشهد لما أنزل إلينا ﴿ وَآَنَ أَكْذَرُكُمْ فَنَسِيْقُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر).

وقال ابن كثير : (أي : وآمننا بأن أكثركم فاسقون ، أي خارجون عن الطريق المستقيم).

وفي التنزيل : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج].

وفيه أيضاً : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَآ أَن أَغْنَاهُمْ ٱللَّهُ وَرُسُلُهُ مِن فَضْلِهِ ۖ ﴾ [التوبة].

وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ ٱلْقِرَدَةَ ٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ﴾ .

أي : إن من اتصف بهذه الصفات الذميمة هم شر مكاناً ، وهم أصحاب الخزي يوم القيامة ، لا الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه وصدقوا المرسلين والتزموا العمل الصالح .

فمن ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي طرده من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ فلا يرضى بعدها عنه ، ومسوخ حاله وهيئته إلى أحوال وهيئات القرده والخنازير خزيًا عاجلاً لهم في الدنيا قبل الآخرة هم ومن مضى على مناهجهم الفاسد من أحفادهم موضع النقص والعيب والعار ومظنة الهلاك في الآخرة .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : وذكرت عنده القرده - أي عند النبي ﷺ - وفي لفظ : فقال رجل : يا رسول الله ! القرده والخنازير هي مما مُسِّخ؟ فقال النبي ﷺ : [إن الله عز وجل لم يهلك قوماً ، أو يُعَذِّب قوماً ، فيجعل لهم نسلاً ، وإن القرده والخنازير كانوا قبل ذلك] (1) .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس ، عن

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2663) ، كتاب القدر ، وأخرجه أحمد (413/1) (390/1) ، ورواه أبو يعلى (5313) من طريق مسعر عن علقمة به .

النبي ﷺ قال: [الحياتُ مسخ الجن صورةً ، كما مُسِحت القردةُ والخنازيرُ من بني إسرائيل] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ - فيه قراءتان أو أكثر.

القراءة الأولى: قراءة قراء الحجاز والشام والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت كما جعل منهم القردة والخنازير.

القراءة الثانية: قراءة جماعة من الكوفيين: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. والمعنى: وجعل منهم خدام الطاغوت. أي خدامه وعبيده.

وكلاهما قراءتان مشهورتان وإن كانت القراءة الأولى أشهر ، واختار ذلك ابن جرير.

وقد مضى بيان مفهوم كلمة ﴿الطَّاغُوتَ﴾ في مواضع سابقة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

فيه أكثر من تأويل:

1- قال الزجاج: (أولئك شر مكاناً على قولكم).

2- قال النحاس: (ومن أحسن ما قيل فيه: أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر).

3- وقيل: أولئك الذين نقموا عليكم شر مكاناً من الذين لعنهم الله.

4- وقيل: أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر.

5- وقال القرطبي: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لأن مكانهم النار ، وأما المؤمنون فلا شرَّ في مكانهم).

6- وقال ابن كثير: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ ، أي: مما تظنون بنا).

قلت: والسياق يقتضي ما ذكره القرطبي وابن كثير ، إذ جاء قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾ ، والله تعالى أعلم .

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (348/1) ح (3245) ، والطبراني (1146) ، وابن حبان (1080) .

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ .

قال ابن عباس: (وإنهم دخلوا وهم يتكلمون بالحق ، وتسرُّ قلوبهم الكفر ، فقال: ﴿ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾).

وفي التنزيل: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: 72].

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ .

أي: بما تنطوي عليه سرائر هؤلاء المنافقين .

وقوله: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ ﴾ .

قال السدي: (الإثم: الكفر). وقال قتادة: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ ﴾ ، وكان هذا في حكام اليهود بين أيديكم).

قال ابن جرير: (وأما قوله: ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ ﴾ ، فإنه يعني به الرشوة التي كانوا يأخذونها على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به).

والمقصود كشف هؤلاء اليهود في تعاطيهم المأثم والمحرمات والاعتداء على الناس ، وكشف خداعهم ولعبهم بدينهم مقابل الرشوة والمال الباطل .

وقوله: ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . أي: مما سبق من المخالفات الشرعية .

وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

الأخبار: العلماء . والربانيون: العلماء العُمَّال أرباب الولايات عليهم ، فهم أخص . والآية توبيخ للطرفين مقابل سكوتهم عن انحراف ومخالفات بني إسرائيل في انتشار الآثام والمعاصي بينهم ، وانتشار السحت: أي الرشوة والمال الحرام .

قال ابن عباس: (ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية) .

وقال الضحاك: (ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أنا لا ننهي). وقال: ﴿ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ فقهاؤهم وقراؤهم وعلماءهم . وما أخوفني من هذه الآية).

وقال ابن جرير: (وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ، ولا أخوف عليهم منها) .

قلت : وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذه الآية .

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : [أيها الناس ! إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا بيده ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ ⁽¹⁾ .

ورواه ابن ماجه بلفظ : [وإننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر لَا يُعَيِّرُونَهُ ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ] ⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجه - واللفظ له - والحاكم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ ، قام خطيباً . فكان فيما قال : [ألا ، لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا ، هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ ، إِذَا عَلِمَهُ] ⁽³⁾ . قال : فبكى أبو سعيد ، وقال : قد والله ! رأينا أشياء ، فهبنا .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند حسن عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من قوم يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ ، لَا يُعَيِّرُونَ ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ] ⁽⁴⁾ .

64 - 66 . قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

- (1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (29) ، (53) ، وأبو داود (217/2) ، والترمذي (25/2) وغيرهم .
- (2) حديث صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجه (3236) - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- (3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (30/2) ، وابن ماجه (4007) ، والحاكم (506/4) .
- (4) حديث حسن . أخرجه ابن ماجه في السنن - حديث رقم - (4009) ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . انظر صحيح سنن ابن ماجه (3238) .

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ. وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ .

في هذه الآيات : ذُكِرَ جرأة اليهود على ربهم وتطاولهم في الكلام بصفاته دون تأدب أو خجل ، وتجاهل نعمه عليهم وكثرة صفحه وعفوه عنهم ، فوصفوه بالبخل كما وصفوه بالفقر عليهم لعائن الله ، بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء وعنده خزائن كل شيء . ثم فيها إخبار من الله لنبيه محمد ﷺ أن ما أكرمك الله به من الوحي والحق سيكون نقمة على اليهود وأمثالهم وسيزدادون به حسداً وحقدًا وطغياناً ، كما يزداد به المؤمنون إيماناً وإحساناً. ثم لا تجتمع قلوبهم بل سيفتك الحقد والبغى بين فرقهم مقابل كفرهم ، وكلما أبرموا حالة اجتماع ليحاربوك فيها يمزقها الله ويطلها ، ومن صفاتهم استمرار إشعال الأرض بنار الفساد والله لا يحب المفسدين . ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله وكفوا عن الظلم والآثام وأقاموا التوراة والإنجيل ثم أقاموا القرآن النازل إليهم لبسط الله لهم ألوان البشائر والنعيم في الدنيا والآخرة ، ولكن قليل من آمن واتقى منهم ، وأكثرهم فاسقون .

وتفصيل ذلك :

قوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ .

قال ابن عباس : (ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكنهم يقولون : إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) .

فكذبهم الله بما قالوا ووبخهم فقال جل ثناؤه : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

قال قتادة : (قالوا : الله بخيل غير جواد ! قال الله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾) .

وقال الضحاك : (﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، يقولون : إنه بخيل ليس بجواد ! قال الله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، أمسكت أيديهم عن النفقة والخير . ثم قال يعني نفسه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ [الإسراء] ، يقول : لا تمسك يدك عن النفقة) .

قال القرطبي : (﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ . قيل : المراد أنهم أبخل الخلق ، فلا

ترى يهودياً غير لثيم. وفي الكلام على هذا القول إضمار الواو ، أي قالوا: يد الله مغلولة وغلّت أيديهم. واللعن الإبعاد).

فيكون المعنى: كذب اليهود المتجربون على صفات الله سبحانه ، فهم البخلاء الفاسدون المنعوتون بصفات الشح والبخل والطمع والبغي ، والله تعالى هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الكثير النعم ، فنعمة لا تحصى ، وكرمه على عباده لا حدود له ، وعنده خزائن السماوات والأرض ينفق كيف يشاء وهو الحكيم الكريم المتعال .

قال في سورة إبراهيم: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَآسَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ .

وقال في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ...﴾ .

قلت: وضلّ قوم أولوا صفة اليد بالنعمة أو القدرة ، فبماذا يستقيم على زعمهم قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾! هل يقال بل قدرته أو نعمته حينئذ! هذا مما لا يستقيم في لغة العرب. والحق أن هذه الآية تثبت صفة اليدين لله العظيم ، كما تثبتها الآية الأخرى في سورة (ص): ﴿قَالَ يَإِيلَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ . وقد جاءت السنة الصحيحة بإثبات ذلك لله كما يليق بجلاله وكماله - أي: دون تشبيه ولا تعطيل - بل كلتا يديه يمين سبحانه وتعالى ، كما ثبت في الصحيح .

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا] (1) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَخِضُّهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءٌ ، اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوِ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ] (2) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [اِحْتَجَّ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1827) ، كتاب الإمامة . باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7419) كتاب التوحيد . وانظر (4684) منه . وأخرجه مسلم (993) ح (37) ، وأحمد (313/2) ، وابن حبان (725) ، والترمذي (3045) .

آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ قال آدم عليه السلام : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ، فيكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ . قال : نعم . قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله ، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ .

قال قتادة : (حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن كفروا به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم) .

وفي التنزيل : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : 82] .

وقوله : ﴿ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ .

قال مجاهد : (أي بين اليهود والنصارى) . وقيل : (ألقينا بين طوائف اليهود) .

قال القرطبي : (فهم متباغضون غير متفقين ، فهم أبغض خلق الله إلى الناس) .

وفي التنزيل : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر] .

قلت : والراجح أنه من ذكر اليهود ، فإن السياق يقتضي ذلك ، والمقصود : أن الفرقة والتمزق ستعم طوائف بني إسرائيل ، فلا تجتمع قلوبهم ، وتسري العداوة بينهم . قال إبراهيم النخعي : ﴿ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ قال : الخصومات والجدال في الدين) .

وقوله : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ .

قال السدي : (كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله ، وأطفأ حدهم ونارهم ، وقذف في قلوبهم الرعب) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2652) ح (15) ، كتاب القدر ، وانظر صحيح البخاري (4738) .

وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: من سَجَّيْتَهُمْ أنهم دائماً يَسْعَوْنَ في الإفساد في الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

قال قتادة: ﴿(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ ، يقول: آمنوا بما أنزل الله ، واتقوا ما حرّم الله ، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾).

قال ابن جرير: ﴿(لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ، يقول: مَحَوْنَا عنهم ذنوبهم فغطينا عليها ، ولم نفضحهم بها ، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ، يقول: ولأدخلناهم بساتين ينعمون فيها في الآخرة).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .

قال ابن عباس: (يعني القرآن). أي وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ .

وقوله: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ . يعني من القَطَر والنبات .

قال ابن عباس: ﴿(لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ، يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً ، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ، تخرج الأرض بركتها).

وقال قتادة: (إذن لأعطيهم السماء بركتها ، والأرض نباتها).

وقال السدي: (يقول: لو عملوا بما أنزل إليهم مما جاءهم به محمد ﷺ ، لأنزلنا عليهم المطر ، فلأنبت الثمر).

وفي الآية تنبيه لهذه الأمة ألا تسقط كما سقطت أمة يهود ، وأن تتمسك بقرآنها فهو فلاحها في الدنيا والآخرة ، وقد خشي النبي ﷺ على هذه الأمة أن تترك قرآنها والعمل به كما حصل في أمم أهل الكتاب . وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح ، عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال: [ذاك عِنْدَ أَوَانٍ ذهاب العلم . قلت: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُفَرِّهُ أبناءنا ويُفَرِّهُ أبناءنا أبناءهم ، إلى يوم القيامة؟ قال: تُكَلِّثُكَ

أُمَّكَ ، زياداً! إِنَّ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقه رجلٍ بالمدينة. أو لَيْسَ هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ، لا يَعْمَلُونَ بشيءٍ مما فيهما؟⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: [لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً ببيع ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب دخلتم ، وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي عامر - عبد الله بن يحيى - قال: [حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به]⁽³⁾.

وقوله: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يعني: منهم جماعة مقتصدة في القول في عيسى بن مريم ، وبعيدة عن الغلو والتنطع.

قال قتادة: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ ، يقول: على كتابه وأمره. ثم ذم أكثر القوم فقال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال السدي: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ ، يقول: مؤمنة).

وقال الربيع بن أنس: (فهذه الأمة المقتصدة ، الذين لا هم جَفَوا في الدين ولا هم غَلَوا).

وفي التنزيل: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 159].

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجه (3272) - باب ذهاب القرآن والعلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (455/4) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1348).

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (332/2) ، وسنن أبي داود (503/2) ، والترمذي (367/3) ، وابن ماجه (479/2) ، والحاكم (128/1) ، وصحيح الجامع (1093) ، (1094).

هذا في قوم موسى. وقال في أتباع عيسى: ﴿فَقَاتِلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: 27].

قال ابن كثير: (فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين . كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٣١] جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . . الآية [فاطر: 32 - 33]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة).

67. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٧].

في هذه الآية: يأمر الله سبحانه نبيه ﷺ بإقامة البلاغ المبين لهذا التنزيل العظيم والوحي الكريم ، ومن ثم فإن أحداً لن يستطيع أن يتسلط عليه بأذى ، فهو في عصمة الله وحمايته ، والله هو يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أعلم بمن يستحق الفضل والهداية.

أخرج ابن حبان في صحيحه ، بسند حسن عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً نظروا أعظم شجرة يرونها فجعلوها للنبي ﷺ ، فينزل تحتها وينزل أصحابه بعد ذلك في ظل الشجر ، فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاء أعرابي فأخذ السيف من الشجرة ، ثم دنا من النبي ﷺ وهو نائم فأيقظه فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: الله. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [١].

قلت: ولا شك أن البلاغ المبين لهذا الدين عصمة للمؤمن من الله ، يجد بركته في حياته ، ونوره في قبره ، وغبطته وسروره في أهله ، ونجاته وفوزه يوم القيامة. وقد بلغ النبي ﷺ هذا الدين أتم البلاغ وجاهد من أجل ذلك أرفع الجهاد ، وتحمل في ذات الله

(1) حديث حسن. انظر صحيح ابن حبان (2882) و(4537)، ومسند أحمد (364/3) من حديث جابر ، وأصله في الصحيحين. انظر صحيح البخاري (2913) ، ومسلم (1786/4) (13). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة المائدة ، آية (67).

عز وجل ما أصابه لينقذ الأمة من جحيم مناهج أهل الشهوات والأهواء ومن جحيم النار يوم القيامة ، إلى نور الحياة في ظل منهج الله سبحانه في الدنيا وظل روضات الجنان في الآخرة.

أخرج البخاري عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : [مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ ، وَاللَّهِ يَقُولُ : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية] (1).

قال البخاري: قال الزهري: (من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم).

وقد استنطق النبي ﷺ أمته في أعظم المحافل ، فشهدت له بأتم البلاغ ، وفهمت منه الوداع.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: [يا أيها الناس ، أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يومٌ حرام ، قال: فأَيُّ شَهْرٍ هذا؟ قالوا: شَهْرٌ حرام ، قال: فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بِلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا. فَأَعَادَهَا مِرَارًا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟- قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده! إنها لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ - فليبلغ الشاهد الغائب ، لاترجعوا بعدي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ] (2).

قال البخاري: وقال هشامُ بْنُ الْغَازِ: أخبرني نافعٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما: (وقف النبي ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الْجَمْرَاتِ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي حَجَّ بِهَذَا ، وَقَالَ: هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ. فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. فَوَدَّعَ النَّاسَ فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ) (3).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4612) - كتاب التفسير - باب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1739) - كتاب الحج. باب الخطبة أيام منى. وأخرجه أحمد في المسند (230/1).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه عقب حديث (1742) - كتاب الحج. الباب السابق. وانظر كذلك الحديث (4403) منه.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر - في حجة النبي ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: [أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بَلَغْتَ وأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فجعل يرفعُ إصْبَعَهُ إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: اللهم هل بَلَغْتَ، اللهم هل بلغت. وفي لفظ: فقال بإصبعه السَّبَّابَةِ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد. ثلاث مرات] (1).

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي حاتم عن هارون بن عَثْرَةَ، عن أبيه قال: [كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبيده رسول الله ﷺ للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء] (2).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُّكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

أي: يمنعك من أن ينالوك بسوء أو أذى، فأنت في حفظ الله وكلايته وتأييده. وقد كان النبي ﷺ يُحرس عند وصوله المدينة قبل نزول هذه الآية.

أخرج الترمذي بسند حسن عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُّكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله] (3).

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [سهر رسول الله ﷺ مقدّمه المدينة ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة. قالت: فينا نحن

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث رواه مسلم (1218) من حديث جابر - في حجة النبي ﷺ.

(2) إسناده جيد، كما ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير - سورة المائدة (آية 67). ويشهد له ما في صحيح البخاري من حديث أبي جُحَيْفَةَ: [قلت لعلي: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافراً].

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي بإسناد حسن من حديث عائشة رضي الله عنها. انظر صحيح سنن الترمذي (2440). أخرجه الحاكم (313/2)، وأخرجه الطبري (12279).

كذلك سمعنا خَشْخَشَةَ سلاح ، فقال: مَنْ هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص. فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرسه ، فدعاه رسول الله ﷺ ، ثم نام⁽¹⁾.

ورواه أحمد وفيه: [فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ لأحرُسَكَ يا رسول الله. قال: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رسول الله ﷺ في نومه].

قال الحافظ ابن كثير: (ومن عصمة الله لرسوله حفظُهُ له من أهل مكة وصناديدها وحُسادها ومُعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغْضة ونَصْبِ المحاربة له ليلاً ونهاراً ، بما يَخْلُقُهُ الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة. فضانه في ابتداء الرسالة بعَمِّه أبي طالب ، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارُها وكبارها ، ولكن لَمَّا كان بينه وبينهم قَدَرٌ مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيراً ، ثم قَيَّضَ الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يَتَحَوَّلَ إلى دارهم - وهي المدينة - فلما صار إليها حَمَوة من الأحمر والأسود ، فكلما هَمَّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وَرَدَّ كيده عليه ، لَمَّا كاده اليهود بالسحر حَمَاهُ الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الداء. ولما سَمَّ اليهود ذراعَ تلك الشاة بِخَيْرٍ ، أعلمَهُ الله به ، وحماه منه. ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ .

أي: لا يوفقهم لسلوك سبيل الهداية والرشاد جزاء استهتارهم وردَّ شرع الله وبلاغ الرسل.

قال القرطبي: (أي لا يرشدهم.. . وقيل: أبلغ أنت فأما الهداية فلينا. نظيره: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ﴾). وقال ابن جرير: (إن الله لا يوفِّق للرشد من حَاد عن سبيل الحق ، وجار عن قصد السبيل ، وجحد ما جئته به من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2410) - كتاب فضائل الصحابة. وانظر صحيح البخاري (2885) وكذلك (7231) ، ومسند أحمد (141/6) ، والنسائي في «الكبرى» (8867). وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (522/1-523) لتفصيل تلك الأحداث والروايات.

68 - 69. قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: قل يا محمد لأهل الكتاب إنكم لستم على شيء من الدين الحق حتى تعملوا بما جاءكم في كتبكم فتؤمنوا بما فيها ، وبما تضمنته من نبوة محمد ﷺ ووجوب متابعتة ونصرتة ، ولكن يا محمد لن يكون الأمر كما تحب ، فإن الكبر والغرور قد أهلك هؤلاء ، فلن يزيدهم ما أنزل إليك من القرآن إلا كبراً وجحوداً وعناداً وطغياناً ، فلا تحزن عليهم فهم إنما يردون بذلك مهالكهم . إن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى والتزم ما أمر به فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ولا على ما خلفوا وراءهم فيها من ذرية ودنيا ، بعد أن يبصروا نعيم الآخرة وما أعد الله لهم من عظيم الثواب والسرور والملذات .

قال ابن زيد: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا﴾ ، حتى تعملوا بما فيه). أي بما جاء في التوراة والإنجيل دون التحريف . وعن مجاهد: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم).

وعن ابن عباس: ﴿وَلَيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا﴾ قال: الفرقان ، يقول: فلا تحزن). وقال ابن جرير: (وأقسم: ليزيدن كثيراً من هؤلاء اليهود والنصارى الذين قصّ قصصهم في هذه الآيات ، الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد ، ﴿طُغْيَيْنًا﴾ ، يقول: تجاوزاً وغلواً في التكذيب لك ، على ما كانوا عليه لك من ذلك قبل نزول الفرقان ، ﴿وَكُفْرًا﴾ ، يقول: وجحوداً لنبوتك).

وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ . قال السدي: (لا تحزن).

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وهم: المسلمون الذين صدقوا بالله ورسوله. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود حملة التوراة. وقوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾. قال ابن كثير: (لما طال الفصل حسن العطف بالرفع) - والصابئون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد. وعنه: بين اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: (بين اليهود والنصارى). وعن الحسن: (إنهم كالمجوس). وقال قتادة: (هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور). وقال وهب بن منبه: (هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً). وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وأما النصارى: فهم حملة الإنجيل، الذين بعث فيهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

يعني: من آمن بالله فصَدَقَهُ التوحيد والتعظيم، وآمن باليوم الآخر، واستعد له بالعمل الصالح، فكان على منهاج كتابه الذي أنزل إليهم، ثم آمن بمحمد ﷺ إن عاصره وأدركه فنصره وتابعه، فأولئك لا خوف عليهم في مشهد المحشر يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا وعلى ما خلفوا فيها، فالمطمأنينة والأمن في الدنيا والآخرة.

70 - 71. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ رَسُولٌ يَمَّا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ قَرِيبًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

في هذه الآيات: تذكير من الله سبحانه بالمواثيق والعهود التي أخذها على بني إسرائيل بالصدق والسمع والطاعة ومتابعة الرسل، ولكنهم كانوا عند أسوأ الظن، فقد خانوا العهود ونقضوا المواثيق وركبوا أهواءهم، فإن وافق الرسول المرسل إليهم شهواتهم قبلوه وإلا قتلوه. وظنوا أن الأمر هكذا دون امتحان واختبار فعموا عن الحق

والوفاء بالميثاق وصموا عنه ثم تاب الله عليهم ثم عادوا إلى التكذيب والخيانة والله يرى أعمالهم وسيجازيهم بها .

وقوله جل ذكره: ﴿ كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (كلما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهي نفوسهم ولا يوافق محبتهم ، كذبوا منهم فريقاً ، ويقتلون منهم فريقاً ، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناه عليهم ، وجرأ علينا وعلى خلاف أمرنا) .

وقوله: ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ . قال ابن عباس: (الشرك) . وقال قتادة: (حسب القوم أن لا يكون بلاء) . وقال السدي: (حسبوا أن لا يبتلوا) .

وقوله: ﴿ فَعَمُوا وَصَمُوا ﴾ .

قال قتادة: (كلما عرض بلاء ابتلوا به ، هلكوا فيه) .

وقال السدي: (حسبوا أن لا يبتلوا ، فعموا عن الحق وصموا) . وهم كما قال مجاهد: (اليهود) .

وقال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير قال: (هذه الآية لبني إسرائيل . قال: والفتنة: البلاء والتمحيص) .

والمقصود أنهم عموا عن الحق وصموا ، فلا يبصرون الحق ولا يصغون له ولا يهتدون إليه .

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ . أي: مما كانوا فيه من العمى والصمم . ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا ﴾ مرة أخرى وعادوا للانتكاس . ﴿ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يبصر أعمالهم ويحصيها عليهم ليجازيهم بها يوم يلقونه .

72 - 75 . قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ إِبْرَاهِيْمَ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ
نَبِّئْتُمْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَفَى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٤﴾ .

في هذه الآيات: حُكْمٌ من الله بتكفير الذين ادَّعوا ألوهية المسيح ابن مريم من فرق
النصارى: من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، وتبرئة للمسيح ابن مريم من ذلك وأنه
دعا إلى عبادة الله وحده وحذّر من الشرك به ، وبين أن مصير من أشرك بالله تعالى النار
ثم لا سبيل ولا نصير .

ثم في الآيات حُكْمٌ بالكفر على من قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وتوعّد لهم من الله
بعذاب أليم إن لم يتوبوا ويرجعوا عن قولهم واعتقادهم . ثم بيان من الله لحقيقة عيسى
ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه رسول بقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأمه
مؤمنة صادقة ، يأكلان الطعام كسائر الناس ، فأين يذهب هؤلاء بضلالهم !
فقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ .

كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48] .

وقال ابن جرير : (قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ . وهذا قول
كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكية والنسطورية . كانوا فيما بلغنا
يقولون : «الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم : أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً
غير والد ، وزوجاً متبعةً بينهما» . فكذبهم الله بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ
وَاحِدٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يشمل قائلِي المقاليتين ، ولذلك قال : ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ ولم يقل «لَيَمَسَّنَّهُم» كما ذكر
شيخ المفسرين .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

دَعْوَةٌ لهم طيبة كريمة من الله ليستأنفوا التوحيد بعد الشرك والإيمان بعد الكفر ، والله
بمَنِّه وكرمه يتجاوز عن ذلك مما سلف منهم ، كيف لا وهو سبحانه لم يزل يعافيههم
ويرزقهم مع ما يسمعه من شركهم .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [لا أَحَدَ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ، ثُمَّ هُوَ يِعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ] (1).

وفي لفظ: [مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدَاءً ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ].

وقوله: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

قال القرطبي: (أي ما المسيح وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل ، فإن كان إلهاً فليكن كل رسول إلهاً ، فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي مؤمنة صادقة ، آمنت بالله وصدقته بآياته .

وعن الحسن: (إنما قيل لها صديقة لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به).

قلت: والآية لا تدل أنها كانت نبيّة . فإن الله لم يبعث بالنبوة والرسالة إلا الرجال .

قال الحافظ ابن كثير - في التفسير -: (وقوله: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدلّ على أنها ليست بنبيّة ، كما زعمه ابن حزم وغيره ، ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ، ونبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم ، وبقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيْهِ ﴾ [القصص: 7]. وهذا معنى النبوة. والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ . [يوسف: 109].

وقوله: ﴿ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ .

أي هما كسائر البشر لا تقوم حياتهما دون غذاء ، ومن كان هذا شأنه فلا يصلح إلهاً.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2804) .. كتاب صفات المنافقين . باب في الكفار .

وقوله: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّرُ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ .

أي: نظهر لهم الدلالات الواضحات والحجج الدامغات .

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنْظِرْ أَفْ يُؤَفِّكُونَ ﴾ .

أي: كيف يصرفون عن الحق وإلى أي ضلال يذهبون .

76 - 77. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٧٦) قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧) .

في هذه الآيات: زيادة توبيخ لصنيع هؤلاء ، والذين يعبدون ما يعبدون من الأوثان والأصنام والأنداد ، وتحذير من اتباع الأهواء وأصحاب الضلال .

قال القرطبي: (أي أنتم مقرون أن عيسى كان جنيئاً في بطن أمه ، لا يملك لأحد ضرراً ولا نفعاً ، وإذا أقررتم أن عيسى كان في حال من الأحوال لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر ، فكيف اتخذتموه إلهاً؟) ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي لم يزل سميعاً عليماً يملك الضر والنفع ، ومن كانت هذه صفته فهو الإله على الحقيقة) .

وقوله: ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ﴾ . الآية .

قال ابن كثير: (أي: لا تتجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرئ بتعظيمه فتبالغوا فيه ، حتى تخرجه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ، أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضلالة) .

قلت: وقد حذر النبي ﷺ من الغلو في الدين ، وتقليد أهل الكتاب فيما سلكوه ،

كما حذر من أئمة الجهل والضلال الذين يقودون الأمة إلى المهالك . وفي ذلك أحاديث من السنة الصحيحة المطهرة :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله] ⁽¹⁾ .

والإطراء : مجاوزة الحد في المدح ، أي لا تمدحوني بالباطل .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [هلك المتنطعون - قالها ثلاثاً] ⁽²⁾ . وهم المتعمقون المتشددون .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [ياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو] ⁽³⁾ .

الحديث الرابع : أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إن الدين يُسرّ ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة] ⁽⁴⁾ .

الحديث الخامس : أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في المعجم الكبير عن أبي الدرداء ، وأبو نعيم في الحلية عن كعب عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون] ⁽⁵⁾ . قال كعب : (فقلت والله ما أخاف على هذه الأمة غيرهم) . ولفظ أحمد : [إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (355/6) - كتاب أحاديث الأنبياء .

(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1824) . وصحيح مسلم (2670) ، كتاب العلم . من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (215/1) ، وانظر تحقيق : «فتح المجيد» (249-250) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (39) ، كتاب الإيمان ، باب الدين يسر ، ورواه النسائي . انظر صحيح سنن النسائي - حديث رقم - (4661) .

(5) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في الحلية (46/6) ، وأحمد في المسند (441/6) . وسنده حسن .

78 - 81. قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله سبحانه عن لعن الكافرين المغالين في الإثم والمعصية واستحلال المنكر من بني إسرائيل ، بسبب اجترائهم في المعصية وبغيهم وإشاعة المنكر والفواحش في الأرض . فقد كانوا لا يمتنعون عن منكر أتوه ، ويتولون المشركين أعداء الله ويعادون أولياء الله ورسله ، ولو كانوا موحدين صادقين في تعظيمهم لله ووحيه وما أنزل على نبيه محمد ﷺ ما اجترؤوا على كل ذلك ، ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعة الله إلى ما يسخطه وإلى ما يغضبه ، وأهل استحلال لما حرم من القول والفعل .

قال ابن عباس: (قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ، قال: لعنوا بكل لسان: لعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور ، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل ، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن).

وقال قتادة: (لعنهم الله على لسان داود في زمانه ، فجعلهم قردة خاسئين ، وفي الإنجيل على لسان عيسى ، فجعلهم خنازير).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ .

أي: بسبب مخالفتهم الشرعية وتجاوزهم حدود الله سبحانه . .

وقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ .

قال ابن جريج: (لا تتناهى أنفسهم بعد أن وقعوا في الكفر).

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن مسعود قال: قال

رسول الله ﷺ: [إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذَّنْبِ نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه - وفي لفظ: وشريكه - ، فلما رأى الله ذلك منهم ضَرَبَ قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ثم قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذنَّ على يد المسيء ولتأطرنَّ على الحق أطراً ، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعنكم كما لعنهم] (1).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن قيس ، قال: [قال أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ...﴾ [المائدة: 105] ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَغْيِرُوا ، ثُمَّ لَا يَغْيِرُوا إِلَّا يَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ] (2).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجه بسند حسن عن عائشة ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مُرُّوا بالمعروف ، وأنهوا عن المنكر ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ] (3).

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أن رسول الله ﷺ قام خطيباً ، فكان فيما قال: ألا ، لا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا ، هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ

(1) حسن بشواهد. أخرجه أبو داود (4337) ، وأبو يعلى (5035) ، والطبري (12309) والبخاري في «التفسير» (816) بإسناد منقطع ، لكن له شواهد يتقوى بها ، منها ما أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (12153) من حديث أبي موسى ، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3644) - كتاب الفتن ، باب الأمر والنهي. وسنن ابن ماجه (4005). من حديث أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجه (3235) - كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

يقول بحقي ، إذا عَلِمَهُ . قال : فبكى أبو سعيد ، وقال : قد والله ! رأينا أشياء ، فهبنا⁽¹⁾ .

الحديث الرابع : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُعَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ]⁽²⁾ .

الحديث الخامس : أخرج أبو داود بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْذُرُوا ، أَوْ يُعْذِرُوا ، مِنْ أَنْفُسِهِمْ]⁽³⁾ .

ورواه أحمد بلفظ : [لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ] .

وقوله : ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . أي : في تركهم الانتهاء عن معاصي الله وركوب محارمه - والذي سيوردهم المهالك والآلام .

وقوله : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

قال مجاهد : (يعني بذلك المنافقين) .

وقوله : ﴿ لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ .

قال ابن كثير : (يعني بذلك مولاتهم للكافرين ، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سُخْطاً مُسْتَمِراً إلى يوم مَعَادِهِمْ ، ولهذا قال : ﴿ أَنَّ سَخِطَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ . ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ فِي الْكَذَابِ هُمْ خَلِيدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ .

قال مجاهد : (المنافقون) .

أي : لو كان هؤلاء المنافقون الذين يتولون كفار يهود يصدقون الله ويؤمنون به حق الإيمان ويوحّدونه ، ويصدقون نبيّه محمداً ﷺ بما أنزل إليه من القرآن العظيم ، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ . أي خارجون عن طاعة الله إلى

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (4007) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، الباب السابق . وانظر صحيح ابن ماجة - حديث رقم - (3237) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (49) - كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4347) ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (5107) .

معصيته ، سالكون في سبيل ما يغضبه ويسخطه ، أهل استحلال لما حرم الله عليهم من القول والفعل .

82 - 86. قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: خطاب من الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة للمؤمنين - من أهل الإسلام الذين صدقوك واتبعوك - اليهود وعبداء الأوثان والطواغيت ، ولتجدن أقرب الناس مودة ومحبة لأهل الإسلام الذين زعموا أنهم نصارى⁽¹⁾ على منهاج عيسى عليه السلام ، ففربت مودة هؤلاء لأهل الإيمان من أجل أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وأنهم إذا سمعوا الوحي الكريم يُتلى فاضت أعينهم مما عرفوا من صدق هذا التنزيل ، يسألون ربهم بإيمانهم أن يكتبهم مع الشاهدين وفي القوم الصالحين . وقد تكرم الله على هؤلاء الصادقين الذين آمنوا بالإنجيل ثم آمنوا بالقرآن بأن أثابهم بصدقهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها جزاء الإحسان والصدق والإيمان ، في حين هياً للكافرين صلي السعير والجحيم والنيران .

(1) أي أنصار الله ودينه ورسوله . قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: 14] . وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْكُوفِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [آل عمران: 113] .

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ .

قال الحافظ ابن كثير: (ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهةٌ للحق ، وعَمَظُ للناس وتَنَقُّصٌ بحملة العلم . ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هَمُّوا بِقَتْلِ الرسول ﷺ غير مَرَّةٍ وَسَحَرُوهُ وَأَلْبَوا عَلَيْهِ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، عَلَيْهِمْ لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة).

وقال القرطبي: (بَيَّن الله سبحانه في هذه الآيات أَنَّ أَشَدَّ الْكُفَّارِ تَمَرِداً وَعِتْوا وعداوةً للمسلمين اليهود، ويضاهيهم المشركون، وبَيَّن أن أقربهم مودة النصارى).

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ .

قال عطاء: (هم ناس من الحبشة آمنوا ، إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين).

وقال قتادة: (نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى ، فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنوا به فأثنى الله عليهم).

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27] .

فصدق الإيمان بالوحي جعل في قلوبهم رأفة ورحمة ومودة لأهل الإيمان على اختلاف الكتب المنزلة إليهم .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

القسيسون: جمع قَسِيسٍ وقَسٍ . والرهبان: جمع راهب .

قال ابن زيد: ﴿القسيسين﴾ عبادهم . قلت: ولكن لفظ القسيسين يشمل أيضاً علماءهم وخطباءهم وحكماءهم . في حين يدل لفظ الرهبان على العباد . فهو مشتق من الرهبة وهي الخوف .

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

قال القاسمي: (أي: يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود . وفي الآية دليل على أن الإقبال على العلم ، والإعراض عن الشهوات ، والبراءة من الكبر - محمود . وإن كان ذلك من كافر).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

أخرج البزار والنسائي وابن جرير بسند صحيح عن عبد الله بن الزبير قال: [نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ الآية] (1).

قال القرطبي: (وهذه أحوال العلماء ييكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموتون، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْسِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].

وقوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

أي: مع محمد ﷺ وأمة الذين يشهدون بالحق، وهم أمة الشهادة على الناس في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]. قال الحسن: (الذين يشهدون بالإيمان). وقيل: الذين يشهدون بتصدق نبيك وكتابك.

وقال ابن عباس: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، قال: محمد ﷺ وأمة، إنهم شهدوا أنه قد بلغ، وشهدوا أن الرسل قد بلغت).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى:

أولاً - في الدنيا: هم أمة الشهادة على الناس يقبل الله شهادتهم.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأحمد وأهل السنن عن أنس رضي الله عنه قال: [مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِجَنَازَةٍ ، فَأُثِنِي عَلَيْهَا خَيْرًا ، وَتَتَابَعْتُ الْأَلْسُنَ بِالْخَيْرِ ، فَقَالُوا: كَانَ - مَا عَلِمْنَا - يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: وَجِبْتَ وَجِبْتَ وَجِبْتَ ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثِنِي عَلَيْهَا شَرًّا ، وَتَتَابَعْتُ الْأَلْسُنَ لَهَا بِالْشَّرِّ ، فَقَالُوا: بَشَسَ الْمَرْءُ كَانَ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: وَجِبْتَ وَجِبْتَ وَجِبْتَ ، فَقَالَ عُمَرُ: فَدَى لَكَ أَبِي وَأُمِّي ، مُرَّ

(1) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عثمان وهو ثقة ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (168) ، وابن جرير (12330) ، وإسناده صحيح إلى عروة . وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة المائدة - آية (83) .

بجنازة فأثني عليها خيراً ، فقلت : وجبت وجبت وجبت ، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً ، فقلت : وجبت وجبت وجبت ؟ فقال رسول الله ﷺ : من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار ، الملائكة شهداء الله في السماء وأنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، (وفي رواية : والمؤمنون شهداء الله في الأرض) ، إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج البخاري وأحمد والنسائي عن أبي الأسود الديلي قال : [أتيت المدينة ، وقد وقع بها مرض ، وهم يموتون موتاً ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فمرت جنازة ، فأثني خيراً ، فقال عمر : وجبت ، فقلت : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال النبي ﷺ : أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة ، قلنا : وثلاثة ؟ قال : وثلاثة . قلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله في الواحد]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال : [ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل جيرانه الأذنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً ، إلا قال الله تعالى وتبارك : قد قبلت قولكم ، أو قال : بشهادتكم ، وغفرت له ما لا تعلمون]⁽³⁾ .

وفي لفظ : [قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لا تعلمون] .

ثانياً - في الآخرة : هم أمة الشهادة على أقوام الرسل ، يشهدون للرسل بالبلاغ .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد مرفوعاً : [يجيء النبي ومعه الرجلان ، ويجيء النبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك وأقل ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيُدعى قومه ، فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال : من شهد لك ؟

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (177/3-178) ، ومسلم (53/3) ، والنسائي (273/1) ، والترمذي (158/2) ، وابن ماجه (454/1) ، وأبو داود (72/2) ، وأحمد (179/3) ، و (186/3) من طرق ، وهذه مجموع روايات من الصحيحين والمسند والسنن . وانظر أحكام الجنائز (26) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وصححه البيهقي (75/4) ، وأحمد (129/204) . من حديث أبي الأسود الديلي .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (242/3) من حديث أنس رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرک (378/1) ، وقال : «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي .

فيقول: محمدٌ وأُمته ، فتُدعى أمةٌ محمدٍ ، فيقال: هل بَلَغَ هذا؟ فيقولون: نعم . فيقول: وما عِلْمُكُمْ بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بَلَغُوا ، فَصَدَّقْنَاهُ ، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۖ ۞ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ۞ ﴾ .

قال ابن زيد: (القوم الصالحون: رسول الله ﷺ وأصحابه).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۞ ﴾ .

قال القرطبي: (دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقاتلهم ، فأجاب الله سؤالهم وحقَّق طمعهم - وهكذا من خلَصَ إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ ﴾ .

أي: الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ ، فأولئك هم سكان جهنم ذات الجحيم ، وهو ما اشتد حرّه من النار والعياذ بالله .

قال ابن جرير: ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ ﴾ ، هم سكانها واللابثون فيها).

87 - 88. قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝۸۷ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝۸۸ ﴾ .

في هذه الآيات: نَهْيٌ من الله سبحانه المؤمنين أن يتشبهوا بالقسيسين والرهبان من أهل الكتاب الذين حرموا على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم ، وتَرْغِيبٌ بالاستمتاع بالرزق الحلال الطيب مع شكر الله المنعم المتفضل .

قال ابن جرير: ﴿ لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني بـ﴿الطيبات﴾ ، اللذيزات

(1) - حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (58/3) ، وأخرجه ابن ماجه (573/2-574) ، وغيرهما .

التي تشتهيها النفوس ، وتميل إليها القلوب ، فتمنعوها إياها ، كالذي فعله القسيسون والرهبان ، فحرّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة ، والمشارب اللذيذة ، وحَبَسَ في الصّوامع بعضهم أنفسهم ، وساح في الأرض بعضهم).

وقد دلت السنة الصحيحة على آفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: [جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، فقال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصلي الليل أبداً ، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأزقّد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: [كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء فقلنا: ألا نختصي؟ فنهانا عن ذلك ، فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ، ثم قرأ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن لغيره ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [النكاح من سنتي ، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوجوا ، فإني مكاثّر بكم الأمم ، ومن كان ذا طولٍ فلينكح ، ومن لم يجد فعله بالصيام ، فإن الصوم له وجاء]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَدِينَ﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1- أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع - فالمراد التأكيد. ذكره السدي وعكرمة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5063) ، كتاب النكاح ، ورواه مسلم برقم (1401) ، ورواه أحمد في المسند (241/3) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4615) ، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم برقم (1404) ، ورواه البيهقي (79/7).

(3) صحيح في الشواهد. أخرجه ابن ماجة (1846) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2383) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6683) ، وكذلك أخرج نحوه البزار (ص 146 - زوائده).

2- أي لا تعتدوا فتحلوا حراماً ، ولا تشددوا فتحرموا حلالاً . ذكره الحسن البصري ، واختاره القرطبي .

3- لا تبالغوا في التضيق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم - قاله بعض السلف .

4- أي : كما لا تُحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: 31] . وكقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67] . ذكره الحافظ ابن كثير وقال : (فَسَرَعَ اللَّهُ عَدْلٌ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ) .

وقوله : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ .

قال عكرمة : (يعني : ما أحل الله لهم من الطعام) .

وقوله : ﴿ وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي : خافوا الله معشر المؤمنين من الاعتداء بتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو التنطع في الدين ، فإن هذا الدين متين ، ولن يشاده أحد إلا غلبه ، فخافوا الله واتقوه حق تقاته .

89 . قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨٩) .

في الآية : تَمَيُّزٌ بَيْنَ لَغْوِ الْيَمِينِ ، وَالْيَمِينِ الْمُنْعَقِدَةِ . فالأولى لا حرج فيها ، والثانية في مخالفتها الكفارة : إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ثم تَنْبِيْهُ من الله سبحانه عباده أن يحفظوا أيمانهم ولا يستخدموها في كل أمر ، تعظيماً لأسماء الله تعالى وصفاته .

وتفصيل ذلك :

أولاً - تعريف الإيمان .

الإيمان - بفتح الهمزة - جمع يمين . وأصل اليمين في لغة العرب : اليد . وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل يمين صاحبه .

وهي في الشرع : تأكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله .

ثانياً : بم تنعقد اليمين .

لا تنعقد اليمين إلا بالله تعالى . أو اسم من أسمائه ، أو صفة من صفاته .

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يخلف بأبيه فقال : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت]⁽¹⁾ .

قال عمر : (فوالله ما حلفت بها منذ سمعت النبي ﷺ ذكراً ولا آثراً) .

وفي الصحيحين وجامع الترمذي عن أنس بن مالك ، قال النبي ﷺ : [لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك ، ويروى بعضها إلى بعض]⁽²⁾ .

ثالثاً : الحلف بغير الله شرك .

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك]⁽³⁾ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [من حلف منكم فقال في حلفه : باللات . فليقل لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك . فليصدق]⁽⁴⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6646) - كتاب الإيمان والندور ، وكذلك (6647) ، ورواه مسلم (1646) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6661) ، ومسلم (2848) ، والترمذي (3326) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (1574) ، أبواب الندور والإيمان . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6204) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6650) بزيادة « باللات والعزى » ، ورواه مسلم (1647) ، ورواه النسائي (7/7) .

رابعاً: من حلف بملة غير الإسلام.

أخرج البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك قال: قال رسول الله ﷺ: [من حلف بملة سوى الإسلام كاذباً متعمداً ، فهو كما قال]⁽¹⁾.

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال: إني بريء من الإسلام ، فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً لم يعد إليه الإسلام سالماً]⁽²⁾.

خامساً: مَنْ حَلَفَ له بالله فليرض.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق ، فقال: أسرقت؟ قال: لا. والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله ، وكذبت بصري]⁽³⁾.

وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: [سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: لا تحلفوا بأبائكم. مَنْ حَلَفَ بالله فليصدق. وَمَنْ حَلَفَ له بالله فليرض ، ومن لم يرض بالله فليس من الله]⁽⁴⁾.

سادساً: أقسام اليمين:

تنقسم الأيمان أقساماً ثلاثة:

- 1 - اليمين اللغو.
- 2 - اليمين الغموس.
- 3 - اليمين المنعقدة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6652) ، ومسلم (110) (177) واللفظ له ، وأبو داود (3240).
 (2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3241) ، والنسائي (7/6) ، وابن ماجه (2100) ، وغيرهم.
 (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3444) ، ومسلم (2368) ، والنسائي (249/8) ، وابن ماجه (2102). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
 (4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه في السنن (2101) ، وانظر صحيح ابن ماجه - حديث رقم - (1708). من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

1 - اليمين اللغو وحكمها:

لغو اليمين: هو الحلف من غير قصد اليمين ، كقول الرجل : والله لتأكلن ، أو لشربن ونحو ذلك ، لا يريد به يمينا . أو هو كلام المرء دون قصد : لا والله ، وبلى والله ، وهو مذهب الشافعي .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ .

قال القاسمي رحمه الله : (إنه ما يسبق إليه اللسان بلا قصد الحلف ، كقول الإنسان : لا ، والله ! وبلى والله ! والمراد بالمؤاخذه : مؤاخذه الإثم والتكفير ، أي : فلا إثم في اللغو ولا كفارة) .

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها : [﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ ﴾ قالت : أنزلت في قوله : لا والله ، وبلى والله]⁽¹⁾ .

2 - اليمين الغموس وحكمها:

هي اليمين الكاذبة التي تُهْضَمُ بها الحقوق ، أو التي يقصد بها الفسق والخيانة . وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

وهي من أكبر الكبائر ، ولا كفارة فيها ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ ، وهذه يمين غير منعقدة ، لأن المنعقد ما يمكن حله ، ولا يتأتى في اليمين الغموس البرُّ أصلاً⁽²⁾ .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ نُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا سُوءَ مَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : 94] .

قال الطبري رحمه الله : (معنى الآية : لا تجعلوا أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم توفون بالعهد لمن عاهدتموه ، دخلاً أي خديعة وغدراً ، ليطمئنوا إليكم وأنتم تضمرون لهم الغدر) .

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : [جاء أعرابي

(1) حديث صحيح . انظر صحيح أبي داود (2789) ، وكذلك صحيح البخاري (6663) .

(2) انظر تفصيل ذلك كله في بحث الأيمان - كتاب الأيمان والنذور - الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز ص (385) .

إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم عقوق الوالدين. قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغموس. قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: الذي يقطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب⁽¹⁾.

وفي رواية: [الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله عز وجل، وقتل النفس بغير حق، أو نهب مؤمن، أو الفرار من الزحف، أو يمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق]⁽²⁾.

3- اليمين المنعقدة وحكمها.

اليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمم عليها، تأكيداً لفعل شيء أو تركه. وبعبارة أخرى: هي عقد القلب في المستقبل ألا يفعل أمراً أو ليفعله.

فإن برّ بيمينه فلا شيء عليه، وإن حنث فعليه الكفارة، لقوله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُتُورِ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. [البقرة: 225].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُتُورِ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. [المائدة:

[89].

أي يؤاخذكم بما صممتُم عليه من الأيمان وقصدموها، ثم حنثتم بعد توثيقكم لها. وفي الكلام محذوف، والتقدير: ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم.

وقوله: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾.

أي: محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه. قال سعيد بن جبير: (الرجل يحلف على المعصية ثم يقيم عليها، فكفارته إطعام عشرة مساكين).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6920) - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، وكذلك (6675).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (14/68/220) (الفتح الرباني)، وانظر صحيح الجامع (3247).

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ .

قال ابن عباس: (أي من أعدل ما تطعمون أهليكم). وقال عطاء: (من أمثل ما تطعمون أهليكم).

وقال ابن جرير: (أي: في القلّة والكثرة). وروى بإسناده عن ابن سيرين عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: (الخبز والسمن ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم: الخبز واللحم).

وأما مقدار ما يطعمهم ففيه أقوال:

1 - قال الحسن ومحمد بن سيرين: (يكفيه أن يُطْعَم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً).

زاد الحسن: (فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً حتى يشبعوا).

2 - قال علي رضي الله عنه: (يغديهم ويعشيهم). ذكره ابن أبي حاتم بإسناده عن الشعبي عن الحارث عنه.

3 - الإطعام عند مالك مُدٌّ لكل واحد من المساكين العشرة ، وبه قال الشافعي.

4 - قال أبو حنيفة: (يُخْرَجُ من البرّ نصف صاع ، ومن التمر والشعير صاعاً).

5 - وقال آخرون: (يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من برّ أو تمر ونحوهما). وهو قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِيّ.

قلت: والراجح أنه يشبعهم من أوسط طعامه ولا فرق هنا بين مقدار البرّ والتمر والشعير في كون البرّ نصف صاع والتمر والشعير كامل الصاع. فإن الفرق قد ثبت فقط في زكاة الفطر. لما أخرج الطحاوي عن عروة بن الزبير: [أن أسماء بنت أبي بكر كانت تخرج على عهد رسول الله ﷺ عن أهلها - الحر منهم والمملوك - مُدَّين من حنطة أو صاعاً من تمر ، بالمد أو الصاع الذي يقتاتون به]⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الطحاوي (43/2) من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه.

وأما كيفية إطعامهم ففيه أقوال :

- 1 - قال مالك : (إن غَدَى عشرة مساكين وعشاهم أجزأه) .
 - 2 - قال الشافعي : (لا يجوز أن يطعمهم جملة واحدة ، لأنهم يختلفون في الأكل ، ولكن يعطي كل مسكين مدًا) .
 - 3 - قال القرطبي : (لا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى مسكين واحد ، وبه قال الشافعي . وأصحاب أبي حنيفة يمنعون صرف الجميع إلى واحد دفعة واحدة ، ويختلفون فيما إذا صرف الجميع في يوم واحد بدفعات مختلفة ، فمنهم من أجاز ذلك وأنه إذا تعدد الفعل حسن أن يقال في الفعل الثاني لا يُمنع من الذي دُفعت إليه أولاً ، فإن اسم المسكين يتناوله) .
 - 4 - وقال آخرون : (يجوز دفع الكفارة إلى مسكين واحد في أيام ، وإن تعدد الأيام يقوم مقام أعداد المساكين) . وقال أبو حنيفة : (يجزئه ذلك ، لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه) .
- قلت : والراجح في المسألة إمكان جمع المساكين على مائدة واحدة ، والأفضل أن يكونوا مختلفين - أي عشرة مساكين مختلفين - لعموم الآية في ذلك ، فإن دعا عائلة مؤلفة من عشرة أشخاص - من الفقراء - جاز ذلك ، فإن كانوا خمسة أشخاص ودعاهم مرتين على طعام مشبع حصل المقصود . فإن لم يتيسر له ورأى إطعام مسكين واحد عشر مرات حصل المقصود ، فإن تعذر عليه وقدّر قيمة ذلك من المال وأعطاهما لذلك المسكين أو لتلك العائلة فهذا من البدائل للتيسير ، والأفضل الإطعام لصراحة الآية في ذلك ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ كَسَوَتْهُمْ ﴾ .

فيه أقوال :

- 1 - قال مجاهد : (في كسوة المساكين في كفارة اليمين : أدناه ثوب) . أو قال : (أدناه ثوب ، وأعلاه ما شئت) . وكذا قال الحسن : (ثوب لكل مسكين) . وقال مجاهد : (يجزى في كفارة اليمين كل شيء إلا الثُّبَان⁽¹⁾) .

(1) الثُّبَان : سروال قصير إلى الركبة أو ما فوقها ، يستر العورة .

- 2- قال منصور: (القميص ، أو الرداء ، أو الإزار).
- 3- قال ابن عباس: (ثوب ثوب لكل إنسان ، وقد كانت العباءة تقضي يومئذ من الكسوة). وقال: (الكسوة: عباءة لكل مسكين ، أو شملة) ذكره ابن جرير.
- 4- قال سعيد بن المسيب: (عباءة وعمامة لكل مسكين).
- 5- قال ابن عمر: (في الكسوة في الكفارة: إزار ورداء وقميص) ذكره ابن جرير.
- 6- قال الشافعي: (لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل ، أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك).
- 7- وقال مالك وأحمد: (لا بُدَّ أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصحُّ أن يصلي فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة ، كل بحسبه).
- 8- وقال إبراهيم النخعي: (ثوب جامع كالمِلْحَفَةِ والرداء). ولا يرى الدرع⁽¹⁾ والقميص والخمار ونحوه جامعاً.
- قلت: والراجع في ذلك ما يصدق عليه اسم الكسوة: (إزار وقميص مثلاً) ، مما يكسّى به بدن المسكين ، كأن كان عارياً ثم كساه ، وهو قريب من كلام الشافعي رحمه الله.
- أما قول مالك وأحمد مما يصح الصلاة فيه ، فإن الصلاة تصح بما يغطي العورة - بين السرة والركبة - ولا شيء على بقية الجسد ، ولكن هذا ليس كسوة.
- وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ .
- قال ابن جرير: (أو فك عبد من أسر العبودة وذلها). واختار الشافعي رحمه الله تقييدها بالإيمان. وقال: (لا بد أن تكون مؤمنة). قال ابن كثير: (وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل، لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب. ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء ، فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة).

(1) الدرع: قميص المرأة. والملحفة: لباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ .

أي يبدأ بالإطعام وهو الأسهل الذي اختاره الله سبحانه ، ثم الكسوة التي هي أيسر من العتق ، فرُقِيَ بالكفارة من الأدنى إلى الأعلى ، فإن تعذر ذلك مما سبق كفر عن يمينه بصيام ثلاثة أيام ، ولا يلزمه أن يصومها متتابعات ، فإن السياق يدل على ذلك - كما قال تعالى في قضاء صوم رمضان في حق المريض والمسافر: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ - وهو أحد قولي الشافعي وإليه ذهب الإمام مالك .

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ .

أي: الإطعام أو الكسوة أو العتق فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام - وهي الكفارة الشرعية التي شرعها الله تعالى عند الحنث في اليمين .

وقوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ .

أي: بتعظيم أمر الحلف وعدم الخوض والإقحام له في كل شأن . ثم يتناول الحفظ أيضاً المبادرة إلى التكفير دون تأخير .

قال القرطبي: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ . أي: بالبدار إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثتم . وقيل: أي بترك الحلف ، فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكاليفات).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (كما يبين لكم كفارة أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم جميع آياته - يعني أعلام دينه فيوضحها لكم - لئلا يقول المضيع المفرط فيما ألزمه الله: «لم أعلم حكم الله في ذلك!») ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لتشكروا الله على هدايته وإياكم وتوفيقه لكم).

90 - 93 . قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

في هذه الآيات: أَمُرُ الله سبحانه عباده المؤمنين باجتنب الخمر والقمار والأنصاب التي يذبح عندها والأزلام التي يستقسم بها في الجاهلية إذا ما أرادوا الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة. ثم تَوْضِيحٌ لمحاولات الشيطان استخدام تلك المسكرات وألوان القمار للصد عن الذكر والصلاة وضياع الدين. ثم أَمُرٌ منه جل ذكره بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وتَحْذِيرٌ من مغبة المخالفة وركوب الأهواء. ثم بَيَانٌ عفو الله عما مضى من التعاطي من تلك المحرمات إذا ما حصل الانتهاء والتماس التقوى والعمل الصالح والله يحب المحسنين.

أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس قال: [نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْكَافِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾. فقال ناس من المتكلفين: هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وقتل فلان يوم أحد، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الآية⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: [كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيف⁽²⁾، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة. فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾]⁽³⁾.

الخمر: هو الشراب الذي خامر العقل أي خالطه فستره. ذكره القاسمي. وهو يطلق

- (1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (141/4-142)، والبيهقي (285/8-286)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (18/7) وقال: ورجاله رجال الصحيح.
- (2) وفي رواية: وما شربهم إلا الفضيف: البسر والتمر.
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2464)، (4620)، ومسلم (1980)، وأحمد (227/3)، وغيرهم. من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

على كل مسكر ، فكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام .

وأما الميسر فهو: القمار . وهو يضيع المال ، كما يضيع الخمر العقل ، فجاء تحريمهما . والأنصاب: حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها . وقيل هي الأصنام المنصوبة للعبادة . والأزلام: قِداحُ كانوا يستقسمون بها ، وهي من أمر الجاهلية ، وتنافي الإيمان بالقدر .

قلت: والعطف بين هذه الأمور في التحريم يقتضي أن النجاسة في كل منها معنوية لا حسية ، فالأنصاب حجارة ، والأزلام قِداح ، فدلّ هذا أن نجاسة الخمر والميسر نجاسة معنوية .

قال ابن عباس: ﴿ رَجَسُ مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، يقول: سَخَطُ . وقال ابن زيد: (الرجس: الشر) .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سليمان بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال: [مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شَرٌّ ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمِهِ] ⁽¹⁾ .

قال العلماء: النردشير هو النرد . فالنرد عجميٌّ معرَّب ، وشير معناه حلو .

وأخرج أحمد وأبو داود بسند حسن عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله] ⁽²⁾ .

فعطف التحريم على التحريم ، لا التحريم على النجاسة ، فإنه لا يُعطف التحريم على النجاسة ، أي تحريم النرد على تحريم أكل لحم الخنزير أو بيعه ، وكُنِيَ عن ذلك بصبغ الرجل يده في لحم الخنزير ودمه .

وقوله: ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه) .

وقال القرطبي: (يريد أبعدوه واجعلوه ناحية ، فأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور ، واقرنت بصيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة ، فحصل الاجتناب في جهة التحريم ، فهذا حرمت الخمر) . ثم قال: (قوله: ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2260) ، كتاب الشعر . باب تحريم اللعب بالنردشير .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد (397/4) ، وأبو داود (4938) ، وأبو يعلى (7290) ، وغيرهم .

الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه ، لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك).

قلت : وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث تبين مفاصد الخمر كما تبين تحريم الانتفاع بها .

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [إِنَّ رَجُلًا أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاوِيَةَ خَمْرٍ ، فقال له رسول الله ﷺ: هل عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَهَا؟ قال: لا ، فَسَارَّ إِنْسَانًا ، فقال له رسول الله ﷺ: بِمَ سَارَرْتَهُ؟ فقال: أَمْرُهُ بِبَيْعِهَا ، فقال: إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا . قال: فَفَتَحَ الْمَرَادَةَ حَتَّى ذَهَبَ مَا فِيهَا] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في المعجم ، والبيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أَتَانِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَعَنَ الْخَمْرَ ، وَعَاصَرَهَا ، وَمَعْتَصَرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَمُسْتَقِيَهَا] (2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن ، عن عبد الله بن عمرو ، قال: قال رسول الله ﷺ: [الْخَمْرُ أُمُّ الْخَبَائِثِ ، فَمَنْ شَرِبَهَا لَمْ تُقْبَلْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَإِنْ مَاتَ وَهِيَ فِي بَطْنِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً] (3).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [الْخَمْرُ أُمُّ الْفَوَاحِشِ ، وَأَكْبَرُ الْكِبَائِرِ ، مَنْ شَرِبَهَا وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ وَخَالَتِهِ وَعَمَتِهِ] (4).

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [مَدْمَنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ لَقِيَ اللَّهَ كَعَابِدٍ وَثْنًا] (5).

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1579) - كتاب المساقاة . باب تحريم بيع الخمر .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (316/1) ، والحاكم في المستدرک (145/4) ، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (1/150/2) .

(3) حديث حسن . رواه الطبراني في «الأوسط» (3810) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1854) .

(4) حديث حسن . رواه الطبراني (رقم 11498-11372) ، وفي «الأوسط» (3285) .

(5) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (272/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (677) .

قلت: ووجه الارتباط بين الخمر والشرك: أن المشرك يعبد حجراً أو صنماً ، وشارب الخمر المدمن عليه يعبد كأساً ، وكلاهما يصرف العبادة والخضوع لغير الله .

الحديث السادس: أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا مؤمن بسحر ، ولا قاطع رحم]⁽¹⁾.

فقرنها رسول الله ﷺ مع السحر وقطيعة الرحم ، فنعوذ بالله من هذا الشراب الخبيث ، ومن مجالسة أهله وعشاقه ، الذين استدلّتهم الكأس حتى ذهبت عقولهم وهانت عليهم المعصية .

أخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: [أيها الناس ، إنه نزل تحريمُ الخمرِ وهي من خمسة: من العنب ، والتَّمَر ، والعسل ، والحِنطة ، والشعير . والخمرُ ما خامر العقل]⁽²⁾.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُّونَ ﴾ .

فعلّق الفلاح باجتنب تلك المحرمات .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾⁽³⁾.

تحذيرٌ من مسلك الشيطان في تحبيب شرب الخمر والمياسرة بالقداح وتحسين ذلك حتى يوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ويصدهم بسكرهم ولهوهم عن ذكر الله الذي فيه سعادة دنياهم وآخرهم ، وكذلك عن الصلاة الواجبة عليهم التي فيها صلتهم بربهم ومناجاتهم له ، فهل أنتم منتهون - أيها المؤمنون - عن هذا الشراب الخبيث وذلك القمار المشين ، ومقبلون على ما فيه صلاح دنياكم وآخركم .

أخرج الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: [نزلت في آيات من القرآن . وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار ، فقالوا: تعال نُطعمك ونسقيك خمرأ ، وذلك قبل أن تُحرم الخمر ، قال: فأتيتهم في حشٍّ - والحشُّ البستان - فإذا رأس جزور مشوي عندهم ، وزقٌّ من خمر . قال: فأكلتُ وشربتُ معهم ، قال: فذكرت

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان في صحيحه - برقم (1381) - وانظر المرجع السابق (678) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5581) ، (5588) ، ومسلم (3032) ، وأبو داود (3669) ، والترمذي (1874) ، والنسائي (295/8) ، وابن حبان (5353) .

الأنصار والمهاجرين عندهم ، فقلت : المهاجرون خيرٌ من الأنصار، قال : فأخذ رجل لَحْيِيَ جمل فضر بني به فجرح أنفي (وفي رواية : ففزره وكان أنف سعد مفزوراً) فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأنزل الله تعالى في - يعني نفسه شأن الخمر- ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ .

قال القرطبي : (تأكيد للتحريم ، وتشديد في الوعيد ، وامتنال للأمر ، وكف عن المنهي عنه) .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ .

أي : إن أعرضتم عن الامتنال وركبتم المخالفة فقد قامت عليكم الحجة ، وانتهت الأعدار ، ولم يبق إلا العقاب ونزول العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

المعنى : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات حرج فيما شربوا قبل التحريم إذا ما اتقى الله الأحياء منهم فخافوه وامتثلوا أمره في اجتناب ما حرم عليهم ، وصدقوا الله ورسوله فيما أمراهم ونهياهم واكتسبوا من الأعمال الصالحة التي ترضيه سبحانه . ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ﴾ - أي : ثم خافوا الله وثبتوا على الإيمان واجتناب ما حرم عليهم ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ﴾ - أي تابعوا الترقى في منهاج التقوى والخوف من الله حتى بلغوا أعلى المراتب في ذلك وهي مرتبة الإحسان : وهي أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ، والله يحب المحسنين .

قال ابن جرير : (فالاتقاء الأول : هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق ، والدينونة به والعمل . والاتقاء الثاني : الاتقاء بالثبات على التصديق، وترك التبديل والتغيير . والاتقاء الثالث : هو الاتقاء بالإحسان ، والتقرب بنوافل الأعمال) .

قال مجاهد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ ، لمن كان يشرب الخمر ممن قتل مع محمد ﷺ ببدر وأحد) .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (1748) (34) ، وكتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (827/2) لتفصيل نزول تحريم الخمر .

وقال ابن عباس: (ليس عليهم حرج فيما كانوا يشربون قبل أن أحرمها ، إذا كانوا محسنين متقين ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾). وقد مضى ذكر أسباب نزول هذه الآية في ذلك بالأسانيد الصحيحة .

94 - 95. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ إِلَٰهٌ مِّنَ الصِّدِّ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لَّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ ۚ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ۝

في هذه الآيات: اختبارُ الله للمؤمنين ببعض الصيد حالة إحرامهم ليعلم أهل طاعته والإيمان به والمعظمين لحدوده وشعائره ، وتَوَعُّدٌ للمخالفين بعذاب موجه مؤلم . ثم نَهْيٌ صريح عن قتل صيد البر حالة الإحرام ، وإعلامٌ من الله تعالى ذكره عباده حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمداً .

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ إِلَٰهٌ مِّنَ الصِّدِّ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ۝

قال ابن عباس: (هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يتلى الله تعالى ذكره به عباده في إحرامهم ، حتى لو شأوا نالوه بأيديهم . فنهاهم الله أن يقربوه).

وقال مجاهد: (التَّبَل ، رماحكم) ، تنال كبير الصيد ، ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ تنال صغير الصيد ، أخذ الفرخ والبيض). وقال: (الفراخ والبيض ، وما لا يستطيع أن يفر).

وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ

قال ابن كثير: (يعني: أنه تعالى يتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكّنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سرّه وجهره . كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾ [الملك] .

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

قال السدي: (يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ .

خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى .

قال القرطبي: (وهذا النهي هو الابتلاء المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ الآية).

وهناك استثناء من السنة الصحيحة لعموم هذه الآية ، في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال: [خَمْسُ فَوَاسِقَ يَقْتُلْنَ فِي الْحَلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ ، وَالْحِدَاةُ ، وَالْعَقْرَبُ ، وَالْفَأْرَةُ ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ]⁽¹⁾.

ورواه النسائي من طريق أيوب ، وأخرجه أبو يعلى من طريق جرير عن نافع عن ابن عمر وفيه: (قال جرير: وقال لي أيوب: قلت لنافع: فالحية؟ قال: تلك لا يختلف فيها اثنان).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحَرِّمُ: الْحَيَّةُ ، وَالْفَأْرَةُ ، وَالْحِدَاةُ ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ]⁽²⁾.

والغراب الأبقع: هو الذي في بطنه وظهره بياض ، دون الأذرع وهو الأسود ، والأعصم هو الأبيض. والكلب العقور هو الجارح المفترس. وأما الحداة فهي أحسن الطيور ، تخطف أطعمة الناس من أيديهم.

قال الإمام مالك: (لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه).

وألحق الإمام مالك وأحمد بالكلب العقور الذئب ، والسبع ، والنمر ، والفهد لأنها أشد ضرراً منه. قال القاضي إسماعيل: (الكلب العقور مما يعظم ضرره على الناس. قال: ومن ذلك الحية والعقرب ، لأنه يخاف منهما ، وكذلك الحداة والغراب ، لأنهما يخطفان اللحم من أيدي الناس).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1829) ، (3314) ، ومسلم (1198) ، والنسائي (208/5) ، ومالك (357/1) ، وأخرجه أحمد في المسند (122/6) ، (261/6) من حديث عائشة.

(2) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (1198) ح (67) ، وأخرجه النسائي (186/5) - (188). من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

وقال ابن بُكير: (إنما أُذِنَ في قتل العقرب لأنها ذات حُمّة⁽¹⁾) ، وفي الفأرة لقرضها السَّقاء والحذاء اللذين بهما قوام المسافر. وفي الغراب لوقوعه على الظهر⁽²⁾ ونَقْبِهِ عن لحومها).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: [أنبأنا صعب بن جَثَّامَةَ قال: مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا بالأبواء أو بؤْدَانَ. فأهديت له حمار وحش. فردّه عليّ. فلما رأى في وجهي الكراهية قال: إنه ليس بنا ردُّ عليك. ولكنّا حُرْمٌ]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن علي بن أبي طالب ، قال: [أتى النبي ﷺ بلحم صيد ، وهو مُحرَّمٌ ، فلم يأكله]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَأَجَرَ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ .

فيه وجوب الجزاء على فاعل ذلك من مثل ما قتله ذلك المحرم.

قال القرطبي رحمه الله: (ما يُجْزَى من الصيد شيئان: دوابٌ وطيْرٌ ، فيُجْزَى ما كان من الدواب بنظيره في الخلقة والصورة ، ففي النّعمة بَدَنَةٌ ، وفي حمار الوحش وبقرة الوحش بقرة ، وفي الطّبي شاة ، وبه قال الشافعي . وأقل ما يجزى عند مالك ما استيسر من الهدى وكان أضحية ، وذلك كالجذع من الضأن والثني مما سواه ، وما لم يبلغ جزاؤه ذلك ففيه إطعام أو صيام).

قلت: والمِثْل يقتضي حسب ظاهر النص المثل الخلقي الصوري ، ويدل عليه قوله: ﴿من النّعم﴾ ، فبيّن بذلك سبحانه جنس المثل. وقد قضى الصحابة في النّعمة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، ونحو ذلك.

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر ، قال: [جعل رسول الله ﷺ في الضبع ، يصيبه المحرم ، كبشاً. وجعله من الصيد]⁽⁵⁾.

(1) الحمة: السم أو الإبرة تضرب بها العقرب والزنبور ونحو ذلك.

(2) أي على الإبل التي يحمل عليها ويركب.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1825) - كتاب جزاء الصيد. وكذلك (2573) ، ورواه مسلم ، ورواه ابن ماجة (3090) - باب ما ينهى عنه المحرم من الصيد. وانظر ما بعده.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3091) - الباب السابق. صحيح ابن ماجة (2508).

(5) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3085) - باب جزاء الصيد يصيبه المحرم. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2504). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما.

وقوله : ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ .

قال ابن كثير : (يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل ، أو القيمة في غير المثل ، عدلان من المسلمين).

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا ابن عيينة ، عن مُخارق ، عن طارق قال : (أَوْطَأُ أَرَبْدُ ظَبِيًّا فَقَتَلَهُ وَهُوَ مُحْرَمٌ ، فَأَتَى عُمَرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : احْكَمْ مَعِيَ . فَحَكَمَا فِيهِ جَذِيًّا ، قَدْ جَمَعَ الْمَاءَ وَالشَّجَرُ . ثُمَّ قَالَ عُمَرُ : ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾).

وفي هذا الأثر دلالة عند الشافعي وأحمد على جواز كون القاتل أحد الحكمين . وفي أثر عنه مشابهة قال عمر : (اثن رجلين من إخوانك فليحكما عليك . قال : فَأَتَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا ، فَحَكَمَا عَلَيَّ بَيْتِسٍ أَغْفِرُ) رواه ابن جرير .

وقوله : ﴿هَذَا بَلَدٌ الْكَعْبَةِ﴾ .

أي : يصل إلى الكعبة ليذبح هناك ويوزع على مساكين وفقراء الحرم .

وقوله : ﴿أَوْ كَفَّرْتُ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلْتُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ .

قال ابن عباس : (إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد ، حكم عليه فيه . فإن قتل ظبياً أو نحوه ، فعليه شاة تذبح بمكة . فإن لم يجد ، فإطعام ستة مساكين . فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . وإن قتل أيلاً أو نحوه فعليه بقرة . فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً . فإن لم يجد ، صام عشرين يوماً . وإن قتل نعامة أو حماماً وحشاً أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل . فإن لم يجد ، أطعم ثلاثين مسكيناً . فإن لم يجد ، صام ثلاثين يوماً . والطعام مدٌّ مدٌّ ، شَبَعَهُمْ) ذكره بسنده ابن جرير .

قال ابن كثير : (إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام ، كما هو قول مالك ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد - رحمهم الله - لظاهر الآية ﴿أَوْ﴾ فإنها للتخيير . والقول الآخر أنها على الترتيب . فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيقوم الصيد المقتول عند مالك ، وأبي حنيفة وأصحابه ، وحماة ، وإبراهيم . وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ، ثم يشتري به طعام ويتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مدٌّ منه عند الشافعي ، ومالك ، وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير . وقال أبو حنيفة

وأصحابه: يُطعم كلَّ مسكين مُدَّين ، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدٌّ من حنطة ، أو مُدَّان من غيره. فإن لم يجد ، أو قلنا بالتخيير ، صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

قلت: ويبدو من الآية أنه عند تعذر وجود مثل ما قتل من النعم ، فالكفارة إطعام مساكين بقدر قيمة الصيد المقتول يتصدق به على الفقراء ، يُفْرَق بما يطعم كل فقير أو مسكين على حدة ، فإن لم يجد أو ذهبنا إلى التخيير صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهٖ﴾ .

أي: مغبة المخالفة والعصيان لأمر الله.

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ﴾ .

أي: مما كان من قتل الصيد في الجاهلية - قاله عطاء. أو قبل نزول الكفارة. قاله آخرون.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ .

قال سعيد بن جبیر: (معناه فينتقم الله منه بالكفارة). وقال ابن عباس: (من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم ، يحكم عليه فيه كلما قتله ، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له: «ينتقم الله منك» كما قال الله عز وجل). وقال عطاء: (من عاد في الإسلام ، فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة).

قلت: ويبدو أن هذا الوعيد ترهيب من التهاون في تعظيم حرمانات الله وشعائره ، فإنه لا يعني وجود الكفارة التهاون أبداً ، ولذلك هدد سبحانه وتوعد من سلك سبيل التهاون ، وهذا ينطبق على كل أمر شرعي وعلى كل مخالفة - والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ .

أي: منيع في ملكه ، له الكبرياء والجبروت وهو الواحد القهار ، ولو شاء انتقم ممن عصاه أو أعطاه فرصة ليستعتب ، فليتنبه المؤمن من ذلك إلى وجوب تعظيم حرمانات الله وأوامره وشرعه.

96- 99. قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَالسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ

عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ

الْكُفَّةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ .

في هذه الآيات: حِلُّ صيد البحر وطعامه ، وتَحْرِيمُ صيد البر على الْمُحْرِمِ ، وأَمْرٌ بالتقوى والاستعداد للقاء الله تعالى. ثم بيان أن الكعبة صَيَّرَهَا الله قواماً للناس الذين لا قِوَامَ لهم من رئيس يحجز قلوبهم عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم ، وكذا الشهر الحرام والهدي والقلائد يحجز الله بكل واحد من ذلك الناس بعضهم عن بعض ، وهي معالم لدينهم ، ومصالح أمورهم ، والله عليم بكل ما يجري في هذا الكون ، شديد العقاب لمن عاند أمره ، غفور رحيم لمن استعجب واستغفر من إساءته ، وقد أرسل رسوله بالبلاغ المبين ، وهو سبحانه يعلم ما تبدون وما تكتُمون .

فقوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ .

قال ابن عباس: (صيده ، ما صيد منه). وقال: (صيده ، الطري). وقال سعيد بن جبير: (السمك الطري). وقال السدي: (أما ﴿صيد البحر﴾ فهو السمك الطري ، هي الحيتان). وقال مجاهد: (يصطاد المحرم والمحلُّ من البحر ، ويأكل من صيده). وقال ابن عباس: (طعامه ما قذف). أو قال: (كل ما ألقاه البحر). أو قال: (ما لفظ من ميتته). وقال أيضاً: (ما وجد على الساحل ميتاً).

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا. أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ] (1).

وأخرج ابن ماجة بسند جيد عن ابن الفِرَاسِيِّ ، قال: [كنت أصيد وكانت لي قُرْبَةٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (237/2) ، وأبو داود (83) ، والترمذي (69) ، والنسائي (50/1) ، وابن ماجة (386). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أجعل فيها ماء ، وإنني توضأت بماء البحر ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتُهُ⁽¹⁾ .

وله شاهد عنده من حديث جابر ، أن النبي ﷺ سئل عن ماء البحر ، فقال: [هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتُهُ]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿مَتَعَا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ .

أي: منفعة للمقيمين وللسائرين المسافرين .

قال عكرمة: ﴿مَتَعَا لَكُمْ﴾ لمن كان بحضرة البحر ، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ، (السفر) .

وقال مجاهد: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ، قال: أهل القرى ، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ، أهل الأمصار . والسيارة جمع سيار . والمقصود: منفعة لمن كان مقيماً حاضراً في بلده ، ومنفعة أيضاً ومنفعة للسائرين من أرض إلى أرض .

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: [بعث رسول الله ﷺ بَعَثًا قَبَلَ السَّاحِلِ ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَبَيْنَ الزَّادِ ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ ، فَكَانَ مِزْوَدِي تَمْرٍ ، فَكَانَ يَقْوَتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَبَيْنَ ، فَلَمْ يَكُنْ يُصْبِيْنَا إِلَّا تَمْرَةً تَمْرَةً ، فَقُلْتُ: وَمَا تَغْنِي تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقَدَهَا حِينَ فَبَيْنَ ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الطَّرْبِ فَأَكَلْ مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَضَبَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصْبِهِمَا]⁽³⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [بعثنا رسول الله ﷺ

(1) صحيح بما قبله . أخرجه ابن ماجه في السنن (387) ، باب الوضوء بماء البحر . وانظر صحيح سنن ابن ماجه (310) . من حديث ابن الفراسي .

(2) حسن صحيح . أخرجه ابن ماجه في سننه (388) - الباب السابق - وانظر صحيح سنن ابن ماجه (311) . من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2483) - كتاب الشركة ، وكذلك (4360) ، وأخرجه مسلم (1935) ح (21) ، وأخرجه مالك (930/2) ، والبيهقي (252/9) ، والنسائي (207/7) ، وأحمد (308/3) . من حديث جابر رضي الله عنه .

وأَمَرَ عَلَيْنَا أبا عُبَيْدَةَ ، نَتَلَقَّى عِيرًا⁽¹⁾ لَقْرِيشَ ، وَزَوَدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً ، قَالَ : فَقُلْتُ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ : نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ، ثُمَّ نَشْرِبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعَصِيَّتِنَا الْخَبْطَ ، ثُمَّ نَبْلُهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ ، قَالَ : وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَرَفَعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكُثِيبِ الضَّخْمِ ، فَأَتَيْنَاهُ إِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ . قَالَ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَيِّتَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : لَا ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ اضْطُرَرْتُمْ فَكُلُوا ، قَالَ : فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا ، وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا ، قَالَ : وَلَقَدْ رَأَيْنَا نَعْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ ، بِالْقِلَالِ⁽²⁾ ، الدُّهْنُ ، وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ - أَيِ : كَقَدْرِ الثَّوْرِ - فَلَقَدْ أَخَذَ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ ، وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ ، فَأَقَامَهَا ، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا ، فَتَزَوَدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَايِقِ⁽³⁾ ، فَلَمَّا قَدَمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَّرْنَا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ فَتَطْعَمُونَا؟ قَالَ : فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ ، فَأَكَلَهُ⁽⁴⁾ .

الحديث الثالث: أخرج أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال]⁽⁵⁾ .

ويستثنى الضفدع ، فقد ورد النهي عن قتله ، مع أنه يعيش في الماء . فقد أخرج أبو داود والنسائي بسند جيد عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي : [أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع]⁽⁶⁾ .

- (1) العير: هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره . وفي رواية أنه بعثهم ﷺ إلى سيف البحر لذلك .
- (2) القلال: جمع قلة ، وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه أي يحملها .
- (3) قال أبو عبيد: هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ، ولا ينضج ، ويحمل في الأسفار . يقال: وشقت اللحم فاتشق ، والواحدة منه: الوشقة .
- (4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1935) - كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة ميتات البحر .
- (5) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/97) ، وابن ماجه (3314) ، والبيهقي (1/254) ، والحاكم ، وغيرهم . من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
- (6) حديث إسناده جيد . أخرجه أبو داود (3871) ، (5269) ، والنسائي (7/210) ، والحاكم (4/410) . من حديث عبد الرحمن بن عثمان التيمي مرفوعاً .

وقوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ .

أي: ما كنتم محرمين ، لم تحلوا من إحرامكم ، فإن صيد البر يحرم عليكم .

فائدة (1): لو اصطاد الحلال من أجل المحرم لم يجز للمحرم أكله .

فقد أخرج البخاري عن الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ: [أنه أهدى لرسول الله ﷺ حِمَاراً وَحْشِيّاً وهو بالأبواء أو بَوْدَانَ فَرَدَّهُ عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نَرُدَّهُ إلا أنا حُرُمًا]⁽¹⁾ .

وهو قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق - في رواية - قالوا: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد ، لم يجز للمحرم أكله ، للحديث السابق .

فائدة (2): لو لم يقصد الحلال المحرم بالاصطياد ، ولا أشار إليه ، ولا أعانه ، جاز له أن يأكل من ذلك الصيد .

فقد أخرج البخاري عن أبي قتادة رضي الله عنه: [أنه كان مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة تخلف مع أصحاب له مُحْرَمِينَ وهو غير مُحْرَمٍ ، فرأى حِمَاراً وَحْشِيّاً فاستوى على فرسه ، فسأل أصحابه أن يتأولوه سَوْطَهُ فَأَبَوْا ، فسألهم رُمَحَهُ فَأَبَوْا ، فأخذه ثم شَدَّ على الحمار فقتله ، فأكل منه بعض أصحاب النبي ﷺ ، وأبى بعضٌ ، فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك؟ قال: إنما هي طُعْمَةٌ أَطْعَمَكُمْوَهَا اللهُ]⁽²⁾ .

وفي رواية: (قال: هل معكم من لحمه شيء) .

وقد أورد البخاري رواية أخرى فيها تفصيل أكبر لما جرى ، من حديث عبد الله بن أبي قتادة أن أباه أخبره: [أن رسول الله ﷺ خرج حاجاً فخرجوا معه فصرف طائفةً منهم فيهم أبو قتادة فقال: خذوا ساحلَ البحر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحلَ البحر ، فلما انصرفوا أحرّموا كُلَّهُمْ إلا أبو قتادة لم يُحرّم ، فبينما هم يسرون إذ رأوا حُمُرَ وَحْشٍ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1825) - كتاب جزاء الصيد . باب: إذا أهدى للمحرم حِمَاراً وَحْشِيّاً حَيّاً لم يقبل . وأخرجه مسلم (1193) ، والنسائي (183/5) ، ومالك (1/353) ، وأحمد (4/72) . من حديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1821 - 1822) - كتاب جزاء الصيد . وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/980) ، (2/985) ، لتفصيل هذه الأحكام .

فحمل أبو قتادة على الحُمُرِ فَعَقَرَ منها أتاناً فَنَزَلُوا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا وَقَالُوا: أُنَآكِلُ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ! فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِ الْأَتَانِ ، فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا كنا أَحْرَمْنَا وقد كان أبو قتادة لم يُحْرِم ، فرأينا حُمُرَ وَحْشٍ فحمل عليها أبو قتادة فَعَقَرَ منها أتاناً فَنَزَلْنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهَا ثُمَّ قُلْنَا: أُنَآكِلُ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ ، فحملنا ما بقي من لحمها. قال: أَمِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟ قَالُوا: لَا ، قال: فَكَلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا⁽¹⁾.

فالذي أشكل على الصحابة أنهم حرم وقد اصطاد لهم أبو قتادة حماراً وحشياً فأكل بعضهم وامتنع بعض ، فلما التقوا بالنبي ﷺ في موضع يُقال له (السقيا) على مئة وثمانين كيلاً من المدينة ، سألوه فأذن لهم بأكله ما داموا لم يشتركوا في صيده ولم يشيروا أو يعينوا عليه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قال القرطبي: (تشديد وتنبية عقب هذا التحليل والتحريم ، ثم ذكر بأمر الحشر والقيامه مبالغة في التحذير).

وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾. فيه أقوال متكاملة:

1 - قال ابن عباس: (قيامها ، أن يأمن من توجه إليها). وقال: (يعني قياماً لدينهم ، ومعالماً لحجهم).

2 - وقال مجاهد: (إنما سميت ﴿الْكَعْبَةُ﴾ لأنها مربعة ، ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ قال: قواماً للناس). وقال: (حين لا يَرَّجون جنة ولا يخافون ناراً ، فشدد الله ذلك بالإسلام).

3 - وقال قتادة: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾: حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرَّ كل جريرة ثم لحاً إلى الحرم لم يتناول ولم يُقرب. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه. وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادةً من شعر فأحتمته ومنعته من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1824) - كتاب جزاء الصيد. وأخرجه مسلم برقم (1196) ، ووراه أحمد في المسند (302/5).

الناس . وكان إذا نفر تقلدَ قلادة من الإذخر أو من لحاء السمُر ، فمنعته من الناس حتى يأتي أهله ، حواجزُ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية .

4 - وقال ابن عباس : (كان ناس يتقلدون لحاء الشجر في الجاهلية إذا أرادوا الحج ، فيعرفون بذلك) .

5 - وقال ابن زيد : (كان الناس كلهم فيهم ملوك تدفع بعضهم عن بعض . قال : ولم يكن في العرب ملوك تدفع بعضهم عن بعض ، فجعل الله تعالى ذكره لهم البيت الحرام قياماً ، يُدْفَعُ بعضُهم عن بعض به ، والشهر الحرام كذلك ، يدفع الله بعضهم عن بعض بالشهر الحرام ، والقلائد . قال : ويلقى الرجل قاتل أخيه أو ابن عمه فلا يعرض له . وهذا كله قد نُسخ) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لَتَعْلَمُوْا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ وَاَنْتَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ۝ۙ ﴾ .

قال ابن جرير : (يعني تعالى ذكره بقوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ، تصديره الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد . يقول تعالى ذكره : صيّرت لكم ، أيها الناس ، ذلك قياماً ، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث ، مما به قوامكم ، علماً منه بمنافعكم ومضاركم ، أنه كذلك يعلم جميع ما في السماوات وما في الأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم ، ولتعلموا أنه بكل شيء ﴿ عَلِيْمٌ ﴾ ، لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم ، وهو محصياها عليكم ، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته) .

وقوله تعالى : ﴿ اَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ وَاَنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ۝ۙ ﴾ .

تخويف ، وترجية ، تهريب وترغيب ، لا صلاح للعبد بدونهما ، فهو بحاجة للخوف من الله ومن عقابه وعذابه ، وللثقة بمغفرته وعفوه ، حتى يستقيم توجهه إليه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُوْلِ اِلَّا الْبَلٰغُ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا يَبْدُوْنَ وَمَا تَكْتُمُوْنَ ۝ۙ ﴾ .

أي : ليس للرسول إلا البلاغ ، فأمر الهداية والتوفيق والعفو والثواب بيد الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى ، فهو الذي يطلع على القلوب ويعلم ما تخفونه من الكفر والنفاق ، أو من الصدق والإيمان .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ] (1). وفي لفظ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ].

100 - 102. قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ فَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ .

في هذه الآيات: خطابٌ من الله لعباده: لا يستوي الحلال الطيب القليل مع الحرام المخادع الكثير ، فاتقوا الله يا أهل العقول لعلكم تنالون رضاه وتوفيقه . ثم تأديبٌ من الله سبحانه لعباده المؤمنين ، وارتقاءٌ بهم عن الخوض فيما لا فائدة منه من السؤال والبحث ، فلربما ظهر جواب ذلك فيما يشق عليهم وتكرهه نفوسهم ، فقد حصل ذلك لأقوام مضوا فأصبحوا بذلك كافرين .

ففي قوله: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ﴾ .

قال السدي: ((الْخَيْرُ ﴾ ، هم المشركون ، ﴿ وَالْطَّيِّبُ ﴾ ، هم المؤمنون) .

وقال ابن جرير: (قل يا محمد: لا يعتدل الرديء والجيد ، والصالح والطالح ، والمطيع والعاصي ، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ﴾ ، يقول: لا يعتدل العاصي والمطيع لله عند الله ، ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم ، لأن أهل طاعة الله هم المفلحون الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلُّوا ، دون أهل معصيته ، وإن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2564) (33)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرجه أيضاً (34) - باللفظ الذي بعده .

ولا شك أن الآية تعم كل قليل طيب مبارك ، وكل كثير خبيث فاتن ، سواء كان من الناس ومعاندهم ، أو كان من متاع هذه الحياة الدنيا .

أخرج أبو يعلى في المسند ، والبيهقي في «الشعب» ، بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : [ما قل وكفى خير مما كثر وألهى] ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وَصِيَّةٌ بالتقوى من الله سبحانه ، فهي سرّ سعادة الدنيا وسرّ النجاة يوم القيامة .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصني ، فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك : [أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنه رَوْحُكَ في السماء وذكرك في الأرض] ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ . الآية .

فإن فيها ثلاث أسباب صحيحة للنزول :

السبب الأول : أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : [خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ، لهم خنين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : فلان . فنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾] ⁽³⁾ .

السبب الثاني : أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء ، فيقول الرجل : من أبي ، ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها] ⁽⁴⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو يعلى (1053) ، والبيهقي في «الشعب» (10730) ، وانظر صحيح الجامع (5529) . من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد (82/3) ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص 197) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4621) ، ومسلم (2359) ، وأحمد (210/3) ، والترمذي (3058) ، وأخرجه الطيالسي (60/2) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - (4622) - كتاب التفسير ، عند هذه الآية .

السبب الثالث: أخرج الطبري عن أبي هريرة - بسند رجاله ثقات - قال: [خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج. فقام محصن الأسدي فقال: أي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عن ما سكت عنكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية⁽¹⁾.

فهذه ثلاثة أسباب للنزول مسندة صحيحة، والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل إما على سبيل الاستهزاء والامتحان، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلْ لَكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه). وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، أن النبي ﷺ قال: [إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: [سئل رسول الله ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال: «سلوني»، فقام رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: أبوك حذافة. ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: أبوك سالم مولى شيبه. فلما رأى عمر ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: إنا نرتب إلى الله عز وجل⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن

(1) حديث حسن. أخرجه ابن جرير (ج 7) ص (82) بسند رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن علي

شيخ ابن جرير، وهو ثقة، وروى نحوه الطبراني من حديث أبي أمامة. والدارقطني (2/282).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7289) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. وأخرجه مسلم برقم (2358)، ورواه أحمد (1/176).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7291) - الكتاب السابق. باب ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه.

النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر ، فلما سلّم قام على المنبر فذكر الساعة ، وذكر أن بين يديها أموراً عظيماً ، ثم قال : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يسألَ عن شيء فليسألَ عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دُمتُ في مقامي هذا ، قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول : «سلوني» ، فقال أنس : فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله؟ قال : «النار» ، فقام عبد الله بن حذافة فقال : مَنْ أبي يا رسول الله؟ قال : «أبوك حذافة» . قال : ثم أكثر أن يقول : «سلوني سلوني» ، فَبَرَكَ عُمَرُ على رُكْبَتَيْهِ فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ، ثم قال رسول الله ﷺ : أولي ، والذي نفسي بيده لقد عُرِضْتُ عليّ الجنة والنار أنفأ في عُرْضِ هذا الحائط وأنا أصلي ، فلم أرَ كالיום في الخير والشر⁽¹⁾ .

الحديث الرابع : أخرج البخاري من حديث أبي عَوَانَةَ : حدّثنا عبدُ الملك عن وَرَّادٍ كاتب المغيرة قال : كتب معاوية إلى المغيرة : اكتب إليّ ما سمعتَ من رسول الله ﷺ . فكتب إليه : إن نبيّ الله ﷺ كان يقول في دُبُر كل صلاة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعْطِي لما منعت ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» . وكتب إليه : إنه كان ينهي عن : قِيلَ وَقَالَ ، وكثرة السُّؤَالِ ، وإضاعة المال ، وكان ينهي عن : عقوق الأمّهات ، ووَاد البنات ، ومنع وهات⁽²⁾ .

الحديث الخامس : أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [دعوني ما تركتكم ، فإنما هَلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ سؤَالُهُمْ واختِلَافُهُمْ على أنبيائِهِمْ ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم]⁽³⁾ .

الحديث السادس : أخرج الدارقطني بسند جيد عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله فرضَ فرائضَ فلا تُضَيِّعُوها ، وحَرَّمَ حُرُماتَ فلا تَتَهَكَّوها ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7294) - الكتاب السابق ، الباب السابق ، وانظر حديث (93) منه .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7292) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . الباب السابق . وانظر (844) منه .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (7288) - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة . باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نَسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

أي : عفا الله عما كان منكم من ذلك ، وهو سبحانه الغفور لِرِزَالَتِكُمْ ، الحليم بعباده وما يصدر عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : (نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك) .

وقال السدي : (قد سأل الآيات قوم من قبلكم ، وذلك حين قيل له : غير لنا الصفا ذهباً!) .

قال ابن جرير : (قد سأل الآيات قوم من قبلكم ، فلما آتاهموها الله أصبحوا بها جاحدين) .

103 - 104 . قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُو كَانُوا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : ما بَحَرَ الله بحيرة ، ولا سَيْبَ سائبة ، ولا وصل وصيلة ، ولا حمى حامياً ، بل هي من صنع المشركين الذين حرموا ما لم ينزل الله به سلطاناً ، وافتروا على الله الكذب ، وجعلوا بعض هذه الأنعام وقفاً على الأوثان والأصنام ، وأكثرهم لا يعقلون . وإذا رُدُّوا إلى التحاكم لله ولرسوله اعتزوا بأبائيتهم وجاهليتهم حتى ولو كانت مهترئة فاسدة عفنة .

فقوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ .

البحيرة : الفعيلة ، من بَحَرَتْ أذن الناقة أي : شققتها . وهي : الناقة تُشَقُّ أذنها

(1) أخرجه الدارقطني (ص 502) ، وكذلك أورده صاحب مشكاة المصابيح (197) ، وسنده جيد .

وَتَخَلَّى لِلطَّوَاغِيتِ ، فكانت العرب في الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر شقوا أذننها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المَعْيِيُّ المنقطع به لم يركبها .

قال ابن عباس : (هي الناقة إذا تُتِجَتْ خمس أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء . وإن كان أنثى جددوا آذانها ، فقالوا : هذه بحيرة) .

وقال سعيد بن المسيب : (البحيرة : التي يُمنَعُ دُرُّها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس) ذكره البخاري .

وأما السائبة : فهي الناقة تُسَيَّبُ للأصنام لنحو بُرء من مرضٍ أو نجاة في حرب ، فلا يحمل عليها ولا تحبس عن مرعى ولا ماء .

قال مجاهد : (هي من الغنم نحو ما فُسِّرَ من البحيرة ، إلا أنها ما ولدت من وَلَدٍ بينها وبينه ستة أولاد كان على هيئتها ، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه ، فأكله رجالهم دون نسائهم) .

وقال محمد بن إسحاق : (السائبة هي الناقة إذا ولدت عَشْرَ إناثٍ من الولد ليس بينهنَّ ذكر ، سَيِّبَتْ فلم تُزَكَّبْ ، ولم يُجَزَّ وَبَرُّها ، ولم يَحْلَبْ لبنها إلا الضيف) .
وقال أبو رَوْقٍ : (السائبة : كان الرجل إذا خَرَجَ فَقَضَيْتْ حاجته ، سَيَّبَ من ماله ناقةً أو غيرها ، فجعلها للطواغيت . فما ولدت من شيء كان لها) .

وقال السُّدِّي : (كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرضٍ أو كثر ماله سَيَّبَ شيئاً من ماله للأوثان ، فمن عَرَضَ له من الناس عُوقِبَ بعقوبة في الدنيا) .

وأما الوصيلة : فهي الناقة تترك للطواغيت إذا بَكَرَتْ بأنثى ثم ثَنَّتْ بأنثى . يقال : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر .

قال ابن عباس : (هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع ، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا : وَصَلْتَهُ أَخْتُ فَحَرَّمْتَهُ عَلَيْنَا) رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه .

وقال محمد بن إسحاق : (الوصيلة من الغنم إذا ولدت عَشْرَ إناثٍ في خمسة أبطن ،

توأمين في كل بطن ، سُدَّتِيت الوصيلة وتُرِكَت ، فما وَلِدَتْ بعد ذلك من ذكر أو أنثى ، جُعِلَتْ للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة (ماتت) حينئذٍ .

وقال سعيد بن المسيب : (فالوصيلة من الإبل ، كانت ، الناقة تَبْتَكِرُ بأنثى ، ثم تُنْثَى بأنثى ، فيسْتُونُها الوصيلة ، ويقولون : وَصَلَتْ أَنْثَى لِسَينِ بينهما ذكر ، فكانوا يَجِدُونَهَا لَطَوَاغِيَتَهُمْ) رَوَاهُ عبد الرزاق ، وَرَوَى نحوه عن الإمام مالك .

وأما الحام : فهو الفحل لا يُرْكَبُ ولا يُحْمَلُ عليه إذا ضربت عشرة أبطن .

قال ابن عباس : (كان الرجل إذا لقح فحله عَمْرًا ، قيل : حام ، فاتركوه) .

وقال أيضاً : (وأما الحام فالفحل من الإبل ، إذا وَلِدَ لولده قالوا : حَمَى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ، ولا يجوزون له ويرأ ، ولا يمتنعونه من حمل رَعِي ، ومن حَوْضٍ يُشْرَبُ منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه)

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : (أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل ، فإذا انقضى ضرائه جعلوا عليه ريش الطواويس وسببوه) - ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني ، في أحاديث صحيحة :

الحديث الأول : قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب قال : [البحيرة : التي يُمنَعُ دُرُّها للطواغيت ، فلا يَحَارِبُها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يُسَيِّبُونَهَا لآلهتهم ، لا يُحْمَلُ عليها شيء - قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عَمْرُو بن عامر الخزاعي يَجُرُّ قُصْبَةً ⁽¹⁾ في النار ، كان أول من سَبَّتِ السوائب » - والوصيلة : الناقة البكر ، تُبَكَّرُ في أول نتاج الإبل ، ثم تُنْثَى بعد بأنثى ، وكانوا يُسَيِّبُونَهَا لَطَوَاغِيَتَهُمْ ، إن وصلت إحداهما بالآخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرائه ودَعِمَ لَطَوَاغِيَتَهُ ، وأَعْفُوهُ عن الحمل ، فلم يُحْمَلْ عليه شيء ، وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَّ ⁽²⁾ .

(1) قصبه : أمعاء . قال أبو عبيد : الأقصاب : الأمعاء .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4623) ، ومسلم (2856) ح (51) ، وأحمد (275/2) ، وكذلك (266/2) ، وابن حبان (6260) ، والطبري (12819) ، والبيهقي (109/10) ، وغيرهم .

الحديث الثاني: أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَطْلُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَرَأَيْتُ عَمْرَأً يَجْرُ قُصْبُهُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ] (1).

الحديث الثالث: أخرجه الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَكَّتِ السَّوَابِ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ أَبُو خِرَازَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجْرُ أَمْعَاهُ فِي النَّارِ] (2).

الحديث الرابع: أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَأَكْتُمَنَّ بَنَ السَّجُونِ يَا أَكْتُمُ ، رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحَيٍّ بَنَ قَمْعَةَ بْنَ خَنْدِفٍ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشَبَّ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ ، وَلَا بِهِ مِنْكَ . فَقَالَ أَكْتُمُ : تَخْشَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبْهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ (وفي لفظ ابن إسحاق : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله) ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا ، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَيَّبَ السَّالِيَةَ ، وَحَمَى الْحَامِيَّ] (3).

الحديث الخامس: أخرجه أحمد في المسند ، وابن جرير في التفسير ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» بسند قوي عن أبي الأحوص الجشمي ، عن أبيه مالك بن نضلة قال: [آتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي حُفَايْنٍ مِنَ الثَّيَابِ ، فَقَالَ لِي : هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : مِنْ أَيِّ الْمَالِ ؟ قَالَ : فَقُلْتُ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ ، مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ . قَالَ : إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُزِّدْ عَلَيْكَ . ثُمَّ قَالَ : تُسْتَحُجُّ إِبِلُكَ وَافِيَةٌ آذَانُهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، وَهَلْ تُسْتَحُجُّ الْإِبِلُ إِلَّا كَذَلِكَ ؟ قَالَ : فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ الْمَوْسَى فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ بُحَيْرٌ ، وَتَسْقِي آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ حُرْمٌ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَلَا تَفْعَلْ ، إِنْ كُلَّ مَالٍ آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حَرٌّ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (4).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4624) - كتاب التفسير - عند هذه الآية من سورة المائدة .

(2) حديث حسن لشواهد . أخرجه أحمد (446/1) ، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (129) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1677) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2020) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الطبري في «التفسير» - حديث رقم - (12820) ، وأبو يعلى (6121) ، وابن حبان (7490) ، ولمسلم نحوه . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) إسناده قوي . أخرجه أحمد (473/3) ، والطبري (12829) ، (12830) ، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (76/2) ، وكرره أحمد (15457) ، والطبراني في «الصغير» (489) .

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يَتَقَرَّبُونَ بها إليه . وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبالٍ عليهم).

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

قال ابن جرير: (ويقولون: نحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة ، قد اكتفينا بما أخذنا عنهم ، ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل).

وفي التنزيل: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. فأعمتهم الآبائية المظلمة عن إِبْصَارِ نور الحق ، وكان تقليدها الأعمى سبب هلاك لهم. ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: كيف يتبعونهم ولم يكونوا أهل علم أو صلاح أو اتباع لمنهج الرسل ، بل كانت الجاهلية بأعرافها هي التي تحكمهم ، وهي التي يعظمونها من دون شرع الله عز وجل! أمّا وآباؤهم ليسوا أهل علم وهداية وطريق مستقيم فلا يصلحون للاتباع.

105. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمُ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاهتمام بإصلاح نفوسهم ودينهم ، وأن يبذلوا وسعهم في ذلك ، ثم لا يضرهم من اختار الضلال إذا جاهدوا في إقامة الدين في خاصتهم مع ما قدروا عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالمآل إلى الله سبحانه ، وهناك يخبر تعالى عباده بأعمالهم ويثيبهم عليها عدل الجزاء.

فقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

نصب على الإغراء. والتقدير: احفظوا أنفسكم من الزلل والآثام.

وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق ومعاني هذه الآية ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن قيس ، قال: قال

أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : [يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهُم الله بعقاب . وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدر أن يغيروا ، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب]⁽¹⁾.

قال سعيد بن المسيب : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، قال : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، لا يضررك من ضل إذا اهتديت .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجه بسند حسن عن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال : [كيف بكم وبزمان - أو يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة تبقى حثالة من الناس ، قد مرجت عهدهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون ، وتذرون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم ، وتذرون أمر عامتكم]⁽³⁾.

106 - 108 . قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْهَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِ عَلَىٰ أَنَّهُمَا

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (5/1) ، وأبو داود (4338) ، والترمذي (2168) ، وابن ماجه (4005) ، وغيرهم . من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4339) ، وابن ماجه (4009) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3646) بإسناد حسن ، من حديث جرير رضي الله عنه مرفوعاً .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4342) ، وأخرجه ابن ماجه (3957) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3648) . من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

أَسْتَحَقُّ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ
لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا
بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَلِلَّهِ يَهْدَى الْقَوْمُ
الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾

في هذه الآيات: يا أيها الذين آمنوا ليشهد بينكم وقت الوصية عند الموت اثنان ذوا
رشد وعقل من المسلمين أو آخران من غير أهل سلتكم - من أهل الكتاب - إن أنتم
سافرتم ذاهبين وراجعين في الأرض فنزل بكم الموت فأوصيتهم إليهما ، ودفعتم إليهما
ما كان معكم من مال وتركته لورثتكم ، فإنكم تحبسونهما من بعد الصلاة ، فيحلفان
بالله - إن اتهمتموهما بخيانة - لا نشترى بأيماننا بالله ثمناً ، فلا نحلف كاذبين لجحد حق
أو مال ، ولو كان الذي نقسم له ذا قرابة منا . فإن ظهر منهما خيانة أنهما كذبا أو كتما
فيقوم حينئذ مقامهما من ورثة الميت ، فيحلف أولياء الميت أنه كان كذا وكذا ، أو أن
شهادة الكافرين باطلة ، وما اعتدينا إنا إذن لمن الظالمين . وهذا الفعل ، إن فعلتم
بهم ، أقرب لهم أن يصدقوا ولا يخونوا ، خشية الفضيحة وحذراً أن ترد الأيمان إلى
أولياء الميت فيكشف صنيعهم ، فخافوا الله أيها الناس واسمعوا والله لا يوفق من فسق
عن أمر ربه وخان الأمانة .

أخرج البخاري في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما
قال : أخرج رجل من بني سَهْمٍ مَعَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ وَعَدِيٍّ بْنِ بَدَاءٍ ، فمات السهمي بأرض
ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جَآمًا⁽¹⁾ من فضة مُخَوَّصًا من ذهب ، فأحلفهما
رسول الله ﷺ ، ثم وجدوا الجَآمَ بمكة فقالوا : ابتهناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من
أولياء السهمي فحلفنا لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجَآمَ لصاحبهم . قال : وفيهم
نزلت هذه الآية : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَهْلَكُهُمْ يَنْصَرُّونَ إِذَا أَخَذَ مِنْكُمْ الْوَعْدُ ﴾⁽²⁾ .

فقوله : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَهْلَكُهُمْ يَنْصَرُّونَ إِذَا أَخَذَ مِنْكُمْ الْوَعْدُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ .

قال النسفي : (ارتفع اثنان لأنه خبر المبتدأ وهو شهادة ، بتقدير : شهادة بينكم شهادة
اثنين ، أو لأنه فاعل «بينكم» ، أي : فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان . واتسع في

(1) الجَآم : الإناء .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2780) ، وأبو داود (3606) ، والترمذي (3060) ، وغيرهم .

بين فأضيف إليه المصدر ، وإذا حضر ظرف للشهادة ، وحين الوصية بدل منه ، وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية ، لأن حضور الموت من الأمور الكائنة ، وحين الوصية بدل منه ، فيدل على وجود الوصية ، ولو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء ، فنقل إلى الوجوب ، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل .

وقوله : ﴿ ذَوَاعِدِلٍ مِّنْكُمْ ﴾ .

فيه أقوال :

1 - قال ابن عباس : (ذوا عدل من أهل الإسلام) . وقال سعيد بن المسيب : (اثنان من أهل دينكم) . وقال عبيدة : (من الملة) . أو قال : (من أهل الملة) .

2 - قال عكرمة : (ذوا عدل من حي الموصي) .

3 - قال النسفي : ﴿ ذَوَاعِدِلٍ ﴾ صفة لاثنين ﴿ مِّنْكُمْ ﴾ من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت) .

قلت : والراجح أن المقصود من المسلمين . وهو مذهب الجمهور . فإن كانوا كذلك من قرابته أو من أهل حيّه فهذا أفضل لعلمهم بأحوال الميت وأهله .

وقوله : ﴿ أَوْءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾ .

قال ابن عباس : (من غير المسلمين ، يعني : أهل الكتاب) - رواه ابن أبي حاتم بسنده عنه .

وقال عكرمة : (أي : من غير قبيلة الموصي) - ذكره ابن جرير . والأول أصح ويدل عليه السياق .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . أي : سافرتم . ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ .

قال القرطبي : (وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما ، وادّعوا عليهما خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة ، أي : تستوثقوا منهما . وسمى الله تعالى الموت في هذه الآية مصيبة . قال علماؤنا : والموت وإن كان مصيبة عظيمة ، ورزية كبرى ،

فأعظم منه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وترك التفكير فيه ، وترك العمل له ، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر).

وقوله: ﴿ تَحْسِبُونَهُمَا ﴾ .

صفة لآخران . واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿ إِنَّ أَنْتُمْ ﴾ . وهذه الآية أصل في حبس من وجب عليه .

قال الخطابي: (الحبس على ضربين: حبس عقوبة ، وحبس استظهار . فالعقوبة لا تكون إلا في واجب ، وأما ما كان في تهمة فإنما يستظهر بذلك ليستكشف به ما وراءه).

وعن ابن سيرين قال: (كان شريح إذا قضى على رجل بحق أمر بحبسه في المسجد إلى أن يقوم ، فإن أعطاه حقه وإلا أمر به إلى السجن) رواه معمر عن أيوب عنه .

قال القرطبي: (والحقوق على قسمين: منها ما يصلح استيفاؤه معجلاً ، ومنها ما لا يمكن استيفاؤه إلا مؤجلاً ، فإن خُلي مَنْ عليه الحق غاب واختفى وبطل الحق وتوي⁽¹⁾ فلم يكن بد من التوثق منه ، فإما بعوض عن الحق وهو المسمى رهناً ، وإما بشخص ينوب منابه في المطالبة والذمة وهو الحميل⁽²⁾ ، وهو دون الأول ، لأنه يجوز أن يغيب كمغيبه ويتعذر وجوده كتعذره ، ولكن لا يمكن أكثر من هذا ، فإن تعذرا جميعاً لم يبق إلا التوثق بحبسه حتى تقع منه التوفية لما كان عليه من حق ، أو تبين عسرته .

قال: فإن كان الحق بدئياً لا يقبل البذل كالحدود والقصاص ولم يتفق استيفاؤه معجلاً ، لم يكن فيه إلا التوثق بسجنه ، ولأجل هذه الحكمة شرع السجن ، روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: [أن النبي ﷺ حبس رجلاً في تهمة]⁽³⁾ . وروى أبو داود عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ

(1) توى المال: ذهب فلم يرج .

(2) الحميل: هو الكفيل .

(3) حديث حسن . أخرجه أبو داود (3630) ، والترمذي (1417) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1450) . من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً .

قال: [لِي الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ] ⁽¹⁾. قال ابن المبارك: يُحِلُّ عِرْضَهُ يُغْلَظْ لَهُ ، وعقوبته يُحْبَسْ لَهُ).

وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ .

فيه أقوال:

1- قال العوفي عن ابن عباس: (يعني صلاة العصر). وقال الحسن: (صلاة الظهر).

2- قال الزهري: (يعني صلاة المسلمين).

3- وقال السدي: (يعني صلاة أهل دينهما) - يعني إن كانا من غير المسلمين.

4- وقال القرطبي: (يريد صلاة العصر ، قاله الأكثر من العلماء ، لأن أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة).

5- وقيل: إن فائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيماً للوقت ، وإرهاباً به ، لشهود الملائكة ذلك الوقت.

قلت: والراجح إطلاق لفظ الصلاة كما أطلقها الله تعالى ، فالمراد اجتماع الناس وشهود الأمر بين المتخاصمين ، كما قال ابن كثير رحمه الله: (والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتماع الناس فيها بحضرتهم).

وقوله: ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ .

أي: فيحلفان بالله.

وقوله: ﴿ إِنْ أَرَبْتُمْ ﴾ .

أي: إن شككتم في أمانتهما ، أو ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله ﴿ لا نشترى به ثمناً ﴾ . قال ابن زيد: (نأخذ به رشوة).

أي: لا نشترى بقسمنا عوضاً نأخذه - بدلاً مما أوصى به - من عرض هذه الدنيا الفانية.

(1) إسناده قوي. أخرجه أبو داود في السنن (3628). انظر صحيح سنن أبي داود (3086). ورواه ابن ماجه (2427). ورواه أحمد والنسائي والحاكم. انظر تخريج المشكاة (2919) ، وصحيح الجامع (5363). من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه مرفوعاً.

اثنتان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولي من يرث ذلك المال ، ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ ، أي : لقولنا إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المستقدمة ﴿ وما اعتدنا ﴾ ، أي : فيما قلنا من الخيانة ﴿ إِنَّا إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أي : إن كنا قد كذبتا عليهما).

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴾ .

قال قتادة : (ذلك أضر أن يصدقوا في شهادتهم ، وأن يخافوا العقب⁽¹⁾).

وقال ابن كثير : (أي : شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي ، من تحليف الشاهدين الذين قد استررب بهما ، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي).

وقوله : ﴿ أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُورَدَ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ بَيِّنَتِهِمْ ﴾ .

فيه تخويف لهم من التضيعة بين الناس إذا رُدَّت اليمين على الورثة .

قال ابن زيد : (فتبطل أيمانهم ، وتؤخذ أيمان هؤلاء).

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا ﴾ .

أي : خافوا الله أيها الناس حق مخافته وأطيعوا أمره وأدوا الأمانات إلى أهلها .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أي : الخارجين عن طاعة الله والخوف منه ، والمستحلين لأنفسهم الحلف الكاذب وأكل أموال الناس بالباطل . قال ابن زيد : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، الكاذبين ، يحننون على الكاذب ، ولكن الآية عامة في كل فاسق ، فتشمل كل أنواع الفسق . كما اختار ذلك شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله .

109 . قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْفُتُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

في هذه الآية : إخبار عن خطاب الله سبحانه يوم القيامة المرسلين بماذا أجيبوا من

أقوامهم وأمهم حين دعوهم إلى التوحيد وإفراد الله سبحانه بالتعظيم ، فقالوا لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا .

فقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ .

كقوله في سورة الأعراف : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .
وكقوله في سورة الحجر : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ .

قال مجاهد : (إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم) .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

قال ابن جريج : (معنى قوله : ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾) .

قال أبو عبيد : (ويشبه هذا حديث النبي ﷺ أنه قال : «يرد عليّ أقوام الحوض فيختلجون فأقول أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك») .

قلت : وهذا في الصحيح . فقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [لَيَرَدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضِ حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي فَأَقُولُ : أَصْحَابِي ، فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك] (1) .

وكذلك أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه كان يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : [يَرُدُّ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي ، فَيُجْلَوْنَ عَنِ الْحَوْضِ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ أَصْحَابِي ، فيقول : إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ ، إِنْهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَذْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى] (2) .

قال الماوردي : (فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ فعنه جوابان : أحدهما - أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم .

الثاني - أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6582) - كتاب الرقاق - باب : في الحوض .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6585) - كتاب الرقاق - باب : في الحوض .

110 - 111. قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنِ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ۞ .

في هذه الآيات : إذ قال الله سبحانه يا عيسى اذكر أياديّ عندك وعند والدتك ، إذ قويتك بروح القدس وأعتك به صغيراً في المهد وكهلاً ، وكذلك اذكر نعمتي عليك إذ علمتك الخط والفهم لمعاني التنزيل ، وكذلك إذ تعمل وتصلح من الطين كصورة الطير بعوني على ذلك ، فتنفخ في الهيئة ، فتكون طيراً بإذني ، وتشفي الأعمى والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني ، واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفّي عنك من همّ بقتلك من بني إسرائيل حين جئتهم بالأدلة المعجزة المثبتة لنبوتك فقال الذين تمرّدوا كبراً وجحدوا نبوتك وكذبوك إن هذا إلا سحر مبين . ثم اذكر كذلك إذ ألقيت إلى الحواريين أن صدقوا بي وبرسولي عيسى فقالوا آمنا وصدقنا واشهد علينا بأننا سامعون مطيعون نازلون عند أمرك ، مستسلمون لقضائك .

فقوله : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۞ .

قال ابن كثير : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ۞ أي : في خلقي إياك من أمّ بلا ذكرٍ ، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ، ﴿ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ ۞ ، حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبّه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ، ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۞ ، وهو جبريل - عليه السلام - وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرِكَ وكبرِكَ ، فأنطقتك في المهد صغيراً ، فشهدت ببراءة أمّك من كلّ عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي ، ولهذا قال

تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ، أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك. وضمن تكلم تدعو ، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب).

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

أي: الخط والفهم.

قال ابن جرير: ((إذ علمتك الكتاب) ، وهو الخط ، ﴿والحكمة﴾ ، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك ، وهو الإنجيل)

وقوله: ﴿وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ .

أي: الكتاب الذي أنزل على موسى ، والكتاب الذي أنزل عليك.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ .

أي: تجعل من الطين على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك التشكيل والتصوير.

وقوله: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ .

أي: ثم تنفخ في ما شكلت من تلك الصورة فإذا بها طائر له روح ، يتحرك ويطير بإذن الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾

أي: وتشفي ﴿الأكمة﴾ وهو الأعمى الذي لا يبصر ، كما تعالج الأبرص فيشفى بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ .

قال ابن كثير: (أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته ، وإرادته ومشيئته).

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْيَتَامَى فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُمَيِّتُ﴾ .

قال القرطبي: ((كففت) معناه دفعت وصرفت ﴿بنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ حيث هموا بقتلك ﴿إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْيَتَامَى﴾ أي: الدلالات والمعجزات ، وهي المذكورة في الآية.

﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوتك . ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي : المعجزات . ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِنٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ .

الوحي أقسام : وحي التنزيل ، وحي الإلهام ، ووحي الإعلام .

1 - فوحي التنزيل : هو الوحي من الله تعالى بإرسال جبريل إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

2 - وحي الإلهام : هو إلهام الله تعالى بعض عباده بأمر يريده أو يحبه ، كما في هذه الآية .

3 - وحي الإعلام : ويكون في اليقظة والمنام . قال أبو عبيدة : (أوحيت بمعنى أمرت) . وفي التنزيل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الزلزلة : 5] .

أما في لغة العرب : الوحي معناه الإلهام . وهو المعنى المراد هنا بهذه الآية ، وهو القسم الثاني من أقسام مفهوم الوحي في الكتاب والسنة .

فيكون المعنى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أي : ألهمتهم وأفهمتهم وقذفت في قلوبهم ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ . قال السدي : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ ، يقول : قذفت في قلوبهم) . وقال الحسن البصري : (ألهمهم الله - عز وجل - ذلك) ، فصدقوا وآمنوا وامتلأوا ما أمروا به من الله تعالى .

قال ابن كثير : (ويُحْتَمَلُ أن يكون المراد : وإذ أوحيت إليهم بواسطتك ، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا : ﴿ آمَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾) .

112 - 115 . قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً

مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ .

في هذه الآيات : ذُكِرَ قصة المائدة التي بها تسمى هذه السورة ، يقول تعالى : واذكر يا عيسى كذلك من جملة نعمي عليك ، حين أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، إذ قالوا لعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فأجابهم عيسى عليه الصلاة والسلام مستعظماً لما قالوه : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وأمرهم بالتوبة والاستغفار من مغبة ما قالوا . فأجابوه أنهم قالوا ذلك رغبة في الأكل من تلك المائدة ليزدادوا يقيناً وإيماناً بالله وقدرته وجبروته . فهناك دعا عيسى ربه وسأله مائدة تنزل عليهم من السماء فيكون ذلك اليوم يوماً عظيماً في حياتهم وحياة من بعدهم يتذكرون به صفات الله وكرمه عليهم وأياديه الحسنی فيزدادون بذلك عبادة له وتعظيماً . فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه عليه السلام وأنزل المائدة وتوعد من كفر بعد هذه الآية العظيمة عذاباً ما عاقبه أحد قبل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

فلقد سأل الحواريون عيسى بن مريم - جهلاً منهم - بقولهم ذلك وآفاق مدلولاته ، فهم بلفظهم الذي اختاروه كأنهم يجهلون أن الله على كل شيء قدير ، ومن كذب بقدرة الله فهو كافر ، ولكن الجهل كان عذراً لهم عند الله ورسوله عليه السلام .

قال ابن جرير : (قال عيسى للحواريين : راقبوا الله ، أيها القوم ، وخافوه ، أن يُنْزَلَ بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فإن الله لا يعجزه شيء أراد . وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء ، كفرٌ به ، فاتقوا الله أن يُنْزَلَ بكم نقمته) .

قلت : وهذه الآية دليل صريح أن الجاهل معذور بجهله . فإن من ثبت له الإسلام لا يُنْزَعُ منه إلا بما ينقض الإسلام ، ومن ثم فإن القصد والنية شرط صحة الأعمال ، فالجاهل الذي صدر منه ما ينقض إيمانه ولم يقصد ذلك معذور إلى أن يحصل له العلم والبيان .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئَن قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَكَوْنُ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

تأكيداً أن ما قالوه أرادوا به زيادة الإيمان والثبات على الصدق ، والإخلاص بمتابعة عيسى عليه السلام. فقالوا: ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ : أي : لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها. وهذا تفسير أقرب من التفسير الذي ذهب إليه آخرون أنهم قالوا ذلك لحاجتهم إلى الأكل منها.

وقوله: ﴿ وَتَطْمِئَن قُلُوبُنَا ﴾ .

أي : إذا شاهدنا نزولها ، وتمتعنا بهذا الرزق المباشر من الله تعالى من السماء. وذكر الماوردي أن تأويل ذلك يحتمل ثلاثة أوجه :

- 1 - تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً.
 - 2 - تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا.
 - 3 - تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألناه.
- وقال الثعلبي : (نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا).

وقال المهدوي : (أي : تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا) ذكره القرطبي .

قلت : وكل ما سبق يدخل في آفاق قوله تعالى عنهم : ﴿ وَتَطْمِئَن قُلُوبُنَا ﴾ ، فإن طمأنينة القلب بالإيمان وبرضى الرحمان هي غاية سعادة العبد في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمِئَن قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28].

قال قتادة : (يقول : سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال ابن جرير : (ألا بذكر الله تسكن وتستأنس قلوب المؤمنين).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح ، عن أبي ثعلبة ، عن النبي ﷺ قال : [البر ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون]⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح . رواه أحمد بسند صحيح من حديث أبي ثعلبة . انظر تخريج المشكاة (2774) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم (2878) .

قال ابن القيم: (فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافهم ووليهم).

وقوله: ﴿وَتَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ .

أي: بأنك رسول الله. قال ابن كثير: (أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك).

وقوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

أي: لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوة، فثبت بذلك على الإيمان بعد رؤية ومعاينة هذه الآية العظيمة.

وقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ .

فيه أقوال متقاربة متكاملة:

- 1- قال السدي: (أي: نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا).
- 2- قال سفيان الثوري: (يعني يوماً نصلي فيه).
- 3- قال قتادة: (أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم).
- 4- وعن سلمان الفارسي: (عِظَةٌ لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا). وقيل: (كافية لأولنا وآخرنا)، ذكره ابن كثير.

وقوله: ﴿وَمَا يَكُنْ مِنْكَ﴾ .

يعني: دليلاً على قدرتك، وإجابتك الدعاء، وحجة لنا لمتابعة الطريق في الإيمان والدعوة والجهاد.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

أي: نسألك رزقاً من عندك، فأنت خير من أعطى وكفى، ورزق وبارك وعافى.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم فَأَنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي: استجاب الله ذلك الدعاء، وتوعد من كذب بها بعد ذلك أشد العذاب.

قال القرطبي: (هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى).

إجابة للحواريين ، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعدته الحق ، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير. قال ابن عمرو: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون).

116 - 118. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۚ إِنْ أَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۚ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ۝

في هذه الآيات: خطابٌ من الله سبحانه لنبيه عيسى عليه السلام يوم القيامة أمام من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: أأنت قلت للناس أو أمرتهم ليتخذوك وأمك إلهين من دوني؟ فأجاب بقوله: سبحانك ، هذا أمر لا ينبغي أن يصدر من مثلي ، فلو كنت قلته لقد علمته ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وما أحد من خلقك يعلم ما في نفسك ، بل أنت علام الغيوب. كُلُّ ما أمرتهم أن اعبدوا الله ربي وربكم وأفردوه بالعبادة والخضوع والتعظيم ، وكنت قائماً على حفظ ذلك حياتي فيهم ، فلما غادرتهم إليك كنت أعلم بهم مني وأنت على كل شيء شهيد. فإن عذبتهم فالأمر لك وهم عبادك ، وإن غفرت لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ ۝

تهديد ووعد للنصارى ، وتوبيخ وتقريع لهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، فإن عيسى عليه الصلاة والسلام سيتبرأ اليوم من شركهم أمام بارئهم عز وجل. واختار ابن جرير أن ذلك كان حين رفعه الله ، ولكن السياق يدل أن ذلك يوم القيامة ، وكما استدل عليه نصوص الأحاديث القادمة إن شاء الله.

قال ابن جريج: (﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ﴾ قال: والناس يسمعون ، فراجع بما قد رأيت ، وأقر له بالعبودية على

نفسه ، فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول : أنه إنما كان يقول باطلاً).

وقوله : ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ .

قال القرطبي : (وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين ، أحدهما - تنزيهاً له عما أضيف إليه . الثاني - خضوعاً لعزته ، وخوفاً من سطوته . ثم قال : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ : أي : أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها ، يعني أنني مريبوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود).

ثم قال : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ .

قال النسفي : (إن صح أني قلته فيما مضى فقد علمته ، والمعنى أني لا أحتاج إلى الاعتذار لأنك تعلم أني لم أقله ، ولو قلته لعلمته لأنك ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ ذاتي ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ذاتك).

ولا شك أن الله سبحانه أراد بذلك السؤال تنزيه نبيّه عيسى عليه الصلاة والسلام أمام الخلائق يوم القيامة مما نسب إليه المدعون الانتساب إليه من أهل الكتاب ، وليكون ذلك تقريراً بالحجة والبرهان من كلام عيسى ﷺ لمن ارتضى واتخذة إلهاً من دون الله تعالى.

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

أي : ما كان وما يكون ، وما لم يكن ، وما هو كائن ، وما لن يكون ، ولكن إن قُدِّر له أن يكون كيف سوف يكون .

وقد بسط القول في ذلك في أبحاث القدر ضمن كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

أي : ما دعوتهم إلا إلى توحيدك وتعظيمك وإفراذك بالطاعة والعبادة والحاكمة والتشريع ، فزلّ قوم منهم بعدي واتبعوا سبل الشياطين فصدوهم عن سبيلك وهديك .

ولذلك قال : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١١٧) إِنْ تَعَدَّيْتُمْ عِبَادَتِي وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١٨) .

أخرج البخاري ومسلم وبعض أصحاب السنن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال :

[يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا⁽¹⁾] ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [١١٧] إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم⁽²⁾ .

وفي ختم الآيات بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . نكتة بديعة:

قال القرطبي: (ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره ، والتفويض لحكمه . ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وهذا مستحيل ، فالتقدير: إِنْ تُبْقِهِمْ على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تَهْدِهِمْ إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده ، الحكيم فيما تفعله ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء).

119 - 120 . قوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [١١٩] لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١٢٠] .

في هذه الآيات: خَتَمَ الله الكلام بعد سماع تباري نبّيه عيسى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة من النصارى الملحدين الذين أشركوا به ونسبوا لعبده المسيح عليه السلام الألوهية كذباً وافتراء - بقوله جل ذكره: هذا يوم ينفع أهل الصدق في عبادة الله صدقهم في توحيد الله وتعظيمه واتباع رسله دون تأليههم ، وقد أعدّ الله جلّت عظمتهم لهم أشرف استقبال ومقام في جنات تجري تحتها الأنهار وقد حظوا برضوان الله أبداً وذلك الفوز العظيم . فسبحان من له ملك السماوات والأرض وما فيهن من خلائق وعوالم وهو

(1) غُرْلًا: أي دون ختان ، كما خلقهم ربهم تعالى أول مرة .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4625) ، (4740) ، ومسلم (2860) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (2151) ، وأخرجه الترمذي (1423) ، والنسائي (114/4) ، وأخرجه أحمد (1/229) .

القوي المهيمن الجبار الأحد الصمد القدير . لا يعجزه شيء في هذا الكون الفسيح ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

فقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ .

قال ابن عباس : (يوم ينفع الموحدين توحيدهم) .

قال القرطبي : (أي صدقهم في الدنيا ، فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق) . وأراد بذلك صدق العمل لله وتصديق الرسل . وقال غيره : (المراد صدقهم في الآخرة ، وذلك في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ ، وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذه بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم) .

قلت : والآية تدل من السياق على أن الصدق المنجي للعبد يوم القيامة هو صدق التوحيد لله سبحانه وصدق إخلاص العمل لوجهه واتباع منهج رسله ، وإن كانت بعض المواقف يفيد فيها النطق بالحق يوم القيامة ، كالشهادة للرسل بالبلاغ ، وكقصص أصحاب الأعراف ، ولكن هذا لا يكفي وحده للنجاة يوم الحساب ما لم يكن يسبقه صدق الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله .

أخرج أبو يعلى والبخاري بسند صحيح في الشواهد ، عن أنس قال : [قال رسول الله ﷺ لرجل : يا فلان ! فعلت كذا ؟ قال : لا والذي لا إله إلا هو ! والنبي ﷺ يعلم أنه قد فعله ، فقال له : إن الله قد غفر لك كذبك بتصديقك بـ « لا إله إلا الله »]⁽¹⁾ .

وروى أحمد وأبو داود نحوه ، وفي لفظه : [فقال رسول الله ﷺ : قد فعلت ، ولكن غفر لك بإخلاصك قول : لا إله إلا الله]⁽²⁾ .

وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(1) حديث صحيح في الشواهد . أخرجه البخاري (3068/7/4) ، وأبو يعلى في «مسنده» (3368/104/6) ، والبيهقي في «السنن» (37/10) ، وانظر مسند أحمد (68/2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (3064) .

(2) صحيح لشواهد . أخرجه أحمد (253/1) ، (289/1) ، (70/2) ، وأخرجه أبو داود (3275) من حديث ابن عباس ، وكذلك أخرجه أبو داود (3620) عن أبي الأحوص - مختصراً - .

[أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة. (وفي رواية: فيحجب عن الجنة)]⁽¹⁾.

وله شاهد عند أبي يعلى من حديث عمر بلفظ: [أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يأتي بهما عبدٌ مُحِقٌّ إلا وقاه الله حرَّ النار]⁽²⁾.

وقرأ نافع وبعض أهل الحجاز والمدينة «يَوْمَ ينفع» بنصب «يَوْمَ» على الظرفية أو غير ذلك. ورفع الباقون ، ومنهم قراء العراق: «يَوْمَ ينفع» أي: خبر لهذا. وهناك قراءة ثالثة: «يَوْمَ ينفع» وهي قراءة الأعمش. والقراءتان الأولى والثانية مشهورتان أكثر.

وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .

أي: من تحت غرفها وأشجارها ، وقد بشرهم الله بالخلود في هذا النعيم ، فهو لا يزول عنهم ولا يُزالون عنه .

وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ .

أي: هذا هو سبب ذلك النعيم وهذا الخلود ، حصول الرضا من الله عنهم ، بعد أن رضوا بالله رباً وبنييه رسولاً ، وبالإسلام ديناً .

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

أي: الظفر الكبير والغنيمة العظمى ، فلا شيء في هذا الوجود أجل من رضوان الله ، ولا شيء أجمل من جنة الله التي تتألف من جنات ثمان ، تعلوها جنة الفردوس .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، بسند على شرط الشيخين ، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ قال: فيقول: رضواني أكبر]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (42/1). انظر مختصر صحيح مسلم (10) ص (10) كتاب الإيمان. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(2) صحيح لشواهده. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (199/1 - 230/200) - والسياق له - ، وأخرجه البزار (11/13/1) - مختصراً - . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم (3221) .

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2647) ، والحاكم (82/1) ، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1336) ، ورواه ابن جرير (6/262/6751) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (2/141/1) ، وغيرهم .

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المعنى: لله سلطان السماوات والأرض وما فيهن دون عيسى ودون أمه ودون جميع خلقه ، فهو المالك القهار لا يحتاج إلى خلقه ، يدبر الأمر من فوق عرشه ، والكل مفتقر إلى رحمته ومغفرته ، وهو على كل شيء قدير .

قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 27].

أخرج الترمذي بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن النبي ﷺ قال: [خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير]⁽¹⁾.

تم تفسير سورة المائدة

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَوَأَسْعَ مِنْهُ وَكْرَمِهِ



(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3837). وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2837). باب في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1503).

دروس ونتائج وأحكام

- 1- المسلمون عند شروطهم ، والوفاء بالعهد واجب .
- 2- جنين الأنعام الميت حلال ، ذبحه على ذبح أمّه .
- 3- من خاصم في باطل أو أعان بظلم وهو يعلم ، لم يزل في سخط الله حتى ينزع .
- 4 - الترغيب في التعاون على البر والتقوى ، والترهيب من التعاون على الإثم والعدوان .
- 5- المستثنى من الميتة : السمك والجراد ، وأما الخنزير فحرام كله .
- 6- ما أنهر الدم وذكر عليه اسم الله فكلوه .
- 7- ما ذبح لغير الله لا يؤكل ، ولو ذكر عليه اسم الله .
- 8- إكمال الله هذا الدين ، والابتداع في الشريعة اتهام لتأكيد الله الكمال .
- 9- أكل المحرمات بالحد الأدنى عند الاضطرار .
- 10 - علامة الجراح المعلم إذا دعوته أتى ولا يأكل من صيده ، ومن ثم أحل ما صيدَ بالجوارح المعلمة مع التسمية عند الانطلاق .
- 11- سمّ الله إذا أطلقت جارك أو سهمك ، ودخلت بيتك وعند طعامك .
- 12- الترخيص بطعام أهل الكتاب ، ونكاح المحصنات من نسائهم .
- 13 - لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، والمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين واجب لثبوت ذلك عن الرسول ﷺ .
- 14- وجوب مسح جميع الرأس ، ويجوز المسح على الناصية والتكميل على العمامة .
- 15- الترتيب واجب في أعمال الوضوء ، وويل للأعقاب من النار - عدم غسل لمعة في القدم توجب إعادة الوضوء والصلاة - .

- 16- مشروعية المسح على الخفين لمن لبسهما على وضوء ، ومدته يوم وليلة للمقيم ، وثلاثة أيام للمسافر .
- 17- خطايا المؤمن تتساقط من كافة أعضائه مع الوضوء .
- 18- العدل واجب والظلم ظلمات يوم القيامة .
- 19- إثبات كفر من قال إن الله هو المسيح بن مريم ، واليهود مغضوب عليهم ويزعمون كذباً أنهم أحباء الله .
- 20- قابيل أول من سَنَّ القتل في الأرض ، فعليه إثم كل قتيل إلى يوم القيامة .
- 21- تسليم المفسد نفسه إلى الحاكم قبل القدرة عليه يشمل العفو .
- 22- التوسل إلى الله ممنوع إلا بأسمائه وصفاته والأعمال الصالحة ودعاء الرجل الصالح .
- 23- لا قطع ليد سارق فيما دون ربع دينار .
- 24- اليد الأمينة ثمينة ، فإذا خانت رخصت وهانت .
- 25- التوبة تجب ما قبلها ، والحد كفارة للجرم .
- 26- شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررًا ولم ينسخ .
- 27- الحكم بغير ما أنزل الله يتراوح بين الكفر والظلم والفسق .
- 28- قول الحق لا يقرب أجلاً ولا يباعد رزقاً .
- 29- النهي عن اتخاذ المستهزئين بالدين أحباء أو نصراء أو أولياء .
- 30- استغناء رسول الله ﷺ عن الحرس لتولي الله حفظه .
- 31- أول كلمة نطق بها المسيح في المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ .
- 32- المسيح رسول كغيره من الرسل وأمه صديقة عليهما السلام .
- 33- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سبيل أكيد إلى نزول العذاب .
- 34- تحريم مآكل ومشارب وملابس معينة دون دليل ابتداء وتنطع في الدين .
- 35- كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام .
- 36- من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه .

- 37 - لُعِنَ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةٌ: الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقها ومسقيها .
- 38 - الخمر ما خامر العقل ، وكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام .
- 39 - الخمر أم الخبائث ، من شربها لم تقبل صلاته أربعين يوماً ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية .
- 40 - الخمر أكبر الكبائر والفواحش ، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته .
- 41 - مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن .
- 42 - النهي عن قتل الصيد حالة الإحرام ، فإن صاد المحرم عامداً أثم وغرم ، وإن صاد خطأ غرم وحرم عليه .
- 43 - أَكُلُ الْمُحْرَمِ صَيْدًا لَمْ يَصْده أَوْ لَمْ يَصْده لَهُ حلال .
- 44 - صيد البحر ما أخذ منه حياً ، وطعامه ما لفظه ميتاً .
- 45 - كره الله لهذه الأمة : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .
- 46 - عمرو بن لحي أول من أدخل الشرك في العرب وغير دين إبراهيم .
- 47 - جواز استشهاد الذميين في الوصية عند فقدان المسلمين أثناء السفر .
- 48 - براءة عيسى وأمه عليهما السلام من شرك أهل الكتاب .
- 49 - الشفاعة يوم القيامة تخص المؤمنين ولا ينالها المشركون .
- 50 - جلّ الله وتعالى عن النظر والعديل والصاحبة والوالد والولد .



6



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (165).

قال ابن عباس : (أنزلت سورة الأنعام بمكة). أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فافقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ⁽¹⁾).

موضوع السورة

ذمّ المشركين والثناء على ملة إبراهيم وبيان وحدة منهاج المرسلين ، وامتنان الله على عباده بنعمة الثمار والأنعام وبيان منهاج التحريم .

- منهاج السورة -

1 - البدء بحمد الله خالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور وعالم السر والعلن .

(1) حديث موقوف . أخرجه البخاري في صحيحه (3524) عن ابن عباس موقوفاً . كتاب المناقب . باب قصة زَمْزَمَ وجهل العرب . والآيات من سورة الأنعام ما بين 130 - 140 . والآية المذكورة (140) .

- 2- إعراض الكافرين عن آيات الله الكونية والقدرية وسوف يعلمون .
- 3- تذكير الله المعرضين عن الإيمان به وطاعته هلاك الأمم السالفة المكذبة رغم القوة والبيان ، والأموال والأنهار والعمران .
- 4- استكبار المشركين عن الإيمان بالرسول حتى لو كان ملكاً كما تمنوا .
- 5- السعيد من صُرف عن عذاب الله في الآخرة والشقي من هلك فيه .
- 6- الضر والنفع بيد الله ، والله تعالى هو القاهر فوق عباده .
- 7- المشركون يودون الرجعة إلى الدنيا حين يرون العذاب ليخلصوا الله الإيمان ، ولكن هيهات هيهات وقد فات الأوان .
- 8- حسرة الكفار يوم القيامة على تفريطهم وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم .
- 9- تسلية الله نبيه عما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم ، بصبر المرسلين قبله على تكذيب أقوامهم ، حتى جاءهم نصر الله .
- 10- تشبيه الله تعالى الكفار بالموتى لأنهم موتى القلوب لا يفقهون ولا يسمعون .
- 11- جميع ما يدب في الأرض أو يطير في السماء أمم خلقها الله وهداها ، وهو محاسبها ، حتى يقتص يوم القيامة للشاة الجماء من الشاة القرناء .
- 12- عطاء الله للعصاة إنما هو استدراج لهم ، فإذا أخذ الله الظالم لم يفلته .
- 13- الرسول ﷺ لا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب إلا ما علمه الله .
- 14- النهي عن طرد المستضعفين المؤمنين ، والأمر بتقريبهم وإكرامهم .
- 15- الرسول ﷺ لا يملك إيقاع العذاب بأحد ، وإنما ذلك لله وحده .
- 16- الغيب كله لله تعالى لا يشاركه فيه أحد .
- 17- النوم موت مؤقت ، وهو وفاة الليل .
- 18- المشركون يخلصون الدين لله في الضراء ، ويشركون به في السراء .
- 19- هجر المجلس الذي يكذب فيه بآيات الله واجب ، ولا يتابع الجلوس مع الاستهزاء بالدين إلا منافق . ومن يهد الله قلبه إلى الحق فلا مضل له .
- 20- دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه آزر إلى التوحيد ، فلما أصر على الشرك تبرأ منه .
- 21- علو محاكمات إبراهيم ﷺ في الاستدلال على الربوبية المقتضية للألوهية ، وتألقه

عليه السلام في إقامة الحجة على قومه ، وأن الشرك هو أكبر الظلم ، وأن الأمن في الإيمان .

22 - الأنبياء دعوتهم واحدة ، وهي دين الإسلام ، وتبليغ الدعوة ثوابه عند الله ، ولا أظلم ممن أشرك بالله أو ادعى النبوة ، أو مماثلة القرآن .

23 - النجوم : زينة للسماء ورجم للشياطين وهداية في ظلمات الليل ، والمخلوقات المتعددة من كل شيء دالة على كمال قدرة الخالق عز وجل .

24 - اختلاق الكافرين لله بنين وبنات وشركاء تعالى الله وتقدس عما يصفون .

25 - القرآن للمؤمنين هدى ، وللكافرين عمى ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلى الله الحساب .

26 - النهي عن سب أصنام المشركين حتى لا يسبوا الله عدواً بغير علم .

27 - المشركون يطالبون الرسل بالمعجزات ، فإذا نزلت لا يؤمنون .

28 - أكل ما لم يذكر اسم الله عليه حرام ، إلا أن يكون اضطراراً .

29 - علامة محبة الله العبد وتوفيقه شُرْح صدره للإسلام ، وعلامة غضبه تعالى عليه تضيق صدره وخذلانه عن الحق .

30 - استمتاع الجن بالإنس بخضوع الإنس لهم وتعظيمهم من دون الله ، واستمتاع الإنس بالجن بالسحر وما يتبعه من الفجور والزنا وأخذ أموال الناس بالباطل .

31 - الله تعالى يسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس بما كانوا يكسبون .

32 - استثناء الخلود في النار إنما هو لعصاة الموحدين ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

33 - إقامة حجة الله على الثقلين يوم القيامة بإرساله الرسل .

34 - لكل من الجن والإنس درجات في الجنة أو النار ، كل بحسب عمله .

35 - ذم المشركين بجعل شيء من الحرث والأنعام لله وآخر لأصنامهم ، وكذلك بقتل الأولاد سفهاً بغير علم ، وبتحريم ما رزقهم الله افتراء عليه .

36 - امتنان الله تعالى على الناس بخلقه لهم أنواع الثمار وألوان الزروع وأصناف الأنعام ، والأمر بالصدقة مما تنبت الأرض .

37 - بيان المحرمات من المأكّل ، وتضييق الله على اليهود في مآكلهم جزاء لبغيهم ، والله تعالى لم يحرم على المشركين ما حرموه على أنفسهم ، وأظلم الناس من كذب على الله .

- 38 - الوصية الجامعة: تحريم الشرك بالله والعقوق بالوالدين وقتل الأولاد واقتراف الفواحش وأكل مال اليتيم ، والأمر بالوفاء في الكيل والميزان والعدل في الرضا والغضب وقول الحق واتباع سبيل خير المرسلين .
- 39 - أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهّيهم عن الاختلاف والتفرقة .
- 40 - الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، ولا يظلم الله أحداً .
- 41 - الصراط المستقيم هو ملة إبراهيم ، ملة التوحيد لله والتعظيم .
- 42 - صلاة المؤمن ونُسكُه ومنهاج حياته كله لله رب العالمين .
- 43 - لا تزر وازرة وزر أخرى ، وصحف العباد تشمل جميع أعمالهم .
- 44 - جعل الله العباد خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً ، وابتلاهم برفع بعضهم فوق بعض درجات .
- 45 - إن الله سريع العقاب وإنه لغفور رحيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 3. قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله سبحانه مادحاً نفسه الكريمة بما تفرد به جلّت عظمته في خلق السماوات والأرض وتعاقب الظلمات والنور لمنافع عباده ، ثم مع ذلك يعدل عن عبادته الكافرون. ثم أعقب ذلك بذكر خلق آدم عليه السلام أصل بني البشر وقد قضى لنسله أجالاً ، ثم وعدهم لقاءه في المحشر يوم القيامة ، الذي يشك فيه الممترون. وهو سبحانه الإله الواحد الأحد المعبود في السماوات وكذلك في الأرض لا يخفى عليه سرهم وجهرهم ويعلم كسبكم وجميع أعمالكم.

فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

قال ابن جرير: (وهذا كلام مخرجه مخرج الخبر ، يُتْحَى به نحو الأمر. يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خلقكم ، أيها الناس ، وخلق السماوات والأرض ، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً ، فإنه المستوجب عليكم الحمد بأياديه عندكم ونعمه عليكم ، لا من تعبدونه من دونه ، وتجعلونه له شريكاً من خلقه).

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة]⁽¹⁾.

وله شاهد عن ابن ماجة بسند حسن من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ]⁽²⁾.

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع (5438).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في «السنن» (3805) - باب فضل الحامدين. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3067). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

قال السدي: (الظلمات ظلمة الليل ، والنور نور النهار). وقال الحسن: (الكفر والإيمان).

قال ابن كثير: (فجمع لفظ الظلمات ووَحَّدَ لفظ النور ، لكونه أشرف ، كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ...﴾ [النحل: 48] ، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ [الأنعام: 153]).

قلت: ولا شك أن الآية تعم إضافة لظلام الليل ونور النهار ، ظلمات الباطل وسواد سبله ، ونور الحق وسبيل أهل الإيمان. كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿أَوْ مِنْ كَانٍ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

والنور: هو نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله ، الذي أخذه سبحانه على عباده - بِنِعْمَانٍ - وهو: واد إلى جنب عرفات.

وأما الظلمة: فهي ظلمة الطباع والجهل والأهواء ، ظلمة الخضوع للغرائز والشهوات.

أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأ ضلَّ] (1).

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار مرفوعاً: [قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحَرَمْتُ عليهم ما أُخْلِئْتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً] (2).

وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

قال ابن عطية: (ف ﴿ثم﴾ دالة على قبح فعل الكافرين).

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (1812) ، والحاكم في المستدرک (30/1) ، وانظر

مسند أحمد (176/2) ، (197/2). وسنده صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2865) ، وأخرجه أحمد في المسند (266/4).

والمعنى : إن خلقه سبحانه السماوات والأرض قد تقرّر ، وآياتها العظيمة في هذا الكون قد سطعت ، وإنعامه جل ذكره قد تبين ، ثم بعد ذلك كله عدل الكافرون عن عبادة ربهم وتعظيمه ، إلى تعظيم أهوائهم وشهواتهم من دون الله .
قال مجاهد : ﴿يَعْدِلُونَ﴾ . (يشركون) .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ .

قال قتادة : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ ، بدء الخلق ، خلق الله آدم من طين) .

وقال ابن زيد : (خلق آدم من طين ، ثم خلقنا من آدم حين أخذنا من ظهره) .

فالمعنى : بدأ الله تعالى الخلق بأن خلق آدم عليه السلام من تربة الأرض المختلفة ، ثم خرج منه نسله وذريته فانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها ، فكان الأصل من ذلك الطين الأول .

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال :

[إن الله تعالى خلق آدم من قَبْضَةٍ قَبْضَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ، وبين ذلك] (1) .

وقوله : ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ - فيه أقوال :

1 - قال قتادة : (أجل حياتك إلى أن تموت ، وأجل موتك إلى أن تُبْعَثَ . فأنت بين أجلين من الله تعالى ذكره) .

2 - وقال الضحاك بن مزاحم : ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ، قال : قضى أجل الموت ، وكل نفس أجلها الموت . قال : ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ، يعني : أجل الساعة ، ذهاب الدنيا ، والإفضاء إلى الله) .

3 - وعن ابن عباس : (قوله : ﴿أَجَلًا﴾ ، قال : الدنيا ، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ، الآخرة) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (406/4) ، وابن حبان (2083) (2084) ، وأخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (327) ، (385) .

وقال أيضاً: ﴿ تُمْرَقَضَى أَجَلًا ﴾ يعني أجل الموت ، والأجل المسمى: أجل الساعة والوقوف عند الله).

4 - وقيل: أما قوله: ﴿ قَضَى أَجَلًا ﴾ فهو النوم ، تُقبض فيه الروح ، ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة ، ﴿ وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ ، هو أجل موت الإنسان. وقيل: أخذ الأجل والميثاق في أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا.

والراجع ما ذكره ابن جرير: (ثم قضى أجل الحياة الدنيا ، ﴿ وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ ، وهو أجل البعث عنده). وبنحوه الأقوال الثلاثة الأولى.

وقوله: ﴿ تُمْرَأْتُمْ تَمُوتُونَ ﴾.

قال السدي: (يعني تشكون في أمر الساعة). وقال: (الشك). وقرأ قول الله: ﴿ فِي مَرِيضَتِهِ ﴾ [هود: 17]. قال: في شك منه).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

حَمَلَ الجهمية هذه الآية على أن الله في كل مكان - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والتفسير الصحيح لهذه الآية كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله - وهو قول أهل السنة والجماعة -: (فأصح الأقوال أنه: المدعو الله في السماوات وفي الأرض ، أي: يعبدونه ويوحِّدونه وَيَقْرَأُ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَعْبًا وَرَهْبًا ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ... ﴾ [الزخرف: 84] ، أي: هو إله مَنْ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، من سِرٍّ وجهر. فيكون قوله: ﴿ يَعْلَمُ ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ ، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي: جميع أعمالكم خيرها وشرها) انتهى.

4 - 6. قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا

مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّثْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا آلَاتِهِمْ لَأَنَّهُمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٨﴾

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن كفر المشركين ومعاندة المكذبين ، وأن الآيات لم تنفع مع عنادهم وكبرهم ، ولا بد أن يروا مغبة استهزائهم ويذوقوا وبال استهتارهم . فهل نسوا القرون التي سبقتهم والأمم التي سلفتهم ، وقد أمددناهم بأسباب القوة والتمكين من الأموال والأولاد والجنود والملك والجاه والقوة - ما لم نمكن لهؤلاء الذين خلفوهم وساروا على منهاجهم في الكفر والعناد والتكذيب - ، إضافة إلى تكثير أمطار السماء وتفجير ينابيع الأرض استدراجاً لهم وإملاءً إلى أجل ، فلما جاء أجلهم أهلكناهم بسيئاتهم فكانوا كأمس الزمان ، وأنشأنا من بعدهم جيلاً جديداً وأمة تلو أمة .

فقوله: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ ﴾ .

أي : علامة ودلالة ، كانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج ، وآيات القرآن فيها خبر الأمم السالفة وما نزل بهم بسبب بغيتهم ، وغيرها ﴿ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الدالة على وحدانيته وحقيقة نبوتك يا محمد ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ .

قال القرطبي: (والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء ، قادر لا يعجزه شيء ، عالم لا يخفى عليه شيء من المعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ ، ليُسْتَدَلَّ بها على صدقه في جميع ما أتى به) .

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ - المراد مشركو مكة حين كذبوا بالحق: وهو القرآن ، أو محمد ﷺ .

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من

آياتي وأدلتني التي آتيتهم . ثم وفّى لهم بوعيده لما تمادوا في غيِّهم ، وعَتَوْا على ربهم ، فقتلهم يوم بدر بالسيف) .

وقال ابن كثير: (وهذا تهديد لهم ووعدٌ شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بدّ أن أتيتهم خَبَرٌ ما هُمْ فيه من التكذيب ، وليجدنَّ غِبَّهُ ، وَلَيَذُوقَنَّ وبالَه) .

بالمراد ما نالهم يوم بدر من القتل والهزيمة . وقيل : المراد يوم القيامة . وكلا المعنيين حق يحتمله التأويل والبيان الإلهي .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ .

قال قتادة: (يقول : أعطيناهم ما لم نعطكم) - أي من الدنيا .

قال ابن كثير: (أي : من الأموال والأولاد والأعمار ، والجاه العريض ، والسَّعة الجنود) .

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

قال ابن جرير: (أمطرت فأخرجت لهم الأشجار ثمارها ، وأعطتهم الأرض رِيع نباتها ، وجابوا صخور جبالها ، ودَرَّت عليهم السماء بأمطارها ، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها بإذني ، فغمطوا نعمة ربهم ، وعصوا رسولَ خالقهم ، وخالفوا أمرَ بارئهم ، وبعَوْا حتى حَقَّ عليهم قَوْلِي ، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم ، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم ، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة ، وبعضهم بالصيحة ، وغير ذلك من أنواع العذاب) .

وقوله : ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ .

أي : أخرجنا بعد هلاكهم جيلاً آخر للابتلاء ، بعد ما هلك الأولون فكانوا كأمس للذهاب ، فاحذروا معشر المكذبين بمحمد ﷺ ورسالته أن ينزل بكم مثل ما نزل بتلك لأمم قبلكم إذ دَكَّها الله ذكاً وصيَّرها للناس أحاديث ، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يحابي أحداً من خلقه .

7 - 11 . قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ
 أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ .

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن عميق كفر المشركين وشدة عنادهم ومكابرتهم للحق وجدالهم المتخبط كقلوبهم: فلو شاهدوا الوحي النازل عليك يا محمد في قرطاس يمسونه بأيديهم لاتهموا ذلك بالسحر. ثم سألوك أن ينزل ملك من السماء يشهد لك بصدق ما يوحى إليك ، ولو أنزلنا ملكاً كما سألو ثم كفروا لعاجلهم العذاب والخزي ولم يُنْظَرُوا حتى يتوبوا ، ولو كان النازل إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة رجل ليفهم منه ويتنفع بمخاطبته ، وحينئذ يلبس عليهم أمره ، فلم يدروا أملكٌ هو أم إنسي! فلم يوقنوا به أنه ملك ، وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك ، وصحة برهانك على نبوتك. فلا تحزن يا محمد ، فلقد تعرض إخوتك الرسل قبلك إلى استهزاء المعاندين ، حتى نزل بالمستهزئين سوء الوبال ، وهذه الأرض تشهد بمواقع تلك الأمم ومساكن تلك الأقوام التي كذبت فدمَّر الله عليها ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت خاتمتها.

فقوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .

قال قتادة: ﴿ فِي قِرْطَاسٍ ﴾ ، يقول: في صحيفة). وقال السدي: (الصحف).

قال ابن عباس: (يقول: لو نزلنا من السماء صُحُفًا فيها كتاب فلمسوه بأيديهم ، لزادهم ذلك تكذيباً). وقال سبأه: ﴿ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، قال: فمسوه ونظروا إليه ، لم يصدّقوا به). وقال قتادة: (فعاينوه معاينة).

وقوله: ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال شيخ المفسرين - الإمام ابن جرير - : (أي: ما هذا الذي جئنا به إلا سحر سخّرت به أعيننا ، ليست له حقيقة ولا صحة ، ﴿ مبين ﴾ ، يقول: مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له).

وفي التنزيل: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
 أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: 15].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ .
 قال قتادة: (يقول: ولو أنهم أنزلنا إليهم ملكاً ، ثم لم يؤمنوا ، لم يُنْظَرُوا).
 وقال السدي: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ، يقول: لجاءهم العذاب).
 وقال مجاهد: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ في صورته ، ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمْرُ﴾ ،
 لقامت الساعة).

كما في التنزيل: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: 8].
 وكذلك: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: 22].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ .
 أي: لو أنزلنا ملكاً من السماء مصداقاً لك يا محمد ، لجاءهم في صورة رجل ، إذ لا تطبق أبصارهم رؤية الملك على صورته ، ولحصل الالتباس عليهم فلم يدروا أملك هو أم إنسي. قال ابن عباس: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ، يقول: لشبهنا عليهم). أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون.

قال قتادة: (ما لبس قوم على أنفسهم إلا لبس الله عليهم. واللبس إنما هو من الناس). وقال السدي: (شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم). وقال الضحاك: (لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور).

وفي التنزيل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 95].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ فَكَفَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

يُسَلِّي الله سبحانه نبيه ﷺ مما يلقي من تكذيب قومه وعنادهم ، بأن هذه كانت طبيعة في أقوام إخوته الرسل قبله ، فصبروا على ما كذبوا حتى جاءهم نصر الله وفرجه ، ونزل بالمكذبين نكال ما كذبوا واستهزؤوا. قال السدي: (وقع بهم العذاب الذي استهزؤوا به).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين الجاحدين النبوة والتنزيل بعدما ظهر لهم أنه الحق: جولوا في بلاد المكذبين قبلكم وانظروا في مساكنهم التي خلفوها بعدما نزل بهم العذاب والعطب وخزي الدنيا وعارها ، وتفكروا فيما صاروا إليه من البوار وخراب الديار وعفوا الآثار. قال قتادة: (دمر الله عليهم وأهلكهم ، ثم صيرهم إلى النار).

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: (لما فتحت قبرس فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، رأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي ، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة ، لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى).

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن مَرْة قال: سمعت أبا البخري يقول: أخبرني مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول: [لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ] (1).

في مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا ظهرت المعاصي في أمتي عَمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله ، أما فيهم يومئذ أناسٌ صالحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يُصْنَعُ بأولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان] (2).

12 - 16. قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى

نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْإِلَهِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْيَرَاللهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4347) - في الملاحم ، باب الأمر والنهي . وأخرجه أحمد في المسند (260/4) ، (293/5).

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (304/6) ، والبيهقي في « الشعب » (2/441/2) من حديث عائشة .

يُصَرِّفُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

في هذه الآيات: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بربهم المشركين في عبادته: لمن ملك هذه السماوات والأرض وما فيها؟ ثم أخبرهم أن ذلك للملك سبحانه الذي قهر بسلطانه وجبروته كل شيء لا للأوثان والطواغيت، وقد مضى أنه بعباده رؤوف رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم التوبة والإنابة، وليجمعنكم أيها العادلون بالله، ليوم القيامة ليتنقم منكم بكفركم به، فالذين أهلكوا أنفسهم بالشرك فخسروها بغبنهم إياها حطّها لا يصدقون بالمعاد ولا يستعدون لشر ذلك اليوم. إن الله الذي تشركون به - أيها القوم - ملك كل شيء، له ما استقر في الليل والنهار وهو السميع لما تقولون، العليم بما تُضمرون وتُبيئون. فكيف أستنصر غيره وأستعينه على النوائب والحوادث وهو مبدع السماوات والأرض، ويَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ، بل إني أمرت أن أكون أوّل من خضع له بالعبودية والتعظيم، وأن أجتنب أن أكون من المشركين. ثم قل لهم يا محمد: إني أخاف إن عبدت غيره سوء يوم عظيم، لا ينجو من عذابه ومصائبه إلا من رحمه ربه وذلك الفوز المبين.

فقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ - أي وعد بها فضلاً وكرماً، ولذلك يمهّل عباده ويعطيهم فرصة ليتداركوا أنفسهم بالاستغفار والتوبة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَاباً عَنْدهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿لِيَجْمَعَ كُفْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قال ابن جرير: (وهذه اللام التي في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾، لام قسم).

وقال ابن كثير: (هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ الذي لا ريب فيه، ولا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ربهم يترددون).

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال القرطبي: (ابتداء وخبر، قاله الزجاج، وهو أجود ما قيل فيه).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3194)، (7404)، (7553)، ومسلم (2751)، وأحمد (313/2)، وغيرهم. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمعنى: الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة هم الذين أنكروا المعاد وجحدوا ذلك اليوم ومضوا في غيهم وكفرهم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ مَا سَكَنْ فِي لَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ - قال السدي: (يقول: ما استقرّ في الليل والنهار).

قال القاسمي: (والمعنى: له تعالى كل ما حصل في الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت. شبه الاستقرار بالزمان ، بالاستقرار في المكان ، فاستعمل استعماله فيه. أو ﴿سكن﴾ من السكون ، مقابل الحركة. أي ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكتمل بأحد الضدين عن الآخر).

وقال أبو مسلم الأصفهاني: (ذكر تعالى في الآية الأولى السماوات والأرض ، إذ لا مكان سواهما. وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما. فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات).

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أي: يسمع كل ما تكلم به خلقه ، ويعلم ما سكن وما تحرك وما تخفي صدور عباده.

وقوله: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾.

قال السدي: (أما «الولي» ، فالذي يتولّونه ويقرّون له بالربوبية). وقال ابن جرير: (أشياء غير الله تعالى ذكره: ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ، أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث).

وقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال قتادة: (خالق السماوات والأرض). أي مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما على غير مثال سبق.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾.

قال السدي: (يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ).

قال القاسمي: (أي المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع. أي: فيجب

اتخاذها ولياً ليعبد شكراً على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أي : أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَسْلَمَ لأمر الله تعالى وخضع له بالعبادة والتعظيم .
وعن الحسن : (أول من أخلص أي من قومي وأمتي) . - أي بالعبادة لله وحده
لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أي : إني أخاف إن صرفت العبادة لغير ربي عز وجل أن ينالني السوء والعذاب يوم
القيامة .

قال ابن عباس : (﴿أخاف﴾ هنا بمعنى أعلم) . وقال القرطبي : (والخوف توقع
المكروه) .

وقوله : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ ﴾ .

قال قتادة : (من يصرف عنه العذاب) . ﴿ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ ﴾ ، أي : فقد فاز وظفر ونجا .

وقوله : ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ .

أي : هو غاية الربح والفوز ، وأعظم الجائزة . كما في التنزيل : ﴿ فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ
النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ... ﴾ [آل عمران : 185] .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ
الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثم يُقَالُ : يا ابن آدم ! هل رأيت
خيراً قط ؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا
من أهل الجنة فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فيقال له : يا ابن آدم ! هل رأيت بؤساً قط ؟ وهل
مرَّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله ، يا رب ، ما مرَّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة
قط] (1) .

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1986) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان
(741/2 - 751) في تفصيل أحداث الحساب والقياس والميزان ، وكذلك بحث الصراط على
جهنم والشفاعة .

17 - 21. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

في هذه الآيات: خطاب من الله سبحانه لنبى محمد ﷺ: يا محمد ، إن يصبك الله بشدة أو ضيق فلن يكشف عنك ذلك إلا الله ، وإن يصبك بخير أو سعة ورغد عيش فهو وحده القدير على تصريف ذلك. فهو الله المستعبد خلقه العالي عليهم ، الحكيم في تصريفه شؤون عباده ، الخبير بمنافعهم ومضارهم. فقل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أي شيء أعظم شهادة وأكبر! ثم أخبرهم أن الله سبحانه أعظم شهادة ، فهو شهيد بيني وبينكم ، بالمحق منا من المبطل ، والرشيد من السفیه ، وقد أوحى إلي هذا القرآن لأنذركم عقابه ، ولأنذر به أيضاً من بلغه من سائر الناس ، إن لم يقم أمر الله وشرعه ، نزول نعمة الله به ، فيا أيها المشركون: أأنكم تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام ، فأنا لا أشارككم هذا الغي ، فإنما الله إله واحد ، لا شريك له يستحق التعظيم والعبادة ، وإنني بريء من كل شريك تدعونه معه أو تصرفون له شيئاً من العبادة والتعظيم. وإن أصحاب التوراة والإنجيل يعرفون أنما هو إله واحد ، وأن محمداً نبى مرسل ، وهؤلاء خسروا أنفسهم وأهلكوها بإنكارهم ذلك وجحودهم ما يجدونه مكتوباً في كتبهم. فمن أشد اعتداء وظلماً وبغياً ممن تجرأ على الله بالكذب فزعم له شريكاً أو ولداً أو صاحبة! إنه لا يفلح الظالمون.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

كقوله في سورة فاطر: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ .

أخرج البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة - وقد كتب إلى معاوية -: [أن النبي ﷺ كان يقول في دُبر كل صلاة مكتوبة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد⁽¹⁾]. وقال الحسن: جدٌ: غنى.

والخطاب في الآية من الله سبحانه للنبي ﷺ ، يَبْنِيهِ على ما يلقي من قومه ، كما قال ابن جرير: (يا محمد ، إن يصبك الله ، ﴿بِضْرٍ﴾ يقول: بشدة في دنياك ، وشظف في عيشك وضيق فيه ، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه ، وأذن له من أهل زمانك ، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام ، ودون كل شيء سواها من خلقه ، ﴿وإن يمسسك بخير﴾ يقول: وإن يُصَبِّكَ بخير ، أي: برخاء في عيش ، وسعة في الرزق ، وكثرة في المال ، فتقر أنه أصابك بذلك ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

قال ابن كثير: (أي هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعُلُوّه وقدرته الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حُكمه وقهره. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ ، أي في جميع ما يفعلُه ، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالّها ، فلا يعطي إلا لمن يستحق ، ولا يمنع إلا من يستحق).

أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، بسند على شرط البخاري ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان إذا تَضَوَّرَ⁽²⁾ من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القَهَّار ، ربُّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغَفَّار]⁽³⁾.

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: [لا إله إلا الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (844) - كتاب الأذان ، باب: الذكر بعد الصلاة. وأخرجه مسلم (593) ، وأبو داود (1505) ، والنسائي (70/3) ، وأحمد (250/4) ، والبيهقي (185/2).

(2) أي تلوّى وتقلب.

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في المستدرک (540/1) ، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (753) ، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» ص (43) ، وابن حبان (2358). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2066).

الحليم الحكيم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم⁽¹⁾.

وقوله: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي من أعظم الأشياء شهادة. قال القرطبي: (ولفظ ﴿شيء﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى ، المعنى: الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم ، فهو شهيد بيني وبينكم على أنني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته وادعيتة من الرسالة).

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

أي: والقرآن شاهد بنبوتي لأنذركم به يا أهل مكة ، وكذلك مَنْ بلغه القرآن في أرجاء هذه المعمورة. قال مقاتل: (من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير به). وقال القرطبي: (من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وسمع منه).

قلت: ولكن لا بد أن يكون البلاغ مبيناً ، كبلاغ الرسل ، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَاغُ الْمُبِينِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. فإن البلاغ المشوّه ليس ببلاغ مبين ، ومن ثمَّ فإن القرآن حجة على الخلق جميعهم ، ونبينا محمد ﷺ قد بعث إلى العالمين كافة ، ولا نبي بعده.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار]⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: [فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (6345) ، (7426) ، وصحيح مسلم (2730). ورواه أحمد

والترمذي ، والطبراني وزاد: (اصرف عني شرفلان). انظر صحيح الجامع (4816).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (93/1) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (20) ص (13).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (523) - كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب المساجد ومواضع الصلاة. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وله شاهد عند الطبراني من حديث السائب بن يزيد بلفظ: [فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة ، وأدخرت شفاعتي لأمتي ، ونصرت بالزُّعب شهرأ أمامي ، وشهرأ خلفي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحللت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿ أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾.

هذا استفهام فيه توبيخ وتقريع . والتقدير: إن تردى قومك إلى هذا السقوط بإشراك مخلوقات من الأوثان والأصنام والطواغيت مع الله في العبادة ، فترفع أنت بلا إله إلا الله ، وقل: فأنا لا أشهد معكم . كما قال له تعالى في آية الأنعام: ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾.

ولكن: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ﴾.

قال قتادة: (يعرفون أن الإسلام دين الله ، وأن محمداً رسول الله ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). وقال: (النصارى واليهود ، يعرفون رسول الله في كتابهم ، كما يعرفون أبناءهم).

وقوله: ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي خسروا أنفسهم كل الخسارة ، وأوردوها مواقع الهلاك والعطب ، عندما أنكروا نبوة محمد ﷺ التي يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم ، ظلماً وبغياً وعلواً.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

أي: من أشد اعتداء وبغياً ممن تقوّل على الله ، فزعم أنه مرسل من الله ولم يكن كذلك ، ثم من أظلم ممن جحد بآيات الله بعد ظهور حججه وبراهينه ودلالاته الواضحات القاطعات ، لا شك أنه لا أظلم ممن سلك سبيل هذا النكران والجحود ، ومن ثم فإنه لا يفلح هذا ولا ذاك ، فإن الله سبحانه يكشف المنافق ويفضح المكذب: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني عن السائب ، وقريب منه أخرجه البيهقي عن أبي أمامة. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم (4097) ، (4096) ، (4098) ، والإرواء (285).

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه⁽¹⁾ ويستتره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب ، حتى قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [٢٦] (2) .

22 - 26. قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [٢٢] ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٢٣] أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [٢٤] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [٢٥] وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٦] .

في هذه الآيات: يخبر جل ثناؤه عن هؤلاء المفترين على الله الكذب الجاحدين آياته ونبوة رسوله، أن لا فلاح لكم بهذه البضاعة في الدنيا ولا في الآخرة، فتجارتكم خاسرة ، فكيف إذا ناداكم يوم الحشر أين شركاؤكم الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله، ثم لكن يكن جوابهم إلا كذباً منهم في أيمانهم: ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . فانظر يا محمد كيف استخدم هؤلاء الأخلاق الفاسدة التي كانوا يتخلقون بها في الدنيا - من الكذب والفرية - في أرض المحشر. ومنهم يا محمد من يستمع القرآن منك ، وما تدعوه إليه من توحيد ربك ، وأمره ونهيه ، ولكنه لا يفقه ما تقول ، ولا يوعيه قلبه ، ولا يتدبره عقله ، ولا يصغي له سمعه ، فالقلوب مقفلة ، والآذان غشيتها الصمم ، فلا يفهمون أي آية ، بل يتهمون الحجج الدامغة أنها أساطير الأولين ، وهم بذلك ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ، ويتباعدون عنه ، وما يهلكون بصددهم عن سبيل الله ورسوله إلا أنفسهم وما يشعرون .

(1) أي: حفظه وستره.

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2441) ، وأخرجه مسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (74/2) .

فقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: (كل زعم في القرآن فهو كذب). وعلى ذلك فلآية تأويلان:

التأويل الأول: أي لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم. فهو متصل مع الآية السابقة.

التأويل الثاني: أي انظر كيف يكذبون يوم نحشرهم. فهو متعلق بما بعده.

وقوله: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ ﴾ .

قال القرطبي: (سؤال إفصاح لا إفصاح).

وقوله: ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

أي: أنهم شركاء وشفعاء ، وهذا توبيخ لهم.

قال القاسمي: (فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأیوس منه). وفي التنزيل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: 62].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ ﴾ : قولهم). وقال قتادة: (مقاتلتهم). وقال غيره: (معذرتهم).

والمقصود: اعتذارهم بالباطل والكذب. وقال أبو إسحاق الزجاج في تأويل ذلك: (تأويل هذه الآية لطيف جداً ، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك).

وقد أجاد الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية حيث قال: (الفتنة الاختبار ، أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ، ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدواعي: ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . تبرؤوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ، ولا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فقال الله تعالى: أما إذ كنتموا الشرك فاختموا على أفواههم ، فيختم على أفواههم ، فتنتق أيديهم وتشهد

أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرِّسُولَ لَوْ شَاءَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ : بتكذيب الله إياهم .

وقال القاسمي رحمه الله : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود . ﴿ وضل ﴾ أي : وكيف ضاع وغاب ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا . . . ﴾ [الأعراف : 37] .

قلت : وقد ثبت في السنة الصحيحة تكذيب الجوارح للعبد ونطقها بما يكتُم .

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : [كنا عنه عند رسول الله ﷺ فَضَحِكْ فقال : هل تدرون ممَّا أضحك؟ قال قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : مِنْ مُحَاظَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يقول : يا ربِّ ! أَلَمْ تُجِزْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قال : ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، قال : فيقول : بُعْدًا لَكَرًّا وَسُحْقًا ، فَعَنْكَرْنَا كُنْتَ أَنْاضِلًا⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وكذلك ابن حبان من حديث أبي هريرة قال : [قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربَّنَا يوم القيامة؟ قال : هل تُصَاوِرُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ ، ليست في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فهل تُصَاوِرُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ليس في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده ! لَا تُصَاوِرُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُصَاوِرُونَ فِي رُؤْيَا أَحَدِهِمَا ، قال : فَيَلْقَى الْعَبْدَ فيقول : أَيُّ فُلٍ⁽²⁾ ! أَلَمْ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2969) - كتاب الزهد ، باب : «الدنيا سجن للمؤمن جنة للكافر» . من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(2) أي فل : معناه يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل : هي لغة بمعنى فلان حكاهما القاضي .

أُكْرِمَكَ ، وَأَسْوَدَكَ ، وَأَزْوَجَكَ ، وَأَسْحَرُ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فيقول: لا ، فيقول: إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول: أَيُّ فُلٍّ! أَلَمْ أُكْرِمَكَ ، وَأَسْوَدَكَ ، وَأَزْوَجَكَ ، وَأَسْحَرُ لَكَ الْخَيْلَ ، وَالْإِبِلَ ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى ، يارب! فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ قال: فيقول: لا ، فيقول: إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول: يَا رَبِّ! أَمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ ، فيقول: ها هنا إذن⁽¹⁾ . قال: ثم يقال له: الْآنَ تَبْعْتُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لَفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي ، فَتَنْطِقُ فَيَخْذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ⁽²⁾ . وَذَلِكَ الْمَنَافِقُ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ⁽³⁾ .

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

أي : حجب الله الفهم والوعي عن قلوبهم بغطاء الكفر والضياغ ، وأصم آذانهم عن السماع النافع .

قال قتادة: (يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئاً ، كمثل البهيمة التي تسمع النداء ، ولا تدري ما يُقال لها) .

وقال السدي: (أما ﴿ أَكِنَّةٌ ﴾ ، فالغطاء أكن قلوبهم ، لا يفقهون الحق ، ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، قال: صمم) . وقال مجاهد: (قول الله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ، قال: قریش) .

وفي التنزيل: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171] .

(1) ها هنا إذن : معناه قف هنا حتى يشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً .

(2) من الإعذار ، والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه وشهادته أعضائه عليه ، بحيث لا يبقى له عذر يتمسك به .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2968) ، كتاب الزهد ، وأخرجه ابن حبان (4642) .

وقوله: ﴿وَلَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

قال القاسمي رحمه الله: (إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصوراً فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر ، لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 32]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ . أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاؤوك يحاجونك وينظرونك في الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها . قال: وَعَدُّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَصْدَقَهُ ، من قبيل الأباطيل «وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» - رتبة من الكفر لا غاية وراءها) انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

أما قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ففيه قولان:

1 - أي ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ، ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾: أي ويتعدون هم عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفع ، ويتعدون . قال قتادة: (جمعوا النهي والنأي . و«النأي» ، التباعد).

قال ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به).

وقال أيضاً: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ ، يقول: لا يلقونه ، ولا يدعون أحداً يأتيه).

وقال سالم عن ابن الحنفية: (يتخلفون عن النبي ﷺ ولا يجيبونه ، وينهون الناس عنه).

وقال قتادة: (ينهون عن القرآن ، وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه).

2 - أي ينهون عن أذى محمد ﷺ ويتباعدون عن دينه واتباعه .

فعن ابن عباس: (نزلت في أبي طالب ، كان ينهى عن محمد أن يؤذى ، وينأى عما جاء به أن يؤمن به).

والراجع القول الأول ، وهو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير ، وتابعه على ذلك الحافظ ابن كثير ، وهو أكثر مناسبة لسياق الآيات ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أي لا يعود وبال هذا الصنيع إلا عليهم ، فهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك والعطب ويختارون لها مستقبل الخزي والآلام وما يشعرون .

27 - 30 . قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ .

في هذه الآيات : خطابٌ من الله سبحانه لنبیه ﷺ - ولو ترى يا محمد هؤلاء الجاحدين المكذبين إذ حبسوا في النار فقالوا ياليتنا نرد إلى الدنيا فنتوب ونراجع طاعة الله ولا نجحد آياته ولا نكذب رسله ونكون من المؤمنين ، وما بهم في حقيقة الأمر الأسى والندم على ما فرطوا وكفروا ، بل هو الإشفاق مما هو نازلٌ بهم من عقاب الله وأليم عذابه ، على ما اجترحوا من آثام وكانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم ، فأبداها الله وكشفها على رؤوس الأشهاد ، ففضحهم بها وأخزاهم أمام الخلق ثم جازاهم بها . ولو رددناهاهم إلى الدنيا لرجعوا في حقيقة الأمر إلى جحود الآيات والنعمة والعمل بما يسخط ربهم ، لأنهم قالوا ذلك خشية من العذاب لا إيماناً بالله ولا رغبة في تعظيم أمره وشرعه وهدى رسوله . إنهم كانوا ينكرون الوقوف بين يدي ربهم يوم النشور ، بعد الفناء والبعث من القبور ، فلو ترى يا محمد هؤلاء المجرمين حين حبسوا على حكم الله وقضائه فيهم فقبل لهم : أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ، حقاً؟ فقالوا: بلى والله إنه لحق ، فقال الله لهم : فذوقوا عذاب الخزي والألم الذي كنتم به تكذبون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

معنى : ﴿ إِذْ وَقَفُوا ﴾ إذ حبسوا . قال القرطبي : (أي إذا وقفوا غداً ، و«إذ» قد تستعمل

في موضع «إذا» و«إذا» في موضع «إذ» وما سيكون فكأنه كان ، لأن خبر الله تعالى حق وصدق ، فلهذا عَبَّرَ بالماضي).

وقوله : ﴿ عَلَى النَّارِ ﴾ - فيه أكثر من تأويل :

- 1 - أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم . قال النسفي : ﴿ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أروها حتى يعاينوها أو حبسوا على الصراط فوق النار).
- 2 - قيل «على» بمعنى الباء ، أي وَقَفُوا بقربها وهم يعاينونها . قال الضحاك : (جُمِعُوا ، يعني على أبوابها).

3 - وقيل «على» بمعنى «في» أي وقفوا في النار . والمقصود أنهم دخلوها .

قال ابن جرير : ﴿ عَلَى النَّارِ ﴾ ، يعني : في النار - فوضعت «على» موضع «في» كما قال : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيمَنَ ... ﴾ [البقرة : 102] ، بمعنى : في ملك سليمان).

قلت : وكل هذه المعاني يحتملها التأويل والإعجاز القرآني ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ليتسع لكل أنواع التصور من ألوان الشقاء ، وليذهب الوهم إلى كل شيء مبالغة في التخويف والتصوير لتلك الساعات العصيبة من حياة المشركين ، والتقدير : لو تراهم يا محمد وهم في تلك الحال لرأيت مشهداً مفزعاً ، ومنظراً عجيباً هائلاً ، وحالاً سيئاً .

وقوله : ﴿ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُذُ وَلَا نَكُذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : يتمنون لو أعطوا فرصة أخرى بأن يردوا إلى الحياة الدنيا فيصدقوا بآيات الله ورسله ولا يجحدوا حججه كما فعلوا أول مرة .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَمَأْثُورًا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أما قوله : ﴿ بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ففيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول : بدت لهم معاصيهم التي كانوا يخفونها ويسترونها عن أعين الناس ففضحهم بها الله تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد .

قال السدي : ﴿ بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ، يقول : بدت لهم أعمالهم في

الآخرة ، التي أخفوها في الدنيا). وقال قتادة: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ ، قال: من أعمالهم).

قال ابن كثير: (أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها في الدنيا ، أو في الآخرة كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ^(١٢) أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾).

التأويل الثاني: بل ظهر حينئذ ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه.

قال القرطبي: (وقيل: المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغواية ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة).

وهذا المعنى كما جاء في القرآن من خبر موسى عليه السلام حين قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ...﴾ [الإسراء: 102]. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

التأويل الثالث: المراد المنافقون ، كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر.

أي: يظهر نفاقهم الذين كانوا يسرونه. قال القاسمي: (ولا ينافي هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة. لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت ، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾).

التأويل الرابع: بل بدا لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا - النار التي وقفوا عليها.

ذكره العلامة أبو السعود ، واعتبر أن النار هي التي سيق الكلام لتحويل أمرها ، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و(بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشيء كفر به ، وإخفاء له لا محالة. ثم قال: (وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: 43]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: 14] ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم: ﴿وَلَا تُكْذِبْ عَائِثَ رَبِّكَ﴾. [الأنعام: 27] لمراعاة ما في مقابله من البدو. هذا هو الذي تستدعيه جزالة النظم الكريم).

التأويل الخامس: بل هو في أهل الكتاب ، يظهر لهم ما كتموه في كتبهم.

قال النسفي: (أو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله ﷺ).

قلت: وكل ما سبق يحتمله النظم الشريف وهو من وجوه إعجاز هذا القرآن العظيم ، وإن كان التأويلان الأول والثاني من أقواها . وأضيف على ذلك فأقول: بدا لهم ما كانوا يخفونه من معرفة صدق الرسل وصدق التنزيل وحقيقة النار التي وُعد بها الكافرون وقد دعتهم الرياسة والكبر وحب العلو في الأرض وحظوظ النفس والشهوات إلى إخفاء ذلك ومحاربته في أقوامهم لتكون لهم الكلمة في الدنيا والكبرياء ، فلما عاينوا ذلك يوم القيامة وأبصروا النار التي وقفوا عليها وشعروا بلهيبها على أجسامهم تَمَنَّوْا الرَّجْعَةَ والتصديق لا التكذيب الذي أوردتهم هذا المصير الشقي ، وهنا بدا لهم ما أخفوه - ليتأكد قوله تعالى بعدها: ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴾ . أي: إن الذي دعاهم إلى إخفاء ما أخفوه لم يختلف ، فإنه ما بهم حب الله ودينه ورسوله ، وإنما بهم ألم جهنم ، ومن ثم فلو كتب الله لهم العودة إلى الدنيا لتجاوزوا مرة أخرى صدق المرسلين إلى تعظيم أهوائهم وشهواتهم - وإنهم لكاذبون.

فقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴾ .

هو من علم الله سبحانه الذي اختص به نفسه ولا يشاركه فيه أحد ، فإنه يعلم سبحانه ما كان وما يكون وما سيكون ، وما لن يكون - لكن إن قُدِّرَ أن يكون كيف سوف يكون.

قال قتادة: ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ ﴾ ، يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم ، لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء).

قال شيخ المفسرين - الإمام ابن جرير - رحمه الله: (لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب ، لا إيماناً بالله). أي: ما بهم الأسى والندم على ترك الإيمان بالله والتصديق برسوله ، بل هو إشفاق مما هو نازل بهم من عقاب الله وأليم عذابه .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴾ .

قال القرطبي: (أي: لعادوا إلى الكفر ، واشتغلوا بلذة الحال). - ولأنكروا المعاد.

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُّوْا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال الجلال: (أي: عرضوا عليه). وقال ابن جرير: ﴿ إِذْ وُقِفُّوْا ﴾ ، يوم القيامة ،

أي: حبسوا). وقال ابن كثير: (أي: أوقفوا بين يديه). وقال النسفي: (مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه ، أو وَقِفُوا على جزاء ربهم). قلت: وكلها معان متقاربة متكاملة في إظهار آفاق المعنى.

وقوله: ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ۖ ﴾.

أي: أليس هذا المعاد - الذي أنكرتم وكذبتم في الدنيا - حقاً؟

فأجابوه: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۖ ﴾.

أي: بلى والله إنه لحق. قال القاسمي: (أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيته ، وإيداناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً في نفعه).

فأجابهم مهيناً لهم قاطعاً كل أمل في نفوسهم بالنجاة أو العودة: ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ ﴾.

أي: ذوقوا مسَّ العذاب الذي أنكرتم أو أخفيتم مقابل الكبر في الأرض وتعظيم الأهواء والشهوات وكبت المؤمنين ورفع شأن المجرمين الملحدين.

وفي التنزيل: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَىٰكَ فُكْتُم بِهَا تُكْذِبُونَ ۖ ﴾ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۖ ﴾ ﴿ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۖ ﴾ ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۖ ﴾ ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۖ ﴾ ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۖ ﴾ [المؤمنون: 105 - 111].

وفي التنزيل - كذلك -: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۖ ﴾ [فاطر: 37].

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَىٰ بالعبد يوم القيامة فيقول له: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسَ وَتَرْبُعَ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ

هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني⁽¹⁾.

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب).

31 - 32. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن خسارة المكذبين بلفائه، وعن خيبة أملهم وفراط ندمهم إذا عاينوا المشهد يوم القيامة وقد جاؤوا مثقلين بأوزارهم وخطاياهم. وإنما هذه الحياة باغيها في لعب ولهو، وإن الدار الآخرة هي دار القرار للمتقين أفلا تعقلون.

فقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾.

قال ابن جرير: (قد هلك ووُكِسَ، في بيعهم الإيمان بالكفر). وقال النسفي: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو هو مجرى على ظاهره لأن منكر البعث منكر للرؤية).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾.

قال القرطبي: (سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها).

وقال السدي: (أما ﴿يَحْسِرُنَا﴾، فندامتنا، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾، فضيعنا من عمل الجنة).

وقال القاسمي: (والحسرة: التلief على الشيء الفات. وذكرت على وجه النداء للمبالغة. والمراد: تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا﴾ أي: قصرنا ﴿فيها﴾ أي: في الحياة الدنيا. أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها. أي: على ماضينا فيها، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجيننا. أو

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2558) - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم (1978). وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم.

الضمير للساعة ، أي: على ما فرطنا في شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة).

وقال ابن جرير: (الضمير يعود إلى الصفقة التي دل عليها قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ..﴾ الخ، إذ الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرت. قال: والمعنى: قد وُكِّسَ الذين كذبوا بقاء الله، ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانه وجنته، بالكفر الذي يستوجبون به منه سَخَطُهُ وعقوبته. ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك ، حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم ، قالوا حينئذ تندماً: ﴿يَحْسِرَنَّ عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

الأوزار: جمع وزر ، وهو الحمل الثقيل ، وسمي به الذنب لثقله على صاحبه ، والوَزَرُ الجبل. وَخَصَّ الظهر بالحمل لأن المعهود حمل الأثقال عليه ، كما عهد الكسب بالأيدي.

قال القاسمي: (ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسند إليه من تدبير الولاية: والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها).

وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: ما يحملون من الإثم والتبعات.

قال قتادة: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ، قال: ساء ما يعملون).

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ - فيه أكثر من معنى:

1 - قال ابن جرير: (يقول: ما باغي لذات الحياة التي أذنت لكم وقربت منكم في داركم هذه ، ونعيمها وسرورها ، فيها ، والمتلذذ بها ، والمنافس عليها إلا في لعب ولهو ، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذها ، أو تأتية الأيام بفجائعتها وصروفها ، فتمِرُّ عليه وتكدر ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه ، ثم يعقبه منه ندماً ، ويورثه منه ترحاً).

2 - قال القرطبي: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: لِقَصْرِ مدتها).

3 - قال النسفي: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع ، واللهو الميل عن الجد إلى الهزل. قيل

ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو لأنها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة).

4 - وقيل: معنى ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور. وقيل: (المعنى متاع الحياة الدنيا لعب ولهو، أي: الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو) ذكره القرطبي.

5 - وقال ابن كثير: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك).

قلت: والراجح من المعنى لهذه الآية أنها متصلة بالآية قبلها، لتدحض قول الكافرين: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ - فجاء توضيح حقيقة هذه الحياة الدنيا، أنها للكفار دار لهو ولعب، وللمؤمنين دار استثمار وعمل، فيفوز العاملون المؤمنون في الآخرة، ويشقى الكفار اللاهون اللاعبون.

أخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح من حديث سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: [لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء]⁽¹⁾.

وأخرج ابن حبان في صحيحه، وأحمد في مسنده، بسند صحيح عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أو ثراً من هذا؟ فقال: ما لي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها]⁽²⁾.

وله شاهد عند الترمذي وابن ماجه عن عبد الله مرفوعاً: [ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها]⁽³⁾.

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب، أن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكرا الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: [إن الدنيا خضرة

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2320)، وابن ماجه (4110)، والحاكم (306/4)، وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2526)، وأحمد (301/1)، والحاكم (301/1)، وبنحوه البيهقي. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (60/2)، والحاكم (310/4)، وابن ماجه (526/2)، وأحمد (391/1) بإسناد صحيح من حديث عبد الله مرفوعاً.

حلوته ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ورُبَّ مُتَخَوِّصٍ فِي مَالِ اللَّهِ وَمَالِ رَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ إِلَّا النَّارُ يَوْمَ يُلْقَى اللَّهُ ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لِهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

وكقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلْهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : 83] .

قال ابن جرير : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، يقول : أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به ، من أن الحياة الدنيا لعب ولهو ، وهم يرون من يُحْتَرَمَ منهم ، ومن يهلك فيموت ، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع . ففي ذلك لمن عقل مدكر ومزدجر عن الركون إليها ، واستعباد النفس لها ، ودليل واضح على أن لها مدبراً ومصرفاً يلزم الخلق إخلاص العباد له ، بغير إشراك شيء سواه معه) .

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حجاب يحجبُهُ ، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله ، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرَةٍ] ⁽²⁾ .

33 - 36. قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَل لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي (277/3) ، وأحمد (364/6) (378/6) من طريقين .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (1413) - كتاب الزكاة ، وكذلك (7443) ، كتاب التوحيد ، ورواه مسلم في الصحيح (1016) ح (67) - كتاب الزكاة .

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ .

في هذه الآيات: تَسْلِيَةُ الله سبحانه نَبِيِّهِ ﷺ مما يلقي من تكذيب قومه ، فإنهم يا محمد لا يكذبونك فيما أتيتهم به من الوحي ، بل يعلمون صحته ، وإنما يجحدون حقيقته قولاً فلا يؤمنون به . فاصبر على ذلك العناد ، فقد كذبت رسل من قبلك أرسلتهم إلى أممهم ، فنالوهم بمكروه ، فصبروا حتى حكم الله بينه وبينهم وأنزل نصره ، فتأس بإخوتك الرسل ممن مضى قبلك . وإن كان عظم عليك إعراضهم فشق عليك ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض أو درجاً في السماء فتأتيهم بعلامة وبرهان على صحة قولك أفضل مما أتيناهم فافعل ، فإن الله تعالى لو شاء لجمعهم على محجة الحق ملة واحدة فتنبه ، فإنما يستجيب للدعائك من فتح الله عليه ، ونور قلبه بالحياة ، وسمعه بالحق ، وأما الأموات المبطلون فلا سبيل إليهم فقد طبع الله على قلوبهم وأصم آذانهم لكبرهم وتعاليلهم على الحق ، ثم يبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ونكال العقاب .

فقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ .

قال قتادة: (يعلمون أنك رسول الله ويجحدون). وقال سعيد بن جبير: (ليس يكذبون محمداً ، ولكنهم بآيات الله يجحدون) .

وفي التنزيل: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: 8] . وكذلك قوله جل ذكره: ﴿ فَلَئِمَّا بَنَعَ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6] .

وقوله جلت عظمتة: ﴿ لَعَلَّكَ بَنَعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3] .

يروى ابن جرير من طريق السدي قال: (التقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قریش غیری وغیرک یسمع كلامنا . فقال أبو جهل: ويحك؟ والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمداً قط ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيِّ باللواء والسقاية والحجابه والثبوة ، فماذا يكون لسائر قریش؟) .

وأخرج البيهقي في «الدلائل» نحوه من طريق محمد بن إسحاق: (قال الأخنس بن

شريك لأبي جهل: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ - وكان يستمع كل منهما قراءة النبي ﷺ من الليل - قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى نذكر هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾.

قال قتادة: (يعزي نبيه ﷺ كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كذبت قبله، فصبروا على ما كذبوا، حتى حكم الله وهو خير الحاكمين).

قال القرطبي: ﴿فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ أي: فاصبر كما صبروا. ﴿وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ أي: عوننا، أي: فسيأتيك ما وعدت به.

وقوله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِّكَلِمَتِ اللَّهِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولا مُغَيِّرَ لكلمات الله، و﴿كلماته﴾ تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إياه النصر على من خالفه وضاده، والظفر على من تولّى عنه وأدبر).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال القاسمي: (أي: من خبرهم في مصابرة الكافرين، وما منحوه من النصر، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم، وليس إهمالهم لإهمالهم، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم).

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾.

أي: إن شق عليك وثقل نأيهم عن الإيمان بما نزل عليك من القرآن، ونهيهم الناس عنه، فإنه وجدت منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض لتستخرج لهم معجزة خارقة مما اقترحوه، أو تصعد مصعداً في السماء لتأتيهم بذلك فافعل.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿وَإِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾، و«النفق» السرب، فتذهب فيه، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾، أو تجعل

لك سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به ، فافعل) .
قال قتادة: ﴿ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ : سَرَبًا ، ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ ، قال: السلم الدَّرَج).
قال الزجاج: (وهو مشتق من السلامة كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد).

قال النسفي: (فافعل - وهو جواب ﴿ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ ﴾ ، وإن استطعت وجوابها جواب ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ ﴾ . والمعنى إنك لا تستطيع ذلك ، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم).

وقال القاسمي: (وَحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أي: لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضرورياً غير نافع).

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ .

قال ابن عباس: (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سَبَقَ له من الله السعادة في الذكر الأول).
وهناك أقوال للمفسرين تكمل المعنى وتزيده وضوحاً وبياناً:

1 - قال القرطبي: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ أي: لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه ، بَيَّنَّ تعالى أن كفرهم بمشيئة الله رَدًّا على القدرية . وقيل المعنى: أي لأراهم آية تَضَطَّرُّهم إلى الإيمان ، ولكنه أراد عَزَّ وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن).

2 - قال النسفي: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ : لجعلهم بحيث يختارون الهدى ، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك).

3 - قال القاسمي: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ أي: ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه).

4 - وأكد شيخ المفسرين هذه المعاني حيث قال: (يقول تعالى ذكره: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار ، يا محمد ، فيحزنك تكذيبهم إياك ، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدين ، وصواب من محجة الإسلام ، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة ، وملتكم وملتهم واحدة ، لجمعتهم على ذلك ، ولم يكن بعيداً عليّ ، لأنني

القادر على ذلك بلطفي ، ولكنني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي ، ونافذ قضائي فيهم من قبل أن أخلقهم وأصور أجسامهم).

قلت : وهذه الآية العظيمة تندرج ضمن مفهوم المشيئة الإذنية ، فإن المشيئة كما وردت في الكتاب والسنة ثلاثة أقسام : كونية وشرعية ومشتركة .

أولاً : المشيئة الكونية . وهي نوعان : 1 - المشيئة الإجبارية . 2 - المشيئة الإذنية .

ثانياً : المشيئة الشرعية . - أمر الله ونهيه . -

ثالثاً : المشيئة المشتركة . - اشتراك المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية . -

وقد فصلت ذلك ببيان مُدَلَّل في كتابي : أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان - في أبحاث القدر - الباب السادس : مفهوم المشيئة والاستطاعة . فله الحمد والمنة .

وأما الآية الكريمة موضوع التفسير هنا : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ - فهي تدل على مفهوم المشيئة الإذنية : وهي المشيئة المرتبطة بعلم الله وعدله وحكمته ، إذ علم سبحانه الأعمال وكتبها فلا أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله ، ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله ، بل الكل داخل في اختياره تحت مشيئته تعالى ، فلا أحد يخرج بإرادته ومشيئته عن إرادة الله ومشيئته عز وجل .

قال سبحانه في سورة يونس : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . وقال جل ذكره في سورة النساء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . وقال جل ثناؤه في سورة النحل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال جل عظمته في سورة يونس : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فهو سبحانه لا يسأل عما يفعل لتمام علمه وكمال حكمته وعدله .

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله لو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس⁽¹⁾].

وفي لفظ عند البيهقي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال النبي ﷺ لأبي بكر : [يا أبا بكر ، لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس].

وقوله : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فيه أكثر من تأويل :

1 - قال ابن جرير : (يقول : فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه ، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختياراً لا اضطراراً).

2 - قال القرطبي : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد ، وإلى ما لا يحل . أي : لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين).

3 - وقال النسفي : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : من الذين يجهلون ذلك . وهو أن لو شاء سبحانه لجعلهم بحيث يختارون الهدى ، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك - كذا قاله الشيخ أبو منصور رحمه الله).

4 - وقال القاسمي : ﴿ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختياراً ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطراراً ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار).

5 - وقيل : الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة ، فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذا بهم .

قلت : والآية درس في إفهام أحد أركان الإيمان بالقدر ، فإن هذا الركن العظيم يرتكز على أركان ثلاثة : هي صفات لله سبحانه :

1 - العلم . 2 - الحكمة . 3 - العدل .

(1) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (92/6) ، والبيهقي في «الأسماء» (157).

فقد قضى سبحانه بعلمه وحكمته أن لا يجبر الناس على الإيمان ، بل بسط لهم صفحات هذا الكون الفسيح يقرؤون فيها دلالات إفراده تعالى بالتكبير والتعظيم ، ثم بسط لهم صفحات التنزيل الكريم ، يقرؤون فيها عن أسمائه وصفاته الحسنى ، وآياته ونعمه العظمى ، وخبر الأمم التي أهلكها الله بالكفر والكبر والعناد ، وخبر المرسلين وأتباعهم المؤمنين ، وما أعد الله لهم من النعيم المقيم ، وما هياً لأعدائه من العذاب المقيم . فالكتابة في اللوح المحفوظ عن كل من اختيار الفريقين مصيرهم هي كتابة علم لا كتابة جبر أو قهر . وبذلك يفهم حديث الكتابين اللذين أخرجهما رسول الله ﷺ يوماً أمام أصحابه :

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال : أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال : قلنا : لا ، إلا أن تُخبرنا يا رسول الله . فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجمل على آخرهم ، فلا يُرَادُ فيهم ولا يُنْقَضُ منهم أبداً . ثم قال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقصُ منهم أبداً . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأي شيء إذن نعمل إن كان هذا أمراً قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ : سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال : فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال : فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال : فريق في السعير⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، المؤمنون ، للذكر ، **﴿والموتى﴾** ، الكفار ، حين يبعثهم الله مع الموتى .

وقال قتادة : (هذا مثل المؤمن ، سمع كتاب الله فانتفع به وأخذ به وعقله . والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم ، وهذا مثل الكافر أصم أبكم ، لا يبصر هدى ولا ينتفع به) .

(1) حديث صحيح . انظر مسند أحمد (186/4) ، وصحيح ابن حبان (1806) ، ومستدرک الحاكم (31/1) ، ومسند أبي يعلى (171/2) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث (88) .

فالكفار موتى القلوب ، فكان ذلك تشبيهاً من الله لهم بأموات الأجساد .

وفي التنزيل : ﴿ لَيْسَ ذَرَمَن كَانَ حَيًّا وَيَحْيَى الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس : 70] .

وقال في هذه الآية : ﴿ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا من باب التهكم بهم ، والإزراء عليهم) .

37 - 39 . قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٩) .

في هذه الآيات : يخبر تعالى عن قيل هؤلاء المعرضين الجاحدين نبوة محمد ﷺ : هلا نزل على محمد آية من ربه ؟ قل يا محمد لهؤلاء - قائلتي ذلك - إن الله قادر أن ينزل حجة على ما يسألون ، ولكن أكثر الذين يسألون ذلك لا يدرون تبعات ذلك عليهم ، أو وجه ترك إنزال ذلك . ثم أعلمهم أن الله محيط بأعمالهم وأقوالهم ومواقفهم ، فلا يغفل سبحانه عن عمل شيء دب على الأرض صغير أو كبير ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء ، بل كل هؤلاء أمم موصفة ، قد أحصى أحوالهم سبحانه ، وأثبت ذلك في أم الكتاب ، وجميعهم آتية إلى أرض المحشر يوم القيامة . ولكن مثل الكافر كالأصم الأبكم ، لا يبصر هدى ، ولا ينتفع به ، صم عن الحق في الظلمات ، لا يستطيع منها خروجاً ، والله سبحانه يضل من يشاء من عباده عدلاً ، ويهدي من يشاء إلى صراطه القويم فضلاً .

فقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

قال الحسن : ﴿ لولا ﴾ ها هنا بمعنى هلاً . قال القرطبي : (وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين ، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله ، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب) .

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ﴾ .

أي: قل لهم يا محمد إن الله قادر على إنزال الخوارق والمعجزات والآيات ، بنحو ما تعتقوا كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِرَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ - فيه تفاسير متكاملة:

- 1 - لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده ، فهو العليم بمصالحهم .
 - 2 - لا يعلمون ما يترتب عليهم في نزول ذلك من البلاء ، أو ما يعقب ذلك من العقوبة لو كفروا بعد معاينة تلك الآيات .
 - 3 - لا يعلمون ما كتب الله من إخراج عباد صالحين من أصلابهم يؤمنون بالله ورسوله ، فلم يرد سبحانه من أجل ذلك استئصالهم .
 - 4 - لا يعلمون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك من حكمة الله التي لا يحيط بها أحد .
 - 5 - لا يعلمون أن ذلك الاقتراح منهم دليل على جهلهم .
- وقوله: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَیْرٌ يَّحْنَأُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ .
فيه أقوال متقاربة:

- 1 - قال مجاهد: (أصناف مصنفة تُعرف بأسمائها) .
- 2 - قال قتادة: (يقول: الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة) .
- 3 - وقال السدي: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ ، يقول: (إلا خلق أمثالكم) .
- 4 - وقال ابن جريج فيها: (الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب) .

قال ابن جرير: (وكيف يغفل عن أعمالكم ، أو يترك مجازاتكم عليها ، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء ، بل جعل ذلك كله أجناساً مُجَسَّسةً وأصنافاً مصنفة ، تعرف كما تعرفون ، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون ، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ، ومُثَبَّت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب) .

وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

يعني كتابة جميع دقائق تلك الأمم والعوالم في اللوح المحفوظ .

قال ابن عباس : (ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب) .

وقال ابن زيد : (لم نغفل الكتاب ، ما من شيء إلا وهو في الكتاب) .

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ .

فيه قولان :

1 - قال ابن عباس : (موت البهائم حشرها) . قال : (حشرها الموت) .

2 - قال أبو هريرة : (يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدواب والطيور وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : «كوني تراباً» ، فلذلك يقول الكافر : ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾) - ذكره بسنده ابن جرير .

والراجح القول الثاني ، وهو أن الحشر هنا يُعْنَى به الجمع لبعث الساعة وقيام القيامة .

أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ، عن عثمان رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : [إن الجماء لتقتصن من القرناء يوم القيامة] (1) .

ويشهد له ما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [لَتُؤَدَّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجلاء من الشاة القرناء] (2) .

وكذلك يشهد له ما أخرجه الطيالسي في «مسنده» عن الأعمش قال : سمعت منذراً الثوري يحدث عن أصحابه عن أبي ذر قال : [رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان ، فقال : يا أبا ذر ! أتدري فيما تنتطحان ؟ قلت : لا ، قال : ولكن ربك يدري ، وسيقضي بينهما يوم القيامة] (3) .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ .

قال قتادة : (هذا مثل الكافر ، أصم أبكم ، لا يبصر هدى ، ولا ينتفع به ، صَمٌّ عن الحق في الظلمات ، لا يستطيع منها خروجاً ، متسكع فيها) .

(1) صحيح بشواهد . أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (72/1) ، والبخاري (3449) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2582) - كتاب البر والصلة - باب تحريم الظلم .

(3) حديث حسن . أخرجه الطيالسي في «مسنده» (480) ، وأخرجه أحمد (162/5) . وله شواهد .

وفي التنزيل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ضُمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 17 - 18].

فالأصم الذي لا يسمع ، والأبكم الذي لا يتكلم ، وبذلك شبه الله المكذبين بحججه وآياته في جهلهم وقلة علمهم وسوء فهمهم . قال القرطبي: (أي: عَدِمُوا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم ، فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون).

وقوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

أي: هو سبحانه المتصرف في خلقه كما يشاء ، فيهدي من يشاء منهم فضلاً ، ويضل من يشاء منهم عدلاً ، فهو وحده تبارك وتعالى الذي اطلع على قلوب عباده .

قال القاسمي: (فمن أحب هدايته ، وَفَقَّهُ بفضلِهِ وإحسانه للإيمان ، ومن شاء ضلالتَهُ تركه على كفره. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40]).

قلت: ومفهوم ذلك أن الله سبحانه يعاقب العبد على حبه الضلال بقسوة القلب ، ويجازي المؤمن على إثارة طاعة ربه بالهداية والثبات .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً ، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ سُودَاءٍ ، وَأَيُّ قلبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ بِيضَاءٍ ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ أَبْيَضَ مِثْلَ الصِّفَاءِ لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخِرُ أَسْوَدَ مُرْبِداً كَالْكُوزِ مُجَحِّياً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يَنْكُرُ مَنَكراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ] (1).

والصراط المستقيم هو طريق الحق الذي مشى عليه الرسل والصالحون وثبتهم الله عليه ، حتى أكرمهم يوم القيامة بتجاوز الصراط إلى دار النعيم المقيم ، جعلنا الله والمؤمنين الصادقين من أهل صراطه المستقيم .

40 - 45. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ

أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (89/1 - 90) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) - كتاب الفتن - من حديث حذيفة رضي الله عنه .

وَتَسْنُونَ مَا تَشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
 يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ
 إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ .

في هذه الآيات: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من قومك: أخبروني إن جاءكم عذاب الله كالذي نزل على أمم قبلكم فهلکوا - كالرجفة والصيحة والصاعقة والغرق - أو جاءكم الساعة التي تخرجون فيها من قبوركم لمشهد الحساب يوم القيامة ، أغیر الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم!! هل تدعون شركاءكم وآلهتكم المكذوبة؟! بل إنكم هنالك تفرعون إلى الله وحده ليكشف عنكم ما أغمكم من الشدائد والأهوال دون كل شيء غيره ، وتسنون حينئذ ما تشركونه في العبادة . لقد أرسلنا إلى جماعات قبلكم من الأمم فأمرناهم ونهيناهم وامتحانهم بالفقر والضيقة والأسقام لعلهم يخلصون العبادة لله ويفردونه بالتعظيم ، وإذ لم يتضرعوا بل أقاموا على تكذيبهم واستكبارهم قساوة قلب منهم ، واستهتاراً بعقاب الله ، وقد حَسَّنَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي يَسْخَطُهَا اللَّهُ مِنْهُمْ ، فلما أَصْرُوا على غيِّهم استدرجناهم بعاجل لذات الدنيا حتى إذا فرحوا بسعة العيش والصحة وسكروا فاجأناهم بعقوبة مؤلمة وأخذناهم فأصبحوا هالكين . فاستؤصل القوم الذين عتوا على ربهم والحمد لله رب العالمين .

فقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أي: أخبروني . وقوله: ﴿ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ ﴾ . أي: بمثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة التي عتت عن أمر ربها ورسله . ﴿ أَوْ أَتَيْتُمْ أَلْسَاعَهُ ﴾ يعني القيامة .

وقوله: ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قال القرطبي: (أي: أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله ، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضاً ، فلم تصرُّوا على الشرك في حال الرفاهية؟! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب).

وقوله: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ . أي: تخصصون بالدعوة . ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ .

قال القاسمي: (أي: إن شاء كشفه . والتقيد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير

مطردة ، بل هي تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حُكم استأثر بعلمها).

وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

أي: وقت الحاجة والضرورة وحلول المهالك. وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: 67].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾.

يعني: الفقر وضيق العيش والقحط والشدائد. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ يعني الأمراض والأسقام والآلام. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرُّوْنَ﴾. أي: يتدللون لله ويدعونه ويتضرعون إليه ويخشعون.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾.

قال ابن كثير: (أي: فهلاً إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا).

وقوله: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

قال القرطبي: (أي: صَلُبَتْ وَعَلُظَتْ ، وهي عبارة عن الكبر والإصرار على المعصية ، نسأل الله العافية). وقال القاسمي: (وجيء بـ«لولا» ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم يكن فيها لين يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به).

وقوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: من الكبر والشرك والعجب والغرور.

قال النسفي: (وصاروا معجبين بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم).

أخرج ابن عدي والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب]⁽¹⁾.

وفي لفظ البيهقي: [لو لم تكونوا تذنبون ، لَخِفْتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العُجْبُ العُجْبُ].

(1) حديث حسن. أخرجه ابن عدي (164/1) ، والعقيلي (171) ، والبيهقي ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (658).

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: لما تمادوا بالبغي والغرور والعجب والاستكبار فتحنا عليهم أبواب الملذات والرزق من كل ما يختارون استدراجاً لهم وعلامة على اقتراب النهاية.

قال ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ، يعني: تركوا ما ذكروا به. وقال ابن جريج: (ما دعاهم الله إليه ورسله ، أبوه وردّوه عليهم).

وعن مجاهد: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: رخاء الدنيا ويُسرها ، على القرون الأولى. وقال قتادة: (يعني الرخاء وسعة الرزق).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

قال السدي: (أخذهم العذاب بغتة ، فإذا هم مهلكون ، متغيّر حالهم).

وقال مجاهد: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ، قال: الاكتئاب.

وقال ابن زيد: (المبلس الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه. والمبلس أشد من المُستكين ، وقرأ: ﴿فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّيْبِ وَمَا يَضْرَعُونَ﴾ [المؤمنون: 76]. وكان أول مرة فيه معاتبة وبقية. وقرأ قول الله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ وَالْضُرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضْرَعُونَ﴾ ، ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ، حتى بلغ: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، ثم جاء أمر ليس فيه بقية. وقرأ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ، فجاء أمر ليس فيه بقية. وكان الأول ، لو أنهم تضرعوا كشف عنهم).

قلت: والإبلاس في كلام العرب الانكسار والحزن. يقال: أبلس فلان إذا سكت غمّاً. قال الرازي: («أبلس» من رحمة الله أي: يئس . ومنه سمي «إبليس»).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وابن جرير في التفسير ، بسند قوي ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾] (1).

وقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال السدي: (قطع أصل الذين ظلموا). وقال ابن زيد: (استؤصلوا).

(1) صحيح لشواهده. أخرجه أحمد (145/4) ، وابن جرير (115/7) ، والبيهقي في «الشعب» (4540).

قال النسفي: (أي: أهلكوا عن آخرهم ولم يترك منهم أحد. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إيدان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم وأجل القسم ، أو احمدا الله على إهلاك من لم يحمد الله).

وفي كلام العرب: الدابر الآخر. دبر فلان القوم إذا كان آخرهم في المجيء.

قال القرطبي: (ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور).

يروى ابن أبي حاتم عن قتادة قال: (بَغَتِ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون).

فالحمد لله الذي أظهر حججه ، ونصر رسله ، وأهلك أعداءه ، تمكيناً لدينه في الأرض ، وتكرمة لأوليائه وأهل طاعته أتباع رسله ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، وفي كل حال .

46 - 49. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنُكِّمَ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله العادلين به الأوثان والطواغيت ، المكذبين بنبوتك ماذا لو أصمكم الله فذهب بأسماعكم ، وأعماكم فذهب بأبصاركم ، وطبع على قلوبكم فعميت الفقه والحجة وعمت الفهم! فأى إله غير الله - جلت عظمته - يرد عليكم ما ذهب عنكم ، انظر يا محمد كيف نتابع عليهم الأمثال والحجج ليعتبروا ثم هم يعدلون ويعرضون. قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان ، المكذبين بنبوتك ماذا لو فاجأكم الله بعذاب من عنده ، هل يحق الهلاك إلا بالظالمين الآثمين. إنما نرسل رسلنا بشارة لأهل الطاعة ، نذارة لأهل المعصية فمن آمن وعمل صالحاً فلا خوف عليهم عند قدومهم على ربهم ، ولا هم

يحزنون على ما خلفوا وراءهم في هذه الدنيا. وأما الذين كذبوا بالآيات والحجج وعاندوا فأولئك يباشرهم العذاب بما كانوا يكسبون.

فقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: بأن أَصَمَّكُمْ وَأَعَمَّاكُمْ وغطى على قلوبكم ما يزول به عقلكم وفهمكم.

وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾.

أي: بما أخذ منكم وحرّمكم من الاستمتاع بهذه النعم العظيمة. قال القاسمي: (وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر، لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا).

وقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾.

أي: انظر يا محمد كيف نورد هذه الدلالات والأمثال ثم يُصَرِّهُ هَؤُلَاءِ المشركون على الجحود والعناد والإعراض بغياً وحسداً وكبراً. قال ابن عباس: ﴿يَصْذِفُونَ﴾: يعدلون). وقال مجاهد: ﴿يَصْذِفُونَ﴾: يعرضون). وقال السدي: ﴿يَصْذِفُونَ﴾: يصدون).

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾.

أي: أخبروني إن فاجأكم الله بعذابه على غرة أو معاينة تنظرون إليه.

قال مجاهد: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً﴾، فجأة آمين، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾، وهم ينظرون).

وقوله: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العباد، ويترك عبادة من يستحق علينا العباد).

وقال القرطبي: (والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾).

وقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

قال الحسن: (مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة. قال: ومعنى ﴿منذرين﴾ مخوفين عقاب الله).

وقوله: ﴿فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ، أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: إن الذين كذبوا بالقرآن والمعجزات ونبوة محمد ﷺ سيُبَاشِرُهُمُ العذاب بما كانوا يكفرون ويجحدون. قال ابن زيد: (كل ﴿فسق﴾ في القرآن ، فمعناه الكذب).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار] (1).

50 - 54. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْعٌ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآيات: خطابٌ من الله سبحانه لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (153) - كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

نبوتك - لست أملك خزائن الرب عز وجل ، خزائن السماوات والأرض ، ولست أعلم ما يغيب ولا أدعي أنني ملك ، وإنما أنا عبد رسول أتبع ما يوحى إلي من ربي عز وجل ، فهل يستوي الأعْمى عن الحق والبصير به أفلا تتفهمون هذه الحجج!! وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين يخافون ربهم ، والموقف في الحشر وأحوال ذلك اليوم ، حيث لا ناصر ولا شفيع يشفع عند الله من عقابه الذي قضاه لأهل الكفر والجحود، لعلمهم يرهبون ويحذرون ما يسخطه ويعملون ما يحبه - جلت عظمتة . ثم لا تطرد المؤمنين المستضعفين من مجلسك من أجل الطغاة المجرمين ، فإن جلوس المؤمنين أحب إلى الله من جلوس أولئك الذين يستكبرون أن يقعدوا جنب المؤمنين ، فحذار أن تطردهم فتكون من الظالمين . فإنما فتنا هؤلاء بهؤلاء بقسمة الأرزاق والأخلاق والقوة والضعف ليقول المجرمون المخدوعون بالقوة والمال هؤلاء الفقراء الضعفة من الله عليهم بالهدى ونحن أحق! فأجابهم الله تعالى: أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك المؤمنون يا محمد وقد انكسرت قلوبهم بذنوب زلت نفوسهم وجوارحهم بها فبشرهم بسعة مغفرة الله ورحمته لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وأنه سبحانه غفور رحيم .

فقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ .

أي : فيكون أمر التصرف بها إلي ، وأجيبيكم ما خَطرَ لكم .

قال القاسمي : (لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إلي ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً ، وغير ذلك) . وقال القرطبي : (هذا جواب لقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فالمعنى : ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات ، ولا أعلم الغيب فأخبركم به) .

والخزائن جمع خزانة . وهي المكان الذي يخزن فيه الشيء . قال الرازي : (خزن المال جعله في الخزانة) . وَخَزَنُ الْمَالِ أَوْ الشَّيْءِ إِحْرَازُهُ ، بِحَيْثُ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي .

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [لَا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَمْرِي بغير إذنه ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَوْتِيَ مَشْرَبَتُهُ فَتُكْسَرَ خِزَانَتُهُ فَيَتَقَلَّ طَعَامُهُ ؟] فَإِنَّمَا تَخْزَنُ لَهُمْ ضُرُوعُ مَوَاشِيهِمْ أَطْعِمَاتِهِمْ ، فَلَا يَحْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (2435) - كتاب في اللقطة - باب : لَا تُحْتَلَبُ مَاشِيَةٌ أَحَدٍ بغير إذنه . من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾.

أي: لا أدعي أنني ملك من الملائكة أظهر الخوارق.

قال ابن جرير: (لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر في الدنيا ، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك). وقال القرطبي: (وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل ، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر).

والخلاصة: قال لهم رسول الله ﷺ: لست ملكاً حتى تكلفوني بخوارق العادات مما لا يطيقه البشر ، من الرقي في السماء ، ورؤية الأمور العظام ، إنما أنا بشر يأكل ويشرب وينام ولكن الله اصطفاني بالوحي لأبلغ كلامه ورسالته ، ولذلك قال: ﴿إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ، قال: الضال والمهتدي). وقال قتادة: (﴿الأعمى﴾ الكافر الذي قد عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه ، و﴿البصير﴾ ، العبد المؤمن الذي أبصر نافعاً ، فوحد الله وحده ، وعمل بطاعة ربه ، وانتفع بما آتاه الله).

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

قال ابن جرير: (ومعناه ، يعلمون أنهم يحشرون ، فوضعت «المخافة» موضع «العلم» ، لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك).

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله - عز وجل - لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فيعملون في هذه الدار عملاً يُنجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويُضاعف لهم به الجزيل من ثوابه).

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سعد قال: [فِي] نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْغَدُوقِ وَالْأَعْنَى ﴿١﴾ ، قال: نزلت في ستة ، أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تُذْنِي هؤُلاءِ [١].

وأخرج ابن ماجة والحاكم وابن جرير بسند صحيح عن المقدام بن شريح عن أبيه ، عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤُلاءِ لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوقِ وَالْأَعْنَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [٢].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوقِ وَالْأَعْنَى﴾ - في تأويله أقوال:

1 - ذكر ابن عباس ومجاهد أن المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة.

قال ابن عباس: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ، يعبدون ربهم ، ﴿بِالْغَدُوقِ وَالْأَعْنَى﴾ ، يعني: الصلاة المكتوبة).

وقال مجاهد: (الصلاة المفروضة ، الصبح والعصر).

2 - ذكر إبراهيم أن المقصود بالدعاء الذكر. قال إبراهيم: (لا تطردهم عن الذكر). وقال منصور: (هم أهل الذكر).

3 - ذكر أبو جعفر أن المراد تعلمهم القرآن وقراءته. قال أبو جعفر: (كان يقرئهم القرآن ، من الذي يَقْصُرُ على النبي ﷺ).

4 - ذكر الضحاك أن المقصود العبادة. قال الضحاك: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوقِ وَالْأَعْنَى﴾ قال: يعني: يعبدون ، ألا ترى أنه قال: ﴿لَا جَرَّوَأَنْمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ...﴾ ﴿١٢﴾ [غافر] ، يعني: تعبدون).

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2413) ، وسنن ابن ماجة (4128) ، ومستدرك الحاكم (319/3). ورواه النسائي في «التفسير» (183) ، وأخرجه أبو يعلى (826) ، والطبري (13266) ، وغيرهم. من حديث سعد رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة (4128) - باب مجالسة الفقراء. ومستدرك الحاكم (319/3) وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وانظر الواحدي (431) ، والصحيح المسند - الوادعي. الأنعام (52). وأخرجه النسائي في «الكبرى» (11163) ، والطبري في «التفسير» (13266) ، وأبو يعلى (826). من حديث سعد رضي الله عنه.

قلت: والدعاء يشمل كل ما ذكر ، فالصلاة دعاء ، والذكر والقرآن والعبادة بجميع ألوانها وأشكالها من الدعاء . وفي الحديث: [إن الدعاء هو العبادة]⁽¹⁾ . وفي الحديث: [ليس شيء أكرم على الله سبحانه من الدعاء]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ - فيه قولان:

القول الأول: يريدون طاعته ، والإخلاص في عبادتهم لله تعالى ، فلا يتوجهون بذلك إلا إليه .

قال ابن جرير: (يلتمسون بذلك القربة إلى الله ، والدنو من رضاه) .

القول الثاني: يبتغون الله الموصوف بالوجه . قال القرطبي: (يريدون الله الموصوف بأن له الوجه ، كما قال: ﴿وَيَقْنِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27] . وهو كقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ...﴾ [الرعد: 22] . وخصّ الغداة والعشي بالذكر ، لأن الشغل غالب فيهما على الناس ، وما كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل) .

قلت: وكلا القولين صحيح . فإن الآية تفيد الإخلاص في العمل لله الواحد الأحد ، كما تفيد إثبات صفة الوجه لله الكريم . وقد أكدت السنة الصحيحة هذه الصفة الجليلة . ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينام ، ولا ينبغي أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور (أو النار) ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره] . وفي لفظ: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)⁽³⁾ .

- (1) حديث صحيح . أخرجه أحمد وأصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير . انظر صحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (3086) .
- (2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجه في السنن (3087) - كتاب الدعاء - باب فضل الدعاء . انظر صحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (3087) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (179) ، كتاب الإيمان . والحجاب هو الذي يحجب الأبصار أن تراه في الدنيا ، وهو الذي أشار إليه النبي ﷺ بحديث أبي ذر: [قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه] . أخرجه مسلم في صحيحه (178) - كتاب الإيمان . باب قوله ﷺ: «نور أنى أراه» ، «رأيت نوراً» .

وقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

كقول نوح عليه السلام حين ردّ على قومه مثل ذلك ، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ .

والمعنى: إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس عليّ من حسابهم شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء . ذكره القاسمي .

قال أبو السعود: (وذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ ، بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلاً ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام ، عليهم ، على طريقة قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾) .

وقال النسفي: (وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم ، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعدها إلك ، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم) .

وقوله: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ .

جواب النفي وهو: «ما عليك من حسابهم» .

وقوله: ﴿ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

جواب النهي ، وهو قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدْ ﴾ . أو في موقع العطف على ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ على وجه التسبيب ، لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم .

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ ، يعني أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء ، فقال الأغنياء للفقراء: ﴿ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ، يعني: هداهم الله . وإنما قالوا ذلك استهزاء وسُخْرِيّاً .

فأجابهم سبحانه بهذه الآية التي تفرع العقول والقلوب وتفهّم بحث القدر: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ .

أي: هو تعالى وحده الذي اطلع على قلوب عباده وعلم أعمالهم وكتب ذلك في اللوح المحفوظ كتابة علم لا كتابة جبر ، فقسم الأعمال والأخلاق والأرزاق . فهدى

المؤمنين هداية توفيق وإلهام، اختصاصاً بهم بعد هداية الرسل الكرام. كما قال جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم]. وفي لفظ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] (1).

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطيته ، وإن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته] (2).

فهذا الشكر المتتابع من العبد لربه عز وجل بحرصه على محابته ، جلّت عظمته ، أعقبه الله فيه اختصاصاً وولاية ، حتى صار في ذمة الله فمن عاداه فقد أعلن الله تعالى عليه الحرب ، ومن آذنه الله بالحرب فقد هلك .

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ .

يعني: إذا جاءك يا محمد أهل الإيمان والتصديق فأكرمهم ببرد السلام عليهم ، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة ، وقربهم منك ولا تبعدهم .

قال البيضاوي: (وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن، واتباع الحجج، بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم، أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم، ويشيرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهي عن طردهم ، إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل . ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد ، ويُعزَّز ولا يُذَل ، ويُشَر من الله بالسلامة في الدنيا ، والرحمة في الآخرة) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2564) (33) ، وكذلك (34) من حديث أبي هريرة ، كتاب في البر والصلة . وأخرجه أحمد في المسند (7814) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (231/4) من حديث أبي هريرة ، والبغوي في شرح السنة (2/142/1) ، ويشهد له ما في المسند (256/6) .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : [إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي] ⁽¹⁾.

وقوله : ﴿ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءٌ أَوْ يَجْهَلُ شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قال النسفي : ﴿ أنه ﴾ الضمير للشأن ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءٌ ﴾ ذنباً ﴿ يَجْهَلُ ﴾ في موضع الحال ، أي : عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة ، أو جعل جاهلاً لإثاره المعصية على الطاعة ﴿ شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد السوء أو العمل ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أخلص توبته ﴿ فَإِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

55 - 59. قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ^(٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ ^(٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٥٩) .

في هذه الآيات : يقول جل ذكره : كما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة من ابتدائها حتى هذا الموضع ، كذلك نفصل لك الأدلة والحجج في كل حق لإزهاق محاولات أهل الباطل ولتتضح لك سبيل المجرمين . قل لهؤلاء المشركين - يا محمد - : إن ربي عز وجل نهاني عن عبادة ما تدعون من دونه ولن أوافق أهواءكم ، وإن فعلت فقد اخترت حينئذ سبيل الضلال . إني على بيان من الله وحجة ناصعة وبرهان ، وكذبتكم أنتم بربكم ، وما تستعجلونه من النقم والعذاب ليس بيدي ، إنما الحكم في كل شأن في هذا الكون لله أعدل الحاكمين وخير الفاصلين . ولو أن بيدي ذلك لعجلت لكم به ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3194) ، (7404) ، (7553) ، وأخرجه مسلم برقم (2751) ، ورواه أحمد في المسند (313/2) .

ولأريتكم الآيات والخوارق ، والعذاب الذي تستعجلون ، ولكنه بيد الجبار سبحانه ، وهو أعلم بوقت إرساله على الظالمين . فعنده مفاتيح الغيب لا يشركه بذلك أحد ، وهو الذي يعلم ما في البر والبحر وما يجري فيها وما يكون ، وما تسقط ورقة في الصحارى والجبال والبراري والأمصار والقرى إلا يعلمها ، وكذلك لا يغيب عنه علم كل حبة أو شجرة وكل رطب أو يابس في أرجاء هذا الكون ، بل هو مثبت في اللوح المحفوظ .

فقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ .

أي : كما فعلنا في هذه السورة من بدايتها وقد بسطنا لك يا محمد في ذكر ما يدحض حجج المبطلين ، فالأمر سيستمر كذلك في كل هذا القرآن العزيز . قال ابن جرير : (كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل) . قال قتادة : (﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ ، نبين الآيات) .

وقوله : ﴿ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ - فيه قراءات :

1 - قرأها عامة قراء المدينة : ﴿ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بنصب سبيل . أي : لتستبين أنت يا محمد سبيل المعاندين المجرمين الذين رغبوا بطرد المؤمنين . قال ابن زيد : (﴿ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ : الذين يأمرونك بطرد هؤلاء) .

2 - وقرأها بعض المكيين والبصريين : ﴿ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ . والتقدير : ولتتضح لك يا محمد وللمؤمنين طريق المجرمين .

3 - وقرأها عامة قراء الكوفة : ﴿ وَلَيْسَتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بالياء في الكلمة الأولى بدل التاء . وأشهر هذه القراءات وأقربها القراءتان الثانية والثالثة ، وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي مُهَيِّئُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

أي : فلا يستحق التعظيم إلا الله .

قال النسفي : (أي : صرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله) .

وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ - تأكيد لقطع أطماعهم .

قال البيضاوي : (هو إشارة إلى الموجب للنهي ، وعللة الامتناع عن متابعتهم ،

واستجها لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوى ، وليس بهدى . وتنبه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد).

وقوله: ﴿ قَدْ ضَلَّكُ إِذَا ﴾ .

أي: إن ركبت أهواءكم ، ومضيت كما مضيتم في تخطيكم .

وقوله: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

أي: دخلت حينئذ في متاهات الضلال ، وانحرفت عن سبيل الهدى والرشاد ، فشاركتم في ضلالكم وضياعكم .

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ .

أي: على بصيرة ونور من شريعة ربي عز وجل .

وقوله: ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ .

أي: وقد كذبتكم بالحق الذي شرفني الله به وعميتم عنه .

وقوله: ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ .

قال القرطبي: (أي: العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء⁽¹⁾ . وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها)⁽²⁾ .

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة) .

وقوله: ﴿ يَقُصُّ الْحَقُّ ﴾ .

قال القرطبي: (أي: يقص القصص الحق ، وبه استدل من منع المجاز في القرآن) .

(1) كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32] . وكقولهم: ﴿ أَوْ شَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ . [الإسراء: 92] .

(2) كما قال تعالى في معرض ذكر اقتراحاتهم: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَك جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنَبٌ فَتَقْجِرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَقْجِيرًا ﴾ . وكقوله: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ . وكقوله: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَك بَيْتٌ مِّنْ دُخَانٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 93] .

وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾.

أي: خير من فصل الخلافات والخصومات والقضايا ، وهو سبحانه خير الفاتحين الحاكمين بين عباده. وفي التنزيل: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46].

أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح ، عن هانئ بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم⁽¹⁾].

وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا سْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: لو كان أمر العذاب بيدي لأنزلته بكم وعاجلتكم به كما ترغبون ، حتى ينقضي الأمر إلى آخره.

قال أبو السعود: (أهلكتم عاجلاً ، غضباً لربي ، واقتصاصاً من تكذيبكم به).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي: المشركين وبوقت عقوبتهم).

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

قال السدي: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ، يقول: خزائن الغيب).

وعن عطاء ، عن ابن عباس: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ، قال: هن خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾).

والمفاتيح جمع مِفْتَاحٍ. يقال: مِفْتَاحٌ ومِفْتَاحٌ. قال ابن جرير: (فمن قال: «مِفْتَاحٌ»، جمعه «مفاتيح»، ومن قال: «مِفْتَاحٌ»، جمعه «مفاتيح»).

أخرج البخاري في صحيحه عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: [مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ⁽²⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955). ورواه النسائي. انظر تخريج الإرواء

(2682) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1841).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4627) ، وأخرجه النسائي في السنن «الكبرى» (7728).

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي ، وابن ماجه - واللفظ له - من حديث أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل . فقال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله! ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها. إذا ولدت الأمة ربتها فذلك من أشراطها ، وإذا تناول رعاء الغنم في البنيان فذلك من أشراطها ، في خمس لا يعلمهن إلا الله . فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [١].

وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ .

أي: من الخلق والعجائب. فإنه سبحانه يحيط علمه بجميع عوالم السماوات والأرض ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك ولو كان مثقال ذرة .

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ .

قال ابن جرير: (ولا تسقط ورقة في الصحارى والبراري ، ولا في الأمصار والقرى ، إلا الله يعلمها). قال القرطبي: (أي: من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء).

وقوله: ﴿ وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس: (خلق الله الثون - وهي الدواة - وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ . . . إلى آخر الآية) - رواه ابن أبي حاتم .

وظلمات الأرض بطونها ، والمعنى: لا تنبت حبة في أية بقعة في الأرض إلا يعلم سبحانه متى تنبت ، وكم تنبت ، ومن يأكلها. ولا تبيس أرض أو ترطب إلا يعلم

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (8) ، وسنن ابن ماجه (64) - باب في الإيمان - واللفظ له . وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن (2610) ، والنسائي (97/8) ، وأخرجه ابن حبان (168) .

سبحانه ييسها إذا ييست ، ورطوبتها إذا رطبت .

قال النسفي : (وقوله : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كالتكرير لقوله ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ، لأن معنى ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ومعنى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واحد ، وهو علم الله أو اللوح .

وقال القرطبي : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ . أي : في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك ، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه ، تعالى عن ذلك . وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أي : اعلّموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فكيف بما فيه ثواب وعقاب) .

قلت : وقد دلت السنة الصحيحة على آفاق هذا المعنى ، في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة] (1) .

الحديث الثاني : أخرج الطبراني بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة] (2) .

الحديث الثالث : أخرج الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد] (3) . وفي رواية : (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه) .

وله شاهد عند ابن عساكر بسند جيد عن أنس ، بلفظ : [فرغ الله من أربع : من الخلق والخلق والرزق والأجل] .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (69/2) ، وأخرجه الترمذي (2259) من حديث عبد الله بن عمرو ، وانظر صحيح مسلم (51/8) بلفظ قريب . وأخرجه ابن حبان (6138) .

(2) حديث صحيح . رواه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . انظر تخريج الطحاوية (78) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4080) ، ورواه البيهقي .

(3) إسناده صحيح . أخرجه أحمد (197/5) ، وابن عساكر (2/493/17) ، والطبراني في الكبير والأوسط ، من حديث أبي الدرداء . قال الهيثمي (195/7) : (رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير) و«الأوسط» ، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات . وانظر تخريج السنة لابن أبي عاصم (303) ، (304) ، (305) - الألباني . وانظر للشاهد بعده «صحيح الجامع» (4079) .

60 - 62. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: عَطَفُ على البيان السابق: - وقل لهم يا محمد: إن الله تعالى هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم ، ويعلم ما كسبتم من الأعمال في النهار ، ثم يوقظكم من نومكم في النهار فيبعثكم ، ليقضي الأجل الذي كتبه لحياتكم بالموت عند انتهاء العمر الذي اختاره لكم ثم معادكم ومردكم إليه سبحانه فيخبركم بما كنتم تعملون . وهو الغالب خلقه والعالي عليهم بقدرته وجبروته ويرسل ملائكته فيكم فيتعاقبون ليلاً ونهاراً يحفظون أعمالكم ويصعدون بذلك إلى الله ، فإذا جاء الموت أرسل إليكم ملائكة يقبضون أرواحكم من ملك الموت ولا يفرطون في ذلك ويصعدون بها . ثم رُدَّتْ الملائكة الذين جاؤوا بالأرواح بعد نزعها - إلى الله سيدهم الحق ، ألا له الحكم والقضاء وهو أسرع من حسب أعماركم وآجالكم وأعدادكم وأعمالكم .

فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ .

قال السدي: (أما ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ففي النوم ، وأما ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ فيقول: ما اكتسبتم من الإثم). وقال قتادة: (﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ، يعني بذلك نومهم ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ، أي: ما عملتم من ذنب فهو يعلمه ، لا يخفي عليه شيء من ذلك). قال ابن جرير: (وهذا الكلام وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن قدرته وعمله ، فإن فيه احتجاجاً على المشركين به ، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم).

قلت: والتوفي المذكور في هذه الآية هو التوفي الأصغر ، دون القبض التام للروح الذي هو التوفي الأكبر . كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

وَأَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴿٤٢﴾
[الزمر: 42].

قال الشوكاني: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: أي: يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان).

وقال الفراء: (المعنى) ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيقها نومها، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت وفاتها نومها). قال ابن زيد: (فالنوم وفاة). والمقصود: يقبضها عن التصرف والتميز مع بقاء الأرواح في أجسادها. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن حذيفة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده، ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6320) - كتاب الدعوات، وكذلك (7393) - كتاب التوحيد.

ورواه مسلم (2714) - كتاب الذكر والدعاء. باب الدعاء عند النوم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6314) - كتاب الدعوات - باب وضع اليد تحت الخد اليمنى. وانظر (6312) منه - باب ما يقول إذا نام، وكذلك (6324)، (7394).

(3) حديث حسن. انظر تخريج الكلم الطيب (34)، (45)، وصحيح الجامع الصغير (326).

(4) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/36/2)، وأبو نعيم في الحلية (7/90).

قلت: فالوفاة هنا في هذه الآية بمعنى النوم ، والنوم أخو الموت ، ولا ينام أهل الجنة . وقد بسطت القول في مفهوم الوفاة وأنواع استخدام لفظها ، وكذلك الصلة بين الروح والنفس والفؤاد والعقل والجسد والمشاعر في كتابي: «تحصيل السعادتين» فله الحمد والمنة .

وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ .

قال مجاهد: (﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ ، قال: في النهار). وقال قتادة: (والبعث اليقظة).

وعن السدي: (﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ، قال: هو أجل الحياة إلى الموت). وقال مجاهد: (وهو الموت). وقال عبد الله بن كثير: (﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ، قال: مدتهم).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

أي: ثم إلى الله بارئكم يكون معادكم ومآلكم ، ثم تعرض عليكم أعمالكم في صُحفكم ، ثم يجازيكم بها ، ولا تظلم نفس مثقال ذرة .

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ ، والله الغالب خلقه ، العالي عليهم بقدرته ، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم).

وفي مستدرك الحاكم عن عائشة قالت: [كان إذا تَصَوَّرَ من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ .

أي: من الملائكة ، يحفظون بدن العبد ، وغيرهم يحفظ أعماله ويحصيها .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1- قال تعالى: ﴿لَمْ مَعِيبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11].

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث عائشة . انظر صحيح ابن حبان (2358) ، ومستدرك الحاكم (540/1) ، والسلسلة الصحيحة (2066) .

2 - وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَتَّبِعُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: 10 - 12].

3 - وقال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

قال السدي: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ، قال: هي المعقبات من الملائكة ، يحفظونه ويحفظون عمله). وعن ابن عباس: (والمعقبات من الله هي الملائكة ، يحفظونه من أمر الله) قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه).

وقال مجاهد: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ : عن اليمين الذي يكتب الحسنات ، وعن الشمال الذي يكتب السيئات).

وفي مُعْجَم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كُتبت واحدة]⁽¹⁾.

وفي المسند بسند صحيح عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه]⁽²⁾.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ .

قال إبراهيم: (أعوان ملك الموت). وكان ابن عباس يقول: (لملك الموت أعوان من الملائكة). وقال الكلبي: (إن ملك الموت هو يلي ذلك ، فيدفعه ، إن كان مؤمناً ، إلى ملائكة الرحمة ، وإن كان كافراً إلى ملائكة العذاب).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى ، في أحاديث:

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني في «الكبير» (ق 2/25) ، والبيهقي في «الشعب» (1/394/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (469/3) ، ومالك (5/985/2) ، والترمذي (52/2) ، وأخرجه ابن ماجه في السنن (3969) ، وابن حبان (1576) ، والحاكم (45-46) ، وغيرهم.

الحديث الأول: حديث البراء - أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والطيالسي وفيه: [إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي لفظ: المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، فذلك قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الحديث. ثم يقول: [وإن العبد الكافر (وفي لفظ: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه معهم المسح من النار ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السّفود الكثير الشعب من الصوف المبلول... فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسح] (1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج (2). قال: فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج] (3).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (287/4 ، 288 ، 295 ، 296) ، وأبو داود (281/2) بسند صحيح

من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وانظر أحكام الجنائز (159).

(2) وفي رواية: [ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى].

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (364/2 - 365) ، وأبو داود (3212) نحوه ، وابن ماجة (4262).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً - وفيه: قال النبي ﷺ: [فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى . وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي: حكماً - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له . فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة] (1).

وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: (لا يضيعون) .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (ثم ردت الملائكة التي توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم ، إلى الله سيدهم الحق ، ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ ، يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه ، ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴾ ، يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم ، أيها الناس ، وأحصاها ، وعرف مقاديرها ومبالغها) .

وقال القاسمي: (﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ، ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴾ يحاسب الخلائق في أسرع زمان) .

قلت: والله سبحانه من أسمائه الحكم ، وهو بمعنى الحاكم ، وحقيقته: الذي سُلم له الحكم وَرُدَّ إليه . كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴾ .

وكقوله في سورة المائدة: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (373/6 - 374) من حديث أبي سعيد ، وأخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2766) ، وغيرهما .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن هانئ بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْمُ] (1).

63 - 65. قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٦) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيَاقًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١٧).

في هذه الآيات: خِطَابُ الله المتتابع لنبیه ﷺ، قل لهؤلاء المشركين بربهم - يا محمد -: من الذي ينجيكم إذا دخلتم في ظلمات سبل البر أو البحر وشعرتم بالخوف ومظنة الهلاك وتحيرتم بهذا الضياع والضلال ، إلا الله تعالى الذي إليه مفرعكم حينئذ بالدعاء ، تدعونه استكانة سرًا وجهراً ، لئن أنجيتنا يا رب من هذه لَنُخْلِصَنَّ لك الشكر والعبادة. قل لهم يا محمد: الله وحده القادر على نجاتكم وفرجكم ثم أنتم بعد تَكْرُمِهِ عليكم بالنجاة والفرج تشركون. إنه - جلت عظمتة - هو القادر أن يعيدكم في الظلمات والأحوال مرة أخرى مقابل خيانتكم العهود والمواثيق وانتكاسكم مرة ثانية في أحوال الشرك ، وأن يرسل عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزاباً متفرقة يقتل بعضكم بعضاً ، فانظر يا محمد تتابع هذه الحجج والآيات على هؤلاء المشركين لعلهم يفقهون.

فقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ . - قال قتادة: (يقول: من كرب البر والبحر).

قال القاسمي: ﴿ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ ﴾ ، أي: شدائده ، كخوف العدو ، وضلال الطريق. ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ كخوف الغرق ، والضلال ، وسكون الريح. استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتها في الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول. يقال لليوم الشديد: يوم

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955) - كتاب الأدب - باب في تغيير الاسم القبيح ، وأخرجه النسائي في السنن (5387) - وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4145) ، وصحيح سنن النسائي - حديث رقم - (4980).

مظلم ، ويوم ذو كواكب . أي : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

وقوله : ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ منكم إليه واستكانة وجهراً ، ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ ، يقول : وإخفاء للدعاء أحياناً ، وإعلاناً ، وإظهاراً .

وقوله : ﴿ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ أي : من هذه الشدائد ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي : من الطائعين . فوبَّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره بقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وفي التنزيل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْغَيَْةِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمِ رِيحٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . ﴾ [يونس : 22 - 23] .

وفيه كذلك : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] .

وقال في هذه الآية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴾ .

أي : إن الله وحده القادر أن ينجيكم من هذه الظلمات ومن كل كرب وهم وغم دون شفاعة أحد ولا عون ، ثم أنتم بعد ذلك إذا رجعتم إلى الرخاء تشركون ولا تشكرون .

قال القرطبي : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴾ تبرع وتوبيخ ، مثل قوله في أول السورة : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ . لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك ، فَحَسُنَ أَنْ يُفَرِّغُوا وَيُوبِّخُوا عَلَى هَذِهِ الْجَهَةِ وَإِنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ قَبْلَ النِّجَاةِ .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ - فيه أقوال :

1 - قيل ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ عذاب السماء . ﴿ وَمِنْ تَحْتِكُمْ ﴾ الخسف في الأرض .

قال السدي : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ ، عذاب السماء ، ﴿ أَوْ مِّنْ تَحْتِكُمْ ﴾

تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ ﴿﴾ ، فيخسف بكم الأرض). وكذا قال مجاهد: (الخسف).

2- وقيل: (معنى: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الرجم بالحجارة والظوفان والصيحة والريح ، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح). ذكره سعيد بن جبير. ومعنى: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين. واختاره ابن جرير.

3- قيل: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الأمراء الظلمة ، و﴿مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: السفلة وعبيد السوء.

قال ابن عباس: (فأما العذاب من فوقكم ، فأئمة السوء ، وأما العذاب من تحت أرجلكم ، فخدم السوء). وفي رواية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ ، يعني: من أمرائكم ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ ، يعني: سفلتكم).

قلت: والراجع القول الأول وما في معنى القول الثاني ، إذ عليه يدل السياق ، وآيات التنزيل. قال تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا جَنَحُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَهًا يَتَّبِعُكُمْ﴾ [الإسراء: 66 - 69].

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه - باب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية. يلبسكم: يخلطكم من الالتباس. ﴿يلبسوا﴾ يخلطوا. ﴿شيعاً﴾: فرقا. حدثنا حماد بن زيد بن عمرو بن دينار، عن جابر رضي الله عنه قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ ، قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمْ بِأَسْ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا أهون - أو هذا أيسر⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4628) - كتاب التفسير -. ورواه في كتاب التوحيد (7406) ، وأخرجه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (7313) وفي لفظه: (هاتان أهون، أو أيسر). وأخرجه الترمذي (3065)، والنسائي في «التفسير» (184)، وأبو يعلى (1982)، وغيرهم.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَكُمْ شَيْعًا﴾.

أي: أو يخططكم فرقاً ويجعلكم ملتبسين شيعاً متناحرين متخالفين. وفيه أقوال متقاربة:

- 1 - قال ابن عباس: ﴿أَوَلَيْسَكُمْ شَيْعًا﴾: الأهواء والاختلاف.
- 2 - قال مجاهد: (الأهواء المتفرقة). قال: (ما كان منكم من الفتن والاختلاف).
- 3 - قال السدي: (يفرق بينكم). وقال ابن زيد: (الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء، وسفك دماء بعضهم بعضاً).

وقوله: ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

قال ابن عباس: (يسلط بعضهم على بعض بالقتل والعذاب).

وقال السدي: (بالسيوف). وقال مجاهد: (عذاب هذه الأمة أهل الإقرار، بالسيف: ﴿أَوَلَيْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، وعذاب أهل التكذيب، الصيحة والزلزلة). وقال نوف البكالي: ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: هي والله الرجال في أيديهم الحراب، يطعنون في خواصركم).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن عامر بن سعدٍ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يومٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حتى إذا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، دَخَلَ فَرَكِعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، وَصَلِينَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: [سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند جيد عن جابر بن عتيك أنه قال: [جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرفت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهنّ فيه؟ فقلت: نعم. فقال: فأخبرني بهنّ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2890)، كتاب الفتن، وأخرجه أحمد (175/1)، (181/1)، وأبو يعلى (734).

فقلت: دعا بالآل يظهر عليهم عدوؤا من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما ، ودعا بالآل يجعل بأسهم بينهم ، فمَنَعَهَا . قال: صدقت ، فلا يزال الهَرَجُ إلى يوم القيامة⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح ، عن شداد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلِكَ أمتي سَيَبُلُغ ما زُوي لي منها ، وإنني أعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر ، وإنني سألت ربي - عز وجل - ألا يهلك أمتي بسنة بعامة ، وألا يُسلطَ عليهم عدوؤا فيهلكهم بعامة ، وألا يلبسهم شيعاً ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض . فقال: يا محمد ، إنني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد ، وإنني قد أعطيتُك لأمتك ألا أهلِكهم بسنة بعامة ، وألا أسلطَ عليهم عدوؤا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة ، حتى يكونَ بعضهم يهلكُ بعضاً ، وبعضهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يسبي بعضاً . قال: وقال النبي ﷺ: وإنني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يُرَفَع عنهم إلى يوم القيامة⁽²⁾ .

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: [صلى رسول الله ﷺ يوماً صلاة ، فأطال فيها ، فلما انصرف قلنا: يا رسول الله أطلت اليوم الصلاة؟ قال: إنني صليتُ صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله عز وجل لأمتي ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، وردَّ عليَّ واحدة ، سألتُه أن لا يُسلطَ عليهم عدوؤا من غيرهم ، فأعطانيها ، وسألتُه أن لا يهلكهم عَرَقاً ، فأعطانيها ، وسألتُه أن لا يجعل بأسهم بينهم فردَّها عليَّ⁽³⁾ .

وفي رواية عند أحمد: (أن لا يبعث عليهم سنة تقتلهم جوعاً) بدل «عرقاً» .

- (1) إسناده جيد. أخرجه أحمد (445/5)، والطبراني في «الكبير» (1781)، وقال الهيثمي في «المجمع» (221/7): رواه أحمد، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، والله الحمد والمنة).
- (2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (123/4)، والبخاري (3291)، وقال الهيثمي في «المجمع» (221/7): رواه أحمد والبخاري، ورجاله أحمد رجال الصحيح. ولأجزائه شواهد في الصحيح.
- (3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3951)، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم - 1218)، وأخرجه أحمد (240/5)، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير رجاء الأنصاري - قال الذهبي: ما روى عنه سوى الأعمش. لكن له شواهد في المسند (243/5) (247/5) من طريقين. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1724).

ويبدو من مجموع هذه الأحاديث أن ذكر الغرق والسنة محفوظ في أصل الحديث ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرِفُ الْأَيَّتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْكَ ﴾ .

أي : انظر يا محمد كيف نبين لهم الحجج والدلالات ونفسر لهم الآيات لعلمهم يفهمون مقصد هذه الحجج ويتدبرون آفاق هذه الدلالات وما يراد بها من بيان بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي والآثام .

66 - 69 . قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ١٦
لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ١٧ ﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٨ ﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿ ١٩ ﴾ .

في هذه الآيات : يتابع الله تعالى ذكره خطابه لنبىه ، فيقول : وكذب - يا محمد - قومك بما تخبر عن الله من الوحي وتندر ، قل لهم : لست عليكم بحفيظ ولا رقيب ، ولكل خبر مستقر ونهاية ، فيظهر في آخر المطاف الحق من الباطل ويتميز الصدق من الكذب وسوف تعلمون . وإذا رأيت - يا محمد - المشركين المستهترين الذين يخوضون في الوحي وآيات التنزيل هزواً ولعباً فصّد عنهم وجهك وإياك ومجالستهم ، بل قم عنهم واعتزلهم حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم ، وإن أنساك الشيطان أمرنا هذا باجتناّبهم حالة سخريتهم ثم ذكرت ذلك فامثل الأمر فورَ الذِّكْرِى ولا تقعد مع القوم الظالمين . ومن اتقى الله فعظم أوامره واجتنب نواهيه ، وحصل أن جلس ولم يعرض عن مجلس هؤلاء المستهزئين فما عليه من تبعة إثمهم مادام سخط ما كانوا عليه ، ولكن الإعراض هو الأقرب للتقوى - وهو الذي سيستقر عليه الأمر - لعلمهم ينتقون .

فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ١٦ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ١٧ ﴾ .

قال السدي: (كذبت قريش بالقرآن وهو الحق ، وأما ﴿الوكيل﴾ فالحفيظ ، وأما ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ ، فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب).

وقال مجاهد: (﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ ، لكل نبأ حقيقة ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، ما كان في الدنيا فسوف ترونه ، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم).

وقال ابن عباس: (﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، يقول: فعل وحقيقة ، ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة).

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

أي: إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فاجتنب مجلسهم واعتزلهم ، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لجميع المؤمنين. قال القرطبي: (فإن العلة سماع الخوض في آيات الله ، وذلك يشملهم وإياه).

قال مجاهد: (﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ : هم الذين يستهزئون بكتاب الله ، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسى فإذا ذكر قام).

قال ابن العربي: (وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل).

وقال ابن خُوَيْرٍ مَنَاد: (من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر ، مؤمناً كان أو كافراً).

وقال السدي: (كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ ففسبوه واستهزؤوا به ، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره).

قلت: وهذا النهي ينسحب اليوم على أهل الأهواء والبدع فلا يجلس معهم أثناء بدعتهم.

قال الفضيل بن عياض: (من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رَجَوْتُ أن يغفر الله له). وقال: (ومن زَوَّجَ كريمته من مُبْتَدِع فقد قطع رحمها).

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات:

[لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض]⁽¹⁾.

فقوله : «لعن الله من آوى محدثاً» ، أي : مبتدعاً ، وإيواؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له ، واتخاذها جليساً ونديماً ، وتقريبه وتوقيره .

وقوله : ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير الذي فيه تكذيب واستهزاء وسخرية بالشرعية .

وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا يُنِيبُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال أبو مالك : (إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم) ذكره السدي عنه .

وفي التنزيل : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : 140] . أي : لو تابعتهم الجلوس بعد ورود النهي فقد أقررتهمهم على استهزائهم فشاركتهمهم في الإثم .

وكذلك : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ [هود : 113] .

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث سلمة - يوم الحديبية والصلح - قال : [فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فكسحت شوكتها فاضطجعت في أصلها . قال : فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضتهم فتحولت إلى شجرة أخرى...] الحديث⁽²⁾.

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [من كان

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (84/6) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1261) - باب : في من ذبح لغير الله . من حديث علي رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1807) ، كتاب الجهاد ، باب غزوة ذي قرد ، وأخرجه أحمد في المسند (52/4 - 54) من حديث سلمة رضي الله عنه .

يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن نافع ، عن صفية ، عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: [من أتى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عن شيء لم تُقْبَلْ له صلاة أربعين ليلة]⁽²⁾.

وله شاهد عند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [من أتى عَرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ].

وقوله: ﴿وَمَاعَلَى الَّذِينَ يَنْفَقُونَ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ - فيه أقوال:

1 - ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم . قاله سعيد بن جبير .

2 - بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء . وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية ، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ ، قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير .

3 - أي: إذا تجنّبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك ، فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم .

قلت: والقول الثالث أقواها ، أي: إن امثلتم الاجتناب فاعتزلتم القوم الذين استطردوا بالخوض والاستهزاء بآيات الله ، فما عليكم من حسابهم من شيء ، وإن لم تفعلوا وتابعتم الجلوس فقد أشركتموهم في الإثم - كما قال تعالى في آية النساء: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ . وبذلك تكون الآيتان منسجمتين إذ لا دليل على النسخ المزعوم .

وقوله: ﴿وَلَا يَكُنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه ، لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه).

قلت: وهذا تفسير قوي منسجم مع السياق ، ومع ما قبله ، وقد ذكر ابن جرير نحوه

(1) حديث حسن . وهو جزء من حديث أطول ، أخرجه الترمذي (2965) - باب ما جاء في دخول الحمام . من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2230) - كتاب السلام . باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان . وانظر للشاهد صحيح الجامع (5815) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (476/1) لتفصيل البحث .

عن السدي: ﴿وَلَكِنْ ذَكَّرَ﴾ ، يقول: إذا ذكرت فقم ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ﴾ مساءتكم ، إذا رأوكم لا تجالسوهم استحيوا منكم ، فكفوا عنكم).

70. قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ غَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

في هذه الآية: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ في متابعة خطابه: ذر يا محمد هؤلاء الذين حولوا علاقتهم بدينهم إلى اللهو واللعب والاستهزاء ، وقد اغتروا بزينه هذه الحياة الدنيا فآلहतهم وفتنتهم وأنستهم الموت والسؤال والعذاب ، وذكرهم بهذا القرآن وما فيه من الوعيد فلا تبسل أنفسهم بما كسبت من الأوزار فتحبس وتسلم للعذاب ، ثم لا يقبل من أي نفس أبسلت يومئذ ولو جاءت بملء الأرض ذهباً لتفتدي به من الشراب الحميم والعذاب الأليم ، الذي أعد للذين أبسلوا بما كسبوا من الآثام وكانوا يكفرون.

فقوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾.

أي: دعهم واعتزلهم فإنهم بذلك على خطر عظيم.

قال القرطبي: (أي: لا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تَعَنَّتْ وإن كنت مأموراً بِوَعْظِهِمْ).

وقال النسفي: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ سخروا به واستهزؤوا).

وقوله: ﴿وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾.

أي: انحصر اهتمامهم وعلمهم بهذه الحياة الفانية وزينتها.

وقوله: ﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾.

أي: بالقرآن أو الحساب أو الموقف يوم الحسرة والندامة.

وقوله: ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

المعنى كما قال ابن كثير: (لئلا تُبْسَلَ). وقال ابن جرير: (أن لا تبسل). فحذفت لا ، لدلالة الكلام عليها ، كما في قوله تعالى: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ . أي: أن لا تضلوا ، أو كي لا تضلوا. وفي معنى ﴿تبسل﴾ أقوال متكاملة:

1- قال ابن عباس: (تُفْضَح).

2- قال عكرمة والحسن ومجاهد: (تبسل: تُسَلَّم).

3- قال قتادة: (تُحْبَس).

4- وقال مِرَّة وابن زيد: (تؤاخذ).

5- وقال الكلبي: (تجازى).

وكلها أقوال متقاربة متكاملة في بيان المعنى، مفادها كما قال القاسمي: (مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنكار الآخرة).

وأصل الإيسال المنع. يقال: أبسله لكذا: عرضه ورهنه ، أو أسلمه للهلكة. قال الرازي: (أبسله: أسلمه للهلكة).

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

قال النسفي: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ ﴾ ينصرها بالقوة ، ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها بالمسألة). قال: والمعنى: (وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس عادمة ولياً وشفيعاً بكسبها).

وفي التنزيل: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: 254].

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لِيُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾ .

قال قتادة: (لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها).

وقال السدي: (فما يعدلها لو جاءت بملء الأرض ذهباً لتفتدي به ما قبل منها).

وقال ابن زيد: ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ ﴾ ، وإن تفتد ، يكون له الدنيا وما فيها يفتدي بها ، ﴿ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾ ، عدلاً عن نفسه ، لا يقبل منه).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُمْسَكَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا

وَلَوْ أَفْتَدَىٰ بِهِ ۚ **أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ** ﴿٩١﴾ [آل عمران : 91].

وقوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ .

أي : هؤلاء المشار إليهم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وأسلموا للهلاك ولا ناصر ولا شفيع ، إنما أسلموا إلى العذاب والهلاك بسبب اغترارهم بهذه الحياة الدنيا ، وإنكارهم الحساب في الآخرة ، والانهماك في الشهوات المحرمة واستباحتها .

قال القاسمي : ﴿ **لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ** ﴾ . أي : ماء مغليّ يتجرجر في بطونهم ، وتتقطع به أمعائهم ، ﴿ **وَعَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أي : بنار تشعل بأبدانهم ، ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ أي : بسبب كفرهم .

71 - 73 . قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ امْتِنَّا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَهُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿٧٣﴾ .

في هذه الآيات : يقول جلت عظمته لنبيه ﷺ - قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين أفراد الله تعالى بالتعظيم ، العادلين بربهم الأوثان والأنداد ، الداعين لك إلى عبادة آلهتهم والأصنام معهم : أندعو من دون الله حجراً أو خشباً أو خلقاً آخر ضعيفاً لا يملك القدرة على جلب منفعة أو دفع مضرة ، وتترك عبادة الله الواحد الأحد الصمد الذي بيده النفع والضرر والحياة والموت والعز والذل ، ونرد على أذبارنا منتكسين لم نظفر بحاجتنا ولم تجب دعوتنا ، بعد أن لمسنا عز الهداية وأنس القرب من الله ، فنكون في هذا التدلي كالرجل استتبعه الشيطان فهو يمضي في الحياة حيران ، له أصحاب على الحق واستقامة المنهج ينادونه إلى الامتثال وسلوك سبيل النجاة ، وهو يأبى ذلك ويهوي في ضلاله . قل يا محمد لهؤلاء المتخبطين في منهاجهم ذلك : إن طريق الله هو الهدى وأمرنا بلزومه

فهو ينقلنا إلى شاطئ السلامة ودار النعيم والأمن والقرار. وَأَمَرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالتَّزَامِ تَقْوَى اللَّهِ فَإِلَيْهِ الْمَرْدُ وَالْمَالُ وَيَحْشُرُ النَّاسَ إِلَيْهِ جَمِيعاً. إنه وحده - جلت عظمته - الذي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل الذي هو إفراده سبحانه بالتعظيم والعبادة، والأمر يومئذ قوله كن فيكون، فقلوه الحق وله السلطان ولا يشاركه أحد في الآخرة بأمر أو سلطان، فقد انقطع سلطان كل ذي سلطان يوم ينفخ في الصور، ولم يبق إلا أمر الواحد القهار عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير.

فقلوه: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الآية.

قال السدي: (قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، ﷺ). فقال الله تعالى ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، هذه الآلهة، ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، فيكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض. يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «ائتنا، فإننا على الطريق»، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام) - ذكره ابن جرير.

ثم روى عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: (هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: «يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق»، وله أصحاب يدعونه: «يا فلان، هلم إلى الطريق»! فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق).

وعن مجاهد: (في قوله: ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، قال: الأوثان).

وعن قتادة: (﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: أضلته في الأرض حيران).

وقال مجاهد: (رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، فذلك مثل من يضل بعد إذ هدى، وقال: (هذا مثل ضربه الله للكافر، يقول: الكافر حيران، يدعو المسلم إلى الهدى فلا يجيب)).

وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إلى قوله: ﴿لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال قتادة: (علمها الله محمداً وأصحابه ، يخاصمون بها أهل الضلالة).

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾.

كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾. [الزمر: 37].

وكقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: 37].

وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (وأمرنا ربنا ورب كل شيء تعالى وجهه ، لنسلم له ، لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية ، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة).

وقوله: ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. أي: وأمرنا - تعالى ذكره - أن أقيموا الصلاة.

وقوله: ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. أي: يوم الحشر ، يوم الحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

قال القرطبي: (أي: فهو الذي يجب أن يعبد لا الأصنام. ومعنى ﴿بالحق﴾ أي: بكلمة الحق. يعني قوله: ﴿كُنْ﴾).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

قال القاسمي: (بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع. والمراد بـ(القول) كلمة ﴿كُنْ﴾ تحقيقاً أو تمثيلاً).

والتقدير: واذكر يوم يقول كن. أو اتقوا يوم يقول كن ، أو قدّر يوم يقول كن. ذكره القرطبي. فيكون ﴿يوم﴾ قد نُصِبَ على العطف على قوله ﴿واتقوه﴾ - أي: اتقوا يوم يقول كن فيكون. أو على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ - أي: وخلق يوم يقول كن فيكون.

وإما على إضمار فعل تقديره اذكر - أي: واذكر يوم يقول كن فيكون. ذكره ابن كثير. قلت: وكلها من وجوه الإعجاز القرآني يحتملها السياق وتفيد في بسط المعنى وآفاق مفهومه.

وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

قال النسفي: (والمعنى: أنه خلق السماوات والأرض بالحق والحكمة وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أي: لا يكون شيئاً من السماوات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب).

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: [قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ] ⁽¹⁾.

فالصور هو القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام حين يأخذ الأمر من ربه عز وجل. كما قال تعالى: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

وكما قال - جلت عظمتة -: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَّخِيرٌ﴾ [النمل: 87].

يروى البخاري عن ابن عباس: [قال في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النُّاقُورِ﴾ الصور. و﴿الراجفة﴾: النفخة الأولى. و﴿الرادفة﴾: الثانية] ⁽²⁾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت] ⁽³⁾. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل.

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (312/2)، وأبو داود في السنن (4742)، والترمذي في الجامع (3243)، والحاكم في المستدرک (506/2).

(2) حديث صحيح. رواه البخاري في ترجمة باب. انظر تخريج المشكاة (5529). وكتابي: أصل الدين والإيمان (727/2) - بحث النفخ في الصور - لمزيد من التفصيل.

(3) أي: امتنعت عن الجواب لأنني ما أدري ما الصواب.

قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجَبُ الذنب⁽¹⁾، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة⁽²⁾.

فإذا تذكر المسلم هول ذلك اليوم ونفخة الصور قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فقد أخرج الترمذي في جامعه بسند حسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل]⁽³⁾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ إما أن يكون بدلاً من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أو أن يكون ظرفاً لقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾، كما قال جل ذكره: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]. وكقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 26].

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور).

والراجح أن ﴿عالم﴾ صفة لـ ﴿الذي﴾ خلق السماوات والأرض. أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو».

والتقدير: أي وهو الذي خلق السماوات والأرض عالم الغيب. واختاره شيخ المفسرين، وكذلك الإمام القرطبي.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

أي: الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بأعمال عباده وأعمارهم ومستقبلهم بين يديه. قال النسفي: ﴿(وَهُوَ الْحَكِيمُ)﴾ في الإفناء والإحياء. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء).

(1) هو العظم بين الألتين أسفل الصلب، فمنه خُلِقَ - الإنسان - وفيه يركب. ففي رواية لمسلم: [كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب].

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4935)، وأخرجه مسلم (141/2955)، وغيرهما.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2585) - أبواب فضائل القرآن - سورة الزمر.

74 - 79. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا إِلَٰهَةً إِنِّي

أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

في هذه الآيات: يتابع الله سبحانه في ذكر براهين الحق وحجج الدلالة والحكمة ليواجه نبيه ﷺ خصومه المنكرين الجاحدين المشركين - واذكر يا محمد خليلي إبراهيم إذ قال لأبيه أزر معيماً عليه اتخاذ الأوثان آلهة من دون الله ، ومنكراً عليه وعلى قومه باطل ما هم مقيمون عليه من الضلال في العبادة: كيف تعبد - يا أبت - هذه الأصنام وتتخذها رباً دون الله الذي خلقك وسواك ورزقك . وكذلك - يا محمد - بُصِّر - إبراهيم في دينه ، ونريه الحق في ملكوت السماوات والأرض ليكون أحسن العابدين المؤمنين . فلما واره الليل وغيبه أبصر كوكباً حين طلع فقال هذا ربي ، فلما زال وقد علم أن ربه دائم لا يزول قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر قد طلع وسطع قال هذا ربي فلما ذهب قال لئن لم يمن الله عليّ بهدايته لأكونن من الذين أخطؤوا طريق الحق والهدى ، وعبدوا غير الله . فلما رأى الشمس طالعة قال هذا الطالع ربي ، هذا أكبر من الكوكب والقمر ، فلما غابت قال إبراهيم لقومه إني بريء من عبادة الأوثان والأصنام وهذه المخلوقات الزائلة ، بل وجهت وجهي في عبادتي للذي خلق السماوات والأرض وهو الحي لا يموت ولا يزول ولا يفنى ، مخلصاً له الدين وما أنا من المشركين .

فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ﴾

قال السدي: (اسم أبيه أزر).

وكذلك قال محمد بن إسحاق: ﴿أزر﴾ أبو إبراهيم).

قلت: ولا عبرة بكلام آخر غير هذا ، فالقرآن صرّح باسم والد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه ﴿آزر﴾ ، وكذلك صرّحت السنة الصحيحة .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال :

[يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرةٌ ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ! إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزى من أبي الأبعد . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال لإبراهيم : ما تحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيُلقي في النار⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ اَتَّخِذْ أَصْنَامًا لِلَّهِ ﴾ .

أي : تتأله لصنم تصرف له العبادة من دون الله .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أي : إني أراك والقوم السالكين دربك وطريقتك في العبادة تائهين ضالين جائرين عن الحق وعن قصد السبيل .

وفي التنزيل : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَ فِي مَرْبِ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ [مريم : 41 - 48] .

قال ابن كثير : (فكان إبراهيم - عليه السلام - يستغفر لأبيه مُدَّةَ حياته ، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح البخاري (1344) . والفترة : السواد من الكآبة والحزن . والذبح : ذكر الضبع الكثير الشعر . والحديث ذكره الإمام البخاري في كتاب الأنبياء .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال القاسمي: (أي: نطلعه على حقائقهما، ونبصره في دلالتهما على شؤونه عز وجل، من حديث إنهما بما فيهما، مربوبان ومملوكان، له تعالى. ﴿الملكوت﴾ مصدر على زنة المبالغة، كالرهبوت والجبروت، ومعناه: الملك العظيم، والسلطان القاهر. وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

2 - وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185].

3 - وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ بِهِمُ الْآَرْضُ أَوْ شَقِيطٌ عَلَيْهِمْ كَسَفَا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: 9].

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

قال النسفي: (فعلنا ذلك أو ليستدل، وليكون من الموقنين عياناً كما أيقن بيانا).

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾.

أي: ستره بظلمته. قال ابن جرير: (وكل ما توارى عن أبصار الناس، فإن العرب تقول فيه: «قد جنَّ»). ومنه الجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة والجَنَّة. قال القرطبي: (وجنَّ الليل ادلهماؤه وستره).

قال: (ويقال: جنون الليل أيضاً. ويقال: جَنَّة الليل وأجَنَّة الليل، لغتان).

والمقصود: فلما أظلم الليل على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وستره بظلامه ﴿رَمَا كَوْكَبًا﴾. أي: نجماً، والكوكب لغة النجم.

وفي قوله: ﴿رَمَا كَوْكَبًا﴾.

قال النسفي: (أي: الزهرة أو المشتري، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها ليس بإله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن لها محدثاً أحدثها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها).

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾.

قال القاسمي: (إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولاً ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم).

قال الزمخشري: (قول إبراهيم ذلك ، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل. يحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب. ثم يكرر عليه بعد حكايته ، فيبطله بالحجة).

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾. أي: غاب. ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾. قال قتادة: (علم أن ربه دائم لا يزول).

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾. أي: طالعاً منتشر الضوء. وبزغت الشمس إذا طلعت ، وكذلك القمر.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾. على الأسلوب المتقدم. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. قال ابن جرير: (أي: من القوم الذين أخطؤوا الحق في ذلك ، فلم يصيبوا الهدى ، وعبدوا غير الله).

قال النسفي: (نبه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً فهو ضال ، وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الاحتجاج به أظهر ، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب).

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾.

فنصب قوله ﴿بازغة﴾ على الحال ، لأن هذا من رؤية العين. وفي لغة العرب: بزغ وأفل متضادان. بزغ يَبْزُغُ بَزْوَغًا إذا طلع ، وأفل يَأْفُلُ أفولاً إذا غاب.

قال الكسائي: (﴿هَذَا رَبِّي﴾ على معنى: هذا الطالع ربي). وقيل: هذا الضوء.

قال القرطبي: (وقال: ﴿هذا﴾ والشمس مؤنثة ، لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعظمتها ، فهو كقولهم: رجل نسابة وعلامة).

وقال ابن جرير: (﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ ، يعني: هذا أكبر من الكوكب والقمر ، فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه).

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾. أي: غابت. ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال ابن كثير: (فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَنْفَوِّرُ إِنِّي بِرِئٍ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ ، أي: أنا بريء من عبادتهم وموالاتهم، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيْفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: إنما أتوجه بالعبادة وكمال التعظيم لخالق هذه الموجودات والأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدر أمورها ومدبر أحوالها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء في هذا الكون فقير إليه محتاج إلى قوته وقيوميته وتدبيره وتصريفه.

وفي التنزيل: ﴿إِذْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ [الأعراف].

وفي التنزيل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل].

أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، بسند صحيح، عن أبي تيمية عن رجل من قومه، أنه أتى رسول الله ﷺ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلام تدعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابك سنة فدعوته أُنبت لك] (1).

وقد أثنى الله سبحانه على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في غير ما موضع في القرآن:

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4084). ورواه أحمد بسند صحيح. انظر تخريج المشكاة (918)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (242). وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3442).

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٧﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٩﴾ .

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٢٥﴾ .

أخرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةَ عُرَاءٍ غُرْلًا ، ثم قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104] . وأول من يُكسَى يوم القيامة إبراهيم] (1) .

وفي صحيح البخاري أيضاً عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن النبي ﷺ لما رأى الصُّورَ في البيت لم يدخل حتى أمرَ بها فمُحِيتْ ، ورأى إبراهيم وإسماعيلَ عليهما السلام بأيديهما الأزلَامُ فقال: قاتلهم الله ، والله إن استقسما بالأزلام قط] (2) .

وقوله: ﴿ حَنِيفًا ﴾ .

أي: مائلاً عن الأديان الباطلة ، والتصورات الزائفة الزائغة ، إلى الحق القويم ، دين رب العالمين ، ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو يُنصرانه ، أو يُمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء] (3) .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنَفَاءَ ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أخللتُ لهم] (4) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (3349) ضمن حديث أطول - كتاب أحاديث الأنبياء .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (3352) - كتاب أحاديث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام . من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4775) ، ومسلم (2658) ، وأحمد في المسند (253/2) ، والترمذي في الجامع (2138) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2865) ، وأحمد في المسند (266/4) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (653) .

80 - 83. قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَبَلَكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ .

في هذه الآيات: يقول سبحانه: وجادل إبراهيم قومه في إفراده الله سبحانه بالتعظيم وبراءته من أصنامهم ، وكانوا يزعمون أن آلهتهم خير من إلهه ، فقال: أتجادلونني في توحيد الله الواحد الأحد الصمد وقد وفقني برحمته لمعرفة توحيده وإفراده بالعبادة والتعظيم ، ولا أخاف آلهتكم التي تدعونها فما تملك لي ضراً ولا نفعاً ، بل خوفي من الله الذي بيده النفع والضرر ، والرزق والضيق أو النقصان . ثم كيف أُرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم وهو مخلوق ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً وأنتم لا تخافون الله الواحد القهار الذي دان له الكون بكل ما فيه ، فمن الذي هو أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . إن المؤمنين الصادقين في توحيد ربهم وتعظيمه أحق بالأمن ، فالأمن أمن الإيمان ، والهلاك في الشرك وأهله ، وهذه بعض حججنا علمناها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليواجه بقوارعها بهتان قومه وعنادهم ، نختار للمعالي والدرجات من نشاء من عبادنا ، إن الله حكيم حيث يضع رسالته ، عليم بقلوب وأفعال عباده .

فقوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ .

قال ابن جريج: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ ، قال: دعا قومه مع الله آلهة ، وخوفوه بآلهتهم أن يُصيبهُ منها خَبَلٌ ، فقال إبراهيم: ﴿أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ ، قال: قد عرفت ربي ، لا أخاف ما تشركون به).

قال ابن جرير: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقتني وخلق السماوات والأرض ، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو

بقاء ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك ، نالني به ، لأنه القادر على ذلك . ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول: وعلم ربي كل شيء ، فلا يخفى عليه شيء ، لأنه خالق كل شيء ، ليس كالألوهة التي لا تنفع ولا تنفع ولا تفهم شيئاً ، وإنما هي خشبة منحوتة ، وصورة ممثلة ، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يقول: أفلا تعتبرون ، أيها الجهلة ، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون ، من عبادتكم صورة مصورة وخشبة منحوتة ، لا تقدر على ضر ولا على نفع ، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله ، وترككم عبادة من خلقكم وخلق كل شيء ، وبيده الخير ، وله القدرة على كل شيء ، والعالم بكل شيء).

وقوله: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾.

قال محمد بن إسحاق: (يقول: كيف أخاف وثناً تعبدون من دون الله لا يضر ولا ينفع، ولا تخافون أنتم الذي يضر وينفع، وقد جعلتم معه شركاء لا تنفع ولا تنفع).

وقوله: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن جريج: (أمنٌ يعبد رباً واحداً ، أم من يعبد أرباباً كثيرة؟).

قال محمد بن إسحاق: (يضرب لهم الأمثال ، ويصرف لهم العبر ، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبدون من دونه).

قال مجاهد: (قول إبراهيم حين سأله: ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ ، هي حجة إبراهيم ﷺ).

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾.

قال محمد بن إسحاق: (أي: الذين أخلصوا كإخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده، ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي: بشرك ، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ، الأمن من العذاب ، والهدى في الحجة بالمعرفة والاستقامة).

وقال ابن زيد: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ، قال بشرك . قال: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ . فأما الذنوب فليس يبرأ منها أحد).

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

يُظْلَمُ ، قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾⁽¹⁾ .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن علقمة ، عن عبد الله قال : [لما نزلت ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]]⁽²⁾ .

وفي لفظ أحمد : [إنه ليس الذي تعنون ! ألم تسمعو ما قال العبد الصالح : ﴿ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، إنما هو الشرك] .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ .

قال مجاهد : (قال إبراهيم حين سأل : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ ؟ قال : هي حجة إبراهيم ، وقوله : ﴿ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ ، يقول : لقناها إبراهيم وبصرناه إياها وعرفناه) .

وقرأ قراء الكوفة : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ ، في حين قرأها قراء الحجاز والبصرة : ﴿ نرفع درجات مَن نشاء ﴾ . وهما قراءتان مشهورتان متقارب معناهما . قال ابن جرير : (وذلك لأن من رفعت درجته ، فقد رفع في الدرج ، ومن رفع في الدرج ، فقد رفعت درجته . قال : فمعنى الكلام إذن : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ ، فرفعنا بها درجته عليهم ، وشرّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة . فأما في الدنيا فآتيناه فيها أجره ، وأما في الآخرة ، فهو من الصالحين ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ ، أي : بما فعل من ذلك وغيره) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [يا أيها الناس ! إنكم تحشرون

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (32) ، (4629) . وأخرجه مسلم (124) ، وأحمد (387/1) ، وغيرهم . من حديث عبد الله رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (124) - كتاب الإيمان ، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ، ورواه ابن حبان في صحيحه (253) ، وأخرجه ابن مندة (268) ، وغيرهم . وانظر للفظ التالي مسند أحمد (378/1) بإسناد على شرط الشيخين .

إلى الله حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾ . ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى يوم القيامة إبراهيم . . [الحديث (1)] .

وقال القرطبي : ﴿ نَزَعَ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ : أي : بالعلم والفهم والإمامة والملك) .
وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في رفعه وخفضه ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له) .

وقال شيخ المفسرين : (إن ربك ، يا محمد ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ، في سياسته خلقه ، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذبة لهم ، الجاحدة توحيد ربهم ، وفي غير ذلك من تدبيره ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم ، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم ، وهلاكهم على ذلك ، أو إنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله ، والرجوع إلى طاعته) .

84 - 90 . قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْ لَهُمْ أَفْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : اختصاصُ الله سبحانه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذرية فيها النبوة ، منهم ابنه إسحاق ، وابن ابنه يعقوب ، هديناهم لسييل الرشاد ، كما هدينا

(1) حديث صحيح . غُرْلًا أي غير مختونين . انظر مختصر صحيح مسلم (2151) ص (571) . ورواه البخاري في صحيحه (3349) ، ضمن حديث أطول .

نوحاً لذلك من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن . كما هدينا أيضاً من ذرية نوح إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وفضلناهم على العالمين . كما هدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم أمة اخترناها لهذا الدين ، وهذا الهدى توفيق الله ولطفه بمن يشاء من عباده ، ولو أشرك هؤلاء الأنبياء لبطل ما كانوا يعملون ولذهب جزاء ما كانوا يتقربون . وهؤلاء الذين سميناهم من الأنبياء والرسل قد آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها قومك يا محمد ، فقد استحفظناها أولئك الرسل والأنبياء ومن سار معهم على هدايتهم وما كانوا بها كافرين ، وهؤلاء الذين هدى الله من إخوتك الأنبياء والرسل قبلك يا محمد موضع القدوة والأسوة في أمة الدعوة من الخلق أجمعين ، فامض على منهاجهم واصبر على إقامة الحق والدين في الأرض ، وأخبر قومك أنك لا تريد بهذا البلاغ عوضاً فما هو إلا ذكرى للعالمين .

فقوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ .

قال ابن كثير : (يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن ، وأيس هو وامراته «سارة» من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ يَتَوَلَّى ۚ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۚ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [72 - 73] . وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلًا وعقبًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصفافات : 112] . وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة ، وقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] ، أي : ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرئت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يؤتمم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب» ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم - عليه السلام - حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله - عز وجل - عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، تقر بهم عينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَغْتَرَكُم مَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : 49] . وقال ها هنا : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ .

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: وفقناه إلى اتباع منهج الحق قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قال القاسمي: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبله، هديناه كما هديناه. وعدّ هداه نعمة على إبراهيم، من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد. قال ابن كثير: (كل منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض، إلا مَنْ آمَنَ به، وهم الذين صَحِبُوهُ فِي السَّفِينَةِ، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام، لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ - عز وجل - بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...﴾ [العنكبوت: 27] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: 26]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58].

أخرج الإمام أحمد في المسند، والبيهقي في «الأسماء»، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا ﷺ] لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، أمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، أمرك بـ: «لا إله إلا الله» فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنّ حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر. قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكان حستان؟ قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. فيه قولان:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (169/2 - 170)، والبخاري في «الأدب المفرد» (548)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (79)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (134).

القول الأول: وهدينا من ذريته - أي: من ذرية نوح ﷺ هؤلاء الرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام .

قال ابن جرير: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ ، من ذكر نوح . وذلك لأن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطاً فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطاً وَكَلاًّ فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . ومعلوم أن لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم أجمعين . قال: ولكنه من ذرية نوح).

القول الثاني: وهدينا من ذريته - أي: ذرية إبراهيم - هؤلاء الرسل الكرام .

قال ابن عباس: (هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم ، وإن كان فيهم من لم تلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم ، لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم) .

والعرب تجعل العمّ أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿تَعَبُّدُ إِلَهَكَ وَإِلَهُ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: 133] . وإسماعيل عمُّ يعقوب .

قال القرطبي: (وعدّ عيسى من ذرية إبراهيم وإنما هو ابن البنت . فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرية النبي ﷺ . وبهذا تمسك من رأى أن ولد البنات يدخلون في اسم الولد . قال أبو حنيفة والشافعي: من وقف وقفاً على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بناته ما تناسلوا) .

قلت: وفي السنة الصحيحة ما يدل على هذا:

فقد أخرج البخاري من حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: [إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به فتّنين عظيمتين من المسلمين] (1) .

قال ابن كثير: (وعود الضمير - في ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ إلى ﴿نوح﴾ لأنه أقرب المذكورين ، ظاهر . وهو اختيار ابن جرير ، ولا إشكال عليه . وعوده إلى ﴿إبراهيم﴾ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن ، لكن يشكل على ذلك ﴿لوط﴾ ، فإنه ليس من ذرية إبراهيم ، بل هو ابن أخيه ماران بن آزر ، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبا ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعَبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهُ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2704) و(3629) ، وأبو داود (4662) ، وأحمد (49/5) . وأخرجه النسائي (107/3) . والحديث يدل أن بني البنات تدخل في وصية الرجل لذريته .

مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: 133﴾ ، فإسماعيل عمه ، ودخل في آباءه تغليباً . وكما في قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: 30 - 31] ، فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود ، وذم على المخالفة ، لأنه كان قد تشبه بهم ، فعومل معاملةهم ودخل فيهم تغليباً ، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من نور).

قلت : وكلا المعنيين حق ، ويحتملهما السياق ، وإعجاز البيان الإلهي الكريم .
 و(داود) : هو داود بن إيشا . و(سليمان) هو ابنه : سليمان بن داود . و(أيوب) : هو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم . و(يوسف) : هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . و(موسى) : هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب . و(هرون) : هو أخو موسى .
 وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال النسفي : (ونجزي المحسنين جزاء مثل ذلك ، فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف).

وقوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .
 قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته : زكريا بن إدو بن برخيا ، ويحيى بن زكريا ، وعيسى بن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا) . ثم ذكر قولين في إلیاس :
 1 - كان ابن إسحاق يقول : هو إلیاس بن يسي بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران ، ابن أخي موسى نبي الله ﷺ .

2 - وكان غيره يقول : هو إدريس . فعن عبد الله بن مسعود قال : («إدريس» هو «إلياس» ، و«إسرائيل» ، هو «يعقوب» - ذكره بسنده إليه .

ثم قال شيخ المفسرين : (وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون : «إدريس» ، جد نوح بن لملك بن متوشلخ بن أخنوخ ، و«أخنوخ» هو «إدريس بن يرد بن مهلائيل» . وكذلك روي عن وهب بن منبه . والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب . وذلك أن الله تعالى ذكره نسب «إلياس» في هذه الآية إلى «نوح» ، وجعله من ذريته ، و«نوح» ابن «إدريس» عند أهل العلم ، فمحال أن يكون جد أبيه منسوباً إلى أنه من ذريته).

وقوله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

يعني هؤلاء الرسل الكرام: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا﴾ .

المعنى: وكذلك هدينا أيضاً من تلك الذرية ﴿إسماعيل﴾ ، وهو: إسماعيل بن إبراهيم ، ﴿واليسع﴾ ، وهو: اليسع بن أخطوب بن العجوز ، كما ذكر ابن جرير . قال القرطبي: (وتوهم قوم أن اليسع هو إلياس ، وليس كذلك ، لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذكر . وقال وهب: اليسع هو صاحب إلياس ، وكانا قبل زكرياء ويحيى وعيسى) . وقيل: إلياس هو الخضر ، وقيل: بل اليسع هو الخضر ، والله تعالى أعلم . ﴿ويونس﴾ : هو يونس بن متى . ﴿وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: على عالم أزمانهم .

وقوله: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ .

يعني: وهدينا كذلك مما لم نذكر آخرين سواهم من آباء مَنْ سَمَّيْنَا ، وكذلك من ذرياتهم وإخوانهم ، هديناهم للحق والدين الخالص ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ . قال مجاهد: (أخلصناهم) .

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

وهو الدين الحق الذي ارتضاه الله للأنبياء والرسل والعباد .

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ .

أي: هذا التسديد والتوفيق لطاعة الله على منهاج الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - إنما هو شرف يؤتيه الله من يشاء من عباده ، واصطفاء واجتباء منه سبحانه ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعرف بقلوب عباده وحبهم له ولطاعته وإقامة دينه كما قال جل ذكره: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

تحذير من مغبة الشرك وتغليظ لأمره . وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 81] . وكقوله

جل ذكره: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاتٍ لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 17].

فالمعنى: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين ستمهم ربهم فعبدوا معه غيره ، لبطل ثواب عملهم ولذهب الأجر وكان الهلاك . ولكنهم لم يفعلوا فقد كانوا خير البشر بحق ، واستحقوا الاصطفاء بصدق ، فليحذر مغبة الشرك أقوامهم ومن جاء بعدهم من أمة الخلق . فإن الله تعالى لا يحابي أحداً .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعِزُّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذَّبته] (1) .

ورواه الإمام أحمد عنه بلفظ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار] (2) .

ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، فمن نازعني في ردائي قصمته] (3) .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ .

يعني الفهم بالكتاب ، وَفَقَهُ ما فيه من الأحكام والشرائع ، واصطفاء مقام النبوة . والحديث عن الأنبياء والرسل الذين مضى ذكرهم والثناء عليهم ، فقد قاموا بمهمة النبوة والحكم بمنهاج الوحي أحسن قيام - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: إن يكفروا بالقرآن) . والمعنى: فإن يكفر - يا محمد - هؤلاء المشركون من قومك . قال قتادة: (أهل مكة) .

وقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُوا بِهَا كُفْرِيكَ﴾ .

قال قتادة: (أهل المدينة) - يعني الأنصار الذين استجابوا لله والرسول وحرسوا هذا الدين مع إخوانهم من المهاجرين . قال السدي: (إن تكفر بها قريش ، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (35/8 - 36) ، وروى البخاري في الأدب المفرد (552) نحوه . من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (248/2) ، (376/2) ، وانظر سنن أبي داود (4090) ، وسنن ابن ماجه (4174) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (541) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (61/1) وقال: صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4185) .

الأنصار). قال ابن كثير: (أي: إن يكفر بهذه النعم⁽¹⁾ من كَفَرَ بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض ، من عَرَبٍ وعجم ، ومُليين وكتائبين ، فقد وكلنا بها قوما آخرين ، يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ، ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ، أي: لا يجحدون شيئاً منها ، ولا يَرُدُّون منها حرفاً واحداً ، بل يؤمنون بجميعها: مُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهَا ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه).

وقيل: المقصود: الملائكة. وقيل بل المقصود: الأنبياء الثمانية عشر. واختاره ابن جرير.

قلت: والراجح ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير ، من أن المقصود مَنْ يحملُ رسالة النبي محمد ﷺ من أمته بعد استكبار كفار قريش وبعض العرب والملل عن ذلك ، فيشمل المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ومضى على مناهجهم إلى يوم الدين ، من جماعة الحق وطائفة المؤمنين حفظة هذا الدين.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [أكرموا أصحابي فإنهم خياركم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يظهر الكذب ، حتى إن الرجل ليحلف ولا يستحلف ، ويشهد ولا يستشهد ، ألا من سرّه بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة ، فإن الشيطان ثالثهم ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن]⁽²⁾.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾.

قال ابن عباس: (ثم قال في الأنبياء الذين سماهم في هذه الآية: ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾).

والمعنى: هؤلاء أهل الهداية والمراتب الرفيعة عند الله - يا محمد - من إخوانك الأنبياء الذين سبقوك وكانوا على منهاج الحق والنبوة ، فاقتد بهم في الطريق والمنهج فإن دين الأنبياء والمرسلين واحد.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن جريج قال: أخبرني سليمان الأحول: [أن

(1) يعني: النعم السابقة - الكتاب والحكم والنبوة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (177/1) من حديث عمر رضي الله عنه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (431) بلفظ «أحسنوا».

مجاهداً أَخْبَرَهُ: أنه سأل ابن عباس أفي ﴿صَ﴾ سَجْدَةٌ؟ فقال: نَعَمْ ، ثم تلا ﴿ووهبنا﴾ إلى قوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم.

زاد يزيد بن هارون ، ومحمد بن عبيد ، وسهل بن يوسف عن العوام ، عن مجاهد: قُلْتُ لابن عباس ، فقال: نبيكم ﷺ مِمَّنْ أَمَرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿هو منهم﴾ ، قال الحافظ في الفتح (295/8): (أي: داود ممن أَمَرَ نبيكم أن يقتدي به). ومراد ابن عباس - كما ذكر أهل العلم - إثبات سنّة السجود في سورة ﴿صَ﴾ إذ سجد داود عليه السلام.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء أولادُ علّات (وفي رواية: الأنبياء إخوة من علّات) ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد]⁽²⁾.

وبنو العلّات هم أولاد الرجل الواحد من نساء شتى ، لذلك أمرنا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالصلاة عليهم كما نصلي عليه.

فقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد حسن ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني]⁽³⁾.

وله شاهد عند ابن عساكر بسند حسن عن وائل بن حجر ولفظه: [صلوا على النبيين إذا ذكروني ، فإنهم قد بُعثوا كما بُعثت].

فربط الله تعالى منهاج نبينا محمد ﷺ بمنهاج إخوته الأنبياء قبله ، وأمرنا بالصلاة عليهم كلما ذكرناه وصلينا عليه ، فإنهم قد بعثوا جميعاً بدين واحد ومنهج واحد فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4632) - كتاب التفسير ، باب قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3442) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (3443) ، ورواه مسلم في الصحيح (2365) ح (144) (145) ، كتاب الفضائل.

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان». انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3676) ، وللشاهد بعده - حديث رقم - (3675) ، وكذلك انظر تخريج فضل الصلاة - حديث رقم - (42) - الألباني. وروى الخرائطي نحوه.

وقوله: ﴿ قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهٖ أَجْرٌ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

أي: لا أطلب منكم على القرآن جُعلاً ولا أجرة ولا مالا ، بل هو موعظة للخلق ، فمن شاء استفاد من هذه الذكرى واتعظ وتهايا ليوم المعاد ، ودافع الكفر بالصدق واليقين والإيمان .

91 - 92. قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جلت عظمته: وما عظموا الله حق تعظيمه ، وما أجْلَوْه حق إجلاله ، حين قالوا ما أنزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً! فقل يا محمد - لمشركي قومك - : من أنزل التوراة جلاءً وضياءً وبياناً للناس يجعلها حملتها قراطيس - أي: قطعاً - يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ويبدلون ويغيرون ويقولون كذباً هذا من عند الله ، ثم قل لهم يا محمد: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه خبر الأمم التي سبقتكم ، وأنباكم فيه ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم؟! قل الله أنزله بعلمه ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يتخبطون ويلعبون . وهذا القرآن كتاب مبارك أنزله الله سبحانه وختم به الكتب من عنده مصداقاً لما قبله ولتنذر به مكة وما حولها من أحياء العرب وسائر طوائف بني آدم من عرب وعجم ، وكل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب ويحافظ على الصلاة وسائر الفرائض من شعائر هذا الدين .

فقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ .

قال ابن عباس: (ما آمنوا أنه على كل شيء قدير). وقال الحسن: (ما عظموه حق عظمته).

قال القرطبي: (وشرح هذا أنهم لما قالوا: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ نسبوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح ، فلم

يعظموه حق عظمتهم ولا عرفوه حق معرفته). وقال أبو عبيدة: (أي: ما عرفوا الله حق معرفته).

قلت: والخطاب في الآية لقريش ، كما قال ابن عباس: (يعني مشركي قريش). وقيل لليهود ، والأول أرجح. وبه قال ابن جرير ، ورجحه كذلك ابن كثير ، لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما قريش فقد حكى الله ذلك عنهم:

قال تعالى في سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ .
وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ^(٩١) قل لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَكْفُؤُا عَلَى عِلَمِهِ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ هُمْ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يَخْتَفُونَ مِنْ أَفْئِطَةٍ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ ^(٩٢).

وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ .

فقد حاجَّهم سبحانه بقضية معروفة يَعْلَمُونَهَا هُمْ نتيجة صلتهم ومعاملتهم لليهود ، ويعلمها كل أحد ، أن التوراة كتاب من عند الله أنزله على موسى ليستضاء به في كشف الشبهات والظلمات ومحو الجهالات التي كانت في حياة بني إسرائيل .
وقوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَأْتِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

فيه قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿ يَجْعَلُونَهُ قَرَأْتِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ بالياء. وهي قراءة مجاهد.

فالمعنى: أن اليهود كانوا يجعلون التوراة في قراطيس يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ويبدلون حسب الأهواء والمصالح ، حتى أخفوا ما جاء فيها من إثبات نبوة محمد ﷺ ووجوب متابعتة والإيمان معه .

القراءة الثانية: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَأْتِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

والمعنى ، كما قال القاسمي رحمه الله: (فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين. وهو التفات عند الأدباء - حكاه الخفاجي - وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إنزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة في البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان).

قلت: وكلا المعنيين حق يحتمله السياق ، ويقتضيه البيان الإلهي ، فإن كانت هذه الآية مدنية دون سائر السورة ، وعني بالخطاب اليهود ، كان التأويل واضحاً وسهلاً .
وقوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: ومن أنزل القرآن الذي عَلَّمَكُمْ الله فيه من خبر ما سبق ، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آبائكم . وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد: هذه للمسلمين) .

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ .

قال ابن عباس: (أي: قل: الله أنزله) .

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ . تهديد ووعد .

قال القاسمي: (أي: يفعلون فعل اللاعب ، وهو ما لا يجز لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضرراً ، مع تضييع الزمان) .

والمقصود: اتركهم واعتزلهم حتى يأتيهم - وهم في غمرة ضلالهم وجهلهم - اليقين من الله ، وحتى يوقنوا ويعانوا لمن ستكون العاقبة للمتقين أم للجاحدين المستهزئين .
وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

أي: وهذا القرآن كتاب من الله تعالى أنزله مباركاً مصدقاً ما سبقه من الكتب ومهيماً عليها ، وناسخاً لما سلفه من الشرائع السابقة بأحكام استقرت إلى يوم الدين ، ولا يقبل الله من أحد يجحد بهذا الكتاب ولو آمن بكل الكتب السابقة .

وعن ابن عباس: (يعني بـ: ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب) .

وقال قتادة: (﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ ، مكة ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ، الأرض كلها) . وقال: (بلغني أن الأرض دُحِيت من مكة) .

قلت: وأم كل شيء وسطه ومركزه وأصله - هكذا في كلام العرب - ومنه سميت مكة أم القرى لأنها توسطت الأرض .

والخلاصة: لتنذر - يا محمد - أهل مكة - ومن حولها من أحياء العرب وقبائلهم وكذلك من سائر طوائف بني آدم عربهم وعجمهم ، فالكل داخل تحت بلاغ هذا النبي ﷺ ونذارته .

قال تعالى: ﴿لَا نَذْرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ [الأنعام: 19]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَىٰهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ [الأعراف: 158]. وقال جل ذكره: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ قال: [أعطيت خمسا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

المعنى: إن كل مَنْ صَدَّقَ بِالْآخِرَةِ خَافَ الْوَعِيدَ الَّذِي سَيَنْزِلُ بِمَنْ كَذَبَ بِهَذَا الْقُرْآنَ وهذا النبي - عليه الصلاة والسلام - فيحمله هذا الخوف - ولا بد - على الإيمان واليقين ، والمحافظة على الصلاة عمود هذا الدين. قال النسفي: (خصت الصلاة بالذكر لأنها علم الإيمان وعماد الدين فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً).

وقال القاسمي: (وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطراً).

وقال الرازي: (ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 177]. أي: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر⁽²⁾. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام).

أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق ، قال في هذه الآية: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ : (أي: يحافظون على مواقيتها).

ولاشك أن المحافظة عليها تشمل أيضاً المحافظة على أركانها وواجباتها ووضوئها وركوعها وسجودها وخشوعها ، فهي عنوان التزام العبد بهذا الدين وَعَلَمُهُ وعموده.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (335) كتاب التيمم ، وكذلك (438) ، (3122) ، ورواه مسلم.

(2) روى مسلم في صحيحه عن جابر ، قال رسول الله ﷺ: [بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة].. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (204).

